« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ »
« بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ »
[سورة يوسف ٣]

# سيرة الرسول

## صور مقتبسة من القرآن الكريم

## وتحليلات ودراسات قرآنية

---

مؤلفها
محمد عزة دروزه

---

الجزء الثاني

---

مطبعة الاستقامة بالقاهرة
١٣٦٧ — ١٩٤٨

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ »
« بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ »
[سورة يوسف ٣]

# سيرة الرسول

## صور مقتبسة من القرآن الكريم

## وتحليلات ودراسات قرآنية

---

مؤلفها

محمد عزة دروزه

---

الجزء الثاني

---

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

١٣٦٧ — ١٩٤٨

---

تطلب من

المكتبة التجارية الكبرى : شارع محمد على بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

---

[ الطبعة الأولى ]

# عهد السيرة النبوية المدنى

## محتويات هذا القسم

١ - تمهيد

٢ - فصل فى أدوار وسير انتشار الدعوة فى العهد المدنى وصور متنوعة للمسلمين فيه .

٣ - فصل فى اليهود .

٤ - فصل فى النصارى .

٥ - فصل فى المنافقين .

٦ - فصل فى الجهاد .

٧ - فصل فى التشريع .

# تمهيـــد

عهد الاسلام فى المدينة سابق للهجرة - ظروف نشأته - مواكب المهاجرين تسبق النبي - بدء العهد المدنى من السيرة النبوية - ماذا يعنى القرآن المدنى - حيزه بالنسبة لمجموع القرآن وميزاته البارزة - أسلوبه ومغزاه - القرآن المكى يحتوى مبادئ الاسلام والقرآن المدنى يثبتها ويوسعها - استعراض أحداث العهد المدنى حسب مواضيعه بسبب تداخل المواضيع القرآنية - ثبت فى أسماء وترتيب نزول السور المدنية - تنبيه فى صدد ترتيب السور المدنية - فصول العهد المدنى .

— ١ —

إن عهد الإسلام فى المدينة قد بدأ فى الحقيقة قبل الهجرة النبوية ؛ إذ ثبت من الروايات التى لايكاد يكون خلاف فى جوهرها أن النبى صلى الله عليه وسلم اتصل قبل سنتين من هجرته بجماعة من الخزرج فدعاهم إلى الإسلام كما كان يفعل مع وفود العرب فى موسم الحج ، وكانوا يسمعون من اليهود فى المدينة بشارات عن النبى العربى الذى أظلّ وقت بعثته ، وزهواً بأنه سيكون معهم على غيرهم ؛ فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله أنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه ! فأجابوه إلى مادعاهم ، وقبلوا الإسلام . وقالوا له إننا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى الله أن يجمعهم بك ؛ وإلى هذا انطوت الإشارة فى بعض آيات سورتى آل عمران والأنفال هذه :

١ — وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ...
آل عمران ١٠٣

٢ — وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ...
الأنفال ٦٢ - ٦٣

ثم انصرفوا إلى بلدهم ، وعرضوا الأمر على قومهم فارتاحوا ووافقوا ؛ فلما كان العام التالى وافى الموسم جماعة من الأوس والخزرج معاً ، فاجتمعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى مكان يعرف بالعقبة ، وبايعوه على الإسلام ومبادئه ؛ وقد أرسل معهم قارئاً يعلمهم القرآن وأركان الصلاة ويؤمهم فيها ، فأخذ الإسلام يفشو فى المدينة ؛ وفى الموسم التالى جاء وفد كبير من الأوس والخزرج فاجتمع النبى به وطلب منه البيعة على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم إذا هو خرج إليهم ، فبايعوه ، وتسمى هذه البيعة بالعقبة الثانية الكبرى ، وطلب بعضهم منه عهداً بألا يدعهم إذا أظهره الله فيرجع إلى قومه بعد أن يكونوا قد قطعوا حبالهم مع حلفائهم ؛ فهتف بهم قائلا : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . ثم اختار منهم اثنى عشر زعيما فسماهم بالنقباء على بطون قبائلهم ، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، وقد أخذت مواكب المهاجرين من مكة تتحرك إلى المدينة بعد ذلك تاركين وطنهم وأموالهم فى سبيل الله — على ما ذكرناه فى مبحث محنة الأذى والفتنة فى الجزء الأول — فاستقبلهم أهل المدينة بالترحاب العظيم . ولقد احتوت إحدى آيات سورة الحشر إشارة إلى ما كان من تقدم عهد الإسلام فى المدينة على الهجرة ، وما كان من ترحاب أهلها بالمهاجرين السابقين كما ترى فيها :

« وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالإِيمَـٰنَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّـا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... ٩

إذ احتوت صراحة خبر إيمان أهل المدينة وعدهم بلدهم دار هجرة للنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين قبل أن يأتوا من مكة ، مع احتوائها الثناء العظيم على ما كان من إقبالهم على الإسلام بالرضى والطمأنينة ، ومن جعلهم مدينتهم التى نورها الله بالهجرة النبوية وجعلها مشرق شمس الدعوة الإسلامية — دار هجرة للنبى والمسلمين ، ومن ترحيبهم بالمهاجرين هذا الترحيب المادى والمعنوى الرائع .

وقد سماهم الله فى القرآن بالاسم المحبب الكريم وهو « الأنصار » كما جاء فى الآية التالية .

« والسَّـٰبِقُونَ الاوَّلونَ مِنَ الْمُهَـٰجِرِينَ والانصَارِ والَّذِينَ اتبَعُوهُمْ بِإحسَـٰنٍ رَّضِىَ اللهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْهُ ... التوبة ١٠٠

ويلفت النظر إلى جملة « والسابقون الأولون » إذ احتوت تنويهاً بالرعيل الأول منهم الذين أقبلوا على الإسلام واندمجوا فيه ، وبايعوا النبي على نصرته والدفاع عنه فى ظرف كان النبي والمسلمون فيه فى حالة ضعف وضيق ، وكان أعداؤهم أقوياء ألداء ، دون أن يبالوا ما يجره عليهم عملهم من مشاكل وإحن ؛ وهو عمل يستحق كل إكبار وإجلال .

أما عهد السيرة النبوية المدنى فقد بدأ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد سنتين من اتصاله بأهلها ، وفشو الإسلام فيهم ، وهجرة من تمكن من الهجرة من أصحابه إليها ، بالظروف والكيفية التى شرحناها فى مبحث محنة الفتنة والأذى مما لاحاجة إلى إعادته .

- ٢ -

وكما يمثل القرآن المكى العهد المكى ؛ فإن القرآن المدنى يمثل العهد المدنى بطبيعة الحال . وننبه فى هذا الصدد إلى أن هذه الصفة تشمل كل ما جرى من أحداث نبوية بعد الهجرة ولو لم تقع فى نفس المدينة ، كما تشمل كل ما نزل من قرآن بعدها ، إذ نزلت آيات فى طريق الهجرة ، وفصول وآيات فى أثناء الغزوات خارج المدينة ، وفصول وآيات فى مكة أو فى جوارها حين خرج النبي إليها معتمراً مرة وفاتحاً مرة وحاجاً مرة .

والقرآن المدنى هو نحو ثلث القرآن عدد آيات ، وأكثر من ثلثه حيزاً وعدد أجزاء ، ونحو ربعه أو أكثر قليلا عدد سور ، على اختلاف فى مكية ومدنية بعض هذه السور .

وله هو أيضا مميزات بارزة تختلف فيها اختلافاً غير يسير عن القرآن المكى :

١ - فآيات القرآن المدنى فى الجملة أطول من آيات القرآن المكى ، كما أن السجع فيها يقل بل يندر .

٢ - وليس فيه ذلك الإسهاب فى القصص ، ووصف الجنة والنار ، ومشاهد القيامة ، إذ اقتصر الأمر فى هذا وذاك على الإشارة إليها والتذكير والوعد والوعيد بها .

٣ - وقد احتوى حملات شديدة على اليهود المعاصرين ، وأخلاقهم ومواقفهم الماكرة الجاحدة وحجاجهم ، كما احتوى شيئاً من الحملة على النصارى وانحرافاتهم .

٤ - وكذلك احتوى حملات شديدة على المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر ، ووقفوا من النبي والحركة الإسلامية مواقف ماكرة مزعجة .

٥ - وفيه فصول عدة فى الدعوة إلى الجهاد ووقائعه .

٦ - وقد احتوى فصولا تشريعية وتقنينية وتعليمية وتأديبية فى مختلف النواحى . وتبدل أسلوب الحث والتشجيع فى الشؤون الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الذى هو الغالب فى القرآن المكى ، إلى أسلوب الأمر والفرض فى الإجمال .

٧ - ومما احتواه القرآن المدنى فصول عدة عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية ، مما لم يرد شيء عنه تقريباً فى القرآن المكى .

٨ - ومع أنه لم يخل من فصول جدلية ، أو حملات على الكفار فإن أسلوب هذه الفصول والحملات ، وكذلك أسلوب الفصول والحملات على اليهود والمنافقين ومرضى القلوب ، يصطبغ فى الإجمال بأسلوب القوى العزيز الذى أمكنته الفرصة من نفسها ليطهر البيئة من الأدران والانحرافات والمكر والدسائس ، وضمانة الحرية الدينية ، وإعلاء كلمة الله ، وتقرير ماينبغى أن يكون عليه الكيان الإسلامى سياسيا واجتماعيا ، مما هو متسق مع تطور الدعوة وانتشارها ورسوخها ، وتطور مركز النبى والمسلمين بالتبعية من الضعف إلى القوة ، ومن القلة إلى الكثرة ، ومن القلق إلى الاستقرار ، ومن الخوف إلى الامن ، مصداقا لوعد الله فى هذه الآية :

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ... النور ٥٥

وإلى هذا التطور يرجع كذلك ماذكرناه من تبدل الأسلوب فى البند السادس كما هو المتبادر .

وننبه إلى أمر مهم : وهو أن ما كان من تطوّر تشريعى وتعليمى وتأديبى فى مختلف النواحى ، وما كان من تطور فى موقف النبي والمسلمين ، وما كان لهذا التطور من نتائج ، ثم ما كان من تطور أسلوبى فى القرآن ـ لم يكن ليخرج فى جوهره ومداه وخطوطه الأساسية عن مبادئ وأهداف الدعوة المتنوعة التى رسمت فى القرآن المكى ، مما سوف نعود إليه بشيء من الإسهاب فى فصل التشريع .

— ٣ —

والفصول القرآنية المدنية فى المواضيع المتنوعة متداخلة بحيث يوجد شيء من كل موضوع فى مختلف أدوار التنزيل المدنى ، شأنها فى ذلك شأن الفصول المكية ومواضيعها ؛ ولذلك جرينا فى استعراض صور العهد المدنى وأحداثه على الطريقة التى جرينا عليها فى عرض صور وأحداث العهد المكى ، أى على حسب المواضيع مع ملاحظة ظروف وأدوار صور المواضيع الزمنية بقدر ما يمكن أن تلهم الآيات ويستأنس به من الروايات أولا ، ومن ترتيب نزول السور ثانياً ؛ كما فعلنا فى صور ومشاهد العهد المكى .

وقد رأينا أن نضع هنا أيضاً ثبتاً بأسماء السور المدنية على حسب ترتيب نزولها فى مختلف الروايات والتراتيب كما فعلنا فى السور المكية ، ليستعين به القارئ على ملاحظة أدوار الصور والمشاهد ، وهذا هو الثبت :

# ترتيب النزول

| أسماء السور | جابر بن زيد | ابن عباس | الحسين وعكرمة | السيوطي | مجمع البيان | الخازن | مصحف فؤاد | المصحف |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| البقرة | ١ | ١ | ٢ | ١ | ١ | ١ | ١ | ٢ |
| الأنفال | ٣ | ٢ | ٤ | ٢ | ٢ | ٢ | ٢ | ٨ |
| آل عمران | ٢ | ٢ | ٣ | ٣ | ٣ | ٣ | ٣ | ٣ |
| الأحزاب | ٤ | ٤ | ٥ | ٤ | ٤ | ٤ | ٤ | ٣٣ |
| الممتحنة | ٦ | ٥ | ٧ | ٥ | ٥ | ٥ | ٥ | ٦٠ |
| النساء | ؟ | ٦ | ٨ | ٦ | ٦ | ٦ | ٦ | ٤ |
| الزلزلة | ؟ | ٧ | ٩ | ٧ | ٧ | ٧ | ٧ | ٩٩ |
| الحديد | ؟ | ٨ | ١٠ | ٨ | ٨ | ٨ | ٨ | ٥٧ |
| محمد | ؟ | ٩ | ١١ | ٩ | ١٠ | ٩ | ٩ | ٤٧ |
| الرعد | ؟ | ١٠ | ١٢ | ١١ | ١٠ | ١٠ | ١٠ | ١٣ |
| الرحمن | ؟ | ١١ | ١٣ | ١١ | ١٢ | ١١ | ١١ | ٥٥ |
| الإنسان | ؟ | ١٢ | ١٤ | ١٢ | ؟ | ١٢ | ١١ | ٧٦ |
| الطلاق | ؟ | ١٣ | ١٥ | ١٣ | ١٣ | ١٣ | ١٣ | ٦٥ |
| البينة | ؟ | ١٤ | ١٦ | ١٤ | ١٤ | ١٤ | ١٤ | ٩٨ |
| الحشر | ؟ | ١٥ | ١٧ | ١٥ | ١٥ | ١٥ | ١٥ | ٥٩ |
| النور | ٨ | ١٧ | ١٩ | ١٧ | ١٧ | ١٩ | ١٦ | ٢٤ |
| الحج | ٩ | ١٨ | ٢٠ | ١٨ | ١٨ | ٢٠ | ١٧ | ٢٢ |
| المنافقون | ١٠ | ١٩ | ٢١ | ١٩ | ١٩ | ٢١ | ١٨ | ٦٣ |
| المجادلة | ١١ | ٢٠ | ٢٢ | ٢٠ | ٢٠ | ٢٢ | ١٩ | ٥٨ |
| الحجرات | ١٢ | ٢١ | ٢٢ | ٢١ | ٢١ | ٢٣ | ٢٠ | ٤٩ |
| التحريم | ١٣ | ٢٢ | ٢٤ | ٢٦ | ٢٦ | ٢٤ | ٢١ | ٦٦ |
| التغابن | ١٥ | ٢٤ | ٢٧ | ٢٤ | ٢٤ | ٢٧ | ٢٢ | ٦٤ |
| الصف | ١٦ | ٢٥ | ٢٥ | ٢٥ | ٩ | ٢٥ | ٢٣ | ٦١ |
| الجمعة | ١٤ | ٢٣ | ٢٦ | ٢٣ | ٢٣ | ٢٦ | ٢٤ | ٦٢ |
| الفتح | ١٥ | ٢٦ | ٢٨ | ٢٢ | ٢٢ | ٢٤ | ٢٥ | ٤٨ |
| المائدة | ٥ | ٢٧ | ٦ | ٢٧ | ٢٥ | ٣٠ | ٢٦ | ٥ |
| التوبة | ٦ | ٢٨ | ٢٩ | ٢٨ | ٢٧ | ٢٩ | ٢٧ | ٩ |
| النصر | ٧ | ١٦ | ١٨ | ١٦ | ١٦ | ١٨ | ٢٨ | ١١٠ |

١ ـ الإشارة «؟» تعني عدم ورد اسم السورة في الترتيب.

٢ ـ سورة الإنسان في مجمع البيان مكية ورقمها ٦٤.

٣ ـ سورة المطففين في عكرمة والحسين مدنية ورقمها ١.

٤ ـ البينة والزلزلة والإنسان والتغابن والصف والرحمن والحج والرعد والحديد مما ورد روايات بمكيتها، والصف والحديد لاتتحملان هذا البتة، والزلزلة والإنسان والرحمن والحج تتحمله مع الرجحان، والبينة والتغابن يمكن أن تتحملاه ولكن مدنيتها تبدو هي الراجحة.

— ٥ —

وننبه إلى نقطة مهمة ، وهى أن التجوز فى ترتيب نزول السور المدنية أكثر منه فى ترتيب نزول السور المكية ؛ والراجح أن روايات الترتيب مستمدة من روايات نزول الفصل الأول أو الفصول الأولى من السور ؛ وخاصة بالنسبة للطويلة منها . فوحدة الموضوع فى السور المكية ، وتناسب فصولها ، واتساق الأكثر فى النظم ـ يسوغ القول أن السور التى يحتمل أن لا تكون قد نزلت مرة واحدة قد تلاحقت فصولها بحيث يصح الترجيح بانه لم ينزل فصول من سورة أخرى قبل أن تكون فصول السورة السابقة قد تلاحقت وكملت ، فى حين أن هذا لايطرد بالنسبة لكثير من السور المدنية ، فالسور الطويلة منها قد تعددت فيها المواضيع وتنوعت ، وفى بعضها دلالات على أن بعض فصول وآيات سورة متقدمة فى ترتيب النزول قد نزلت بعد فصول وآيات سورة متأخرة ، وبالعكس ؛ ومع أن هذا يبرز فى السور الطويلة أكثر فإنه يلاحظ فى بعض السور المتوسطة ، بل القصيرة أيضاً .

ومع ذلك فإنه ليس من العسير تمييز ذلك ، كما أن هذا لايعطل إمكان الانتفاع من تراتيب نزول السور المدنية بالمرة ، ولا يجرحها بالمرة من حيث الإجمال .

— ٦ —

أما فصول العهد المدنى فهى هذه :

١ ـ سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية .

٢ ـ اليهود فى العهد المدنى .

٣ ـ النصارى فى العهد المدنى .

٤ ـ المنافقون فى العهد المدنى .

٥ ـ الجهاد وسيره ونتائجه .

٦ ـ التشريع القرآنى المدنى ومداه .

وواضح من هذا أن هذه الفصول هى أبرز موضوعية من فصول العهد المكى ؛ مما هو متسق مع طبيعة هذا العهد التى أشرنا إليها قبل ، والتى سنزيدها إيضاحا فى سياق كل فصل .

# فصـــل
# فى أدوار وسير انتشار الدعوة الإسلامية
## فى العهد المـــدنى

### تمهيـــد

قد لا يكون فى القرآن المدنى ـ باستثناء سورة النصر التى نزلت بعد الفتح ونصت بصراحة على دخول الناس فى دين الله أفواجا ـ ما فيه صراحة تساعد على تجلية سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية فى العهد المدنى ، غير أن من الممكن تبين ذلك إلى درجة غير يسيرة من الآيات والفصول القرآنية التى نزلت فى مختلف أدوار التنزيل المدنى ، فى صدد أحداث ذلك العهد ووقائعه التى سوف نستعرضها فى فصولها الخاصة . أما حالة المسلمين الخاصة والعامة فى هذا العهد ، ففى القرآن المدنى من الآيات ما يمكن اقتباس جملة صالحة من الصور لها .

وستكون مباحث هذا الفصل قاصرة من ناحية على سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية بين العرب دون الكتابيين ، ومن ناحية على صور المسلمين دون المنافقين أولا ، وعلى الصور التى لا تتصل بحركة الجهاد وسير التشريع ثانيـاً ؛ لأن كل هـذا سيأتى فى فصوله الخاصة . وهكذا تكون مباحث الفصل كما يلى :

١ — سير وأدوار انتشار الدعوة فى منطقة مكة وماوراءها

٢ — » » » » » المدنية

٣ — صور متنوعة للمسلمين فى العهد المدنى .

# المبحث الأول

## سير انتشار الدعوة فى منطقة مكة وما وراءها

استمرار موقف الجحود فى منطقة مكة بوجه عام إلى صلح الحديبيه ـ احتمال انضمام بعض قبائل هذه المنطقة للاسلام نتيجة لهذا الصلح ـ حوادث التحاق وإسلام فردية قبل هذا الصلح ـ انضمام الأشعريين إلى الاسلام بعد هذا الصلح ومغزاه ـ فتح مكة وتدين أهلها بالاسلام ونتائجه الحاسمة فى انتشار الدعوة فى منطقتها وما وراءها .

— ١ —

يمكن أن يقال استدلالا من أحداث العهد المدنى وما كان من عداء ونضال مستمرين بين النبي والمسلمين من جهة وأهل مكة من جهة أخرى مما احتوى القرآن المدنى إشارات عدة إليه ، إن أهل مكة ومن ظل متأثراً بموقفهم الجحودى والعدائى ـ وخاصة من كان فى منطقتهم من قرى وقبائل ـ قد ظلت أكثريتهم الساحقة جاحدة منقبضة عن الاستجابة إلى الدعوة إلى أن فتحت مكة ودانت للإسلام ، أى إلى السنة الثامنة بعد الهجرة .

يدل على هذا ما كان من تجمع قريش وحلفائها من القبائل العربية ، وزحفهم على المدينة فى السنة الهجرية الخامسة، وهو الزحف العظيم الذى عرف بوقعة الخندق أو الأحزاب ، والذى كان امتداداً لحالة الحرب القائمة بين أهل مكة والنبى صلى الله عليه وسلم ، والتى وقع بسببها اشتباكات يسيرة وكبيرة أهمها وقعتا بدر وأحد ولقد كان المكيون فى الوقعة الأخيرة فى موقف المنتصر ، فرأوا على ما يبدو أن يدعوا إلى حركة زحف كبرى يشترك فيها معهم كل من والاهم وتآمر معهم من حلفاء وأحزاب ليضربوا الضربة القاضية ؛ ودخل فى المؤامرة يهود المدينة أيضاً ؛ وقد كان عدد الجيوش الزاحفة نحو عشرة آلاف ، فى حين كان عدد المدافعين عن المدينة نحو ثلاثة آلاف ، فيهم عدد غير قليل من المنافقين الذين اشتركوا فى الدفاع والتهيؤ له بسائق العصبية والمصلحة الوطنية والقبلية المشتركة .

ولم يتبدل الموقف إجمالا بعد ارتداد الأحزاب عن المدينة بغيظهم دون أن ينالوا خيراً كما ذكرت ذلك إحدى آيات الأحزاب ؛ لأن حالة الحرب والعداء ظلت قائمة إلى مابعد سنتين تقريبا ، أى إلى أن انعقد صلح الحديبية فى أواخر السنة السادسة ؛ وهو الصلح الذى نزلت فيه سورة الفتح .

ومما يجدر التنبيه إليه أنه لم يرد فى الروايات ما يفيد أن جماعة من الناس ممن كان وراء مكة من أهل المناطق الساحلية والجنوبية والشرقية فى الجزيرة قد التحقت بالإسلام وبدار الهجرة قبل هذا الصلح ، غير أن الروايات ذكرت أن هـذا الصلح انتهى - فوق وقف حالة الحرب - إلى تخيير بعض القبائل الساكنة فى منطقة مكة فى الانضمام إلى الفريق الذي يرغبون ، وقد انضمت خزاعة إلى النبى ودخلت فى عهده وصلحه ، فى حين انضم بنو بكر إلى أهل مكة لما كان بين القبيلتين من عداء . وليس من المستبعد إن لم نقل إنه من المرجح أن تكون قبيلة خزاعة قد انضمت إلى النبي عهداً وإسلاماً .

— ٢ —

وإذا كان هذا هو حال الغالبية إلى وقت ذلك الصلح ، والذى استمر على الأرجح إلى فتح مكة ، فإن هناك آيات تدل على أنه كان يلتحق بعض الأفراد بالمدينة ؛ وينضم إلى الإسلام ، ففى سورة الأنفال مثلا الآية التالية :

« والَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وهَاجَرُوا وجَـٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَـٰئِكَ مِنكُمْ وأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ... ٧٥

إذ تضمنت صراحة أن بعض العرب - والفقرة الأخيرة تلهم أنهم مكيون يمتون بالقربى إلى المهاجرين السابقين - قد التحقوا بالنبى صلى الله عليه وسلم مهاجرين مؤمنين ، وأخذوا يشتركون فى الجهاد تحت لوائه . وسورة الأنفال قد نزلت عقب غزوة بدر التى وقعت فى أواخر النصف الأول من السنة الهجرية الثانية ، مما يسوغ القول إن هذه الحركة الفردية قد بدأت مبكرة من العهد المدنى .

وفى سورة الحشر التى نزلت عقب جلاء بنى النضير الذى كان فى أواخر السنة الثالثة

وبعد قليل من وقعة أحد ، الآية التالية

« والَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الذين سَبَقُونَا بِالإِيمَٰنِ ولا تَجْعَلْ فى قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ ءامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ... ١٠

وهذه الآية جاءت بعد آيتين ذكر فى أولاهما مهاجرو قريش السابقون ، وفى ثانيتهما مسلمو المدينة السابقون أيضاً ؛ وهى وإن كانت مطلقة فإنها تحتمل أن يكون المقصود فيها أناسا من أهل المدينة وأناسا من أهل مكة أيضاً .

— ٣ —

ولقد أعقب صلح الحديبية زحف النبي على خيبر ، وهو الزحف الذى أشير إليه إشارة غامضة فى سورة الفتح، أجمع المفسرون على أنه هو المقصود بها فى هذه الآيات :

١ — سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ... ١٥

٢ — وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنْكُمْ ولِتَكُونَ ءايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ويَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا . وأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ... ٢٠ - ٢١

وقد ذكرت روايات معتبرة أن وفداً من الأشعريين اليمانيين جاء إلى المدينة بطريق البحر وأسلم فى ظروف هذا الزحف ؛ وهذا يدل على أن صلح الحديبية قد يسر لهذه الجماعة من أبناء الأنحاء القاصية طريق السير والالتحاق بالإسلام ، وليس من المستبعد إذا لم نقل إنه من المرجح أن تكون جماعات أخرى من منطقة مكة وما وراءها قد اغتنمت الفرصة وحذت هذا الحذو . وفى الروايات أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما قد التحقا بالمدينة وأسلما عقب هذا الصلح .

وبعد ، نحو سنتين من هذا الصلح غزا النبي صلى الله عليه وسلم مكة وفتحها ، ودان أهلها بالإسلام ؛ فكان هذا خاتمة سعيدة لموقف الجحود والعداء الشديد المديد الذى وقفه أهل مكة ، وانهدم بها السور الكثيف الذى كان يتمثل بذلك الموقف ويحول دون انضمام الناس من منطقة مكة وماوراءها إلى الراية الإسلامية ، فلم يلبث أهل هذه المنطقة من قرى وقبائل أن تابعوهم ودانوا بالإسلام ، ولم تلبث أن أخذت وفود مختلف قبائل الجزيرة العربية فى الشرق والجنوب والشمال تفد على رسول الله فى العام التاسع الذى عرف بعام الوفود ، والذى احتوت كتب السيرة أسماء العشرات منهم ، واحتوت أخبار بعثات النبي إلى مختلف منازل هذه الوفود لتعليم القرآن وأركان الإسلام ، وجباية الزكاة وتوزيعها على الفقراء ، مما عبرت عنه سورة النصر تعبيراً قويا يدل على سعة الدائرة والشمول :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا . »

بحيث يمكن أن يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت إلا وقد وصل الاسلام إلى كل ناحية من أنحاء جزيرة العرب ، ووجد فيها جماعات دانت به ، ذلك إلى أن أخباره ودعوته قد تجاوزت الجزيرة شرقا وشمالا وبحراً ، وصار مما يشغل الأفكار ، ويلفت الأنظار ، ويسترعى الأسماع ، وإلى أن أفراداً وجماعات من سكان بلاد الشام ومشارفها ، بل من أهل الحبشة ، قد دانت به فعلا على ماذكرته الروايات المتعددة .

# المبحث الثانى

## انتشار الدعوة فى منطقة المدينة

مدى انتشار الاسلام فى المدينة قبل الهجرة النبوية ـ المنافقون منضمون إلى الاسلام من الوجهة النظرية والمظهرية ـ موقف قبائل منطقة المدينة الجحودى والعدائى إلى ما بعد وقعة الخندق ـ انضمام بعض القبائل بعدها إلى الاسلام ـ تكاثر المنضمين من القبائل قبل الفتح المكى ـ تزايد الانضمام بعد الفتح وشمول الاسلام

ـ ١ ـ

لقد ذكرت الروايات المعتبرة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يهاجر إلى المدينة إلاّ والإسلام قد فشا فيها حتى ما يكاد يخلو بيت منه ، نتيجة لمبايعة فريق كبير من زعماء الأوس والخزرج معاً للنبي ، وإرسال النبي معلماً وقارئاً وداعياً قبله ، وهجرة أكثر المسلمين قبل كذلك .

ولعل آية الحشر (٩) التى نقلناها فى تمهيد القسم الثانى تدعم تلك الروايات بوجه الإجمال ؛ لأنها تنطوى على إلهام بكثرة المثنى عليهم من الأنصار ، بل على إلهام الشمول فى جملة « تبؤوا الدار والإيمان »

ومع أنه مما لا يمكن إغفاله أنه كان فى المدينة فئة من المنافقين ، وأنه كان مندمجاً فيها فريق غير قليل من أهلها ، بل زعمائها أيضاً ، وأن حركة النفاق كانت قوية مزعجة فى مبادئ العهد وظلت كذلك إلى أوائل النصف الثانى منه ، وأن القرآن كثيراً ما وصفهم بالكفر وحكى مواقفهم الكيدية والساخرة والكافرة الخ مما سوف نشرحه فى فصلهم الخاص ـ فإن هذه الفئة من الوجهة النظرية والمظهرية تعتبر منضوية إلى الإسلام أيضا ؛ لأنها كانت تعلن الإسلام ، وتؤكد إيمانها بالله والرسول ، وتنكر كفرها ، وتصلى وتصوم ، وتشترك فى الحركات الجهادية ، وتؤدى الزكاة الخ ما حكاه القرآن عنها أيضاً ولو فى معرض التنديد والتكذيب .

فهذا وذاك يسوغان القول إن عرب المدينة قد دانوا بالإسلام جميعهم على تفاوت السرائر منذ عهد مبكر من الهجرة النبوية .

— ٢ —

أما من حول المدينة من القبائل فإن عدم ذكر الروايات خبر اشتراك أحد منهم في الوقائع الحربية التي وقعت في السنوات الخمس الأولى من الهجرة النبوية إلى جانب المسلمين ، يدل على أنه لم يكن قد انضوى إلى الإسلام منهم أحد إلى السنة المذكورة . وإذا لاحظنا أن وقعة الخندق خاصة كانت زحفاً عظيما متحالفاً ، وأن خبره قد وصل قبل قدومه بمدة ما تمكن المسلمون فيها من حفر الخندق حول المدينة ، لم يعد ثمة محل لورود أي احتمال آخر ، لأنه لو كان هناك مسلمون بمقياس واسع في القبائل المجاورة لكان النبي صلى الله عليه وسلم استنفرهم إلى شد أزر المدينة في دفع الكارثة التي كادت تعصف بها وبالإسلام ، والتي وصفتها ووصفت أثرها الشديد بعض آيات الأحزاب وصفاً قويا كما ترى فيما يلي :

« إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ... ١٠ - ١١

هذا إلى ما احتوته روايات السيرة المعتبرة من أخبار عدد غير يسير من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه ضد قبائل العرب النازله حول المدينة أو في منطقة حدودها ، مما يدل على وقوف هذه القبائل موقف البغي والعداء من المسلمين والحركة الإسلامية .

وكلامنا منصب على الالتحاق الجمعي بالإسلام ، ولا ننفي الالتحاق الفردي به من القبائل والقرى المجاورة للمدينة ، بل نحن نرجح أن مثل هذا الالتحاق قد أخذ يقع منذ الهجرة النبوية ؛ أما بعد وقعة الخندق فالقرآن يلهمنا أن الحال قد تبدل ؛ ففي سورة الفتح التي نزلت كما قلنا عقب صلح الحديبية واحتوت بعض وقائع الرحلة والصلح ، وردت الآيات التالية :

١ — سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم

مِنَ اللهِ شَيْئًا إنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بلْ كانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ والمُؤْمِنُونَ إلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وزُيِّنَ ذَٰلِكَ فى قُلُوبِكُمْ وظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ... ١١ - ١٢

٢ - سَيَقُولُ المُخَلَّفُونَ إذَا انطَلَقْتُمْ إلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُل لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إلَّا قَلِيلًا . قُل لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إلَىٰ قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فإنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وإنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ... ١٥ - ١٦

فهذه الآيات تدل بصراحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا أعراباً لمرافقته فى زيارة الكعبة التى اعتزمها والتى انتهت بعقد صلح الحديبية ، وأنهم تخوفوا أن تكون مشاكل واشتباكات بينه وبين أهل مكة ، وأن تدور الدائرة على المسلمين ، فتهربوا وتخلفوا ثم جاؤوا يعتذرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد عودته موفقاً وقد اعترف به أهل مكة وتفادوا الاشتباك معه .

وقد قال بعض كتاب السيرة الحديثين[1] إن هؤلاء الأعراب المتخلفين لم يكونوا مسلمين ، وإنما كانوا مسالمين أو موالين ، دعاهم النبي ليشهد على براءة قصده فى الزيارة، وعدم تبييته أى نية للقتال ، وقدومه فى زيارة دينية موسمية عامة يشترك فيها عادة جميع العرب على اختلاف أديانهم ومنازلهم . . ولكن الكاتب لم ينتبه على ما يبدو إلى القرائن الحاسمة فى الآيات ؛ إذ تضمنت الآية (١١) طلب الأعراب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، مما لا يمكن أن يكون إلا من مسلمين ، وإذ تضمنت الآية (١٦) أن الله يريد أن يختبرهم فى موقف آخر يقاتلون فيه أعداء أقوياء حتى يدينوا بالإسلام .

---

(١) الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » .

ولا يمكن أن يدعى إلى مثل هذا الموقف إلا مسلمون ، ولقد روى الرواة والمفسرون أن هؤلاء الأعراب قبائل عدة كانت حول المدينة ودانت بالإسلام ، وهي قبائل غفار ومزينة وجهينة وأشجع والنخع وأسلم .

وقد قلنا إن رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى زيارة الكعبة قد كانت فى أواخر السنة الهجرية السادسة ، ومعنى هذا أن هؤلاء الأعراب الذين ذكرتهم آيات الفتح قد دانوا بالإسلام قبل هذه الرحلة حتما .

— ٣ —

والروايات المعتبرة تذكر أن جيش الفتح النبوى لمكة قد بلغ نحو عشرة آلاف ، وأنه كان فيه كثير من فصائل البدو المسلمين ، كأسلم ومزينة وغفار وتميم وقيس وأسد ، إلى جانب المهاجرين والأنصار سكان المدينة . والعدد معقول كما هو المتبادر ، فأهل مكة حينما زحفوا على المدينة فى وقعة الخندق كانوا مع حلفائهم وأحزابهم فى مثل هذا العدد ؛ وقد ظل أهل مكة والطائف وجل القبائل النازلة فى منطقتيهما فى موقف الجحود والعداء للنبي والإسلام ، كما أن الحلف ظل قائما بينهم ، بدليل تجمع ثقيف وهوازن فى ظروف الفتح لنصرة أهل مكة ، ولو أنهم تأخروا أو لم يتمكنوا على ما سوف نذكره فى فصل الجهاد ، فلا يعقل أن يزحف النبي صلى الله عليه وسلم على مكة أم القرى ومحور العرب إلا بعدد ضخم يضمن به النصر .

وهكذا يبدو أن أكثر القبائل التى كانت حول المدينة قد دانت بالإسلام قبل الفتح المكى . وقد احتطنا فى التعميم لأن هناك آيات تلهم أنه كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض القبائل مواثيق صلح مما لا يكون إلا مع غير المسلمين ، وأنه كان منهم أناس حياديون ، إلى آخرين كانوا أعداء محاربين ولأننا لم نستطع أن نجزم بوقت معين لهذا الموقف الذي ذكرته الآيات ؛ وهذه هى :

« إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ

فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . ستجدون ءاخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطنا مبينا ...

النساء ٩٠ - ٩١

وقد قال الرواة أن المعنيين فى الآية الأولى هم بنوأسلم وفريق من بنى مدلج ، وفى الآية الثانية هم أسد وغطفان أو فريق منهم ؛ كذلك ذكرت الروايات أن غطفان كانوا غير مسلمين ، وأنهم حاولوا أن ينصروا أهل خيبر حلفاءهم حينما زحف النبى صلى الله عليه وسلم على خيبر .

وفى سورة التوبة آيات قد تلهم ما تلهم آيات النساء هذه مع إيضاح للوقت أكثر ، وهذه هى :

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ...

١ - ٤

إذ تلهم بصراحة أنه كان هناك مشركون معاهدون إلى ما بعد الفتح المكى ، منهم من ظل وفيا لعهده ، ومنهم من بدا منه الغدر فاستحق إعلان البراءة منه مع إعطائه مهلة أربعة أشهر هى الأشهر الحرم ؛ لأن البراءة قد أعلنت من قبل أمير الحج أو رسول

النبي الخاص ـ على اختلاف الروايات ـ يوم الحج الأكبر ، وهو ما تلهمه الآيات نفسها ، والاستثناء تابع للكلام السابق كما هو ظاهر ، وكل ما فى الأمر أنه ليس من الممكن بالإلهام القرآنى تعيين هوية هؤلاء المعاهدين الغادرين والموفين ، وإن كنا نرجح أنهم من قبائل منطقة المدينة ، لأن القبيلة المشركة التى دخلت فى عهد أهل مكة فى صلح الحديبية وهى بنو بكر قد نقضت العهد مع بنى خزاعة حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم مما كان سبباً مباشرا لغزو مكة وفتحها ؛ فلا يحتمل أن تدخل فى شمول الآيات ، كما أنه لم يرو فيما نعرف أنه كان بين النبى ومشركى مكة ومنطقتها وقبائلها عهد غير عهد الحديبية .

— ٥ —

وفى سورة التوبة آيات مما نزل فى ظروف غزوة تبوك ـ التى كانت بعد الفتح المكى بنحو سنة ـ تذكر الأعراب المسلمين الذين هم فى منطقة المدينة فى صيغة التعميم كما ترى فيها :

١ — وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ٩٠

٢ — وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ... ٩٨ ـ ٩٩

٣ — وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ... ١٠١

٤ — مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ... ١٢٠

وأسلوب الآيات يلهم أن الإسلام قبيل هذه الغزوة كان قد عم جميع الأعراب فى منطقة المدينة ، بغض النظر عن نفاق بعضهم فى إسلامه .

# المبحث الثالث

## صور متنوعة للمسلمين فى العهد المدنى

تفاوت صور المسلمين فى العهد المدنى وتعليله - تصنيف القرآن المسلمين وطبقاتهم - تقسيمهم إلى صنفين - صور الصنف الأول : من سور البقرة وآل عمران والمائدة والتوبة والأحزاب والفتح والحديد والمزمل - صور للصنف الثانى : من سور البقرة وآل عمران والنساء والتوبة ومحمد والحجرات والحديد والمجادلة والممتحنة والجمعة التغابن - غنى المسلمين وفقرهم فى العهد المدنى - إشارات تذكيرية إلى صور متنوعة أخرى فى المباحث الأخرى .

– ١ –

إن الصور التى يمكن اقتباسها من الآيات المدنية للمسلمين فى العهد المدنى متفاوتة أيضا كالصور المقتبسة لهم فى العهد المكى ، وهو تفاوت متسق مع طبائع البشر ، غير أن الصور المدنية أكثر عدداً وتفاوتاً وتنوعاً ، وهذا متصل بطبيعة العهد المدنى الذى اتسع فيه نطاق الإسلام مساحة وعدداً ، وتنوعت فيه الفئات والطبقات من جهة ، والأحداث والمشاكل والرغبات من جهة أخرى .

ولقد صنف القرآن المسلمين فى آيات من سورة التوبة نزلت فى سياق غزوة تبوك ، أى فى السنة الهجرية التاسعة ، تصنيفاً يعبر من دون ريب عن حالة المسلمين وتفاوتهم فى الإيمان والأخلاق فى أواخر العهد النبوى ؛ وهذه هى :

١ – وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ... ١٠٠

٢ – وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ... ١٠١

٣ — وءاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وءاخرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ١٠٢

٤ — وءاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إمَّا يُعَذِّبُهُمْ وإمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... ١٠٦

إذ يستفاد منها أن المسلمين كانوا مؤلفين من هذه الطبقات :

١ — المهاجرين الأولين .

٢ — الأنصار الأولين .

وهاتان الطبقتان كانتا وظلتا مخلصتين كل الإخلاص لله والرسول والإسلام، وفانية فيهم كل الفناء ، وقائمة بواجباتها كل القيام ، فاستحقوا الوصف العظيم المندمج فى جملة « رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

٣ ـ الذين أسلموا بعد الهجرة النبوية ، وحسن إسلامهم وساروا على قدم السابقين المهاجرين والأنصار فى الإخلاص والفناء والقيام بالواجب ، ودخلوا فى شمول ذلك الوصف العظيم أيضاً .

٤ ـ منافقين من أهل المدينة والأعراب متكتمين غير ظاهرى الأمر كما هو شأن المنافقين المشهور أمرهم . والآية تلهم أن النبى لم يكن يجهل سيرة هذا الفريق وسريرته ، ولعل آيات سورة محمد هذه :

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَٰنَهُمْ . ولَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَٰهُمْ ولَتَعْرِفَنَّهُمْ فى لَحْنِ القَوْلِ واللهُ يَعلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ... ٢٩ - ٣٠

مما يمكن أن يكون وصفاً لهذه الفئة وقرينة على أن النبى كان يعرفهم من أقوالهم وتصرفهم .

٥ ـ فريق كانوا يخلطون عملا صالحاً وآخر سيئاً مع إخلاصهم للإسلام .

٦ ـ فريق كان أمرهم غامضاً فى نظر الجمهور ، ولعل أعمالهم وأقوالهم ومظاهرهم كانت متناقضة تدعو إلى الحيرة والتساهل ، ويبدو أنهم كانوا يتظاهرون بالإخلاص ،

كما يبدو أن أمرهم لم يكن خافيا على النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه كان يؤمل غلبة النية الحسنة على السيئة عندهم ، أو كان لا يريد أن يجبههم لانه لم يكن يرى فيهم ضرراً أو بأساً .

والصور التى احتوتها الآيات متصلة بهذا التفاوت والتصنيف ، وسنحاول بقدر الإمكان عرضها مصنفة إلى صنفين : أحدهما خاص بالطبقات الثلاث الأولى، وثانيهما خاص بالطبقات الثلاث الأخرى .

- ٢ -

فأولا صور عن الصنف الأول .

١ - فى سورة البقرة الآيات التالية :

« الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لارَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... ١ - ٥

فقد احتوت صورة مشرقة للمؤمنين المخلصين ، وعمق إيمانهم ، وشعورهم بواجباتهم ؛ وهذه الصورة من الصور الواردة فى القرآن المكى ، ومع أنها وصف عام محبب لمن يتصف بهذه الصفات فإننا نعتقد أنها صورة واقعية للصنف الأول من المسلمين فى العهد النبوى المدنى .

٢ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَٰلِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ الصَّٰبِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ . أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ... ١٥٥ - ١٥٧

وقد تضمنت وصفاً محبباً وثناء عظيما على الفئة المؤمنة المخلصة التى تلقى ما يحل

بها فى سبيل الله بالرضاء والصبر والتسليم ؛ ومع أنها وصف عام فإننا نعتقد كذلك أنهـا صورة واقعية للصنف الأول من المسلمين فى ذلك العهد .

٣ - وفى السورة نفسها الآية التالية :

« ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ واللهُ رَءُوفٌ بالْعِبَادِ ... ٢٠٧

وقد تضمنت صورة واقعية لفئة مخلصة تبيع نفسها فى سبيل مرضاة الله ؛ وهى كذلك بطبيعة الحال من الصنف الأول للمسلمين فى ذلك العهد .

٤ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فى سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فى الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ والنَّهَارِ سِرًّا وعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ... ٢٧٣ - ٢٧٤

وقد احتوت الآية الأولى صورة لفريق من المسلمين وهبوا كل أوقاتهم وأنفسهم لله : عبادة وجهاداً ومرابطة ، وشغلهم هـذا عن طلب الرزق والسعى إليه ، ومع فقرهم وشدة حاجتهم لم يطلبوا من أحد معونة ، وتعففوا حتى ليظنهم الجاهل أغنياء ؛ واحتوت الآية الثانية صورة أخرى لفريق من المسلمين أغنياء ينفقون أموالهم فى الليل والنهار ، فى السر والعلانية .

وكلتا الصورتين مشرقتان باهرتا السناء ، تدلان على قوة إيمان وشدة رغبة فيما عندالله ؛ فهما من صور الصنف الأول فى ذلك العهد .

٥ - وفى سورة آل عمران الآيات التالية :

« وسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَاتُ والْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ

والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ . والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ولَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ من رَّبِّهِمْ وجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ونِعْمَ أَجْرُ العَٰمِلِينَ ... ١٣٣ - ١٣٦

ومع أن الآيات بسبيل بيان أجر المتقين وصفاتهم وأخلاقهم فإن روحها تلهم أنها تنطوى على صورة واقعية للفئة المخلصة ؛ وقد احتوت وصفاً باهرا لأخلاقهم وصفاتهم وتفانيهم فى الله رغبة ورهبة .

٦ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« إِنَّ فى خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ والأَرْضِ واخْتِلَٰفِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِأُولِى الأَلْبَٰبِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَٰمًا وقُعُودًا وعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ويَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ومَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ . رَبَّنَا وءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ولا تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَٰمَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيعَادَ . فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَٰرِهِمْ وأُوذُوا فى سَبِيلِى وقَٰتَلُوا وقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ولَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللهِ واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ... ١٩٠ - ١٩٥

والآية الآخيرة قرينة حاسمة على أن هذه المناجاة الخاشعة الدالة على عمق الإيمان والخشية من الله ، مما كان يصدر مثله من الفئة المخلصة التي تحملت عظيم التضحيات ، وصبرت أجمل الصبر على ما نالها من أذى ، وقاتلت في سبيل الله ؛ والصورة مشرقة كل الإشراق ، سنية كل السناء كما هو واضح .

٧ وفي سورة المائده الآيات التالية :

« إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ ... ٥٥ - ٥٦

وقد احتوت دعوة لبعض المسلمين لتولي الله ورسوله والمخلصين من المؤمنين فإنهم حزب الله الغالب المنصور ، كما احتوت وصفاً لقيامهم بواجباتهم الإسلامية أحسن قيام . وهذه الآيات تدعم التقسيم الذي قسمناه ، وتدل على أنه كان هناك طبقتان ، إذ تدعو الطبقة الثانية إلى التأسي بالطبقة الأولى التي نوهت بإخلاصها وإيمانها

٨ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ . لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... ٨٧ - ٨٩

وقد جاءت هذه الآيات عقب الآيات ٨٢-٨٦ التي نقلناها في مناسبة سابقة والتي فيها وصف آخاذ لخشوع فريق من النصارى وإيمانهم وتصديقهم وثناء عليهم ومنهم القسيسون والرهبان .

وقد روى المفسرون والرواة أن الآيات نزلت بمناسبة اتفاق فريق من كبار الصحابة على الزهد والتنسك وتحريم الاستمتاع بطيب المآكل والمشارب واللذائذ الأخرى ، والسياحة فى الأرض والانقطاع للعبادة ، وأن النبي قد بلغه ذلك فكرهه ولم تلبث أن نزلت الآيات . وورود الآيات عقب الآيات التى فيها وصف مشهد القسيسين والرهبان والثناء عليهم يدعم صحة الرواية ؛ إذ يتبادر أن الذين عزموا العزيمة التى ذكرتها الرواية قد تأثروا بذلك الثناء على تلك الطبقة التى كان أفرادها أو كثيرون منهم منقطعين للعبادة فى الصوامع والأديار المنعزلة ، زاهدين فى لذائذ الحياة ، وأطايب المتع ؛ ولما لم يكن مما استهدفه الإسلام إيجاد طبقة مثلها فى مجتمعه الذى أحلت له الطيبات وحرمت عليه الخبائث ورفع عنه الإصر والتكاليف السابقة اتساقاً مع طبيعة الحياة ونواميسها - حظرت الآيات ذلك .

وعلى كل حال فالصورة التى تضمنتها الآيات والرواية الواردة فى سبب نزولها طريفة حقا ، وتدل على ما كان من استعداد الفئة المخلصة للانصراف عن الطيبات واللذائذ ابتغاء مرضاة الله ، وبالتالى تدل على تفانيها فى الله ومرضاته ودينه .

٩ - فى سورة التوبة الآية التالية :

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٧١

وقد جاءت مقابلة لوصف ما كان من تعاون المنافقين والمنافقات على الإثم والعدوان ؛ وفيها على كل حال صورة قوية لما كان عليه المؤمنون المخلصون من أخلاق حميدة ، وتضامن قوى ، وقيام بالواجبات الإسلامية من تعبدية ومالية واجتماعية . ويلفت النظر خاصة إلى ذكر المؤمنات إلى جانب المؤمنين فى الآيه ، فإن ذلك يلهم قصد التنويه بالمؤمنات خاصة ، وما كان لهن من أثر ودور إيجابيين فى الدعوة والسيرة النبويتين فى العهد المدنى كما كان الحال فى العهد المكى أيضاً .

١٠ - وفى السورة نفسها الآية التالية :

« لَـٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَـٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

وأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَٰتُ وأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... ٨٨

وهذه الآية جاءت كتلك : مقابلة لوصف ما كان من تخلف المنافقين عن الجهاد وختالهم وتثبيطهم ؛ وفيها على كل حال صورة قوية لما كان من إقبال المؤمنين المخلصين على الجهاد بالمال والنفس .

١١ ـ وفى السورة نفسها الآية التالية :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ ... ١١٩ »

وقد وردت فى سلسلة تعقيبية على وقائع غزوة تبوك احتوت إشارات إلى ما كان من صعوبة الحال حيث كاد يزيغ قلوب فريق من المؤمنين ، وجاء بعدها آيات تنبه المسلمين من أهل المدينة والأعراب إلى أنه لا يصح أن يتخلف أحد منهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهذا وذاك يلهمان أن الآية موجهة إلى عامة المسلمين ، وأن القصد من الصادقين هو السابقون الأولون من الانصار والمهاجرين والذين اتبعوهم بإحسان ؛ وهكذا تصف الآية الصنف الأول بهذا الوصف الذى يندمج فيه معان عدة كالصدق والإخلاص والتفانى فى الواجب من جهة ؛ وتدعو عامة المسلمين ، وبالأحرى الصنف الثانى ، إلى اتخاذهم أسوة وقدوة ؛ وفى ذلك إقرار لمكانتهم عند الله ورسوله ، وتوكيد لمعنى التصنيف الذى احتوته الآيات التى نقلناها فى مطلع المبحث . ولقد أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث مفاده : « لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ من أحدهم مده ولا نصيفه » والخطاب موجه إلى المسلمين السامعين ، وهذا يعنى أن المقصود من أصحابه فى الحديث هو المقصود من الصادقين فى الآية ، وهم الصنف الأول من المسلمين حسب تصنيفنا المستلهم من تصنيف القرآن على ما هو المتبادر .

١٢ ـ وفى سورة الأحزاب الآيات التالية :

« إِنَّ الْمُسْلِمِينَ والْمُسْلِمَٰتِ والْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَٰتِ والْقَٰنِتِينَ والْقَٰنِتَٰتِ والصَّٰدِقِينَ والصَّٰدِقَٰتِ والصَّٰبِرِينَ والصَّٰبِرَٰتِ والْخَٰشِعِينَ والْخَٰشِعَٰتِ والْمُتَصَدِّقِينَ والْمُتَصَدِّقَٰتِ والصَّٰئِمِينَ والصَّٰئِمَٰتِ والْحَٰفِظِينَ

فُرُوجَهُمْ والحَـٰفِظَـٰتِ والذَّٰكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا والذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ اللهُ لَهم مَّغْفِرَةً وأَجْرًا عَظِيمًا ... ٣٥

وقداحتوت تنويهاً عظيما بالمخلصين من المسلمين رجالا ونساء ؛ وهى وإن كانت تنوه بكل من يتصف بهذه الصفات فمالا شك فيه أنهاتنطوى على تنويه بطبقة كانت متصفة بها من المسلمين فعلا حين نزولها ، وهى الصنف الأول منهم على ماهو المتبادر .

ويلفت النظر خاصة إلى ذكر النساء إلى جانب الرجال فى جميع الصفات ، وما فى ذلك من قصد تنويهى صريح بالمسلمات المخلصات ، ثم مافى هذا من دلالة على أن من المسلمات من كن من الصنف الأول ، وعلى ما كان للمرأة المسلمة المخلصة من دور إيجابى استحق هذا التنويه الصريح أيضاً .

١٣ - وفى السورة نفسها الآية التالية :

« منَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ماعَٰهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ومِنْهُم مَّنْ يَنْتَظِرُ وما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ... ٢٣

وقداحتوت دلالة صريحة على أن المسلمين كانوا طبقات ، وتنويهاً قويا بأخلاق وثبات الطبقة المخلصة الصادقة منهم ، وصورة مشرقة من صورها .

١٤ - وفى سورة الفتح الآية التالية :

« مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ ورِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فى التَّوْرَٰةِ ومَثَلُهُمْ فى الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَـَٔازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وأَجْرًا عَظِيمًا ... ٢٩

وقوة الثناء والتنويه ملموسة فى الآية ، كما أن الصفات التى وصف بها النبى والذين

معه قوية فى صدد تفانيهم فى الله ورضائه وطاعته ، وفى صدد رأفتهم ورحمتهم بالمؤمنين وشدتهم على الكفار ؛ ونعتقد أن المقصود منهم الصنف الأول من المسلمين ، وقد احتوت الآية صورة وضاءة لهم كما هو ظاهر .

١٥ - وفى سورة الحديد الآيات التالية :

« إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَٰتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ... ١٨ - ١٩

والآيات وإن كانت بسبيل التنويه بالمتصفين بالصفات المذكورة فيها ، فإن روحها تلهم أن فيها صورة مشرقة لفئة كانت متصفة فعلا بها استحقت بسبب ذلك هذه المرتبة العالية ، وهى من الصنف الأول على ماهو المتبادر .

١٦ - فى سورة المزمل الآية التالية :

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ... ٢٠

والآية مدنية على ما عليه جمهور الرواة والمفسرين ، وطابعها المدنى بارز ؛ وقد احتوت صورة مشرقة لما كان من استغراق النبي صلى الله عليه وسلم والطبقة الملازمة له الفانية فيه - فى عبادتهم وتهجدهم مهما نالهم فى ذلك من المشقة ، حتى لقد شاءت حكمة الله أن يخفف عنهم بهذا الأسلوب المحبب الذى انطوى على تنويه عظيم أيضاً .

- ٣ -

وثانياً : صور للصنف الثانى .

١ - فى سورة البقرة الآيات التالية :

« أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ... ١٠٧ - ١٠٩

وتلهم أن بعض المسلمين كانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم أحياناً أسئلة تعجيزية ، أو نامة على شىء من التشكيك فى بعض الأمور الغيبية ؛ والآيات من سلسلة فى حق اليهود ودسائسهم ، وفى هذا دلالة على أن هذه الدسائس كانت تجد أذناً فى بعض المسلمين فتدفعهم إلى بعض المواقف التى تستوجب العتاب ؛ وطبيعى أن هذا إنما يكون من الصنف الثانى من المسلمين ؛ لأن الصنف الأول قد وصف بصفات تدل على إيمانهم القوى التام بالغيب ، وخشيتهم الشديدة من الله ، وتوقيرهم العظيم للنبى ، ومعرفتهم حدودهم ...

٢ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

١ - يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَٰتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ ... ٢٦٤

٢ - يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ . الشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ

وَيَأْمُرُكُم بِالفَحْشَاءِ واللهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ...

٢٦٧ - ٢٦٨

فهذه الآيات وإن كانت فى معرض وعظ وتعليم عامين فإن روحها تلهم أن بعض المسلمين كانوا يمنون على الذين يتصدقون عليهم ويُسمعونهم ما يؤذى ، كما أن بعضهم كان يتصدق بالردىء من الغلة الذى لا يكاد ينفع أحداً ؛ وقد ذكرت الروايات فى سياقها ما يدل على صحة هذا الاستلهام .

٣ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوا إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ... ٢٧٨ - ٢٧٩

وهذه مثل تلك بسبيل الوعظ والتعليم ، وتلهم فى الوقت نفسه بقوة ووضوح أكثر ، أن بعض المسلمين كانوا يتعاطون الربا وكانوا متمسكين به إلى درجة أن اقتضت الحكمة إنذارهم هذا الإنذار القاصم .

وإذا لوحظ أنه قد تقدم هذه الآيات آياتٌ حمل فيها على الربا حملة شديدة ، وسفه فيها قول القائلين إنه كالبيع ، وضحت الصورة أكثر ، ودلت على أن بعض المسلمين ظلوا مستمسكين بربام على رغم الحملة التى يرجح أنها جاءت متقدمة فترة ما على هذه الآيات :

ولقد جاء فى سورة آل عمران نهى مشدّد آخر عن الربا كما ترى :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... ١٣٠ - ١٣٢

وسواء أكانت هذه الآيات أسبق نزولا أو تلك - لأن الروايات فى ذلك مختلفة - فإن تكرار النهى يدل على ما كان من رسوخ العادة وشدة الاستمساك بها على رغم

النهى ؛ وهذا لا يمكن أن يكون من الصنف الأول كما هو المتبادر .

٤ ـ وفى سورة آل عمران الآيات التالية :

« لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فى شَىْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ . قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فى الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ . قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٢٨ - ٣١

والآية الأولى أول مانزل فى النهى عن اتخاذ الكافرين أولياء على الأرجح ، وفيها إنذار لمن يفعل ذلك ؛ وقد احتوت تسويغا لمداراتهم ، مما يلهم أن النهى فى صدد اليهود من حيث الواقع المباشر ، ثم أعقبها تنبيه وإنذار يلهمان أن من المسلمين من كان يرى الاستمرار فى موالاتهم أو كان مستمراً فعلا فى ذلك .

٥ ـ وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَٰتِ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَٰأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَٰبِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا

وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ...

١١٨ - ١٢٠

وفى الآيات نهى آخر عن اتخاذ اليهود أولياء وبطانة وإطلاعهم على أسرار المسلمين ، مما يلهم أن من المسلمين من كان شديد الصلة والاندماج فيهم ؛ وتفصيل ما عليه اليهود من عداء كامن للمسلمين وبغضاء شديدة وتربص سوء بهم ، يدل على تلك الشدة فى الصلة والاندماج ؛ إذ توخى به حملهم على الارعواء عما هم متورطون فيه من خطة ضارة كل الضرر ، مناقضة لواجب كرامة النفس وحفظ الكيان . والراجح أن اليهود كانوا يستغلون هذا الاندماج والصلة فى الدس والتشكيك . وتكرار النهى بهذا الأسلوب يدل على عدم الارعواء والاستجابة للنهى الأول ؛ ولا يمكن أن يصدر كل هذا من الصنف الأول كما هو المتبادر .

٦ ـ وفى سورة النساء الآية التالية أيضا :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ... ١٤٤

والآية من سلسلة فيها حملة على المنافقين باسمهم الصريح لاتخاذهم الكافرين أولياء ، وروح السلسلة تلهم أن المقصود مباشرة هم اليهود ؛ وروح الآية تلهم أنه كان من المسلمين غير المنافقين من ظل يتمسك بولائه لليهود مع ما كان من نهى متكرر ، وهذا مما يدعم ما قلناه آنفا :

٧ ـ وفى سورة النساء الآية التالية :

« إنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ... ٩٧

وتدل على أنه كان هناك فريق من المسلمين استكانوا وبقوا فى مكة ولم يهاجروا وانتحلوا الأعذار الواهية ؛ وننبه إلى أن الآية التى تلت هذه الآية أشارت إلى فريق آخر مستضعف حقا ، وعذرته ، وفى سورة الأنفال آية أخرى تذكر طبقة المتخلفين

عن الهجرة بأسلوب فيه شيء من الملامة ، وإن لم يبلغ من القوة فى ذلك مبلغ آية النساء ؛ وهى هذه :

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِّنْ وَلَٰيَتِهِم مِّنْ شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... ٧٢

وسورة الأنفال نزلت قبل النساء ؛ وعلى هذا تكون آية الأنفال إنذارا أوليا للمتخلفين ، فلما ظل بعضهم متخلفا استحق اللوم والإنذار العنيفين .

٨ — وفى سورة النساء الآيات التالية :

١ — إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَٰكَ اللهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً . وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيماً . وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا . يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا . هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ... ١٠٥ - ١٠٩

٢ — وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا . وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ... ١١٢ - ١١٣

وهذه الآيات تضمنت إشارة إلى حادثة أكملت الروايات صورتها ؛ إذ روى أنها نزلت فى قصة درع لمسلم سرقها مسلم آخر اسمه طعمة وأودعها عند يهودى ، وأن أصحاب الدرع تعقبوا الأثر وسألوا طعمة فأنكرها ، ثم وجدوها عند اليهودى فأخبرهم أنها وديعة طعمة ، فرفعوا الأمر للنبى صلى الله عليه وسلم ، فجاء طعمه مع أهله يؤكدون بسائق العصبية العائلية عدم سرقة صاحبهم وأن اليهودى هو السارق حتى كادوا يقنعونه ويحكم بقطع يد اليهودى ، ثم لم تلبث أن ظهرت براءة اليهودى وذنب طعمة وتضليل أهله . وهكذا تكون الآيات مع الروايات قد انطوت على شىء مما كان يقع من بعض المسلمين الذين لاشك فى أنهم من الصنف الثانى .

٩ - وفى سورة النساء أيضا الآية التالية :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فى الْكِتَـٰبِ أَنْ إذا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إنَّكُمْ إذًا مِّثْلُهُمْ إنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَـٰفِقِينَ والْكَـٰفِرِينَ فى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ...

١٤٠

والآية تلهم أن بعض المسلمين كانوا يترددون على مجالس وحلقات المنافقين ، ويغضون عما يسمعونه من هزء بآيات الله ونقد لها ؛ ويبدو أن صلة المسلمين غير المنافقين بالمنافقين كانت مما لامناص منه ، لأنها ناشئة عن أوشاج القربى وضرورات المصلحة ، بدليل أن الآية إنما نبهت على عدم الاندماج فى جلسة فيها هزؤ وكفر ، وطبيعى أن هذا الاتصال ظل مستمرا طيلة العهد المدنى ، وذلك ما تلهمه الآيات القرآنية العدة فى مختلف أدوار التنزيل ، وفى هذا وذاك صور لما كانت عليه الحال لبعض المسلمين كما هو واضح .

ومهما يكن من أمر فمما لاشك فيه أن التردد على حلقات ومجالس المنافقين والسكوت على هزؤهم بالله ورسوله لايمكن أن يصدر عن الصنف الأول .

١٠ - وفى سورة التوبة الآيات التالية .

« يَـٰأَيُّها الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَاءَ إن

اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَـٰنِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ .
قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ
اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم
مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ
لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَـٰسِقِينَ ... ٢٣ - ٢٤

وروح الآيات تلهم أن أثر العصبية العائلية ظل قويا فى نفوس بعض المسلمين إزاء ذوى قرباهم من الكفار حتى وقت متأخر من العهد المدنى ، لأن هذه الآيات نزلت على الراجح بين يدى الفتح المكى ، وأن هذا كان يؤثر أثراً سلبياً وضاراً فى مواقف المسلمين والحركة الإسلامية ؛ وفى هذا صورة لما كانت عليه حال بعض المسلمين . وهذا التحذير مسبوق بتحذير آخر بأسلوب آخر فى سورة المجادلة التى نزلت قبل هذه الآيات ، مما يدل على أن الأثر السلبي الضار المذكور كان محسوساً منذ العهد الباكر ؛ وهذه آية المجادلة :

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَـٰئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَـٰئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... ٢٢

والآية إلى ما قلناه تدل على أن النهى الوارد فى آيات التوبة موجه إلى الصنف الثانى من المسلمين كما هو واضح ، إذ تنكر أن يواد المخلصون الكفار بأى حال ؛ هذا إلى ما فيها من صورة مشرقة للصنف الأول فى موضوع كان راسخاً عميق الجذور فى نفسية المجتمع العربى وحياته ، إذ استطاعت هذه الفئة أن تتفلت من أثر ذلك وأن تفنى فى الله ورسوله ودينه فناء تاما .

ولقد كانت صلات القربى وعصبيتها القائمة بين المسلمين والكفار والمنافقين مما

يثير أزمات نفسية شديدة فى كثير من المسلمين الذين كان يتألف منهم الصنف الثانى ، وخاصة فى ظروف الحرب ، مما تلهمه آيات عدة سنشرحها فى فصل الجهاد .

١١ ـ وفى سورة التوبة الآيات التالية أيضاً :

« ما كانَ لِلنَّبِيِّ والَّذِينَ ءامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ولَوْ كانُوا أُولِى قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحٰبُ الْجَحِيمِ . ومَا كانَ اسْتِغْفارُ إِبْرٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرٰهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ... ١١٣ - ١١٤

والآيات تدعم مااستلهمناه آنفاً فى صدد أثر العصبية فى نفوس المسلمين ، غير أن الصورة فيها من نوع آخر ، إذ كان الإشفاق على الأعزاء من الموتى من ذوى القربى هو الباعث عليها ؛ والظاهر أن النبي صلى الله عليه وسلم وبعض المسلمين ترحموا واستغفروا لبعض أعزائهم من الموتى ، مجتهدين بالتأسى بابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وليست الصورة خاصة بالصنف الثانى ، كما أنها اجتهاد خلاف الأولى حمل عليه الإشفاق الذى هو عاطفة إنسانية لايخلو منها أحد ، وقد أوردناها كصورة مما كان يقع ليس غير .

١٢ ـ فى سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّمَا الْحَيٰوةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وإِن تُؤْمِنُوا وتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ولا يَسْأَلْكُمْ أَمْوٰلَكُمْ . إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا ويُخْرِجْ أَضْغٰنَكُمْ . هٰأَنتُمْ هٰؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فى سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ومَن يَبْخَلْ فإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ واللهُ الغَنِيُّ وأَنتُمُ الفُقَرَاءُ وإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثٰلَكُمْ ... ٣٦ - ٣٨

وفى الآيات صورة لما كان عليه بعض المسلمين من شح حينما يدعون للإنفاق فى سبيل الله ، وقد احتوت حكمة سامية فى عدم تكليف المسلمين تكاليف مالية عظيمة لئلا يبدو منهم مالا يتفق مع خلق الإسلام الصحيح من الطاعة والسخاء . والصورة لاتقع كما هو ظاهر إلا من الصنف الثانى .

١٣ - فى سورة الحجرات الآيات التالية :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ولا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ولا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ولا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَٰبِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَٰنِ ومَن لَّمْ يَتُبْ فأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ... ١١ - ١٢

وهذه الآيات وإن كانت فى معرض التعليم والتأديب فالمتبادر أن ما نهت عنه مما كان يصدر من بعض فئات المسلمين تجاه بعض ، وفى الفقرة الأخيرة من الآية الأولى قرينة على ذلك ؛ ولقد روى أن الآية نزلت بسبب سخرية بعض الأغنياء من بعض الفقراء ، وبسبب غمز بعض زوجات النبى بعضا ، وبسبب نبز بعض المسلمين مسلمى اليهود والنصارى بالنصرانى واليهودى بعد إسلامهم ، وأن الآية الثانية نزلت بمناسبة إساءة الظن بخازن للنبى صلى الله عليه وسلم وتجسس بعض المسلمين عليه ، وواضح أن كل هذا إنما يحتمل صدوره من الصنف الثانى فى الأغلب .

١٤ - فى سورة الحجرات أيضاً الآيات التالية :

١ — قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَٰنُ فى قُلُوبِكُمْ وإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيم ... ١٤

٢ — يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِين ... ١٧

وفى الآيات صورة لإيمان بعض الأعراب وزهوهم، بل منّهم به ، مع أنه إسلام

ظاهري أكثر مما هو إيمان قلبي ، ولعلهم كانوا يرمون بذلك إلى الحصول على مساعدات ومنافع ؛ ويبدو من روح الآيات أن قبول إسلام الأعراب على هذا الوجه أيضاً مما كانت تسوغه الظروف مع شرط الانقياد والطاعة للرسول ، على اعتبار أن الأعراب لا يستطيعون أن يبلغوا أكثر من ذلك فى بادئ الأمر ، وأن الاستمرار كفيل ببلوغه إلى مداه . على أن فى سورة التوبة بعد آيات فيها حملة على الأعراب المنافقين والمتخلفين عن الجهاد جاءت هذه الآية .

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَٰتِ الرَّسُولِ ... » ٩٩

وقد احتوت مصداق الحكمة التى ألمعنا إليها ، وصورة مشرقة لبعض الأعراب الذين نفذ الإسلام إلى أعماقهم واستشعروا واجبهم ، وإذا لاحظنا أن آية التوبة من أواخر ما نزل بدت لنا الحكمة السامية لذلك ، كما بدت لنا صورة تطورية لإسلام الأعراب فى مدى العهد المدنى أيضاً .

١٥ - فى سورة الحديد الآيات التالية :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ (١) وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَٰتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ... » ٨ - ١٠

والآيات موجهة للمسلمين ، وروحها تلهم أن بعضهم لم يكن عميق الإيمان والتصديق والطاعة لله ورسوله ، كما أن بعضهم لم يكن يقابل الدعوة إلى الإنفاق فى

---

(١) الراجح المستلهم من روح الآية أن القصد من « تؤمنون ، ولتؤمنوا » التصديق بما يؤمرون به والانقياد له .

سبيل الله مقابلة حسنة ؛ فهل كان يظن أن قليل الإنفاق يجزى كما كان الأمر قبل الفتح وفى أيام الشدة ؟

١٦ – وفى السورة نفسها الآية التالية :

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَٰسِقُونَ ... ١٦

الآية احتوت كما تلهمه روحها تنديداً بأولئك الذين لم يكونوا مندمجين كل الاندماج فى الإسلام وواجباته – وخاصة الإنفاق فى سبيل الله – من المسلمين ، والذين كانوا موضوع الآيتين السابقتين . وقد حذرتهم من أن تقسو قلوبهم كما قست قلوب الكتابيين .

ومن الجدير بالتنبيه أن الآيات التالية ١٨ – ١٩ وقد نقلناها فى القسم الأول من هذا المبحث – قد احتوت تنويهاً بالمتصدقين والمتصدقات والمخلصين فى الإيمان ، كما أن الآيات التالية لهذه أيضاً احتوت تهويناً لشأن الحياة والاستغراق فيها ، ودعوة إلى التسابق إلى ما عند الله من عظيم الأجر والمغفرة ، وتنديداً بالبخلاء الذين يأمرون الناس بالبخل كما ترى :

« اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ . سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا

تفرحوا بما ءاتكم والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد ...

٢٠ - ٢٤

مما يدل على أن موقف بعض المسلمين السلبي من الإنفاق في سبيل الله كان موقفاً استحق ذلك .

١٧ - في سورة المجادلة الآية التالية .

« يا أيها الذين ءامنوا إذا تنٰجيتم فلا تتنٰجوا بالإثم والعدوٰن ومعصيت الرسول وتنٰجوا بالبر والتقوىٰ واتقوا الله الذي إليه تحشرون ...

٩

وقد سبقها آية فيها تنديد بالمنافقين الذين كانوا يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ولم ينتهوا عن ذلك على رغم نهيهم عنه ؛ غير أنها تلهم أن من المسلمين من كان يعقد أيضاً مجالس خاصة يتسارون فيها في الأمور العامة ، وكانت أخبارها تصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبدو أنه كان يجري فيها من الأحاديث ما يضر الخوض فيه ، فجاءت الآية محذرة منبهة . وقد روي أن هذه المجالس كانت تعقد على الأكثر في أزمات الحروب ؛ فلعله كان يجري فيها من الحديث ما يفت في أعضاد المسلمين ويثير هواجسهم

١٨ - في سورة الممتحنة الآيات ١ - ٢ التي نقلناهما في مبحث محنة الأذى والفتنة ، وذكرنا ما روي في صددهما من حادث . وفيهما صورة لما كان من حرص بعض المسلمين على اصطناع اليد واستبقاء الروابط بينهم وبين الكفار على رغم الأحداث العدائية الكبرى ، بسائق المحافظة على مصالح مادية لهم في مكة . على أن مما يلفت النظر نص الآية التالية لهما وهي :

« لن تنفعكم أرحامكم ولا أولٰدكم يوم القيٰمة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ...

٣

إذ يلهم أن روابط الأرحام والقربى هي التي كانت تسوق بعض المسلمين إلى موادة

الكفار فى مكة ، وتذهلهم عما يكون لها من ضرر بليغ ؛ وهذه الصورة متصلة بالفقرة التى شرحنا فيها آيات سورة التوبة ٢٣ - ٢٤

١٩ — وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« عَسَى ٱللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً واللهُ قَدِيرٌ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَّا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فى الدِّينِ وأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ وظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ... ٧ - ٩

وروح الآية الأولى تلهم صورة لما كان يعتلج فى نفوس بعض المسلمين ، و بتعبير أدق: المهاجرين، من أمنية ملحة أن تنتهى حالة العداء والتشاد القائمة بين المسلمين ومشركى مكة ، كما أن الآية الثانية تبيح لهم أن يبروا ويقسطوا إلى ذوى النيات الحسنة والمواقف السلمية من غير المسلمين ، والآية الثالثة تشدد الحظر على الولاء لذوى النيات السيئة والمواقف العدوانية ، وتصف من يخالف ذلك بالظلم ، مما يمكن أن يستلهم منه ومما قبله أن ذلك الحكم كان الصورة السابقة أن هذه الفتوى كانت نتيجة لاستفتاء واقعى ، وأمنية ملحة أيضاً ؛ ولقد روى فى صدد الآيات أن إحدى قريبات زوجة من زوجات النبي جاءت لزيارتها فلم تشأ البر بها قبل استئذان النبي وإذنه ؛ غير أننا نرى الآيات أبعد مدى من هذه الحادثة الفردية فى روحها ومضمونها ، وخاصة بسبب مجيئها بعد آيات السورة الأولى التى احتوت الصورة التى ذكرناها . وعلى كل حال ففى الآيات صور لما كان يشعر به بعض المهاجرين نحو أقاربهم وأصدقائهم فى مكة من شعور أليم بسبب حالة العداء ، وما كانت تدفعهم رابطتهم وعاطفتهم إليه من مواقف محرجة تستوجب العتاب والتحذير .

٢٠ — فى سورة الممتحنة أيضاً الآيات ١٠ - ١١ التى نقلناها فى مبحث محنة الأذى ؛ وهي فوق ما احتوته من الصورة التى شرحناها فى ذلك المبحث تلهم

صوراً أخرى متصلة بالمبحث الذى نحن بصدده ، إذ تلهم أن بعض المسلمين المهاجرين ظلوا متمسكين بعصم زوجات كافرات أبين أن يلتحقن بهم إسلاماً وهجرة ، وأن زوجات بعض المسلمين قد فررن بعد الهجرة وعدن إلى مكة أيضا .

٢١ — فى سورة الجمعة الآيات التالية :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانْتَشِرُوا فى الْأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ . وإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَاعِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ ومِنَ التِّجَٰرَةِ واللهُ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ... ٩ - ١١

وفى هذه الآيات صورة لفريق من المسلمين كانوا لايبالون أن يتركوا المسجد وقت صلاة الجمعة والنبى قائم فيهم ، ليسارعوا إلى تجارة وصل إليهم خبرها ، أو لهو بدت لهم أسبابه ؛ وقد روى أنهم كانوا يفعلون ذلك حينما ترد قوافل التجارة من الخارج ، أوحينما تسير مواكب الغناء والزمر ؛ وظاهر أن هذا إنما يكون من الصنف الثانى .

٢٢ — فى سورة التغابن الآيات التالية :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وإِنْ تَعْفُوا وتَصْفَحُوا وتَغْفِرُوا فإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ واللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . فَاتَّقُوا اللهَ مَااسْتَطَعْتُمْ واسْمَعُوا وأَطِيعُوا وأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... ١٤ - ١٦

وقد روى أن الآيات نزلت فى مسلم كان أولاده وزوجته يثبطونه عن الغزو

والإنفاق خشية الموت والفقر ، كما روى أنها نزلت فى جماعة أخرتهم أموالهم وعيالهم عن الهجرة ، فلما وجدوا إخواتهم السابقين قد سبقوهم فقهاً فى الدين وبلاء فى الجهاد هموا بمعاقبة أولادهم وأزواجهم ؛ ومما يلاحظ أن الآية الأخيرة تحث على الإنفاق ، ويستلهم من ذلك أن للإمساك عن الإنفاق دخلا فى هذا الموقف متصلا بثبيط الأولاد والزوجات، وعلى كل حال فنى الآيات صورة لما كان يقع أحياناً من تقاعس بعض المسلمين وتقصيرهم فى واجباتهم بسبب الأزواج والأولاد وحب المال .

ولقد ورد فى سورة الأنفال آية تنبيهية فى هذا المعنى وهى :

« واعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ...

٢٨

وقد جاءت بعد آية فيها نهى للمسلمين عن خيانة الله ورسوله والأمانات ، مما يدل على حدوث واقعة اقترف فيها بعض المسلمين خيانة ما بسبب الأموال والأولاد. ولقد كانت الأموال والأولاد مدار اعتذار حتى عن الجهاد فى بعض الأحيان كما جاء فى آية سورة الفتح (١١) التى شرحناها فى المبحث الأول .

— ٤ —

ولقد كان بين المسلمين أغنياء كما كان فيهم فقراء ؛ كما أن طبيعة العهد قد عادت على كثير من المسلمين بالخير فبدلت فقر كثير منهم غنى على ما يستلهم من آيات عدة من جملة صالحة منها فى صدد التنديد بالشح والبخل والبخلاء والربا والمرابين ، والحث على الإنفاق ، والتنويه بالمنفقين بالليل والنهار والسر والعلن، والتحذير من فتنة المال . وإليك جملة أخرى :

١ — ولا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ولِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ... النساء ٣٢

٢ — ومَن لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ

فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ... النساء ٢٥

٣ – يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ... (١) التوبة ٧٤

٤ – ومنهم من عاهد الله لئن ءاتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما ءاتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ... (١) التوبة ٧٥ - ٧٦

٥ – وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ... النور ٣٢

٦ – وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ... النور ٣٣

٧ – وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شىء قديرا ...
الأحزاب ٢٦ - ٢٧

٨ – ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ... الحشر ٧

---

(١) فى الآيات تنديد بالمنافقين ولكن فيها كذلك صورة لما كان من فضل الله على الناس بسبب طبيعة العهد .

- ٥ -

هذا : ويصح أن يشار هنا إلى ما ذكرناه فى أحد مباحث فصل شخصية النبى صلى الله عليه وسلم من صور سلوكية للمسلمين نحوه مما احتوته آيات مدنية ، لأن لها صلة بهذا المبحث من حيث هى صور عنهم فى العهد المدنى ؛ كما يصح أن يشار إلى الأسئلة والاستفتاءات التى كثر صدورها من المسلمين فى هذا العهد ، وكان كثير من التشريعات القرآنية بمناسباتها على ما سوف نذكره فى فصل التشريع ؛ فإن فى هـذه الأسئلة والاستفتاءات صوراً متنوعة للمسلمين وشؤونهم ومشاكلهم فى هذا العهد ، ودليلا على شعورهم بالطمأنينة والاستقرار ، ثم بالحاجة إلى التفقه فى الدين ، وإقامة مصالحهم وحل مشاكلهم على أسس مستلهمة من أوامر الله وإرشاد النبى وتعليمه ؛ ومثل هذا ما ورد من آيات تأديبية وتعليمية وتشريعية تبدو أنها وردت مباشرة ، ولكن الروايات تذكر وروحها تلهم أنها نزلت بمناسبات ، مما سوف نلم به فى فصل التشريع أيضا ؛ إذ ينطوى فيها صور متنوعة للمسلمين وشؤونهم ومشاكلهم فى هذا العهد كذلك ؛ ويضاف إلى هذا صور عدة أخرى منطوية فى آيات الجهاد وظروفه ووقائعه مما سنلم به فى فصل الجهاد .

# فصـــــل

# فى اليهود فى العهد المدنى

## تمهيـــــد

— ١ —

لليهود فى العهد المدنى شأن كبير متعدد النواحى ، يجعل لهذا الفصل قيمة خاصة ، هذا إلى أنهم من أول من اصطدم مع النبى صلى الله عليه وسلم إن لم نقل أولهم ، ولقد شغلوا فى القرآن المدنى حيزاً واسعاً منذ بدء تنزيله ، وفى سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة بنوع خاص ، عدا غيرها من السور الثانوية . ولعل من الدلائل على أنهم أول من اصطدموا مع النبى ماجاء فى الآيات الأولى من سورة البقرة التى هى أولى السور المدنية فى ترتيب النزول ، والتى يحتمل جدا أن تكون هذه الأولية لها بسبب فصلها الأول الذى منه آيات المنافقين والتى جاء فيها :

« وإذَا لَقُوا الَّذِينَ ءامَنُوا قالُوا ءامَنَّا وإذا خَلَوْا إلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قالُوا إنَّا مَعَكُمْ إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ... ١٤

فقد قال جمهور المفسرين إن شياطينهم هم اليهود ، ويدل هذا على أن اليهود هم الذين أغروا المنافقين بالنفاق أو شجعوهم فى مواقف الخداع ، وعلى أن النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين لم يغب عنهم ذلك .

كما جاء فى فصول السورة المذكورة الأولى ، وفى مطلع الفصول الطويلة فى مواقف اليهود وأخلاقهم خطاب موجه إليهم فى هذه الآيات :

« يَـٰبَنِى إسْرَٰءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وإيَّٰىَ فَارْهَبُونِ . وءامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ولا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ ولا تَشْتَرُوا بِآيَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وإيَّٰىَ

فَاتَّقونِ . ولا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بالبَـٰطِلِ وتَكْتُمُوا الْحَقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمُون ...
٤٠ - ٤٢

وقد أنذرت اليهود وحذرتهم من أن يكونوا أول الكافرين بالقرآن الذى هو مصدق لما معهم ، ومن أن يلبسوا الحق الذى يعرفونه بالباطل ويكتموه ويصدوا عنه ، ويدل هذا الخطاب صراحة على الأولية التى ذكرناها .

— ٢ —

ولقد اتخذ اليهود يثرب والمناطق الواقعة على طريق الشام دار هجرة ومقام منذ أمد بعيد ، وكان لهم كيان بارز ومؤثر بسبب ماكانوا عليه من كثرة العدد ، وسعة الثروة ، والمهارة الزراعية والصناعية والتجارية ؛ ثم بسبب ماكان لهم من مكانة دينية وعلمية مستمدة من أنهم أصحاب كتاب سماوى ، وذوو صلة بالأنبياء والأمم الغابرة وأخبارها على مافصلناه فى كتابنا عصر النبى وبيئته .

وكان السبب الأخير قد جعلهم فى مركز المعلم والمرشد والمرجع ، بل القاضى لسكان يثرب ، على ماتلهمه آيات قرآنية عدة شرحناها فى كتابنا المذكور ، فكان لليهود من ذلك الحرمة والحصانة ، والقوة النافذة والأثر فى حل المشكلات ، وتعليل الحوادث والقضاء فى الخصومات ، والاستمتاع بالكيان والمركز الممتاز ، وقد اندمجوا فى الحياة العربية ، وارتبطوا بمواثيق الحلف مع جيرانهم العرب ، فكان هذا مما زاد مركزهم ورسوخ قدمهم قوة وشدة ، حتى لقد احتاج الأمر إلى تكرار النهى عن موالاتهم مراراً على رغم مابدا منهم من المواقف الجحودية والمريبة والعدائية الضارة .

ومع أنهم ـ على ماأشرنا إليه فى فصل سابق استدلالا من بعض الآيات ـ كانوا يبشرون بمبعث النبى العربى ويستفتحون به على العرب ، ومع أن النبى صلى الله عليه وسلم منذ حل فى المدينة كتب بينه وبينهم عهداً على ماذكرته الروايات المعتبرة وماتدعمه الآيات ، أمنهم فيه على حريتهم الدينية وطقوسهم ومعابدهم وأموالهم وحقوقهم ، وأبقاهم على محالفاتهم مع بطون الأوس والخزرج ، وأوجب لهم النصرة والحماية مشترطاً عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً ولا يمدوا يداً

بأذى[1] - مع هذا فإنهم مالبثوا أن تطيروا من قدومه إلى المدينة ، وأخذوا ينظرون بعين التوجس والخوف إلى احتمال رسوخ قدمه وانتشار دعوته ، واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه بعد ذلك العداء الدموى الطويل الذى كانوا من دون ريب يستغلونه فى تقوية مركزهم ، وخشوا على المركز الذى هم فيه ، والامتيازات الكبيرة التى كانوا يتمتعون بها ويجنون منها أعظم الثمرات .

- ٣ -

ولقد كان ظنهم على مايبدو أن يجعلهم النبي صلى الله عليه وسلم خارج نطاق دعوته ، معتبرين أنفسهم أهدى من أن تشملهم ، وأمنع من أن يأمل النبي دخولهم فى دينه ، وانضوائهم إلى رايته ؛ بل لقد كانوا يرون أن من حقهم أن ينتظروا انضمامه إليهم كما يمكن أن تلهمه هذه الآيات :

١ — وقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصَٰرَىٰ ...[2]
البقرة ١١١

٢ — ولَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ ولا النَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ...
البقرة ١٢٠

٣ — وقالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا ... البقرة ١٣٥

لا سيما حينما رأوه يصلى إلى قبلتهم ، ويعلن إيمانه بأنبيائهم وكتبهم بلسان القرآن ، ويجعل ذلك جزءاً لايتجزأ من دعوته ، ويتلو فيما يتلوه :

١ — أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ...[3] الأنعام ٩٠

٢ — ولَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ فَلاَ تَكُنْ فى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ وجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَٰءِيلَ . وجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا

(١) ابن هشام . ج٢ ص ٩٦ - ٩٨
(٢) هذه الآية والآيتان الأخريان هى من سلسلة فى اليهود وذكر النصارى استطرادى على مايتبادر
(٣) هذه الفقرة من سلسلة ذكر فيها عدد كبير من أنبياء بنى إسرائيل ونوه بهم .

وكانُوا بِآيٰتِنا يُوقِنُونَ ... السجدة ٢٣ - ٢٤

٣ — شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ما وَصّىٰ بِهِ نُوحًا والَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وما وَصَّيْنا بِهِ إِبْرٰهِيمَ ومُوسَىٰ وعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...
الشورى ١٣

٤ — ولَقَدْ ءاتَيْنا بَنِى إِسْرٰءِيلَ الكِتٰبَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ورَزَقْنٰهُم مِّنَ الطَّيِّبٰتِ وفَضَّلْنٰهُمْ عَلَى العٰلَمِينَ ... الجاثية ١٦

٥ — ءامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ والمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءامَنَ بِاللهِ ومَلٰئِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ... البقرة ٢٨٥

فخاب ظنهم ورأوه يدعوهم في جملة الناس ، بل يختصهم بلسان القرآن أحياناً بالدعوة ويندّد بهم لعدم إسراعهم إلى استجابتها ، ولموقفهم منها موقف الانقباض ثم موقف التعطيل والتناقض ، كما جاء فى آيات البقرة ٤٠ - ٤٢ التى نقلناها وكثيراً غيرها مما سوف نورده وخاصة هذه الآية التى تندّد بتناقضهم .

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنتُمْ تَتْلُونَ الكِتٰبَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ... البقرة ٤٤

فكان هذا على ما هو المتبادر باعثا على تنكرهم للدعوة وحقدهم على صاحبها منذ الخطوات الأولى من العهد المدنى ؛ ثم رأوا الناس قد أخذوا ينصرفون عنهم ، ويتخذون النبى مرجعهم الأعلى ، ومرشدهم الأعظم ، وقائدهم المطاع ، فاستشعروا حقا أو باطلا الخطر العظيم يحدق بمركزهم وامتيازاتهم ومصالحهم إذا هم أرادوا أن يستمسكوا بكيانهم الخاص ، ويظلوا على يهوديتهم ، ولا يندمجوا فى الدعوة الإسلامية ؛ فكان هذا عاملا على اندفاعهم فى خطة التنكر والحقد والتآمر والصدّ والتعطيل إلى نهايتها .

- ٤ -

ولقد كان من المتوقع على ما تلهمه الآيات المكية والمدنية أن يجد النبي صلى الله عليه وسلم في اليهود سنداً وعضداً ، وأن يكونوا أول من يؤمن به ويصدقه ويلتف حوله ، لما كان بين دعوته وأسس دينهم من وحدة ، ولما احتواه القرآن من تقريرات متنوعة وكثيرة بأنه مصدق لما بين يديه ، وبأنه محتو حل المشاكل والخلافات التي يتعثر فيها اليهود ، وباستشهادهم خاصة والكتابيين عامة على صحة رسالته استشهاداً ينطوي على الثقة فيهم والتنويه بهم ، وتقرير وحدة الحزبية بينهم ؛ ولما رآه من حسن استجابة الكتابيين وفيهم أناس من بني إسرائيل إلى دعوته ، واندماجهم فيها ووقوفهم منها موقف المصدق المؤيد على ماذكرناه وأوردنا آياته الملهمة في فصل الكتابيين من العهد المكي ؛ فلما رأى منهم مارآه من الانقباض أولا والتنكر والصد وكتم الحق وإلباسه بالباطل عن علم ثانياً ، تأثر تأثراً عميقاً من خيبة أمله فيهم ردّدته آيات القرآن على ما سوف نورده بعد .

- ٥ -

وقوة الدور الذي قام به اليهود ، وشدة نكايته وبعد أثره ، تبدو من خلال الفصول والحلات القرآنية المدنية ؛ سواء أكان ذلك في مؤامراتهم مع المنافقين وتشجيعهم - حتى ليمكن أن يقال إنهم هم الذين أوجدوهم بما بثوا ونموا فيهم من الريب والشكوك ، وبما أيقظوا فيهم من روح التمرّد والكيد وغذوها ؛ وإن المنافقين لولاهم لما نموا وقووا وثبتوا وكان منهم ذلك الأذى البالغ والكيد الشديد - أو في تحالفهم مع القرشيين أعداء النبي والمسلمين الأشداء الأصليين ، وتألبهم معهم ومظاهرتهم لهم حربيا ، وتثبيتهم إياهم في كفرهم ؛ أو في اضطلاعهم بأذى النبي والمسلمين مباشرة ، وإقامة العثرات في طريقهم ، والكيد والمكر والدس لهم ، والجحود والحجاج والسخرية بهم ؛ فلم يكن ثمة بد للنبي صلى الله عليه وسلم من التنكيل بهم ذلك التنكيل الحازم الذي كان فيه نهايتهم والذي نستعرض صوره القرآنية بعد .

وممـا يجدر أن ننوه به للدلالة على ما كان لموقف اليهود وعدائهم من تأثير سلبي في

سير الدعوة وانتشارها ، وفى مركز النبي والمسلمين ؛ ومن تأثير إيجابى فى قوة أعداء النبي والإسلام-أنهم لم يكادوا يتوارون عن مسرح المدينة نتيجة لذلك التشكيل حتى ضعف أولا أمر المنافقين وصار أمرهم إلى ماوصفتهم بعض آيات التوبة : « ويَحْلِفُونَ باللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وما هُم مِنْكُمْ ولَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْـهِ وهُمْ يَجْمَحُونَ » بعد أن بلغ من شعورهم بعزتهم وقوتهم وكثرتهم أن حرضوا الناس على النبي وصحبه وقالوا كما حكته آية فى سورة المنافقون : « لا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا » وإن أقسموا ليخرجن الأعز الأذل من المدينة ، مستشعرين أنهم هم الأعز كما حكته آية أخرى فى السورة المذكورة : « يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْها الْأَذَلَّ »

وخفت ثانياً غلواء زعماء قريش ولم يعودوا يفكرون فى قتال المسلمين وغزوهم

وتزايد ثالثاً عدد المستجيبين للدعوة والمنضوين إلى لواء النبي صلى الله عليه وسلم تزايداً عظيما

وبلغ الأمر رابعاً إلى أن يرى النبي أن لا بأس فى الرحلة إلى مكة للزيارة ومعه جمع كبير من المسلمين ، وإلى أن يجنح زعماء قريش إلى مهادنته والسماح له بالزيارة فى العام القابل ، وإلى أن يصبح النبي من القوة بحيث يغزو مكة بعشرة آلاف مقاتل ويفتحها ويوطد بذلك الوحدة الإسلامية العربية . كل هذا لأن العدو الذى كان بين ظهرانى المسلمين ، وكان شديد المكر والكيد قد زال من الطريق ، ولم يعد المنافقون يجدون من يشجعهم أو يزيد لهيبهم إذا خبا ، كما لم يعد العرب يجدون من يشككهم فى الحق ويصدهم عن الهدى ، ولم يعد أهل مكة يجدون فى يثرب الأعوان والعيون والطاعنين من الوراء طعن الغدر والخيانة .

— ٦ —

ومن العجيب المعجز أن يقرأ المرء اليوم آيات القرآن المدنية فى أخلاق اليهود بوجه عام ، وعاداتهم ومكايدهم ودسائسهم وأنانيتهم ، وزهوهم وتبجحهم ، واستحلالهم

لكل ما فى أيدى الغير ، وضنهم بأى شىء مفيد للغير ، وعدم إخلاصهم فى محبة أو موقف ولاء للغير ، وحسدهم لأى نعمة ينالها الغير ، وتدبيرهم لكل وسيلة مهما دنأت وفجرت وكان فيها كفر وفسق ، ونقضهم لمبادئ الدين والعهد فى سبيل مكايدة الغير وتهديمه وسلب ما ناله من نعمة وخير ، وتشجيعهم لكل حائد وحاسد ومنافق ودساس ومتآمر .. الخ ماسنورده فى مباحث هذا الفصل مما قرر القرآن أنه جبلة فيهم يتوارثه الأبناء عن الآباء فاستحقوا عليه يمين الله :

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ ... »[1] الأعراف ١٦٧

وجازاهم عليه بتشريدهم فى مشارق الأرض ومغاربها :

« وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى الْأَرْضِ أُمَمًا ... » الأعراف ١٦٨

وتحقق ذلك القسم البار بما وصفه القرآن من واقع حالهم فى عهد النبي وقبله :

« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ...

آل عمران ١١٢

... ثم ينظر المرء إليهم اليوم فيكاد يرى إجمالا صورة طبق الأصل : جبلة خاصة ، وترفع عن الاندماج الصادق مع من يعيشون معهم من الأمم وأهل الأوطان ، ودس ومكر وكيد ، وجحود وحجاج ولجاج ، وندب وعويل بدون مبرر ، وشره شديد إلى ما فى أيدى الغير ، ومحاولة للاستيلاء على الكل ، والتأثير فى الكل ، واللعب فى وقت واحد على كل حبل وفوق كل مسرح ، والتوسل بكل وسيلة إلى الغاية التى يريدون ، وعداء لكل الناس وخداع لهم وسخرية منهم ، وتهديم لكل بنيان وكيان ونظام فى كل مكان وزمان ، وتسخير لكل قوة فى سبيل مآربهم وأنانيتهم وكيدهم وعدائهم ، وقسوة متناهية فى أعدائهم حين يتمكنون منهم ؛ هذا إلى استمرار مصداق آيتى الأعراف والنساء فى كافة أنحاء الأرض التى تقطعوا فيها ، فلا تجدهم فى أرض

---

(١) هذه الآية من سلسلة آيات مدنية .

إلا والعين مزورة منهم ، والسخط فائر عليهم ، والنفوس متبرمة بهم ، والناس مستثقلون ظلهم ، راغبون فى التخلص بأية وسيلة منهم ، وجاعلون الحذر منهم أساس صلاتهم بهم ، بسبب تلك الأخلاق المتوارثة فيهم جيلا عن جيل ، والتى يلمسها الناس فيهم بكل شناعتها وسوآتها ؛ وليس هذا اليوم فحسب ، فإنه لكذلك منذ عهد النبى وعلى امتداد القرون المتطاولة ومن قبل الناس جميعاً ، بل من قبل عهد النبى على ما دمغتهم به أسفار العهد القديم وحوادث التاريخ ، مما لا يمكن تعليله إلا بتلك الجبلة الخاصة التى جلبت عليهم ما جلبت منذ أقدم الأزمنة إلى الآن ...

- ٧ -

هذا ؛ والفصول القرآنية المدنية فى اليهود كثيرة ومتنوعة كما قلنا ؛ وقد رأينا أن نستعرضها فى مجموعات موضوعية أو مباحث مستقلة كما يلى :

١ - موقفهم إزاء الدعوة بالذات .

٢ - مواقفهم الحجاجية .

٣ - دسائسهم بين المسلمين وتآمرهم مع المنافقين والمشركين .

٤ - وقائع التنكيل بهم وبواعثها ونتائجها .

٥ - الاستثناءات القرآنية بشأن المؤمنين المعتدلين منهم ومغزاها .

# المبحث الأول

## مواقف اليهود إزاء الدعوة

صراحة الآيات عن عدم مقابلة اليهود للدعوة مقابلة حسنة ـ فصول سورة البقرة في تذكيرهم والتنديد بهم بسبب ذلك ـ دلالات أسلوب هذه الفصول ومضامينها ـ أسلوب آخر هادئ في القرآن المدني في دعوة أهل الكتاب إطلاقا .

— ١ —

١ ـ إن آيات البقرة ٤٠ ـ ٤٤ التي نقلناها من قبل ، والتي هي أول مانزل بشأن اليهود ومن أوائل مانزل من القرآن المدني على الأرجح ـ صريحة الدلالة على أن اليهود لم يقابلوا الدعوة الإسلامية مقابلة حسنة . ويلفت النظر خاصة إلى مافيها من نهي لهم عن أن يكونوا أول كافر بالقرآن ، وعن إلباس الحق بالباطل وكتم الحق وهم يعرفونه ، ثم إلى السؤال الاستنكاري عن أمرهم الناس بالبر وعدم سيرهم فيه ؛ ففي كل هذا دلالات على تلك المقابلة أولا ، ثم على بدو أمارات وقوفهم منها موقف الجحود والتعطيل ثانياً .

٢ ـ ولقد تبع هذه الآيات سلسلة طويلة تضمنت تذكيرهم بما كان من نعمة الله السابقة على آبائهم ، ثم بما كان من عناد هؤلاء الآباء ومواقفهم المتمردة والحجاجية والتعجيزية من أنبياء الله وأوامره ووصاياه ، وما كان من نكال الله بهم الخ ؛ ثم تضمنت تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن عدم ارعواء الأبناء وصلاحهم وتبديل الجبلة الخلقية التي ورثوها من أولئك الآباء الذين كانو يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه ، والذين مالبثوا أن كفروا وارتدوا إلى عبادة العجل ، ثم انتقلت إلى اليهود المعاصرين ثانية تندّد بهم لما بدا منهم من نفاق وتحريف ، وكيد ودس ، وغرور وحسد وجحود وتناقض الخ ... نقتطف منها الآيات التالية :

١ ــ يَـٰبَنِي إِسْرَٰءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَـٰلَمِينَ . واتَّقوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ولا يُقْبَلُ مِنْهَا

شَفَـٰعَةٌ ولا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ولا هُمْ يُنْصَرُونَ . وإذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ
ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَـذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ وفى ذَٰلِكُمْ بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ . وإذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ
فَأَنْجَيْنَـٰكُمْ وأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وأَنتُمْ تَنظُرُونَ . وإذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰ
أَرْبَعِينَ لَيْـلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ . ثُمَّ عَفَوْنَا
عَنكُم مِّنْ بَعْـدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وإذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الكِتَـٰبَ
وَالفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ... ٤٧ - ٥٣

٢ — وإذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ
الصَّـٰعِقَةُ وأَنتُمْ تَنظُرُونَ ... ٥٥

٣ — وإذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـٰذِهِ القَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَسَنَزِيدُ
المُحْسِنِينَ . فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيـلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ... ٥٨ - ٥٩

٤ — وإذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وقِثَّائِهَا وفُومِهَا وعَدَسِهَا وبَصَلِهَا
قالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فإنَّ لَكُم
مَّا سَأَلْتُمْ وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ وبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَـٰتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَٰلِكَ
بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ... ٦١

٥ — وإذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ ورَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَـٰكُمْ

بِقُوَّةٍ واذكُرُوا مافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ لَكُنْتُم مِّنَ الْخَٰسِرِينَ . ولَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فى السَّبْتِ فقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ . فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وما خَلْفَهَا ومَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ... ٦٣ - ٦٦

٦ — وإذْ قالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قالَ أَعُوذُ باللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ . قالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا ماهِىَ قالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ . قالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَالَوْنُهَا قالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّٰظِرِينَ . قالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَاهِىَ إنَّ الْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ . قالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ لَّاذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ ولا تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّاشِيَةَ فِيهَا قالُوا الْـَٰٔنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا ومَا كَادُوا يَفْعَلُونَ . وإذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فادَّٰرَءْتُمْ فِيهَا واللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . فقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ اللهُ الْمَوْتَىٰ ويُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وإنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَٰرُ وإنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وإنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ومَا اللهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ... ٦٧ - ٧٤

٧ — أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَاعَقَلُوهُ وهُمْ يَعْلَمُونَ . وإذا لَقُوا الَّذِينَ

ءامَنُوا قالُوا ءامَنَّا وإذا خَلاَ بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ قالُوا أتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أفَلاَ تعْقِلُونَ . أوَ لا يَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ومَا يُعلِنُونَ . ومِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتَٰبَ إلَّا أمَانِيَّ وإنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَٰبَ بِأيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ ووَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ . وقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلَّا أيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ... ٧٥ - ٨٠

٨ — وإذْ أخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِي إسْرَٰءِيلَ لا تَعْبُدُونَ إلَّا اللهَ وبِالْوَٰلِدَيْنِ إحْسَانًا وذِي القُرْبَىٰ واليَتَٰمَىٰ والمَسَٰكِينِ وقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وأقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وءاتُوا الزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وأنْتُم مُّعْرِضُونَ . وإذْ أخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ولا تُخْرِجُونَ أنفُسَكُمْ مِّنْ دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أقْرَرْتُمْ وأنْتُمْ تَشْهَدُونَ . ثُمَّ أنْتُمْ هَٰؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أنفُسَكُمْ وتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإثْمِ والعُدْوَٰنِ وإنْ يَأْتُوكُمْ أسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إخْرَاجُهُمْ أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَٰبِ وتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ويَوْمَ القِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إلَىٰ أشَدِّ العَذَابِ ومَا اللهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ... ٨٣ - ٨٥

٩ — ولَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الكِتَٰبَ وقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وءاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَٰتِ وأيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ القُدُسِ أفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ

بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . وقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ . ولَمَّا جاءَهُم كِتَٰبٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّما مَعَهُمْ وكانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَٰفِرِينَ . بِئْسَما اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ولِلْكَٰفِرِينَ عَذابٌ مُّهِينٌ . وإذَا قِيلَ لَهُمْ ءامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنا ويَكْفُرُونَ بِمَا وَراءَهُ وهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِّما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِياءَ اللهِ مِن قَبْلُ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . ولَقَدْ جاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجلَ مِن بَعْدِهِ وأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ . وإذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ورَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءاتَيْنَٰكُمْ بِقُوَّةٍ واسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وعَصَيْنا وأُشْرِبُوا فى قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إيمَٰنُكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... ٨٧ - ٩٣

١٠ — ولَقَدْ أَنزَلْنا إلَيْكَ ءايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وما يَكْفُرُ بِهَا إلَّا الفَٰسِقُونَ . أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . ولَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَٰبَ كِتَٰبَ اللهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ... ٩٩ - ١٠١

ونكتفى بهذه المقتطفات من فصول سورة البقرة فى صدد موقف اليهود إزاء الدعوة بذاتها ، لأن فيها الدلالة الكافية على الموقف الجحودى الذى وقفوه من جهة ، ولأن مواقفهم الآخرى متفرعة عن هذا الموقف واستمرار له من جهة أخرى

مع التنبيه إلى أن فى غير هذه السورة آيات فى صدد هذا الموقف فيها تنديد و تقريع لليهود أيضاً .

- ٣ -

ويلفت النظر فى صدد هذه المقتطفات :

أولا : إلى أسلوبها ؛ فقد يكون فيها كثير مما جاء فى القرآن المكى من قصص بنى إسرائيل ، غير أنه جاء بأسلوب حملات تنديدية على اليهود ، فى حين جاء هناك بأسلوب قصصى وحسب . ولا ريب فى أن هذا متصل بالموقف الذى وقفه اليهود المعاصرون فى العهد المدنى .

ثانياً : إلى شدة اللحمة التى تبدو فى الآيات ، إذ تستهدف تقرير وحدة الجبلة والأخلاق والأساليب بين اليهود على اختلاف أجيالهم ، وأن الأبناء قد توارثوها عن الآباء جيلا بعد جيل ؛ وإذ يشعر القارئ أن الحديث يدور عن جماعة واحدة متصلة العهد والسبب اتصالا وثيقا . وهذا واضح فى كثرة الانتقال والالتفات فى الآيات وتبادل الضمائر بين الغائب والمخاطب . ويتضح ذلك خاصة فى الآيات ٦٧-٧٤ و ٧٥ - ٨٠ و ٨٣ - ٨٥ .

ثالثاً : إلى وصف موقف الجحود الذى تضمنته الآيات ٨٧ - ٩٣ خاصة ، إذ تقرر صراحة السبب الذي جعلهم يقفون موقفاً جحوديا مناقضاً لمواقفهم السابقة للبعثة التى كانوا يستفتحون بها على العرب ، فيجحدون شيئاً عرفوه حق المعرفة وبشروا به ؛ فاستحقوا من أجله هذه الحملات الشديدة ، واللعنات القاسية ؛ وهو البغى والحقد والحسد .

رابعاً : إلى ماتدل عليه الآيات دلالة كافية وخاصة الآيات ٧٥ - ٨٠ من أن موقفهم الجحودى من الدعوة منذ أوائل العهد المدنى كان حاسماً ، بحيث لم يبق أى أمل فى ارعوائهم فيه وتراجعهم عنه . ولقد كان هذا هو الواقع ، إذ ظلت كثرتهم الساحقة عليه ، وما كان من أحداث ومواقف متنوعة بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين إنما تفرع عنه .

خامساً : إلى صيغة الآيات ، سواء فى إطلاقها الكلام عن اليهود عامة أو فى حكايتها لأقوالهم ومواقفهم ومكايداتهم وتاريخ آبائهم ؛ أو فى ربطها بين الآباء والأبناء فى ذلك ، إذ تلهم أن موقف الجحود كان موقف جميعهم بوجه الإجمال ، وهذا بارز كذلك فى كل أو جل الفصول القرآنية المدنيـة التى تحكى مواقفهم المتنوعة الأخرى ؛ مع التنبيه إلى أن هناك آيات فى مناسبات أخرى تضمنت استثناء لفئة قليلة منهم ، وسوف نعرض لها فى مبحث خاص .

- ٤ -

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى نقطة مهمة ، وهى أن أسلوب الآيات التى نقلناها ، والذى هو أسلوب تنديدى ، ليس هو كل شىء فى صدد دعوة اليهود إلى الدين الإسلامى ، فقد احتوى القرآن المدنى كما احتوى المكى آيات تضمنت دعوتهم بأسلوب هادئ لا تنديد فيه ، وأن ذلك الأسلوب إنما كان كذلك لما كان من مقابلة اليهود السريعة للهجرة النبوية وانتشار الدعوة ، ودعوتهم إلى الانضواء إليها مقابلة غير حسنة .

وإليك بعض الآيات المدنية التى تضمنت دعوة أهل الكتاب - الذين يدخل اليهود فيهم بطبيعة الحال - دعوة هادئة على سبيل المثال :

١ — فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـٰبَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَـٰغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ... آل عمران ٢٠

٢ — قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ... آل عمران ٦٤

٣ — يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ

تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ . يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُ سُبُلَ السَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... المائدة ١٥ - ١٦

٤ — يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ... المائدة ١٩

ونلفت النظر خاصة إلى آيات المائدة ١٥ - ١٦ وبنوع خاص إلى الأولى منها ، إذ تضمنت إيذاناً بأن من الخطة التى سوف يسير عليها الرسول العفو عن كثير مما يمكن أن يكون صدر أو يصدر من المدعوين ؛ والتجاوز عن هفواتهم ، وتوسعة الصدر لهم ؛ وفى هذه الخطة ترغيب محبب لأهل الكتاب متسق مع الخطة القرآنية بصورة عامة ، ومع الخطة القرآنية المكية نحوهم بصورة خاصة ، كما أنها تتضمن نفى كل ما يمكن أن يرد من قول مغرض عن نية مبيتة من النبى صلى الله عليه وسلم نحو أهل الكتاب أو فريق منهم ،

# المبحث الثانى

## مواقف اليهود الحجاجية

حجاج اليهود حول إبراهيم وملته وزعمهم بأنهم على الهدى - الحجاج حول نبوة النبي بسبب عروبته - مواقف حجاج وتحد وسخرية من النبي - حجاجهم حول جبريل - حجاجهم حول القبلة والكعبة - استطراد إلى بحث تبديل سمت الكعبة وظروفه وخطورته فى الشخصية الاسلامية - غرور اليهود وتبجحاتهم المتصلة بمواقفهم الحجاجية

— ١ —

(١) من هذه المواقف ما كان حول إبراهيم صلى الله عليه وسلم وملته ، وفى صدد تبجحهم بأنهم على الهدى وأن ملتهم هى خير الملل ؛ فى سورة البقرة الفصول التالية :

١ — وقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلَّا مَنْ كانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ . بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ . وقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وقالَتِ النَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ... ١١١ - ١١٣

٢ — ولَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ ولا النَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ . الَّذِينَ ءاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ومَنْ يَكْفُرْ بِهِ فأُولَئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ . يَٰبَنِى إِسْرَٰءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ

عَلَى الْعَـٰلَمِينَ ... ١٢٠ - ١٢٢

٣ — وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَـٰهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّـٰلِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ . وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ . أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُولُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَـٰبِدُونَ . قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ . أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ... ١٣٠ - ١٤٠

- ٢ -

والآيات قد جاءت - على ما يدل عليه سياقها وبعض مضامينها - فى معرض مواقف اليهود وحجاجهم ، وهذا ما يجعلنا نرجح أن إدماج النصارى فى الآيتين (١١٠و١٣٥) منها إنما كان من قبيل التعميم أو الاستطراد ؛ ومهما يكن من أمر هذه النقطة فالآيات على كل حال تتضمن حكاية أقوال اليهود ومواقفهم والحجاج معهم .

ويبدو من روحها ومضامينها أن اليهود قابلوا الدعوة الإسلامية بقولهم إن الهدى إنما هو فى اليهودية ، واحتجوا على دعوى النبي صلى الله عليه وسلم بأنه على ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم وإن دعوته إليها ، فقالوا إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم هو أبوهم وأبو الأنبياء ، وإن أبناءه قد ساروا على ملته ، وإن اليهودية التى هى دين هؤلاء الأنبياء والأبناء هى ملته . فردت عليهم الآيات قائلة إن إبراهيم كان حنيفا مسلماً وما كان من المشركين ، وهذه هى ملته التى يدعو إليها النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قررت العقيدة الإسلامية الواجبة على الجميع ومنهم اليهود ، وهى الإيمان بالله وبما أنزل إلى محمد وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والنبيين صلوات الله عليهم جميعا بدون تفريق بين أحد منهم ، وإسلام النفس لله وحده ، ودعتهم إلى هذه العقيدة ، وطمأنت النبي صلى الله عليه وسلم فى حال عدم استجابتهم - وهو المتوقع - مقررة أنهم فى شقاق وخلاف ، وأن الله كافيه شرهم ومكرهم .

وقد نصت الآية (١١٣) خاصة من قبيل الإفحام ودحض الحجة التى يحتجون بها . على أن شقاقهم ليس فيما بينهم فقط بل بين الكتابيين عامة ، إذ يقرر اليهود أنهم وحدهم على الحق وأن النصارى ليسوا على شىء منه ، ويقرر النصارى هذا عن اليهود ، فى حين أن الفريقين يتلون الكتاب (التوراة على الغالب لأنها مشتركة بينهما) ويؤمنون به ؛ وهكذا يشهد كل فريق على ضلال الفريق الثانى ؛ فتصدق الشهادة على الفريقين وتدمغهم حجة القرآن ودعوته ، ويصبح لزاماً عليهم اتباع العقيدة التى قررها والتى بها وحدها يتحد الجميع فى الطريق القويم ويتخلص اليهود والنصارى من شقاقهم ومشاكلهم .

- ٣ -

هذا ؛ ولعله أريد بتقرير أن إبراهيم كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين جواباً على قولهم « كونوا هودا أو نصارى تهتدوا » الإشارة إلى عقيدة النصارى ببنوة عيسى وألوهيته ، وإشراكهم إياه مع الله فى الربوبية والعبادة ، وإلى ما كان من عبادة اليهود العجل، ثم إلى عقيدتهم فى بنوة العزير لله التى أشارت إليها إحدى آيات التوبة هذه .

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ... ٣٠

وهى عقيدة لابد أن يكون اليهود المعاصرون فى المدينة أو فريق منهم على الأقل يدينون بها ؛ ولعله أريد بها كذلك الإشارة إلى اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله كما نددت بذلك آية التوبة التالية لهذه الآية وهى :

« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ... ٣١

والإشارة إلى ما تلهمه بعض آيات سورة آل عمران وهى هذه :

« مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ...[1] ٧٩ - ٨٠

(١) قال بعض المفسرين والرواة إن الآيات نزلت بمناسبة سؤال اليهود للنبى عما إذا كان يريد منهم أن يسجدوا له . والآيات وسياقها تجعل ما استلهمناه أوجه وتلهم أن الآيات بسبيل التنديد باليهود

فثمة دلالة على أن الكتابيين أو بعضهم كان يتخذ الملائكة والأنبياء أرباباً ، أو يستشفع بهم مع الاعتقاد بتأثيرهم ، مما هو من جملة الشرك .

- ٤ -

(٢) وقد جاء فى سورة آل عمران فى صدد الحجاج حول إبراهيم وملته الفصل التالى :

« يَٰأَهْلَ الكِتَٰبِ لِمَ تُحَاجُّونَ فى إِبْرَٰهِيمَ وما أُنْزِلَتِ التَّوْرَىٰةُ والإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أفلَا تَعْقِلُونَ . هَٰأَنْتُمْ هَٰؤُلاءِ حَٰجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ واللهُ يَعْلَمُ وأَنتُمْ لا تَعلَمُونَ . مَا كانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًا ولا نَصْرَانِيًا ولَٰكِن كانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ومَا كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ . إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وهَٰذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ ءامَنُوا واللهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ ... ٦٥ - ٦٨

وفى الآيات شىء مما تضمنته آيات البقرة ، وتلهم وقوع حجاج مماثل لما استلهمناه من تلك الآيات مرة أخرى بين النبي صلى الله عليه وسلم واليهود ، فنزلت معقبة منددة وموضحة دامغة الحجة ؛ وقد جاءت عقب سلسلة أشير فيها إلى مشهد حجاجى بين النبي وبعض النصارى حول ماهية المسيح ، غير أن الآيات التى تلتها احتوت حكاية موقف كيد ودس لليهود ، مما يسوغ أن القول بأن الخطاب الموجه فيها إلى « أهل الكتاب » قد قصد به اليهود . ومهما يكن من أمر هذه النقطة فإن اليهود داخلون فى هذا التعبير على كل حال .

وفى الآيات حجة جديدة ، وهى أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم إنما عاش قبل التوراة ، واليهودية إنما بدأ عهدها بعد التوراة ، وأن ملة إبراهيم والحالة هذه لا يمكن أن تكون اليهودية ، وأن دعوى اليهود ذلك باطلة من أساسها ؛ وأن أبوة إبراهيم لليهود ليس من شأنها أن تجعلهم على ملته ، وأن تدعم أولويتهم به ؛ فأولى الناس به هم الذين اتبعوا ملته حقا ، والنبي صلى الله عليه وسلم الذى اتبعها ، ويدعو إليها

بصراحة لا التواء فيها ، والذين تابعوه فى دعوته من المؤمنين . وهكذا يكون القرآن قد دمغ اليهود فى موقفهم الحجاجى الثانى أيضا ، وزيف دعوى أولويتهم به بسبب أبوته لهم وحسب ، وجعل هذه الأولوية للنبى صلى الله عليه وسلم ومن تابعه من المسلمين . ومما لاشك فيه أن الحجاج استؤنف وأن النبى صلى الله عليه وسلم واجههم بهذه الحجة القرآنية فى مشهد مواجه .

— ٥ —

(٣) ومن هذه المواقف ما كان حول نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بسبب عروبته ؛ فقد جاء فى سورة الجمعة الآيات ٢ - ٦ التى نقلناها فى مبحث عروبة النبى صلى الله عليه وسلم من فصل شخصيته ؛ ويستلهم من روحها أن اليهود ادّعوا أن الله قد اختص بالنبوة بنى إسرائيل دون سائر الأجناس ، وأنكروا نبوة النبى لأنه ليس من بنى إسرائيل ؛ فردت الآيات عليهم مثبتة أولا نبوة النبى الأمى العربى ، مقررة ثانيا أنه لا حرج على فضل الله ، وأنه مطلق الإرادة يختص بفضله من يشاء ؛ وهاجمت ثالثاً اليهود لأنهم مكابرون فى موقفهم ، يعرفون الحق ويكتمونه ، وأن مثلهم فى موقفهم كمثل الحمار الذى لا ينتفع بما يحمله من أسفار العلم ؛ ومما لاشك فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم واجه اليهود بهذه الآيات فى مشهد استؤنف فيه الحجاج مواجهة .

— ٦ —

(٤) ومنها مواقف حجاج وتحد وسخرية نحو شخص النبى ونبوته :

١ - فقد جاء فى سورة آل عمران الآيات التالية :

« ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَٰهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَابَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَاقَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ

بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ . الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ...

١٨٠ - ١٨٣

والآيات لاتحتوى دلالةصريحة علىأنها فى حق اليهود؛ ولكن فى الفقرة الأخيرة من الآية الأخيرة قرينة حاسمة على أنها فى حقهم .

وقد ذكر المفسرون والرواة فى صدد القسم الأول من الآيات أن النبى صلى الله عليه وسلم قد استعان باليهود ماليا فى ظرف من الظروف ـ تمشياً مع عادة الحلف العربى وتبعاته ـ بواسطة أبى بكر رضى الله عنه ، فذهب إلى محلتهم فردوه رداً قبيحاً ، كما رووا أن أبا بكر ذهب ليدعوهم إلى الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإقراض الله قرضاً حسناً ، فقابلوا الدعوة بالجحود ، والجملة الأخيرة بالسخرية ، وقالوا إذا كان الله يستقرضنا فهو إذن فقير ونحن أغنياء ؛ ولم يرو فى صدد القسم الثانى مناسبة خاصة فيما اطلعنا عليه . ولعل ماحكى عنهم فيه قد صدر منهم فى الظرف نفسه الذى صدر عنهم فيه ما حكاه القسم الأول ، جواباً على دعوتهم إلى الإسلام . والآية الأخيرة تلهم أن هذا الموقف قد كان بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم مواجهة فيما يتبادر لنا .

ومهما يكن من أمر فالآيات صريحة بأنها قد تضمنت حكاية موقف يهودى بذىء ساخر فى حق الله ، وموقف تحد وتعجيز وحجاج من النبى صلى الله عليه وسلم .

٢ ــ وقد جاء فى سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا . مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا

فى الدِّينَ ولَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا واسْمَعْ وانْظُرْنا لكانَ خَيْرًا لَهُمْ وأَقْوَمَ ولَـكِن لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ... ٤٤ - ٤٦

وقد تضمنت صورة موقف ساخر لليهود من النبي ، فكانوا يلوون ألسنتهم بكلمة « راعنا » حتى تؤدى إلى نعت النبي بالرعونة ، ويجهرون بعصيانه فيما يأمر ويدعو ، فيستعملون كلمة «عصينا» بعد «سمعنا» استخفافاً به بدلا من الجملة العربية المعتادة « سمعنا وأطعنا » أو « سمعاً وطاعة » ، ويدعون عليه بالسوء فيقولون اسمع لاسمعت ، أو اسمع غير مستجاب ؛ ويقصدون فى كل ذلك الانتقاص من الدعوة النبوية والشخصية النبوية والطعن فيهما . ومما يروى أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه انتبه إلى خبثهم فى ليهم كلمة « راعنا » فقال لهم : يا أعداء الله عليكم لعنة الله ، والذى نفسى بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربنّ عنقه ...

وقد يبدو من هذا أن اليهود بعد أن كانوا يحاجون النبي صلى الله عليه وسلم ويقفون موقف الجحود دون أن يخرجوا ـ ولو فى مواجهته على الأقل ـ عن حدود الأدب ، رأوا فى أنفسهم القوة فتجاوزوا هذا النطاق إلى الهجوم وبدءوه بالسخرية والبذاءة ؛ ولعل هذا كان منهم فى ظرف أزمة من الأزمات مرت بالنبي والمسلمين كواقعة « أحد » فاغتنمها اليهود فرصة لإظهار ما امتلأت به قلوبهم من غل وحقد .

٣ — وقد جاء فى سورة النساء أيضاً الآيات التالية :

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَـٰبِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا . وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا . فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَـٰتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

وبِكُفْرِهِمْ وقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا . وقَوْلِهِمْ إنَّا قَتَلْنا المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وما قَتَلُوهُ ومَا صَلَبُوهُ ولَـٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَالَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ ومَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللهُ إلَيْهِ وكانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وإن مِّنْ أَهْلِ الكِتَـٰبِ إلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ويَوْمَ القِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا . فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً . وأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا وقَدْ نُهُوا عَنْهُ وأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بالبَـٰطِلِ وأَعْتَدْنا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . لَـٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ فى العِلْمِ مِنْهُمْ والمُؤْمِنونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إلَيْكَ ومَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ والمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ والمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ والمُؤْمِنونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ أُولَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا . إنَّا أَوْحَيْنا إلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنا إلَىٰ نُوحٍ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وأَوْحَينا إلَىٰ إبْرَٰهِيمَ وإسْمَـٰعِيلَ وإسْحَـٰقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ وعِيسَىٰ وأَيُّوبَ ويُونُسَ وهَـٰرُونَ وسُلَيْمَـٰنَ وءاتَينا داوُودَ زَبُورًا . ورُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ورُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا . رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . لَـٰكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ والمَلَـٰئِكَةُ يَشْهَدُونَ وكَفَىٰ باللهِ شَهِيدًا . إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلوا ضَلَـٰلًا بَعِيدًا ...

١٥٣ - ١٦٧

والآية الأولى تضمنت حكاية موقف تحد يهودى للنبى إزاء دعوتهم إلى التصديق

بنبوته ؛ ومن المتبادر أن هذا التحدى قد كان فى مشهد دعوة وحجاج مواجه ؛ أما الآيات الأخرى فقد جاءت تعقيباً على هذا الموقف ، واحتوت ربط موقفهم هذا بموقف آبائهم ، وحملت عليهم حملة شديدة بسبب تحديهم لموسى عليه السلام وانحرافاتهم عن مبادئ دينهم وعقيدة التوحيد ، وافتراءاتهم على مريم والمسيح ؛ وقد استهدفت الآية التى ذكرت إيمان الراسخين فى العلم منهم، دمغهم بحجة قاطعة كما هو المتبادر ، كما استهدفت الآيتان التى تلتها بتقرير أن وحى الله بالقرآن لنبيه كوحيه للأنبياء الذين يؤمن بهم اليهود - بيان تناقضهم فى تحديهم وتعجيزاتهم ؛ ومما لاريب فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أسمعهم هذا الفصل التعقيبى القوى فى مشهد مواجه وأفحمهم بالحجة القرآنية الدامغة ، والتقريع القرآنى اللاذع .

٤ - وقد جاء فى سورة المائدة الآيات التالية :

« يَٰأَيُّهَا الرَّسُولُ لايَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فى الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ ولَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ومِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَٰضِعِهِ يَقُولُونَ إنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وإن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ومَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فى الدُّنيا خِزْىٌ ولَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحتِ فإنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وإنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وإنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ . وكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وعِنْدَهُمُ التَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وما أُولَٰئِكَ بِالمُؤْمِنِينَ ... ٤١ - ٤٣

وقد روى جمهور المفسرين والرواة أنها نزلت فى حادث زنا اقترفه يهودى فطلب

اليهود قضاء النبي فيها آملين أن يقضي بغير الرجم الذى هو قصاص ذلك فى شريعتهم؛ كما أن بعضهم روى أنها نزلت فى حادث دم؛ وهذه الرواية أكثر اتساقا مع سياق الآيات التى أتت بعدها، لأنها ذكرت أحكام التوراة فى حوادث الدماء.

ومهما يكن من أمر ففي الآيات صورة صريحة لموقف حجاج وتعجيز وتهويش وقفه اليهود من النبي يطلبون التقاضي عنده؛ ويبدو منها أن المنافقين اندمجوا فى هذا الموقف وأنه كان له أثر أليم فى نفس النبي صلى الله عليه وسلم لما بدا منهم من تمحل وتضليل وكذب وتحريف.

ومن قبيل الاستطراد نلفت النظر إلى ما احتوته الآيات من جعل الخيرة لليهود فى التقاضي لدى النبي وعدمه، وفى إيجاب القضاء بالقسط إذا ما تقاضوا لديه، إذ حفظت لهم حريتهم القضائية وأقرت لهم القضاء بأحكام التوراة؛ ولقد نوهت الآيات التالية لها بما فى التوراة من نور وهدى توكيداً لهذا الإقرار؛ ففى هذا شاهد على ما جنح إليه الإسلام من احترام حرية اليهود القضائية واحترام أحكام التوراة القضائية وإقرارهم عليها مع التوصية بالقسط إذا ما أرادوا التقاضي لديه ورأى أن يقضي بينهم دون أن يكون لمواقفهم الجحودية أى تأثير فى ذلك.

٥ — وقد جاء فى سورة المائدة الآية الآتية:

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُم مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ... ٦٤

وقد روى فى نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم استعان ببعض اليهود على بعض الديات تمشياً مع عصبية الحلف فشكوا له ضيق الرزق، وقالوا إن يد الله مغلولة عنهم فيه.

وعلى كل حال ففي الآية صورة لموقف محاجة يهودى أساء اليهود فيه أدبهم فى

حق الله ؛ وقد سبق منهم موقف مماثل حكته آيات آل عمران ١٨٠ — ١٨٤ على ماشرحناه قبل ؛ مع فارق واحد هو أنهم فى ذلك الموقف كانوا يزهون بغناهم ، فى حين أنهم فى هذا الموقف كانوا يشكون إذ بدل الله حالهم بالعسر بعد اليسر وبالضيق والفقر بعد السعة والغنى !

ويبدو من مضمون الآية أن هذا الموقف الذى وقفوه كان منبعثاً مما كان يملأ صدورهم من الغيظ والسخط من رسوخ فى قدم النبى وانتشار دعوته ؛ ولعل مما يصح أن يضاف إلى هذا احتمال كون المسلمين قد انصرفوا عنهم أو قاطعوهم بسبب مواقف الكيد والجحود التى مافتئوا يقفونها ، واستجابة لأمر القرآن ونهيه وتحذيره ، فأثر ذلك فى حالتهم الاقتصادية تأثيراً سيئاً زاد غيظهم وسخطهم وتبرمهم ، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب فى حق الله ومن رد غير جميل لرسوله . ولقد جاء بعد هذه الآية آيتان فى ثانيتهما قرينة على صحة ماضمناه وهما هاتان :

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَٰبِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ... ٦٥ - ٦٦

إذ يلمح فيهما أنهم فى حالة ضيق ، وأن سبب هذا هو ما كان من موقفهم الجحودى . وواضح أن فى هذا فوق الصورة التى نبهنا عليها مشهداً من مشاهد الحال التى صار إليها اليهود ؛ وننبه إلى أن الآيات وسياقها فى حق اليهود ، وأنها تحتوى مشاهد وأقوالا واقعية لهم ، ولو أن الآيتين الأخيرتين جاءتا مطلقتين وشملتا أصحاب الإنجيل أيضاً ، ونرجح أن ذلك من قبيل التعميم والاستطراد :

٦ - وقد جاء فى سورة البقرة الآيتان التاليتان :

« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَٰلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ... ٩٧ - ٩٨

وليس لليهود ذكر فى الآيتين ؛ غير أنهما جاءتا فى سلسلة فى حق اليهود متصلة بهما من قبل ومن بعد ، كما أن روايات الرواة والمفسرين تذكر أنهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض اليهود حول جبريل عليه السلام ، إذ سألوه عمن ينزل عليه بالوحى ، فلما قال لهم إنه جبريل قالوا هذا عدونا ، وذكرت كذلك أنهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبعض اليهود قالوا فيه إن جبريل وميكال عدوان لليهود .

ومهما يكن من أمر ففى الآيتين موقف من مواقف اليهود التحلية والجحودية متصل بوحى الله وملائكته ، وصلتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم كما هو المتبادر .

— ٧ —

(ه) ومنها مواقفهم الحجاجية حول القبلة والكعبة والحج . فقد جاء فى سورة البقرة الآيات التالية :

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَاوَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن

بَعْدِ مَاجَاءكَ مِنَ العِلْمِ إنَّكَ إذًا لَّمِنَ الظَّـٰلِمِينَ . الَّذِينَ ءاتَيْنَـٰهُمُ الكِتَـٰبَ يَعرِفُونَهُ كَمَا يَعرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وإنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وهُم يَعلَمُونَ . الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فاسْتَبقُوا الخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَاتَكونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . ومِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ وإنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ومَا اللهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تعمَلُون . ومِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الْحَرَامِ وحَيْثُ ماكُنْتُمْ فَوَلوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِى ولِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ ولَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . كَمَا أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءايَـٰتِنا ويُزَكِّيكُمْ ويُعَلِّمُكُمُ الكِتَـٰبَ والحِكْمَةَ ويُعَلِّمُكُمْ مَّالَمْ تَكُونُوا تَعلَمُونَ . فاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِى ولا تَكْفُرُونَ ... ١٤٢ - ١٥٢

ولقد قال جمهور المفسرين والرواة إن المقصود من السفهاء هم اليهود ؛ وفى الآيات قرينة على ذلك فى ذكر أهل الكتاب وكتمانهم الحق مع علمهم به ، مما وصف به اليهود أكثر من مرة فى القرآن ، هذا إلى أن الآيات مسبوقة بسلسلة طويلة فى حق اليهود . وهكذا تكون الآيات قد تضمنت فيما تضمنته صورة لموقف من مواقف اليهود الحجاجية والكيدية فى ظروف تبديل سمت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الحرام .

وروح الآيات تلهم أنه كان لهذا التبديل وقع شديد على اليهود ؛ فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة يتجه فى صلاته - على ما جاء فى الروايات - إلى الكعبة ، ثم اتجه إلى المسجد الأقصى عزوفاً عما كان فيها من أصنام ، وتفادياً من اشتراكه فى الاتجاه إليها مع المشركين ، أو لعله فعل هذا عند هجرته من مكة من أجل هذين السببين من

جهة ، وتأثراً من موقف أهل مكة الجحودى والمؤذى الذى اضطره إلى مفارقة مكة من جهة ، وتألفاً لليهود وتسهيلا لإجابتهم لدعوته من جهة ثالثة ؛ وقد عددنا العلل لأننا لم نطلع على تعليل قديم وثيق ، ولا على توقيت وثيق لاتجاهه إلى المسجد الأقصى ؛ ولكن اليهود وقفوا منه موقف الإنكار والجحود والدس من جهة ، وأخذوا يزهون عليه وعلى المسلمين بأن اتجاههم إلى قبلتهم هو اعتراف بأنهم على الهدى ، وبأن النبي والمسلمين إنما يقتبسون الهدى منهم ، وبأنهم أولى أن يتبعوهم ويندمجوا فيهم لا العكس ؛ فحزّ هذا فى نفس النبي صلى الله عليه وسلم وانبثقت فيها أمنية التحول عن سمت المسجد الأقصى ، لا سيما وقد ظهر من اليهود ما أيأسه منهم .

ونص مطلع الآية (١٤٤) بنوع خاص « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » قرينة قوية على ما اعتلج فى نفس النبي من أزمة بسبب الاتجاه نحو المسجد الأقصى وزهو اليهود وموقفهم من ذلك ، وعلى ما قام فيها من رغبة فى التحول عنها ؛ وجملة « فلنولينك قبلة ترضاها » فى الآية المذكورة يمكن أن تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حين صار يائساً أو كاليائس من اليهود وثارت فى نفسه تلك الأزمة وقامت فيها هذه الرغبة ، تراءى له أن اتجاهه إلى قبلتهم مما يضعف قوة دعوته ، وأن عودته إلى قبلته الأولى مما يؤلف قلوب العرب ، كما أن ذلك هو الأولى ، لأنها بيت الله العربى القديم الذى يعرفه العرب ويرتبطون به ، والذى هو من عوامل وحدتهم الروحية بسبب اشتراكهم جميعاً فى حجه ، فكان يتمنى أن يتحول إليها فى صلاته وتكون قبلته ثانية ؛ ولعله كان يسمع تألما أو انتقاداً أو يرى حيرة من العرب مسلمين وغير مسلمين من الاتجاه إلى المسجد الأقصى وإهمال الكعبة وهى بيت الله العربى المقدس منذ قديم الأحقاب ، فكان هذا مما قوى ما فى نفسه من الرغبة والأمنية .

ولعل جملة « لئلا يكون للناس عليكم حجة » تتضمن قرينة على هذا .

ولقد رأى اليهود فى هذا التحول ضربة شديدة توجه إلى مكانتهم الدينية ووسيلتهم إلى الزهو على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فنشطوا على ما تلهمه الآيات إلى الدس والحجاج وتشكيك المسلمين ، فقالوا إذا كان سمت المسجد الأقصى غير حق فقد أضاع النبي عبادة الذين صلوا إليه ، وإذا كان حقا فلا معنى للتحول عنه وتكون الصلاة إلى الكعبة ضائعة ؛ وقالوا إن أفعال النبي لو كانت مستندة إلى وحى ربانى

لما نسخ اليوم مافعله بالأمس ، ولما قال اليوم قولا ثم نقضه فى الغد ، لا سيا فى الأمور التعبدية [١] .

ويبدو من روح الآيات ومضامينها أن هذه الدسائس الدعايات والمواقف الحجاجية قد أثرت بعض الأثر فى بعض المسلمين ، فاحتوت الآيات أسباب طمأنينة متنوعة لهم، وحملة على اليهود ، وتثبيتاً للنبى صلى الله عليه وسلم فيما أوحى إليه به ، مثل تقرير أن المسئلة ليست فى الشرق والغرب [٢]، وإنما هى فى الاتجاه الخالص إلى الله ، وأن تبديل القبلة الأولى بالثانية هو اختبار ربانى لقوة إيمان المسلمين واتباعهم الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وأن من نعمة الله عليهم أن بعث فيهم رسولا منهم ، يعلمهم ويزكيهم، فحق عليهم شكره وذكره ، والثبات على ما فرضه ، وعدم جحود نعمته والتردد فى اتباع مايأمر به ، وكون الله لا يمكن أن يضيع إيمانهم وصلاتهم فعليهم أن يطمئنوا ، ولا يستمعوا لدسائس اليهود الذين يعلمون أن ماوقع حق وإن كتموه وأن يستيقنوا أن انتقادهم سفه فلا يعبأ به ، وأنه لا أمل فى اتباعهم دعوة النبى وقبلته ، فلم يبق محل لاتباعه قبلتهم وأهواءهم .

وهذه السلسلة مسبوقة بسلسلة أخرى نعتقد أن لها صلة بالموقف وأنها نزلت هى أيضاً فى مناسبة نقتطف منها مايلى :

١ — مَايَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَـٰبِ ولا المُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ واللهَ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ . مَا نَنْسَخْ مِنْ ءايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ والْأَرْضِ ومَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ . أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ومَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بالإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ

(١) هذا الهس اليهودى تتضمنه آيات سابقة لهذه السلسلة سنعرضها بعد .

(٢) هذا التقرير فى آيات أخرى سابقة سنعرضها بعد .

بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ...

١٠٥ - ١٠٩

٢ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ وَسَعَىٰ فى خَرَابِهَا أُولَـٰئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خائِفِينَ لَهُمْ فى الدُّنيا خِزْىٌ وَلَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَلِلهِ الْمَشْرِقُ والمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ...

١١٤ - ١١٥

٣ — وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّى جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمامًا قالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قالَ لا يَنالُ عَهْدِى الظَّـٰلِمِينَ . وَإِذْ جَعَلْنا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا واتَّخِذُوا مِن مَّقامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنا إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَـٰكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَـٰهُ فى الدُّنيا وَإِنَّهُ فى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّـٰلِحِينَ . إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ

لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ... ١٢٤ - ١٣١

ولقد روى فى صدد الآية ١٠٦ أن اليهود كانوا يغمزون النبي ويثيرون الشك فى المسلمين بقولهم إنه يأمر بالشىء ثم ينهى عنه ، وإن هذا ليس شأن الأنبياء ، ويلقنونهم طلب البراهين منه على نبوته بسبيل ذلك ؛ فاحتوت الآيات طمأنة للمسلمين ، فالله إذا نسخ أمراً فلحكمة رآها ، ولعل الناسخ يأتى خيراً من المنسوخ ، وأن الكتابيين - والمقصود هنا اليهود للقرينة القائمة - لا يريدون لهم أى خير كالمشركين ، وأن كثيراً منهم يودون أن يرتدوا كفاراً حسدا وحقدا ، وأنه لا ينبغى للمسلمين أن يقفوا من النبي موقف اليهود من موسى : يحاجونه ويراذونه ويسألونه البراهين ، فإن مغبة هذا تبدل إيمانهم بالكفر . والذى يتبادر لنا أن اليهود قد غمزوا النبى صلى الله عليه وسلم بما غمزوه من النسخ بمناسبة تبديل القبلة قصد الدس والتشكيك ، فاحتوت الآيات ما احتوته من الطمأنة والتحذير .

وفى الآيتين ١١٤ - ١١٥ ما يمكن أن يكون قرينة على هذا التوجيه ، إذ احتوت الأولى تنديدا بمن يعطل مساجد الله ويسعى فى خرابها ، والثانية إعلاناً بأن المشرق لله والمغرب لله ، وأن الله موجود أينما يولى المسلمون وجوههم ؛ والأولى تلهم أنها تنديد باليهود ، لأنهم دسوا وشككوا فى ظروف تبديل القبلة ، وفى هذا سعى لخراب بيت الله وإهماله ، وينطوى فى الثانية معنى سعة أفق الدعوة الإسلامية ، واهتمامها بالجوهر دون العرض ، تلقينا للمسلمين حتى لا يعبأوا بما يبثه اليهود فيهم [١] .

أما السلسلة الثالثة ( ١٢٤ - ١٣٠ ) ففيها توكيد .

(١) لقدسية الكعبة ، وتقرير أنها بيت الله ومعبده المطهر ، ومثابة للناس منذ طويل الأحقاب . و (٢) لصلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بها وبأمن منطقتها ومناسك حجها . و (٣) لصلة العرب بإبراهيم وإسماعيل بالبنوة ، وتوكيد أن بعثة نبى منهم فيهم هى أمنية من أمانيهما ، ودعوة من دعواتهما لإنقاذ العرب وتطهيرهم وإرشادهم . و (٤) لأساس ومفهوم ملة إبراهيم عليه السلام وهى إسلام النفس لله وحده ، وأن المنحرف عن ذلك ضال خاسر نفسه .

---

(١) هناك روايات فى صدد الآيتين لا تتسق مع روحهما ومضامينهما ولا تستند إلى إسناد وثيقة ، وفى بعضها إغراب بل تهافت أشرنا إليه فى تفسيرنا « القويم » .

والذى يستلهم من روحها ومضامينها ومن ورود الآيات المندِّدة باليهود بسبب موقف الدس الذى وقفوه فى ظرف تبديل القبلة بعدها بقليل ، وهى الآيات ١٤٢ - ١٥٣ - أن هذه الآيات هى من جهة مقدمة للآيات التى تليها مباشرة والتى احتوت الرد على اليهود فى أمر ملة إبراهيم ومجادلتهم وهى ١٣١ - ١٣٤ التى نقلناها فى فقرة سابقة ، ومن جهة ثانية مقدمة أيضا للآيات ١٤٢-١٥٣ التى احتوت الرد عليهم فى نقدهم تبديل القبلة ؛ فوق ما احتوته من تدعيم لصحة النبوة المحمدية وأهدافها إزاء العرب وإزاء أهل الكتاب معاً . ولعل مما يتصل بالموضوع الذى نحن فى صدده استهدافها فى تقرير صلة إبراهيم وإسماعيل بالكعبة واتصال فضلها وطهارتها - تقرير سبقها فى القدم والوجود للمسجد الأقصى ، وأولويتها عليه فى الاتجاه والتعظيم ، وبالتالى تقرير أن الناسخ وهو الكعبة جاء خيراً من المنسوخ وهو المسجد الأقصى .

وننبه إلى ما يمكن أن تلهمه فقرة « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم » فى الآية ١١٤ من اعتراف اليهود فى موقف ما قبل البعثة أو بعدها بفضل الكعبة وصلتها بإبراهيم عليه السلام وسبقها المسجد الأقصى ، إذ جبهتهم الحجة القرآنية بما كان من اعترافهم بذلك ثم إنكارهم له وسعيهم ضده بالدس والتشكيك ؛ وإذ أريد فى آيات من السلسلة تقوية للحجة الدامغة عليهم ، تقرير واقع موقفهم وبواعثه ، وهو الغرض والهوى والحقد والمماراة . ولقد كانت هذه الفصول القرآنية تتلى جهرة ، ولا بد أن يكون اليهود قد سمعوها أو وجهت إليهم فى مشهد من المشاهد ، كما سمعها العرب على اختلاف سرائرهم وقد احتوت هذه التقريرات القوية الصريحة عن فضل الكعبة وقدمها وصلتها بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وصلة العرب بهما ، ومعرفة اليهود أن هذا حق ، والتنديد بهم لكتمهم إياه ومماراتهم فيه ؛ وكل هذا لا يبقى أىّ محل للمماراة فيما استلهمنا من أن اليهود كانوا اعترفوا للعرب فى موقف من المواقف بذلك كله .

ومع كل ذلك يظهر أن اليهود لم يقبلوا الهزيمة ؛ فقد جاء فى سورة آل عمران الآيات التالية :

« كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلَى نَفْسه

مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ...

٩٣ - ١٠٠

وقد روى الرواة والمفسرون فى صدد القسم الأول من الآيات أنه نزل فى سياق موقف حجاجى بين النبى واليهود حول تحليل النبى صلى الله عليه وسلم لحوم الإبل وألبانها ؛إذ انتقدوا ذلك لمخالفته للتوراة وملة إبراهيم ؛ ورووا فى صدد القسم الثانى أنه نزل فى سياق موقف حجاجى آخر بينه وبينهم أيضاً ادعى اليهود فيه أفضلية معبدهم وأفضلية الاتجاه إليه على الكعبة ؛ وكل رواية متسقة مع مضمون القسم الخاص بها من الآيات ؛ غير أنه يتبادر لنا أن الآيات نزلت دفعة واحدة فى سياق موقف حجاجى واحد اتصل الموضوعان فيه بعضهما ببعض ، إذ أنكر اليهود ماقررته آيات البقرة من صلة الكعبة وحجها بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وقالوا إن التوراة لاتذكر شيئاً من ذلك ، فردت عليهم الآيات بأن التوراة لاتذكر أشياء كثيرة مما كان قبلها ، وضربت مثلا لهم بالمحرمات من الأطعمة التى ذكرتها التوراة مع أن كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل قبلها ، وتحدتهم بتلاوة التوراة وإثبات عكس ذلك .

ومهما يكن من أمر هذا التوجيه فإن القسم الثانى متصل بموقف حجاجى لليهود

فى شأن الكعبة وفضلها ؛ وقد احتوى تثبيتاً لما قررته آيات البقرة من صلة إبراهيم عليه السلام بها ، وقدمها على كل بيت عبادة آخر ، وبالتالى على المسجد الأقصى ، وإن من علائم فضلها أن كل من دخلها أمن ، وأن الله قد فرض حجها على كل من استطاع إلى ذلك سبيلا من الناس ، وأن فيها مقام إبراهيم ذا العلامات الواضحة المعروفة ؛ ثم حمل على اليهود حملة قوية ، وحذر المسلمين منهم ؛ فالله غنى عن الكافرين وإن اليهود ليكفرون بآيات الله ويصدون من آمن عنها ، وعلى المسلمين أن يحذروهم فإنهم إذا أصغوا إليهم ارتدوا إلى الكفر بعد الإيمان . وفى الفترة الأخيرة من الآية (١٠٩) نقطة خطيرة المغزى نريد أن ننبه إليها ؛ فقد أمرت المسلمين بالعفو والصفح إزاء مايبدو من اليهود من مواقف الدس والكيد والأذى والتشكيك والحسد ومحاولة رد المسلمين إلى الكفر ... إلخ ، إلى أن يأتى الله بأمره ؛ مما يلهم أن الغضب استفز فريقاً من المسلمين عليهم فاقترح التنكيل بهم ، فاقتضت الحكمة تهدئته وتسكينه إلى وقت تكون الحجة عليهم أشد قوة وتبديل الموقف معهم أكثر تبريراً .

- ٨ -

هـذا ؛ وقد رأينا المناسبة سانحة للتنبيه إلى بعض الأمور فى صدد تبديل سمت القبله بالذات كحادث من حوادث السيرة فى العهد المدنى ؛ فقد أكسب الدعوة الإسلامية شخصية مستقلة بعد أن كان فى شخصيتها شىء من التموج أو التمازج فى أفق ومدار شخصية أهل الكتاب وقبلتهم ، وقد خلد قدسية الكعبة ومركزيتها ، إذ لم تلبث أن صارت متجه العرب فى حياتهم الدينية الجديدة فى جميع أنحاء الجزيرة ، أشد وأقوى وألزم مما كانت لهم قبل هذه الحياة أولا ، ومتجه المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، وناظماً لوحدتهم الروحية ثانياً ؛ وقد كان كذلك عنوانا على الإبقاء على مناسك الحج والكعبة ، إذ صارت ركنا مفروضا من أركان الإسلام بعد تصفيتها من شوائب الوثنية ومشاهدها .

وهناك نقطة تستحق التوقف من ناحية ظروف حادث تبديل القبلة : فالآيتان ١٤٢ - ١٤٣ تقدمتا على الآيات التالية لها فى السلسلة ١٤٢ - ١٥٣ والتى

فيها صراحة تبديل القبلة . والسؤال الذى يخطر بالبال هو هل نزلت هـذه السلسلة جميعها معا ، أو أن الآيات ١٤٤ وما بعدها نزلت على حدة ونزلت الآيتان الأوليان على حدة ، وأى المجموعتين نزلت قبل الأخرى ؟ فإذا كانت السلسلة نزلت جميعها معا فمعناه أن حادث التبديل كان بدءا بإلهام ربانى غير قرآنى ، وأن السلسلة وما قبلها إنما نزلت للردّ على انتقاد اليهود ، وتثبيت النبى صلى الله عليه وسلم على ما ألهمه من التحوّل ، وتبريره وطمأنة قلوب المسلمين . ولعل حكاية تساؤل اليهود بصيغة « ماولاهم » قرينة على هذا . وفى القرآن شواهد عدة على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يلهم العمل ثم ينزل القرآن بتثبيته وتبريره ، ومن الأمثلة على ذلك غزوة بدر ، وعزيمة زيارة الـكعبة التى انتهت بصلح الحديبية ، فقد نزلت سورتا الأنفال والفتح فيهما بعد وقوعهما ، وفيهما تثبيت لما فعل النبى، كما فى الأنفال وعتاب بشأن الأسرى لأن مافعله كان خلاف الأولى الذى فى علم الله . أما إذا كان التبديل قد وقع بأمر قرآنى ، وبعبارة أخرى بالآية ١٤٥ وما بعدها فالمتبادر أن تكون هذه الآية هى التى نزلت أولا ثم وقف اليهود موقفهم فنزلت الآيتان ١٤٢ - ١٤٤ ثم بقية السلسلة وما قبلها من فصول متصلة بالموقف على ما ذكرناه قبل ؛ ونحن نميل إلى ترجيح الفرض الأول، لأن الآية ١٤٥ نفسها قد احتوت ردا على أهل الـكتاب ، وبيانا لواقع موقفهم وباعثه .

أما تاريخ الحادث فقد كان - فيما يروى - بعد ستة عشر شهرا من الهجرة النبوية ، فى أثناء صلاة ظهر يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا حيث صلى النبى صلى الله عليه وسلم ركعتين إلى المسجد الأقصى ثم تحوّل إلى الـكعبة، وبقطع النظر عن التعيين الحاسم فى الرواية فإن من المحتمل جدا أن تكون آيات القبلة من الفصول المبكرة فى النزول تبعا لتبكير اليهود فى موقفهم الجحودى ؛ وقد يكون فى هذا مايدعم صحة التاريخ المروى أو مقاربته للصحة .

## - ٩ -

ومما يصح أن يلحق بهذا المبحث ماحكته آيات عدة عن غرور اليهود وتبجحهم اللذين كانا يبدوان منهم حينما كانت توجه إليهم الدعوة أو يحدث بينهم وبين النبى

والمسلمين حجاج وجدل ؛ إذ ورد فى القرآن غير ما مر نقله مما اتصل بالأبحاث السابقة آيات عدة أخرى .

١ - ففى سورة البقرة الآيات التالية :

« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ . وقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالا تَعْلَمُونَ ...

٧٩ - ٨٠

وقد تضمنت (١) حكاية موقف تدليس لهم على العرب بما كانوا يظهرونه من تعالم ، وينسبون ما يقولونه ويكتبونه إلى الله افتراء عليه ، لاستبقاء مالهم عندهم من ثقة ومكانة . و (٢) حكاية موقف تبجح إزاء ما كانوا يسمعونه من الإنذار القرآنى فيقولون إن المذنب منهم لن تمسه النار إلا أياماً معدودة ثم يناله عفو الله لما لهم من حظوة خاصة عنده . والمتبادر أن هذا الموقف خاصة هو من باب المواقف الحجاجية فوق ما فيه من تبجح زائف .

٢ - وفى السورة نفسها الآية التالية :

« وإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءهُ وهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ... ٩١

وقد تضمنت حكاية موقف غرور واستخفاف لهم إذ كانوا يقولون إن ما عندهم كاف لهم ولا حاجة لهم بغيره حينما كانوا يدعون إلى الإيمان بالقرآن والنبوة المحمدية ، والفقرة الثانية من الآية تلهم أن هذا القول منهم كان فى مشهد حجاج ودعوة مواجه كما هو المتبادر .

٣ - وفى السورة نفسها أيضا الآيات التالية :

« قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ الدّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خالِصَةً مِّنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ . ولَنْ يَتَمَنَّوْهُ أبدًا بِما قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ واللهُ عَلِيمٌ بالظّالِمِينَ ... ٩٤ - ٩٥

والمتبادر أن تحدى اليهود فى الآية الأولى قد كان جواباً على موقف حجاج وتبجح قالوا فيه إنهم وحدهم على الهدى ، وإنهم من أجل ذلك هم وحدهم أصحاب الحظوة عند الله فى الآخرة . ولقد جاء فى سورة الجمعة تحد مقارب لهذا التحدى ردا على تبجحهم بأنهم أولياء لله من دون الناس ، كما ترى فيما يلى :

« قُلْ يا أيُّها الَّذِينَ هادُوا إنْ زَعَمْتُمْ أنَّكُمْ أوْلِياءُ لِلّهِ مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ . ولا يَتَمَنَّوْنَهُ أبَدًا بِما قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ واللهُ عَلِيمٌ بالظّالِمِينَ ... ٦ - ٧

مما يدل على أن هذا التبجح منهم فى المشاهد الحجاجية كان يتكرر آنا بعد آخر .

٤ - وفى سورة البقرة كذلك الآية التالية :

« وقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلّا مَنْ كانَ هُودًا أوْ نَصارَى تِلْكَ أمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ... ١١١

وهذه الآية متصلة فيما هو المتبادر بالموقف التبجحى الذى ذكرناه فى الفقرة السابقة ، لأنها من سلسلة واحدة مع الآيات السابقة لها ؛ وقد لاحظنا فى مكان سابق أن ذكر النصارى هو من قبيل التعميم لكل من يتمسك بما هو عليه ويزعم أنه على حق . ومع ذلك فاليهود على كل حال ممن حكى القول عنهم .

٥ - وفى السورة نفسها الآية التالية :

« وقالُوا كُونُوا هُودًا أوْ نَصارَى تَهْتَدُوا ... ١٣٥

وهذه أيضا متصلة بالموضوع نفسه ، وهى من سلسلة واحدة ، إذ قالوا متبجحين إن الهدى إنما هو فى اليهودية ؛ وما قلناه آنفاً فى صدد ذكر النصارى يصح هنا بطبيعة الحال ،

٦ - وفى سورة آل عمران الآية التالية :

«ومِنْ أَهْلِ الكِتَٰبِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ومِنْهُم مَّنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ...

٧٥

وجمهور المفسرين والرواة على أن قائلى « ليس علينا فى الأميين سبيل » هم اليهود ، وهذا متصل بفكرة أنهم شعب الله المختار ، وأنهم ليس عليهم تبعة أى عمل يصدر منهم ضد أى شخص من الأميين ، أى غير الكتابيين ، وبكلمة ثانية من غيرهم[1] لأنهم لا يعترفون بالنصرانية وإنجيلها . وواضح أن قولهم هذا من باب الزهو والغرور والترفع عن الغير ، كما أن فيه فتوى لأنفسهم باستحلال ما فى أيدى الغير دون ماحرج .

ولقد جاء فى سورة النساء آيات تمت إلى هذا الخلق الذى لايتورعون عن التبجح به وهى :

«أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ المُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَىٰهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ الكِتَٰبَ والحِكْمَةَ وءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ...

٥٣ - ٥٤

إذ وصفتهم بأنهم إذا صار لهم ملك شىء أو سلطان ما فإنهم يحتكرون كل منفعة لأنفسهم ، ولا يدعون للغير أى مجال للانتفاع بأى شىء مهما كان تافهاً ؛ كما أن من خلقهم حسد غيرهم على أى نعمة تصيبهم أو فضل ينالهم من الله ، مع أن الله قد آتاهم نعماً عظيمة تمتعوا بها من فضله .

٧ - وفى سورة آل عمران أيضاً الآية التالية .

---

(١) صار المقصود من الأميين فى القرآن « العرب » أيضا ، لأن اليهود حينما كانوا يقولون الأميين لم يكن أمامهم غير عرب الحجاز تقريبا . وقد وصف النبى بالأمى فى آيات سورة الأعراف ١٥٧ - ١٥٨ بمعنى العربى ، كما وصف العرب بالأميين فى آيات سورة الجمعة الأولى وغيرها .

«لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ... ١٨٨

وجمهور المفسرين والرواة على أن المقصود فى الآية علماء اليهود. ومما روى فى صددها أن النبي صلى الله عليه وسلم سألهم عن أمر فأجابوه إجابة غير صحيحة ثم أخذوا يزهون بعلمهم، مع أن كذبهم لم يلبث أن انفضح؛ فنزلت الآية تندد بهم وتتوعدهم؛ ومهما يكن من أمر فالموقف التبجحى واضح فى الآية.

٨ - وفى سورة النساء الآيات التالية:

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ... ٤٩ - ٥٠

وقد روى أن الآيتين نزلتا بمناسبة تبجح صدر من اليهود بأن الله يكفر عنهم فى النهار مايقترفونه من ذنوب فى الليل، ويكفرعنهم فى الليل مايقترفونه فى النهار؛ وعلى كل حال فالتبجح واضح فى الآية، وهو متصل بدعوى الحظوة عند الله.

٩ - وفى سورة المائدة الآية التالية:

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ... ١٨

وقد تضمنت حكاية تبجح صريح وعجيب ورداً عليه، والقسم الثانى من الآية يدل على أنه صادر فى موقف حجاجى. وقد استهدفت الآية دحض دعوى الحظوة والشعب المختار؛ كما استهدفت الآيات الأخرى ذلك أيضاً. ومما يجدر التنبيه إليه أن القرآن المكى والمدنى قد احتوى تقرير تفضيل الله اليهود على العالمين [1] مما يمكن أن يوهم تناقضاً فى التقريرات القرآنية؛ ولسنا نرى ذلك؛ إذ الأولى صرف التفضيل إلى

---

(١) الجاثية ١٦ والبقرة ٤٧ مثلا.

بعثة موسى عليه السلام ، وعدم ضرورة أن يكون ذلك مستمراً كما هو المتبادر ؛ لا سيما أن القرآن مكيه ومدنيه قد ذكر ما كان من انحراف اليهود واستحقاقهم لغضب الله ونكاله فى السابق واللاحق ، وفسق كثير منهم ، وجواب الله لإبراهيم عليه السلام بأن عهده لا ينال الظالمين من ذريته [٢] .

هذا بقطع النظر عما إذا كان القول المحكى فى الآية قد صدر عن اليهود والنصارى فى مجلس أو مجالس ، أو أنه تعبير عن لسان حالهم ؛ فإنها تحتوى صراحة أن اليهود ممن صدر عنهم القول كما هو ظاهر .

---

(٢) الأعراف ١٢٨ - ١٥٦ و ١٦١ - ١٦٩ والبقرة ١٢٤ والحديد ٢٦ وكثير من الآيات التى نقلناها فى هذا المبحث وخاصة آيات البقرة وآل عمران والنساء .

# المبحث الثالث

## دسائس اليهود بين المسلمين وتآمرهم عليهم مع المنافقين والمشركين

مدى دسائس اليهود ومؤامراتهم - أولا دسائسهم : تظاهر اليهود بالايمان وتواصيهم بعكسه - تدليسهم باسم التوراة - محاولتهم تشكيك المسلمين في صحة أعمال النبي وخاصة في أمر تحويل القبلة - كتمهم ما في التوراة من المحرمات بقصد التشكيك - تآمرهم على التظاهر بالايمان ثم الرجوع عنه لتشكيك المسلمين - تدليسهم بحلف الايمان - دسهم بقصد إثارة الفتن والشكوك - صورة بليغة عن بغض اليهود للمسلمين وتربصهم بهم - محاولات علماء اليهود في التدليس والاضلال - سخرية اليهود بالاسلام والصلاة والأذان - دور أحبار اليهود في الموقف الجحودي اليهودي العام . ثانيا تآمرهم مع المنافقين : تمازج المنافقين واليهود وأثر هؤلاء في نمو أولئك - مدى وصف اليهود بشياطين المنافقين - موالاة المنافقين لليهود - وعدهم لهم بالطاعة - موقف تآمر صريح بين المنافقين واليهود في ظروف إجلاء بني النضير - موقف إعلان صريح من المنافقين بتمسكهم بولائهم لليهود - تعليق في صدد تولي المنافقين لليهود . ثالثا تآمرهم مع المشركين : خطورة الصور القرآنية لهذا التآمر على قلتها - تشجيع المشركين على الثبات على الشرك وإيمانهم بآلهتهم بسبيل التحالف معهم للقضاء على الكيان الاسلامي - بعد مدى ما ساقهم إليه الحقد من بشاعة الموقف - مظاهرة اليهود لجيوش الأحزاب التي غزت المدينة كنتيجة للتحالف - موالاة اليهود للكفار بالرغم من تظاهرهم بالايمان - صورة بليغة من عدائهم للمسلمين .

— ١ —

في القرآن صور عدة لدسائس اليهود بين المسلمين وكيدهم لهم وللدعوة الإسلامية ، وتآمرهم عليهم مع المنافقين من جهة والمشركين من جهه أخرى ، تدل على بعد مدى ما كان من سوء نيات اليهود ضد المسلمين وشدة نكايتهم فيهم ، وتوسلهم بكل وسيلة إلى محاربة الإسلام وتقويض أركانه كما ترى فيما يلي :

— ٢ —

**أولا : دسائس بين المسلمين :**

١ — فى سورة البقرة الآيات التالية :

« وءامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا معكم ولا تكونوا أول كافرٍ بِهِ ولا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وإيّاىَ فاتقونِ . ولا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ... ٤١ - ٤٢

وقد تضمنت نهى اليهود عن كتم الحق وإلباسه بالباطل عن قصد ؛ والمتبادر أن هذا إنما كان منهم تجاه الغير ، وبقصد الدس والتشكيك والصد ، والراجح إن لم نقل المحقق أن هذا كان منهم إزاء المسلمين ، لاسيما أن آيات أخرى كثيرة قد أكدته بصراحة . ويلاحظ أن الآيات من أبكر ما نزل فى المدينة ، ومعنى هذا أن الدس بين المسلمين قد أخذ يقع من اليهود مبكراً جدا ...

٢ — وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وإذا لَقُوا الَّذِينَ ءامَنُوا قالُوا ءامَنَّا وإذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ... ٧٥ - ٧٦

والآيات تقرر من جهة فقدان الأمل بارعواء اليهود وإيمانهم بالنبي ، وتتضمن من جهة أخرى صورة من صور تدليسهم على المسلمين ونفاقهم ، وصورة أخرى لتآمرهم عليهم بالتواصى بأن لايصدر منهم أى اعتراف بحقيقة قد يكون فيها متمسك أو حجة عليهم ...

٣ — وفى السورة نفسها الآية الآتية :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا واسْمَعُوا وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ١٤٠

يضاف إليها الآيات ١٠٥ - ١٠٩ التى نقلناها فى بحث تبديل القبلة . ولهذه الآيات مع الآية ١٠٤ صلة بالمبحث الذى نحن فى صدده ، إذ احتوت تحذيرات متنوعة

للمسلمين من حسد اليهود ودسائسهم والجرى على أساليبهم ؛ فاليهود كانوا يتخذون خطاب المسلمين للنبي صلى الله عليه وسلم بكلمة « راعنا » وسيلة لأذاه ، فيلوون ألسنتهم بالكلمة ليكون معناها وصف النبي بالرعونة سخرية به ، فنهوا عن ذلك ؛ وقد حذروا من تعجيز النبي صلى الله عليه وسلم بالأسئلة والمطالب تقليداً لأسلافهم الذين عجزوا موسى بمثل ذلك . مما يلهم أن اليهود قد نجحوا فى دسهم وتشكيكهم بين المسلمين حتى صار بعضهم يجادل ويسأل ويبدو منه بعض الشك ، وقد رجحنا أن هذا قد كان فى ظروف تبديل القبلة . وقد حذروا تحذيرين آخرين : فاليهود لا يريدون أن ينالهم خير من ربهم ، ويودون أن يرتدوا عن دينهم كفاراً ، حسدا للمسلمين وغيظاً من إسلامهم والتفافهم حول النبي صلى الله عليه وسلم . وخلال كل هذا تبدو أصابع اليهود الدساسة بين المسلمين واضحة كما ترى .

٤ - ويسلك فى هذه السلسلة آيات القبلة ١٤٢ - ١٥٢ التى نقلناها سابقاً ، إذ احتوت الإشارة إلى مواقف الدس والتشكيك اليهودية ، مما شرحناه فى مناسبته .

٥ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« يَـٰأَيُّها الَّذِينَ ءامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ ما رَزَقْنَـٰكُمْ واشْكُرُوا لِلهِ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعبُدُونَ . إنَّما حَرَّمَ عَلَيكُمُ المَيْتَةَ والدَّمَ ولَحْمَ الخِنْزِيرِ وما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ولا عادٍ فَلا إثْمَ عَلَيْهِ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الكِتَـٰبِ ويَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰئِكَ ما يَأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ إلَّا النَّارَ ولا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَـٰمَةِ ولا يُزَكِّيهِمْ ولَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ . أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَـٰلَةَ بِالْهُدَىٰ والعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ وإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فى الكِتَـٰبِ لَفِى شِقاقٍ بَعِيدٍ ...

١٧٢ - ١٧٦

والمقصود من الجملة فى الآيات ١٧٤ - ١٧٦ هم علماء اليهود على ما قاله جمهور

المفسرين . وورود آية المحرمات مع الحملة عليهم أن هؤلاء العلماء قد وقفوا موقف دس وتشكيك من المسلمين بشأنها ، كاتمين أنها مما حرمته التوراة ، فاستحقوا هذا التقريع والإنذار ، وتنبيه المسلمين إلى الحق فى الأمر ، وإلى أن علماء اليهود إنما يكتمون ما فى كتابهم من الحق المتسق مع التقرير القرآنى بقصد بث الشك فيهم وإضلالهم عن الهدى .

— ٢ —

٦ — وفى سورة آل عمران الآيات التالية :

« وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ اللهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ . يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ... ٦٩ - ٧٣

والجمهور على أن أهل الكتاب هنا أيضاً هم اليهود ؛ وفى الآيات قرائن عدة على ذلك ؛ فالصفات والأفعال المنسوبة إليهم مما نسب فى غيرها لليهود صراحة كما مر فى آيات البقرة . ويبدو أن الآيتين الأوليين تضمنتا تمهيداً تنديدياً لما حكته الآيات التالية لها ؛ أما الآيات التالية فقد تضمنت صورة دسّ وتشكيك بشعة جدا ، إذ حكت تآمر اليهود فيما بينهم على التظاهر بتصديق القرآن والإيمان به ، حتى إذا اطمأن المسلمون لهم أعلنوا شكوكهم وارتيابهم فى بعض المسائل ؛ فأحدثوا بلبالا وريباً فى المسلمين وثغرة فى صفوفهم ؛ وقد حكت كذلك تواصيهم فيما بينهم بعدم الاعتراف بحقيقة مواقفهم ومقاصدهم ومعارفهم إلا بعضهم لبعض ، وبعدم الاطمئنان

إلا لمن دان بدينهم ؛ لئلا ينتفع بذلك غيرهم ويكون لهم عليهم الحجة ، أو ينفذون إليهم من ثغرة ما .

٧ - وبعد قليل من هذه الآيات جاءت الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰئِكَ لاخَلَـٰقَ لَهُمْ فى الآخِرَةِ ولا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ولا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ ولا يُزَكِّيهِمْ ولَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ . وإِنَّ مِنْهُم لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَـٰبِ وما هُوَ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمُونَ ...

٧٧ - ٧٨

والآيتان من سلسلة وسياق واحد ، والجمهور على أن المقصود فى الآية الثانية هم علماء اليهود ؛ وقد تضمنت صورة من صور التدليس على المسلمين بقصد التعالم وكسب الثقة وضمانة المنفعة الخاصة ؛ ويبدو من فحوى الآية الأولى أنهم كانوا يحلفون الأيمان على صحة ما يقولون من الأكاذيب والافتراءات على الله ليضمنوا الأهداف الدنيوية التى يهدفون إليها ...

ومن المحتمل أن تكون الجملة المنطوية فى الآية الأولى ، والتقرير الذى احتوته الآية الثانية ، متصلين بالمؤامرة التى حكتها الآية ٦٩ - ٧٤ ، وأن يكون فريق من علماء اليهود قد نفذوها ، وأنهم أخذوا يقسمون الأيمان على صدق ما قرروه من مناقضات النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن لما عندهم ، تحقيقاً لهدفهم وهو تشكيك المسلمين ، وردهم إلى الكفر ، وتفريقهم عن النبي أو إيجاد ثغرة فى صفوفهم .

ولقد جاء بعد قليل الآيات التالية :

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ولَهُ أَسْلَمَ مَنْ فى السَّمَـٰوَاتِ والْأَرْضِ طَوْعًا وكَرْهًا وإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ . قُلْ ءَامَنَّا بِاللهِ وما أُنزِلَ عَلَيْنا وما أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْراهِيمَ وإِسْمَـٰعِيلَ وإِسْحَـٰقَ ويَعْقُوبَ والْأَسْباطِ وما أُوتِيَ مُوسَىٰ وعِيسَىٰ

والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخسرين . كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمنهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينت والله لا يهدى القوم الظلمين . أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملئكة والناس أجمعين . خلدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ... ٨٣ - ٨٩

ومن المحتمل أن تكون الآيات الأولى قد استهدفت رد دعوى المناقضة التى ادعاها اليهود تحقيقاً لمؤامرتهم ، وتوكيد إيمان النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين بكل ما جاء به الأنبياء السابقون بالإضافة إلى ما أنزل عليهم ، دون تفريق بين أحد ، ودون تردد ما ، وبكل إسلام وانقياد ؛ مما هو متصل بالرد عليهم أيضا على ما هو المتبادر . والآية ٨٦ تلهم أكثر من الآيات السابقة أن فريقا من اليهود قد نفذ المؤامرة ، فأعلن إيمانه بالرسالة النبوية والتنزيل القرآنى ، وشهد أنهما حق ؛ ثم مالبث أن أعلن ارتداده لإثارة الشك فى المسلمين ، فاستحق هذه الحملة الشديد المتناسبة مع بشاعة المؤامرة ، واحتمالات آثارها الوخيمة .

ونحب أن نلفت النظر إلى مدى الآية الأخيرة ، إذ يتسق مع مبادىء القرآن العامة من إبقاء الباب مفتوحاً لكل إنسان جاحداً كان أم مذنبا ليصلح أمره ، ويتوب عن موقف الإثم والجحود فيقبل منه ذلك ؛ وإذ يدل على أن هذا لليهود كما هو لغيرهم على السواء ، وعلى أن فكرة التعصب ضد اليهود دينا وعنصراً لم يكن لها أساس أو محل فى الدعوة النبوية والسيرة النبوية خلافاً لما يزعمه المغرضون .

- ٣ -

٨ - وفى سورة آل عمران أيضا الآيات التالية :

« قل يأهل الكتب لم تكفرون بآيت الله والله شهيد على

ما تعملون . قل يأهل الكتب لم تصدون عن سبيل الله من ءامن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغفل عما تعملون يأيها الذين ءامنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتب يردوكم بعد إيمنكم كفرين ... ٩٨ - ١٠٠

والفريق المقصود هنا هو اليهود أيضا على ما قاله الجمهور ، والاستنكارات التي احتوتها الآيتان الأوليان مماثلة لاستنكارات آيات البقرة الموجهة لليهود بصراحة ، مما يقوم قرينة على ذلك . ولقد روى أنها نزلت بسبب محاولة بعض اليهود إثارة الفتنة بين الأوس والخزرج مدفوعين بالغيظ من اجتماع شملهم والتفافهم حول النبي ، وعدم نجاحهم فيما حاولوه من دس وتشكيك . ولقد جاء بعد هذه الآيات آيات فيها أمر للمسلمين بالاعتصام بحبل الله وعدم التفرق ، وتذكير لهم بما كان بينهم من عداء انقلب بنعمة الله إلى أخوة ، وبما كانوا عليه من ضلال تبدل إلى هداية ، مما يمكن أن يدعم تلك الرواية كما ترى فيها :

« وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم ءايت الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صرط مستقيم . يأيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخونا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم ءايته لعلكم تهتدون ...

١٠١ - ١٠٣

على أنه مما يحتمل أن تكون الآيات ٩٨ - ١٠٠ قد نزلت لمناسبة موقف دس وتضليل ديني أيضا ، لأنها تندد باليهود لمحاولتهم صد المؤمنين عن سبيل الله وإقامة العثرات في طريقهم ، مع يقينهم صدق النبوة والتنزيل ؛ كما أن من المحتمل أن يكون هذا الموقف قد أثر في بعض المسلمين أيضا .

ومهما يكن من أمر فالآيات تضمنت صورا لمواقف دس وتضليل وإفساد وفتنة وقفها اليهود من المسلمين والدعوة الإسلامية ، واستهدفوا بها إيجاد ثغرة فى صفوف المسلمين : ويبدو من صيغة الآيات وقوة تحذيرها للمسلمين وتنديدها باليهود أنه كاد يكون لهذه المواقف أثر غير محمود لولا أن تدارك الله المسلمين بتثبيته وهدايته .

— ٤ —

٩ - وبعد هذه الآيات جاءت الآيات التالية :

١ — وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ...

١٠٤ - ١٠٥

٢ — كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ . لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ... ١١٠ - ١١٢

والمتبادر أن الآيات استمرار لسابقاتها فى تحذير المسلمين وتنبيههم إلى ما هو الأولى بهم ؛ وقد احتوت الآيات الأخيرة تهوينا لشأن اليهود وقوتهم ومدى أذاهم ، وإشارة إلى الطابع العام الدائم الذى دمغوا به من الذلة والمسكنة وغضب الله ، بسبب كفرهم وتمردهم وبغيهم وسوء نياتهم . والتقريرات التى احتوتها متصلة بما

كان من الدسائس اليهودية بين المسلمين ، ومنبهة المسلمين إلى واجبهم من التضامن والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنهم بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وقد ربطت بين مواقفهم ومواقف آبائهم ، وحالتهم وحالة آبائهم ، فقررت أن هذا الواقع الذى فيه اليهود المعاصرون هو متصل بما كان عليه أسلافهم جيلا بعد جيل .

ويبدو من الآية (١١١) أن بعض المسلمين كانوا يخشونّ ما لليهود من قوة مال وعدد وحصون وسلاح ، وأن هذه الخشية كانت منفذا ينفذ اليهود منهم إليهم فى الدس والكيد مطمئنين إلى عدم جرأة المسلمين على التنكيل بهم التنكيل الذى يستحقونه ، فقد استهدفت هى والآية التالية لها تهوين قوتهم وشأنهم ، ولفت نظر المسلمين إلى واقع أمرهم من الذلة والمسكنة والجبن ؛ ويلمح من هذا بدء تطور إزاء بغاة اليهود الذين لم يتورعوا عن أى موقف من مواقف الأذى والكيد والدس وإثارة الفتنة ؛ ولقد أشرنا فى فقرة سابقة إلى ما تضمنته الفقرة الأخيرة من آية البقرة ١٠٩ من معنى خطير ؛ ويبدو من الآية ١١١ هذه أن الوقت الذى هدئ فيه المسلمون الساخطون على اليهود إلى أن يحين ، قد أخذ يحين بما ازداد اليهود فيه من بغى وكيد وأذى وإثارة فتنة ؛ فاحتوت الآية هذا التهوين الذى احتوته ، تسكينا لروع الخائفين ؛ ولعل التنكيلات باليهود قد أخذت طريقها التنفيذى بعد ذلك .

١٠ - وفى سورة آل عمران أيضاً الآيات التالية :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ[١] قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَٰأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَٰبِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا

---

(١) خبالا : فسادا وضعفا وتشويشا . عنتم : ان تصيبكم الشدائد والمشاق .

وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ...

١١٨ - ١٢٠

والجمهور على أن الآيات تعنى اليهود ، ومضامينها تدعم هذا إذا ما أنعم النظر فيها ، وفيها الصفات نفسها التى وصف بها اليهود بصراحة فى آيات أخرى

ولقد تضمنت صورة قوية وبليغة لعداء اليهود الشديد ومكرهم ، ونية الشر والكيد والبغض فيهم ضد المسلمين ، والغيظ مما بلغ أمر هؤلاء إليه من القوة والتعالى ، وقد حذرت المسلمين من أجل ذلك من موالاتهم واختلاطهم بهم ، وإطلاعهم على أمورهم وأسرارهم مما تتضمنه كلمة « بطانة » وليس من شك فى أن هذا قد كان مستندا إلى المواقف المتنوعة والكثيرة ، العلنية والسرية ، القولية والفعلية ، التى وقفها اليهود من النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والدعوة الإسلامية . والآيات تلهم ما كان من قوة الروابط التى كانت تربط بعض العرب باليهود ، وقوة أثر هؤلاء فيهم ؛ مما يفسر حكمة تفصيل نيات اليهود وحقيقة أمرهم ومواقفهم تجاه المسلمين للتأثير فى الذين يميلون إلى التمسك بولائهم لليهود وحملهم على الانسحاب منه .

ولقد جاء فى سورة النساء نهى آخر فيه شىء من العتاب كما ترى فى الآية التالية :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَتَّخِذُوا الكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ ... ١٤٤

وهذه الآية من سلسلة فيها حملة على المنافقين تلهم أن الكافرين المعنيين مباشرة فيها هم اليهود ؛ وقد استهدفت الآية ما استهدفته الآيات السابقة ، كما أن فيها نفس الدلالة التى ذكرناها آنفا كما هو المتبادر .

ولعل مما يصح أن يقال إن هذه الآيات تمت إلى ذلك التطور الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة ، وتمهد له السبيل فى نفوس بعض المسلمين الذين غفلوا عما يبيته اليهود لهم .

- ٥ -

١١ - وفى سورة النساء الآيات ٤٤ - ٤٦ التى نقلناها فى مبحث مواقف اليهود الحجاجية ، فإن لها صلة بهذا المبحث أيضا ؛ إذ تضمنت صورة للعداء والدسائس اليهودية ، من عدم تورع اليهود عن المكابرة والارتكاس فى الضلال ومناقضة وصايا كتابهم وتعاليمه ، وتحريفهم له ، وتأويلهم إياه تأويلا باطلا بقصد

إضلال المسلمين وتشكيكهم فى دينهم وشق صفوفهم . والصورة هنا أقوى منها فى الآيات السابقة التى تضمنت صوراً مماثلة كما يبدو منها ؛ وتكرار التنديد بهذه الصورة يدل على توالى صدورها منهم بطبيعة الحال . ويلاحظ هنا أن اليهود قد وصفوا بأنهم أعداء المسلمين ؛ ولعل هذا الوصف يأتى فى القرآن لأول مرة . ومما لا ريب فيه أن هذا إنما كان بسبب استمرارهم فى المواقف الكيدية والمؤذية السرية والعلنية، والقولية والفعلية التى وقفوها .

١٢ - وفى سورة المائدة الآيات التالية :

« يَٰأَيُّها الَّذِينَ ءامَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا ولَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ والكُفَّارَ أَولِياءَ واتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وإذا نَادَيْتُمْ إلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوها هُزُوًا ولَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ . قُلْ يَٰأَهْلَ الكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إلَّا أَنْ ءامَنَّا بِاللهِ وما أُنْزِلَ إِلَيْنا وما أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ . قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عَلَيْهِ وجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنازِيرَ وعَبَدَ الطَّٰغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكانًا وأَضَلُّ عَن سَواءِ السَّبِيلِ . وإذا جاءُوكُمْ قالُوا ءامَنَّا وقَد دَّخَلُوا بِالكُفْرِ وهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ واللهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ . وتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فى الإِثْمِ والعُدْوَٰنِ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ لَوْلا يَنْهَىٰهُمُ الرَّبَّٰنِيُّونَ والأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ ... ٥٧ - ٦٣

ومضامين الآيات وخاصة الآية ٦٠ تدل على أن المقصود من أهل الكتاب فيها هم اليهود ، إذ وصفوا بالصفات التى تضمنتها أكثر من مرة : والربانيون والأحبار هم علماء اليهود خاصة أيضاً .

وفى الآيات تحذير للمسلمين من موالاة اليهود ، وتعليل بأنهم اتخذوا دينهم ونداءهم إلى الصلاة ، أى أذانهم ، هزواً ولعباً . وفى هذا صورة لمواقف المكر والاستخفاف اليهودية من المسلمين ودينهم وصلاتهم ، وقد يكونون استهدفوا بها - فوق دلالتها على غيظهم وجبلتهم الخلقية - إلقاء الريب فى قلوب المسلمين فيما هم عليه .

وفى الآيات صورة أخرى لمكرهم ، إذ كانوا يأتون إلى المسلمين فيعلنون إيمانهم وهم كاذبون ، وإنما يفعلون ذلك من قبيل التدليس والمكر والتضليل ؛ ولعلهم كانوا يستهدفون بذلك كسب ثقة المسلمين وطمأنينتهم حتى يكون مكرهم ودسهم وتضليلهم أنفذ .

وفيها إلى ذلك استطراد لذكر ما كانت عليه أخلاقهم من قول الإثم وأكل السحت ، ومن سكوت ربانييهم وأحبارهم عن ذلك ، مما يرجح أن يكون لهذا الاستطراد صلة بمواقف المكر والأذى ، وقصد لتقرير اندماج الربانيين والأحبار فى تلك المواقف وهذه الأخلاق .

ولقد جاء فى سورة التوبة : بضع آيات فى حق أهل الكتاب وقتالهم ومنها هذه الآيات :

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَٰفِرُونَ . هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ... ٣٢ - ٣٤

والآيات صريحة الدلالة على ما كان للأحبار اليهود من موقف الصد والتعطيل ، وما كان لهذا الموقف من أثر فى جحود جمهور اليهود للنبوة المحمدية ، وعدم استجابتهم للدعوة الإسلامية ؛ ويبدو منها أن هؤلاء الأحبار كانوا شديدى التعلق بأعراض الدنيا ، وكانوا يصدون عن سبيل الله قصد إطفاء نوره وتعطيل دعوة نبيه لتبقى لهم

الرياسة والمكانة والطاعة ، مهما كانت الوسيلة مناقضة للحق . ولعل من الصواب أن يقال استلهاماً من هذه الآيات وغيرها إن أحبار اليهود وربانييهم بالتضامن مع زعماء اليهود قد تولوا كبر المعارضة والمحاجة ، والمشاقة والدسائس والتآمر والكيد والتشويش .

— ٦ —

ثانياً تآمر اليهود مع المنافقين .

١ ـ لعل أول آية ذكرت فيها صلات اليهود بالمنافقين هي آية البقرة هذه :

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ... ١٤

وقد قلنا فى مناسبة سابقة إن الجمهور على أن « شياطينهم » تعنى اليهود ؛ والكلام فى الآية حكاية قول المنافقين ، وهى من سلسلة وصفية لهؤلاء حمل عليهم فيها حملة شديدة ؛ ووصف اليهود بأنهم شياطين المنافقين أى الذين يوسوسون إليهم ويغوونهم من جهة ، وذكر اختلاء المنافقين بهم من جهة أخرى ، يدلان بصراحة على الأثر الكبير لليهود فى حركة النفاق والمنافقين ، كما يدلان على التضامن الوثيق الموطد بين الفريقين تجاه الدعوة الإسلامية .

والآية من أبكر ما نزل من القرآن المدنى على الأرجح ، وهذا التبكير يدل على ما كان من جدّ اليهود فى تغذية وتقوية جبهة النفاق ، وعلى نجاحهم فى سعيهم وقيام حالة تواثق وتآمر بينهم وبين المنافقين منذ وقت مبكر من العهد المدنى .

وإذا لاحظنا الدور الباغى الذى قام به المنافقون على ما سوف نشرحه بعد ، وما كان له من آثار ضارة ، ثم لاحظنا ما كان يربط بين المنافقين والمخلصين من الأوس والخزرج من أوشاج القربى ، وما كان لعصبية القربى من قوة فى المجتمع العربى ، وما كان ينتج عن وقوف بعض ذوى القربى ضد بعضهم من مشاكل ومواقف محرجة ومؤذية فى الوقت نفسه للكيان الإسلامى وحركة الدعوة الإسلامية ؛ بدت لنا شدة النكاية وبعد مدى الأذى فيما كان من جد اليهود فى تغذية وتقوية جبهة

النفاق، ونجاحهم فى سعيهم ، وقيام حالة التضامن والتآمر بينهم وبين المنافقين منذ الوقت المبكر على ما تلهمه الآية .

٢ - فى سورة النساء الآيات التالية :

« بَشِّرِ الْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذابًا أَلِيمًا . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَـٰفِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ... ١٣٨ - ١٣٩

وجمهور المفسرين على أن الكافرين هنا هم اليهود؛ وفى الآية قرينة على صحة ذلك ، كما أن فيما بعدها قرينة ثانية أيضاً . وواضح أن اتخاذ المنافقين اليهود أولياء ، وتواثقهم معهم ، إنما هما أثر من آثار التآمر الموطد بين اليهود والمنافقين تجاه الدعوة والقوة الإسلامية .

٣ - فى سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَـٰرِهِم مِّن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ ... ٢٥ - ٢٦

والجمهور على أن الآية الأولى عنت المنافقين ، وأن الذين كرهوا ما نزل الله هم اليهود ؛ وهكذا تبدو فى الآية الثانية صورة من صور التآمر بين الفريقين ضد الإسلام والمسلمين . ونلفت النظر إلى ماحكته الآية الثانية من وعد المنافقين لليهود بطاعتهم والسير على الخطة التى يضعونها ، ففى هذا كما هو ظاهر صورة لبعض ما كان لليهود من التوجيه والتأثير والنفوذ فى المنافقين وحركتهم وأعمالهم .

٤ - فى سورة المجادلة الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ... ١٤

والجمهور كذلك على أن الآية فى صدد تولى المنافقين لليهود ؛ وفيها والحالة هذه صورة من صور ذلك التآمر .

٥ - فى سورة الحشر الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ... ١١

والذين كفروا من أهل الكتاب هم اليهود ، لأن الآيات السابقة هى فى صدد حادث تنكيل بهم ؛ وفى الآية صورة قوية للتضامن والتحالف الوثيقين بين اليهود والمنافقين ؛ كأثر من آثار التآمر الموطد بينهما .

٦ - فى سورة المائدة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ... ٥١ - ٥٢

والآية الأولى وإن كانت شملت اليهود والنصارى فإن الموضوع المباشر للنهى على ما تلهمه الآية الثانية ورواية نزولها ، هو اليهود ؛ لاسيما أن المدينة لم يكن فيها من يسارع المنافقون إلى توليهم خشية الدوائر إلا اليهود ، إذ لم يكن فيها كتلة نصرانية عدو .

وقد روى المفسرون والرواة أن الآية الثانية نزلت بمناسبة مشادة بين كبير المنافقين عبد الله بن أبيّ وأحد زعماء المسلمين ، إذ قال هذا إنى برىء من اليهود ؛ فقال الأول أما أنا فلا أتبرأ منهم لأنى أخشى الدوائر ؛ وعلى كل حال فى الآية الثانية صورة للتواثق الشديد بين المنافقين واليهود وأثر من آثار التآمر بينهما

— ٧ —

ولقد يرد ـ فى صدد الحملة على المنافقين لتوليهم اليهود فى آيات هذه الفقرة وغيرها

مما نقلناه قبل ـ أنه كان بين الأوس والخزرج وبين اليهود عهود ومواثيق ، وأن النبي قد أبقى عليها وجددها ، وأن تمسك فريق من العرب بها أو اعتبار أنفسهم مقيدين بها مما لاغبار عليه ، لأنه مما توجبه واجبات الوفاء .

وجواباً على هذا نقول أولا : إن المنعى عليهم هم فريق المنافقين فقط الذين وقفوا منذ بدء الهجرة النبوية من النبي ودعوته موقف الكيد والمكر والتآمر ، فى حين أن تلك العهود والمواثيق قد كانت بين اليهود وسائر بطون الأوس والخزرج ؛ ومعنى هذا أن المسلمين المخلصين استجابوا لتحذير القرآن والنبي الذى كان معللا بمواقف كيد اليهود ومكرهم ودسهم وتآمرهم ؛ وإذا كان بعض المسلمين تردد أو تأخر فى نفض يده من الولاء للحلف بينه وبين اليهود ، فإن الذين جاهروا بالتمسك به ولم يعبأوا بالتحذير والنهى بوقاحة وإصرار وتمرد هم المنافقون فقط ، وهذا يدل بصراحة وقوة على أن الباعث لهم على هذا الموقف ليس الإخلاص للحلف ، وإنما ماجمع بين اليهود وبينهم من وحدة البغض والكيد للإسلام ونبيه ، وما توطد بين الفريقين من تواثق وتضامن وتآمر على النكاية بهما ، ولا يصح أن يعد من قبيل الوفاء بالعهود ، ولو أن المنافقين كانوا يعتذرون بذلك .

ونقول ثانياً : إن تلك المواقف التى حكاها القرآن عن اليهود من شأنها أن تكون نقضاً من جانبهم لتلك العهود والمواثيق ؛ ولقد اعتبرت كذلك بنص القرآن كما تلهمه الآيات التالية :

١ — أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ...

البقرة ١٠٠

٢ — إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ...

الأنفال ٥٥ - ٥٦

والآيات مما نزل مبكراً ، وهو أمر يدل على أن تلك المواقف قد اعتبرت نقضا منذ وقت مبكر ؛ فدعوة القرآن إلى عدم موالاتهم واتخاذهم بطانة وإطاعتهم وتحذيره ، هى شىء طبيعى لايتمحل فيه إلا مكابر أو مغرض .

وثالثا : تآمر اليهود مع المشركين :

إن الآيات الواردة عن تآمر اليهود مع الكفار والمشركين أقل مما ورد عن تآمرهم مع المنافقين ؛ وهذا طبيعى فيما يبدو ، لأن اليهود فى المدينة ، والصلات بينهم وبين أهلها أوثق ، والشقة بعيدة عن مكة التى كان زعماؤها قادة حركة العداء للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ؛ ومع ذلك ففى الآيات القليلة الواردة صور ذات خطورة كبيرة المغزى والأثر .

١ - فمنها الآيات التالية من سورة النساء :

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ...

٥١ - ٥٢

ولقد روى فى صدد الآيتين روايات مفادها أن وفداً من زعماء اليهود ذهب إلى مكة بعد واقعة أحد ليبحث فى أمر النبي والمسلمين مع زعمائها ، ويعرض عليهم حلفاً يهدف إلى القضاء عليهم بعد الضربة التى نزلت بهم نتيجة لتلك الواقعة ، وأنه لما تم الاتفاق على الحلف ذهب الوفد والزعماء إلى فناء الكعبة وألصقوا أكبادهم بها ، وأقسموا عند الأصنام التى حولها على البر فى الحلف ، والجهد فى تنفيذه ؛ ومما روى أن زعماء مكة استشهدوهم على من هو الأفضل دينا وسبيلا فشهدوا لهم أنهم هم الأهدى والأفضل . وليس فى الروايات مالا يتسق مع الآيات إلا كون الآيات أكثر صراحة إذ تذكر إيمانهم بآلهة الكفار .

ولعل أبشع ما فى الصورة ، بل أشنع ما كان من اليهود ، أن يدفعهم الحقد والحسد والعداء للنبي ودعوته إلى عدم التورع فى الشهادة الفاجرة بأن الشرك خير ، من التوحيد ، وأن آلهة المشركين وأصنامهم خير من إله محمد رب العالمين ، وأن ما عليه المشركون من عادات وتقاليد أهدى مما يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ثم إلى عدم التورع فى إعلانهم وإيمانهم بآلهة المشركين وتكريمهم لأصنامهم ؛ وهكذا ينكرون أساس دينهم الذى هو الإيمان بالله وحده ، فى سبيل محاربة النبي الداعي إلى ذلك ،

والناهي عن الشرك والاثم والفواحش ؛ وليس من ريب فى أن موقف هذا الفريق يدمغه بطابع من العار لا يمكن أن ينسى .

ولقد كان من نتيجة رحلة الوفد اليهودي وعقده الحلف مع زعماء مكة أن استنفر هؤلاء أهل مكة وأحزابهم وحلفاءهم ، وأن زحفوا بجيوش جرارة على المدينة - وهو ما عرف بواقعة الخندق - وأن زلزل هذا الزحف أعصاب المسلمين وأدخل فى قلوبهم الرعب ، وأن كاد يعصف فعلا بالإسلام والمسلمين لولا أن تداركهم الله بنعمته على ماسوف نذكره فى فصل الجهاد ؛ وقد وفى اليهود بالحلف ، فظاهروا الجيوش الزاحفة على المسلمين ، مما زاد فى حرج الموقف وشدة خطورته ؛ وهذا وذاك مما أشارت إليه الآيات فى سورة الأحزاب ؛

١ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ... ٩ - ١٢

٢ — وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا . وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ... ٢٥ - ٢٧

٢ - ومنها الآيات التالية فى سورة المائدة :

« لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَٰءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْن

مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ . لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ... ٧٨ - ٨٢

وقد ذكرت صراحة أن كثيراً من اليهود كانوا يتولون الكافرين ويتواثقون معهم ، ومما لاريب فيه أن هذا قد كان بسائق البغضاء التى كانت تجمع بين الفريقين للإسلام والمسلمين ، وبقصد التآمر على تقويض أركانهم وهدم بنيانهم ، وإذا لوحظ أن الكفار كانوا فى حالة حرب مستمرة مع اليهود ، بدا لنا أن ذلك التولى قد كان نوعا من المظاهرة الحربية وكان بالنتيجة شديد الخطورة بعيد المدى والأثر . ويبدو من الآية الأخيرة أن هذه المواقف منهم كانت مكشوفة ، وكانت آثارها ملموسة ، إذ وصفت اليهود بأنهم أشد الناس عداوة للمسلمين ، وقرنتهم فى هذه العداوة الشديدة بالمشركين الذين كان منهم ما كان من شديد الصد والأذى وكانوا فى حالة حرب مستمرة مع المسلمين .

ويستلهم من الآية ٨١ أن من اليهود من كان يتظاهر كذبا بالإيمان وتصديق النبي ؛ ففضحتهم وأقامت عليهم الحجة فى موقفهم الذى لا يمكن أن يحدث لو كانوا صادقين فى إيمانهم ؛ وهذه الصورة من الدس والمكر مما تكرر وروده فى آيات أخرى شرحناها سابقا ؛ غير أنها هنا مقترنة بما كان من تناقضهم واتخاذهم الكفار أولياء.

ولقد ربطت الآيات بين اليهود المعاصرين والسالفين فى الأخلاق والمكر وعدم التناهى عن الإثم والمنكر ، واستحقاقهم لعنة الله على ذلك جريا على الأسلوب القرآنى الذى يستهدف تقرير أن ما عليه المعاصرون من أخلاق وما يقفونه من مواقف هو جبلة متوارثة عن الآباء ...

# المبحث الرابع

## وقائع التنكيل باليهود وبواعثها ونتائجها

عداء اليهود وغدرهم منذ وقت مبكر ، تعدد فصول التنكيل - لكل فصل سببه - التنكيل جرى بمقدار الضرورة ، عدم خروج اليهود جميعهم من نطاق الكلام إلى الغدر والأذى فى وقت واحد - أثر عدم تكتلهم سياسيا وحربيا فى ذلك - إشارة إلى ماغمز به المغرضون النبي بسبب التنكيل وتفنيده - إجلاء بنى قينقاع وظروفه وتحليل الاشارات القرآنية إليه - تكملة الصورة بالروايات - إجلاء بنى النضير وتحليل ما فى القرآن عنه - تكملة الصورة القرآنية بالروايات - التنكيل ببنى قريظة وتحليل مافى القرآن عنه - تكملة الصورة بالروايات - الاشارات القرآنية إلى فتح خيبر والقرى اليهودية الأخرى وظروفه - تكملة الصورة بالروايات - الأسباب المحتملة لحملة - دلالة تساهل النبي مع أهل القرى .

— ١ —

إن اليهود لم يبقوا فى نطاق جحود نبوة النبي وتنزيل القرآن ، وفى نطاق المكايدات والمكابرات والمماحكات الكلامية طويلا ، بل تجاوزوه إلى الغدر ونقض العهد والعداء الفعلي الصريح منذ عهد مبكر على ما استدللنا عليه فى المبحث السابق من آيات البقرة ١٠٠ والأنفال ٥٥ - ٥٦ المبكرة فى النزول ؛ فكانت مواقفهم هذه سبباً مباشراً لدور التنكيل الذى بدأت فصوله فى الربع الأول من العهد المدنى، ثم استمرت إلى أن تم إجلاؤهم عن المدينة وخضد شوكتهم وإجلاء بعضهم عن أرباضها فى ظرف الربع الثانى والثالث منه .

ولقد تعددت فصول هـذا الدور ، وكان لكل فصل أسبابه الخاصة ، كما كان موضوع كل فصل فريقا دون آخر من اليهود ؛ وهذا يدل على أن التنكيل إنما كان يجرى بمقدار الضرورة وبقصد إزالة الضرر والخطر المتحقق من الفريق الذى حق عليه التنكيل فحسب ؛ كما يدل على أن اليهود لم يقدموا جميعهم على الخروج من نطاق الكلام إلى الغدر والعداء العملي فى وقت واحد ، ولعل من أسباب ذلك أنهم لم يكونوا مجموعى الشمل فى سلك كيان سياسى وحربى واحد ومتواثق ؛ بل كانوا

- والكلام فى صدد يهود المدينة خاصة لأنهم كانوا الأكثر والأقوى والأغنى ، والمحتكين بالنبي والمسلمين والمنافقين والمصطدمين بالنبي والمسلمين - كتلا مستقلة ، كل كتلة أو قبيلة لحدتها وتسكن فى محلة خاصة بها ؛ ولعله كان بينهم خصومات أيضاً ، بدليل أن كتلهم كانت متوزعة فى التحالف والولاء بين قبيلتى الأوس والخزرج اللتين كانتا فى خصومة قديمة على ماذكرناه فى مناسبات سابقة . وفى آيات البقرة ٨٤ - ٨٥ التى نقلناها من قبل دليل على ذلك ، إذ يستفاد منها أن كتل اليهود كانت تدخل فى الحرب بعضها ضد بعض . كل واحدة متضامنة مع فريق عربى يخاصم آخر ، وأن اليهودى كان يقتل اليهودى ويأسره ويجليه عن أرضه فيما كان ينشب بين الكتلتين المزدوجتين

ونحن نعرف أن بعض الكتاب من يهود ومبشرين ومستشرقين رأوا فى توالى فصول التنكيل باليهود ماجعلهم يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيت نية التنكيل بهم ، وإثارة حرب عنصرية دينية ضدهم من البدء ، وأنه إذا لم ينفذ نيته فيهم مرة واحدة فلأنه لم يكن له قبل بهم جميعاً ؛ وقد غمزوه بالنكث بما عاهدهم عليه من الحرية الدينية والاقتصادية والاجتماعية ، وبالميل إلى سفك الدم ، وبالطمع فى أموالهم وإغداقها على المسلمين إلخ ، مما صدر منهم بسائق الغرض والتعصب وعدم التروى فى فهم آيات القرآن التى احتوت مافيه الحجة القاطعة والبينة الحاسمة على زيف مازعموا وسفه ماغمزوا .

فالقرآن قد ذكر ( آيات البقرة ٨٤ - ٨٥ ) عدم تكتلهم وما كانوا يقعون فيه من جراء ذلك من مخالفات دينية فى قتل بعضهم بعضا وأسر وإخراج بعضهم بعضا فى معرض الذم والتنديد ؛ فلم يبق أى محل للارتياب فى أن ظروفهم الاجتماعية المتقدمة على البعثة - فضلا عن الهجرة - هى العامل فى عدم تكتلهم ، مما يسوغ الترجيح إن لم نقل الجزم بصحة ماقلناه من أنهم لم يخرجوا جميعهم فى وقت واحد من نطاق الكلام إلى الغدر والعداء العملى ، ومن أن التنكيل إنما كان يقع فى نطاق إزالة الضرر المتحقق من الفريق المبادر إلى الخروج من ذلك النطاق . ولقد احتوت الآيات القرآنية فى مختلف أدوار التنزيل المدنى - وقد أوردنا منها جملة صالحة فيما سبق - حكاية مواقف متنوعة وكثيرة لليهود فيها تعجيز وتحد ومكابرة ومجادلة وسخرية ، بل دسائس ومؤامرات فى صدد الجحود بالنبوة ، وتعطيل الدعوة ، وتشكيك المسلمين

فيهما ، كما احتوت مساجلات متنوعة معهم فى الجدل حينا ، والتنديد حينا ، والإفحام حينا ، والوعظ والتذكير والإنذار والتبشير حينا ، والدعوة إلى تخفيف الغلواء والانسجام والتوبة حينا ؛ وبكلمة أخرى لقد اتسع صدر النبي صلى الله عليه وسلم لهم سعة كبيرة ، وتمتعوا بحريتهم فى التمسك بدينهم ، ومباشرة شؤونهم الاقتصادية ، والاستمرار فى محالفتهم واتصالاتهم الاجتماعية والسياسية والشخصية ، دون انتقال من طور المساجلة إلى طور التنكيل ، ولم ينتقل إلى هذا الطور مع أى فريق منهم إلا بعد أن يطفح الكيل من دسائسه ومكائده وأذاه ، وبعد أن يكون قد انتقل هذا الفريق إلى موقف النكث بالعهد والأذى والغدر والتآمر والإضرار بكيان المسلمين ، مما تلهم أو تدل عليه الآيات والفصول العدة التى مرت ، والتى سترد بعد عند الكلام على كل واقعة من وقائع التنكيل أيضا .

وإليك الآن تفصيل الوقائع .

## - ٢ -

### أولا : إجلاء بنى قينقاع :

ليس فى القرآن ذكر صريح لهؤلاء ولا لواقعة إجلائهم ، وكل ما هناك إشارات فسرتها الروايات ؛ ولقد ذكرت الروايات التى ليس بينها خلاف جوهرى أن هذه الواقعة كانت أولى وقائع التنكيل باليهود ، وأنها كانت بين واقعتى بدر وأحد . ومما ذكره ابن هشام أن يهود بنى قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ؛ وأن بدء واقعتهم كان أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته فى سوقهم ، وجلست إلى صائغ منهم ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده بظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ ، فشد اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهله المسلمين ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع ، وانتهى الأمر إلى أن حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، ومما جاء فى طبقات ابن سعد أن النبي أجلاهم عن المدينة إلى أذرعات ، وسمح لهم بأخذ أموالهم وأثقالهم وسلاحهم الخفيف ؛ ومما ورد فى ابن سعد وابن هشام معا أن النبي صلى الله

عليه وسلم استشعر من بنى قينقاع الغيظ مما كان من نصر المسلمين فى بدر ، ولعلهم أخذوا يكشفون عن غيظهم ويغمزون المسلمين، فجمعهم وحذرهم، فكان جوابهم وقحا، إذ قالوا له: لا يغرنك ما نلت ، فإنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ؛ وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ، وأن آيات آل عمران هذه :

« قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى الْأَبْصَٰرِ ... ١٢ - ١٣

إنما نزلت فيهم . وظروف نزول الآيات تجعل القول إن الآيات فيهم سائغاً ، لأنها نزلت بعد وقعة بدر ، واحتوت إشارة إليها على سبيل الإنذار ، ولا سبيل للتوهم بأن ذلك كان لكفار مكة الذين كانوا فى حالة حرب مع المسلمين ؛ والتحذير إنما يكون لأناس ما يزال بينهم وبين النبي والمسلمين صلات سلم .

وإذا كان ثمة شيء يلاحظ على ماقاله ابن سعد وابن هشام فى صدد نزول الآيتين ، فهو أنهما أبعد مدى مما قالاه ، وإنهما لتلهمان أنه قد بدا من اليهود ما يصح أن يعد نقضاً أو تحرشاً بحرب وقتال ، فأمر النبي فيهما بإنذارهم ، ودعوتهم إلى الاعتبار بما حل بكفار مكة فى بدر ، وهم أكثر عدداً من المسلمين . وعلى هذا فإنه يصح أن يضاف إلى ما ذكره المؤلفان أن تكون حادثة المرأة أو حادثة مماثلة لها قد وقعت ، وأن الإنذار وجه إليهم بعدها فلم يعبأوا فكان الحصار والجلاء .

ولقد احتوت آية من آيات البقرة إشارة صريحة إلى نبذ فريق من اليهود العهد كما ترى فيها :

« أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ... ١٠٠

وهذه الآية من السلسلة الطويلة فى حق اليهود التى نقلناها فى المبحث الأول ، وهى مما نزل مبكراً كما قلنا قبل ، فيسوغ القول إن الإشارة التى تضمنتها هى إلى

أول نقض بدا من فريق من اليهود ، وهو على الأرجح نقض بنى قينقاع الذين كانوا أول من وقع عليهم التنكيل بسببه .

وفى سورة الأنفال آيات فيها إشارة أخرى إلى نقض يهودى ، وهى هذه :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فى كُلِّ مَرَّةٍ وهُمْ لا يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ وإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ... »[1]

٥٥ - ٥٨

وسورة الأنفال نزلت عقب وقعة بدر ، ولقد روى المفسرون أن الآيات نزلت فى بنى قريظة ، مع أن التنكيل بهؤلاء قد كان من أواخر الفصول التنكيلية ، ونزل به قرآن خاص فى سورة الأحزاب ؛ والمتسق مع ظروف وتاريخ واقعة بنى قينقاع التى لا يختلف فى أنها الأولى ، وفى وقوعها بعد بدر وقبل أحد ، أن تكون نزلت فيهم . ولقد جاء فى طبقات ابن سعد أنه لما كانت وقعة بدر ، أظهر بنو قينقاع البغي والحسد ونبذوا العهد ، وكانوا أشجع اليهود ؛ فأنزل الله « وإمّا تخافن من قوم خيانة ... إلى آخر الآية » فقال رسول الله أنا أخاف بنى قينقاع ، فسار إليهم بهذه الآية . والآية إنما نزلت مع ما سبقها ولحقها من آيات ، فيكون سير النبي إليهم بسبب نقضهم العهد المرة بعد المرة ، وتكون الرواية متسقة مع ظروف واقعتهم ، ومؤيدة لرجحان أن الآيات فيهم ، مع التنبيه إلى أن الآية أبعد مدي من الرواية أيضاً فى ذكرها نقض اليهود العهد مرة بعد مرة .

ونلفت النظر إلى ما ينطوى فى الآيات التى نقلناها والروايات التى استأنسنا بها والتى تتسق إجمالا مع الآيات ، مع ما فى الآيات من بعد مدى وقوة أكثر من معنى كون التنكيل الذى وقع على بنى قينقاع ، بل الحروب النبوية كلها إنما كانت

---

(١) أعلنهم أنك تقف منهم نفس الموقف الذى وقفوه ، وهو حل العهد القائم ، وفى الآية مغزى رائع ، وهو تلقين عدم المبادرة إلى القتال بدون إعلان مادام هناك عهد قائم .

ردا على عدوان أو غدر أو خيانة ، ودفاعاً عن الكيان ؛ ومما لا يصح أن يمارى فيه أحد مهما كانت نحلته أن النبي قد اتبع بدقة لا مزيد عليها ما تضمنته هذه الآيات وغيرها من تعليم فى هذا الصدد .

ولقد جاء بعد آيات الأنفال هذه الآيات التالية :

« وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٦٠ - ٦٣

وقد تضمنت حثا للمسلمين على الاستعداد بجميع الوسائل لإرهاب عدوهم حتى يكفوا شره ؛ كما تضمنت تعليما بالجنوح إلى السلم إذا ما جنح الخصم إليها ؛ وهذا متصل ومؤيد لما قررناه ، وداحض للأقوال والمزاعم المغرضة كما هو واضح .

كذلك نلفت النظر إلى الإنذار الذى احتوته آيات آل عمران ١٢ - ١٣ إذ ينطوى فيه كما تلهم صيغة الآيات معنى التنبيه والنصح حتى للذين بادءوا بالشر والنقض ، كما يعنى هذا الرغبة فى تفادى القتال والتنكيل بقدر ما يمكن . وآيات الأنفال ٥٧ - ٥٨ جديرة بالتفات النظر أيضا ، إذ انطوى فى الأولى معنى التنبيه والعظة لليهود الآخرين والأمل فى أن يكون التنكيل بمن نكل بهم رادعا لهم ، وفى هذا ينطوى رغبة تفادى القتال والتنكيل بقدر ما يمكن ؛ وانطوى فى الثانية مغزى رائع جليل وهو تلقين عدم المبادرة إلى قتال من يبيتون الغدر والخيانة بدون إعلان مادام هناك عهد قائم ، ووجوب إنذارهم بالوقوف منهم نفس الموقف الذى يقفونه وهو حل العهد القائم . وهذا وذاك متصلان بما قررناه ومؤيدان له بما لا يدع محلا للمماراة كما هو واضح أيضا .

- ٣ -

وثانياً : إجلاء بنى النضير :

وهذه الواقعة كذلك ليس لها ذكر صريح فى القرآن ؛ إلا أن فيه بياناً أوفى عنها اتفق جمهور المفسرين والرواة على أنهم هم المقصودون به . أما البيان فهو فى سورة الحشر التى كان ابن عباس عليه السلام يسميها سورة بنى النضير على ما ورد فى كتب التفسير وفى كتاب تفسير منسوب إليه ؛ وهذه آيات السورة فى صدد هذه الواقعة :

« هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِنْ دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَاظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَىٰهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَٰأُولِى الْأَبْصَٰرِ . وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَٰسِقِينَ . وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . مَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... ٢ - ٧

٢ — أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا

وإنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ واللهُ يَشْهَدُ إنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَايَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ ولَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَٰرَ ثُم لا يُنْصَرُونَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فى صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ . لا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إلَّا فى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ . كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . كَمَثَلِ الشَّيْطَٰنِ إذْ قالَ لِلإنْسَٰنِ آكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إنِّى بَرِىءٌ مِّنْكَ إنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَٰلَمِينَ فَكانَ عَٰقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فى النَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وذَٰلِكَ جَزَٰؤُا الظَّٰلِمِينَ ... ١١ - ١٧

والمجموعة الأولى جاءت فى صدد تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم ونصره رسوله فى هذه الواقعة دون اشتراك عملى وحربى منهم ، وجعل هذا مبرراً لتشريع أيلولة ما عاد منها من الغنائم فيئا لرسول الله يقسمه على المصارف المذكورة دون الأغنياء، لا على أساس قسمة غنائم الحرب التى يشترك فيها المسلمون أغنياء وفقراء ، والتى يوزع عليهم منها الأخماس الأربعة وينال كل فرد منها نصيبا متساويا . ومع ذلك ففيها بعض الصور عن الواقعة ، إذ يستفاد منها :

١ - إنه كان لبنى النضير حصون قوية لم يكن المسلمون يأملون التغلب عليها ، كما كان اليهود يحسبون أنها ما نعتهم .

٢ - إن اليهود قد وقع فى قلوبهم خوف شديد ويأس بحيث استسلموا من جهة وخربوا بيوتهم بأيديهم من جهة أخرى .

٣ - إن النبى صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم ووضع يده على مزارعهم وأملاكهم.

٤ - إنه لم يقع اشتباك حربى بينهم وبين المسلمين ؛ وهذا يعنى أن الحصار وحده كان كافيا للنصر الذى تم .

٥ - إنه كان منهم مواقف كيد ومشاقة مزعجة ، وإنما هى السبب فى التنكيل بهم .

٦ - إن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقطع بعض نخيلهم ، فبررت إحدى الآيات العمل ، وقررت أنه بإلهام ربانى لإرغام العدد الفاسق وخزيه ؛ مما يلهم أنه جرى -قيل وقال- حول تقطيع النخل .

أما المجموعة الثانية فقد تضمنت صورا لما كان من المنافقين فى هذا الموقف ، إذ وعدوا اليهود بالتضامن معهم تضامناً وثيقا حتى أكدوا لهم أنهم سيحاربون معهم إذا حوربوا ، وسيخرجون معهم إذا غلبوا وأخرجوا ، ولكنهم كذبوا بما وعدوا ؛ وقد وصفت الآيات مبلغ خوف اليهود أو المنافقين أو كليهما من المسلمين ، وعدم جرأتهم على مواجهتهم فى الميدان ، وقررت أن كل أمرهم القتال من وراء الحصون والجدران ، كما قررت واقع حالتهم الداخلية والنفسية ، من عدم التضامن ، وشدة التنازع والتشاد فيما بينهم ، وتغرقهم شيعاً على رغم ما يبدو من اتحادهم ؛ وشبهت المنافقين بالشيطان الذى يغوى المرء بالكفر ثم لايلبث أن يتبرأ منه بعده .

ويرجح أن الآية ١٥ تضمنت الإشارة إلى ما كان من التنكيل ببنى قينقاع ، والتنديد ببنى النضير الذين لم يعتبروا بهم حتى ذاقوا وبال أمرهم مثلهم .

والروايات الواردة فى كتب السيرة والتفسير تكمل هذه الصور ، إذ يستفاد منها أن الواقعة كانت بعد واقعة أحد وقبل واقعة الخندق ، وأن سببها المباشر هو أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب مع بعض أصحابه إلى محلة بنى النضير يستعينهم على دية بعض القتلى فتآمروا على اغتياله ، وشعر هو بذلك فنجا بنفسه ، ثم أرسل إليهم فى اليوم التالى إنذارا بالجلاء على أن يأخذوا أموالهم ويقيموا وكلاء على بساتينهم ومزارعهم ، وأن المنافقين أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض ، ويعدونهم بالنصر ، فتشجعوا وعصوا ، فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم وضيق عليهم الحصار ، وأمر بقطع بعض نخيلهم إرغاما وإرهاباً ، ولم يف المنافقون بما وعدوا ، فاستولى عليهم الرعب واليأس ، ورضوا بالجلاء بشروط أشد من الأولى بسبب تمردهم ، وهى تسليم سلاحهم ، وتنازلهم عن بساتينهم وقراهم الزراعية ، وأخذ منقولاتهم فحسب ، وأنهم أجلوا إلى بلاد الشام .

والروايات منسجمة مع مااحتوته الآيات من صور ؛ وإن كان ثمة شىء يزاد فهو المدى الواسع الذى ينطوى فى الآية ٤ إذ يصح أن يقال إن محاولة بنى النضير

اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت سببا مباشرا، وإنه كان منهم قبل ذلك مواقف مشاقة مؤذية ومزعجة كثيرة طفح بها الكيل وحق عليهم من أجلها التنكيل.

ولقد كان قبل هذا الحادث أن أمر النبي بقتل أحد شعرائهم وزعمائهم وطواغيتهم: كعب بن الأشرف، لما كان منه من هجو فاحش وكيد شديد للنبي والمسلمين كما جاء فى كتب السيرة؛ ولقد روى فيما روى أن كعبا ورهطا من بنى النضير اتصلوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبي والمسلمين على رغم ما كان بينهم وبين بنى النضير من عهد وسلام. وهذا وذاك مما يتسق مع مدى الآية، ويدعم ما قلناه من أن محاولة الاغتيال إنما كانت النقطة التى ملأت الكأس.

وهكذا يبدو أن هذا التنكيل أيضاً إنما كان رداً على غدر وخيانة ومشاقة تجاوز فيها اليهود نطاق الكلام إلى التآمر على المسلمين وكيانهم، ثم على حياة النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى محلتهم ..

— ٤ —

وثالثاً: القضاء على بنى قريظة:

واسم هؤلاء أيضاً لم يرد فى القرآن بصراحة، وإنما أشير إلى موقفهم والتنكيل بهم إشارة اتفق جمهور المفسرين والرواة على أنهم المقصودون بهما وذلك فى آيات الأحزاب ٢٦ - ٢٧ التى نقلناها فى مناسبة سابقة من هذا الفصل؛ والتى هى من سلسلة احتوت بعض مشاهد وأحداث وقعة الخندق. وهى صريحة الدلالة بأن اليهود قد ظاهروا الكفار الغزاة جهرة على المسلمين، فاستحقوا التنكيل الشديد الذى نالهم.

ولقد نقلنا فى مناسبة قريبة آيات الأحزاب ١٠ - ١٢ التى احتوت وصفاً للحالة الخطيرة التى واجهها المسلمون من زحف جيش أحزاب الكفار الجرار على المدينة وإحداقه بها، وما كان من جرأة المنافقين على المجاهرة بتكذيب وعد الله ورسوله بهذه الوسيلة، وفيما يلى تتمة لهذه الآيات فيها تتمة لموقف المنافقين الجرىء المثبط الذي يكاد ينم عن مؤامرة خفية محبوكة الأطراف بين اليهود وأحزاب الكفار والمنافقين للقضاء على الكيان الإسلامى قضاء ساحقاً كما ترى فيها:

« وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ...

١٣ - ٢٠

مما يجعل التشكيل عملا لا معدى عنه ، على أن يكون متناسباً مع شدة الخطورة التي أحدقت بالمسلمين ؛ وإذا لاحظنا أن مظاهرة اليهود للغزاة كانت نتيجة للحلف الذي ذهب وفد اليهود إلى مكة لعقده بقصد القضاء المبرم على النبي والمسلمين، واغتناماً لفرصة ما حل بهم من ضعف بعد وقعة أحد على ما ذكرناه في المبحث السابق- بدا بعد مدى الموقف اليهودي وخطورته ، وشدة نكاية نيتهم المبيتة ، ووضح الحق في صحة تبرير التشكيل الواقع ، وسفه المغرضين في غمز النبي به لأنه جاء قاسياً لا هوادة فيه .

هذا ؛ وفى الروايات الواردة فى كتب السيرة والتفسير ما يكمل الصورة ويتسق مع مدى الآيات اتساقا غير يسير ، إذ يستفاد منها :

(١) أن وفداً من زعماء اليهود ذهب إلى مكة بعد وقعة بنى النضير فحرضوا زعماءها على غزو المدينة واستئصال شأفة النبى والمسلمين قبل أن يتفاقم أمرهم ، وأعلنوا تضامنهم معهم ، وأقسموا على ذلك عند أصنام المشركين فى فناء الكعبة ، وهو ما تضمنت الإشارة إليه آية النساء ٥١ التى نقلناها قبل .

و (٢) أن الوفد ذهب كذلك إلى قبائل غطفان وقيس وغيلان وحرضها على مثل ذلك ، ومناها بخيرات المدينة ، وأعلن تضامن اليهود معها ، وأخبرها بما تم الاتفاق عليه مع زعماء مكة ؛ فأجابوهم كذلك وتحالفوا معهم .

(٣) أن النبى صلى الله عليه وسلم قد بلغه تغير نية بنى قريظة وتبييتهم الغدر حال وصول جيش الأحزاب ، فأرسل زعيمى الأوس والخزرج إلى محلتهم - وكانت وراء بيوت عرب المدينة - لينظر : أحق ما بلغهم عنهم ، وطلب منهما أن لا يجهرا به إن كان حقا ، وإن يلمحا إليه لئلا يفتا فى أعضاد الناس ، وأنهما أتياهم فوجداهم على أخبث ما بلغهم ، ونالوا من رسول الله ، وقالوا من هو رسول الله ، وإنه لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، وأن سعد بن معاذ شاتمهم - وكان حليفهم - فشاتموه ، وأن سعد بن عبادة قال له : دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة .

(٤) أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر مؤذنا فأذن فى الناس فى صبيحة اليوم الذى ارتد الأحزاب فى ليله عن المدنية بناء على وحى من الله : أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة ! وأن النبى حاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله الرعب فى قلوبهم ، فنزلوا على حكم النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وأن جماعة من الأوس تشفعوا فيهم عند النبى لأنهم حلفاؤهم وطلبوا الاكتفاء بإجلائهم كما فعل بمن سبقهم ، فجعل الحكم فى أمرهم لزعيم الأوس سعد بن معاذ ، وأن هذا حكم بقتل الرجال وسبى النساء والأطفال وتقسيم الأموال ، قائلا لمن طلب الرفق بهم من جماعته : آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ! فأمر النبى بتنفيذ الحكم .

وننبه إلى أن عبارة « ظاهروهم » تلهم أنه بدا من اليهود فى أثناء حصار الأحزاب المدينة أعمال مؤذية للمسلمين ، أو بالأحرى أعمال تمت إلى الحرب ، تضرر المسلمون منها

وأثارت فى نفوسهم السخط فوق ما أثاره موقف الغدر والخيانة فيهم من خوف وزاد من شدة الخطر على ما أشرنا إليه قبل قليل ؛ وليس من ريب فى أن التنكيل الشديد يمتّ بسبب وثيق إلى هذه الظروف كلها ؛ لا سيما أن هذا قد كان منهم دون أن يعتبروا بما كان من إجلاء بنى قينقاع وبنى النضير أولا ، وبسعى وجد فى إيقاد نار الحرب بغية القضاء المبرم على المسلمين ثانياً ؛ فلا غرو أن كان عقابهم أشد صرامة من عقاب من سبقهم ، لأن جريمتهم أشد أثراً ، وأبعد مدى .

أما عبارة «وأرضاً لم تطؤوها» الواردة فى الآية ٢٧ فقد قال المفسرون إنها أرض خيبر ، وإن الجملة بشرى سابقة لفتحها ؛ غير أن الذى تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر لنا أنها أرض لبنى قريظة بعيدة عن مساكنهم ، آلت إلى المسلمين دون حرب أو حصار ، ونتيجة للمصير الذى صار إليه أصحابها .

— ٥ —

ورابعا : فتح خيبر والقرى اليهودية الأخرى :

وهذه الوقائع أيضا لم تذكر فى القرآن بصراحة ، بل لم يرد عنها بيان شاف ، وإنما أشير إليها إشارات خاطفة فسرتها الروايات ؛ فمن هذه الإشارات آية فى سورة الفتح وهى هذه :

« سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ... ١٥

إذ قال جمهور المفسرين والرواة إن هذه المغانم هى مغانم خيبر ؛ وقد ذكرت الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يستصحب أحداً معه إلى خيبر ممن تخلف عن صحبته فى رحلة زيارة الكعبة التى انتهت إلى صلح الحديبية ، بناء على هذه الآية التى نزلت قبيل الوقعة التى كانت بعد قليل من رجوع النبى صلى الله عليه وسلم من الحديبية

وصيغة حكاية حال المتخلفين وأقوالهم تدل على أن النصر فى رحلة خيبر مما لم يكن يتحمل ريبا ، كما أن الآية تلهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد بيت القيام بهذه

الرحلة عقب إبرام صلح الحديبية ، وبشر المسلمين الذين معه بها ؛ ومن هذه الإشارات آيات أخرى فى سورة الفتح أيضا ، وهى هذه :

« لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَافِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . ومَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ولِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ويَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ... ١٨ - ٢١

وقد فسر جمهور المفسرين « الفتح القريب » بفتح خيبر والمغانم الكثيرة بمغانمها ؛ وهذا متسق مع ماقالوه أيضا فى الآية السابقة، كما أن الصيغة تؤكد ما استلهمناه منها ؛ وتعبير « وعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم » مقصود به على الأرجح ماتم فى الحديبية من صلح ، وعدم وقوع قتال بين المسلمين وأهل مكة .

ولعله يتضمن إشارة إلى أن فتح خيبر قد تيسر أكثر بعد هذا الصلح .

ومع أن من المفسرين من فسر جملة « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها » بفتح مكة أو فتح الأقطار التى فتحها المسلمون بعد ، فإن صيغة الآية تلهم أنها فى صدد وقائع حاضرة مؤكد تمامها ، وتسوغ الترجيح بأنها تعنى ماتم فتحه بسهولة ويسر من قرى اليهود بعد فتح خيبر ، مثل وادى القرى وتيماء وفدك .

ويستفاد من الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم سار بالمسلمين إلى خيبر بعد صلح الحديبية بنحو شهرين ، وأنه كان فى خيبر حصون كثيرة وقوية استغرق فتحها نحو شهر ونيف ، وأن اليهود قاوموا مقاومة عنيفة ، وكان بعض الجهد والمشقة على المسلمين فى الرحلة ، وأنه لما تم الفتح صارت جميع المزارع والأموال إلى المسلمين غنيمة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم أبقى من أراد من اليهود ليتولى رعاية البساتين مقابل نصف الغلة بعد تجريدهم من السلاح ، وأجلى الخطرين منهم ، وأنه انصرف عن خيبر إلى وادى القرى ، وكان فيها كتلك حصون عدة ، وقاوم اليهود فيها بعض المقاومة ،

غير أن أمرهم صار إلى ماصار إليه أمر أهل خيبر ، وقد دب الرعب فى يهود فدك وتيماء فأرسلوا رسلهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم يصالحونه على نصف أملاكهم ، ويعاهدونه على المسالمة والصداقة .

وليس فى القرآن إشارة إلى سبب مباشر أو غير مباشر لغزوة خيبر ، كما أنه لم يرد فى الروايات ذكر صريح لمثل هذا السبب ؛ وهذا ما جعل بعض المستشرقين يقول إنها لم تكن إلا رغبة من النبي صلى الله عليه وسلم فى مكافأة أهل الحديبية وتطييب نفوسهم ، وبرر قوله بما احتوته الآيات من بشرى المغانم لهم .

على أن الروايات قد ذكرت أن قبائل غطفان - التى لم تكن أسلمت بعد ، ولم تكن مسالمة للمسلمين ، والتى ظاهرت قريشاً فى زحف الأحزاب - كانت حليفة ليهود خيبر ، كما ذكرت أنه كان بين يهود خيبر وبين من بقى من يهود مخضودى الشوكة فى المدينة صلات ، وأن هؤلاء كانوا عيوناً لأولئك ، وأنهم حاولوا تعطيل غزوة خيبر بالإشاعات المتنوعة من جهة وبمطالبة مدينى المسلمين بالديون التى لهم عليهم من جهة أخرى ، وأن يهود خيبر كانو يترصدون حركات النبي والمسلمين ترصد الخائف القلق ؛ ومما ذكرته أيضا وفيه شيء من الخطورة ، أن حي بن أخطب زعيم اليهود ، بل ملكهم على ما نعتته روايات العرب ، وهو أبو صفية إحدى زوجات النبي التى كانت من سبي خيبر - كان على رأس الوفد الذى ذهب إلى مكة لعقد الحلف مع زعمائها ، وأنه هو الذى أغرى كعب ابن أسد زعيم بنى قريظة على نقض العهد ، وقلب ظهر المجن للمسلمين حينما جاءت الأحزاب تغزو المدينة ؛ ففى كل هذا ما يمكن أن يستأنس به على أنه كان هناك أسباب مبررة لهذه الغزوة ، لاسيما أن كل وقعة من وقائع التنكيل - كما رأينا - كان لها أسباب مباشرة وغير مباشرة ، وأن تلقينات القرآن التى لا يمكن أن يمارى أحد فيه إنصاف ومنطق سليم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسير وفقها بكل دقة ، لم تكن لتسمح بالمبادرة إلى قتال إلا للمقابلة أو الدفاع أو بسبب الغدر والخيانة ؛ والدعوى بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقم بحملته إلا بقصد الغنائم ومكافأة أصحاب الحديبية لا تستقيم قط كما هو المتبادر ؛ وعدم ورود بيان شاف فى الروايات لا يمكن أن يكون برهانا على عدم وجود أسباب موجبة ومبررة فعلا ؛ ونحن نميل إلى أن هذه الأسباب كانت قائمة قبل الرحلة إلى زيارة الكعبة التى انتهت بصلح الحديبية ، وأن النبي صلى

الله عليه وسلم رأى أنه ليس هناك خطر عاجل من التأخر بعد أن نكل بيهود المدينة ، فأجل حملته على خيبر والقرى الأخرى إلى فرصة أكثر ملاءمة ، ولما أبرم الصلح مع أهل مكة ، وأمن به الوقوع بين نارين، رأى أن الفرصة المنشودة قد سنحت، فقام بالغزوة لإتمام خضد شوكة اليهود فى الحجاز ، وتصفية الموقف معهم ، وأمن جانبهم نهائيا ؛ ولقد تساهل فى معاملة يهود هذه القرى كما جاء فى الروايات التى استأنسنا بها ، وهذا يدل على أن الهدف الذى رمى إليه هو خضد شوكتهم ، وأمن جانبهم فحسب ؛ وواضح أن هذا يظل فى نطاق الضرورة وإزالة الضرر كما قررناه فى مطلع الفصل .

# المبحث الخامس

## الاستثناءات القرآنية بشأن المؤمنين والمعتدلين من اليهود

مدى الاستثناءات القرآنية ودلالتها ـ قلة مستثناة بسبب التزامها وصايا الله وميثاقه ـ حملة القرآن على الأكثر الكثير ودلالتها ـ صور من سور البقرة والمائدة لاخلاص فريق من اليهود وعملهم الصالح بصورة عامة ـ صور من سور آل عمران والنساء لايمان فريق منهم بنبوة النبي والتنزيل القرآني وإخلاصهم ـ دلالات هذه الصور ـ العبرة البالغة فى تسجيل القرآن المحسن إحسانه .

إلى جانب ما أوردناه من آيات تتعلق بمواقف اليهود وجحودهم ودسائسهم ومؤامراتهم وعدائهم والتنكيل بهم ، والتى تلهم أنها شاملة لأكثريتهم الساحقة فى الحجاز وخاصة فى المدينة ، نجد آيات أو فقرات من آيات تضمنت استثناء لبعضهم من تلك المواقف ، وتنويهاً بسلامة مواقفهم واعتدالهم واقتصادهم ، ومنها ما تضمن إشارة إلى إيمانهم وإخلاصهم ؛ مما يدل من جهة على أن فئة من اليهود ـ وفيها فريق من العلماء ـ قد استطاعوا أن يفلتوا من المؤثرات المتنوعة العنصرية والاقتصادية والنفسية والأنانية التى خضع لها اليهود ، فلم يسعهم إلا أن يروا أعلام النبوة واضحة جلية ، فصدقوا وآمنوا بالنبي والتنزيل القرآنى ، ولم يشتروا الضلال بالهدى ويبيعوا دينهم وعلمهم بالعرض الدنيوى البخس ، دون مبالاة بما عليه قومهم ، وبما يمكن أن يلقوه منهم من جفاء وسخط ، واضطهاد وتكذيب ؛ وعلى أن فئة أخرى لم تندفع ولم تتورط فى العداء والكيد ؛ ومن جهة أخرى على أن الدعوة النبوية قد قوبلت باستجابة حرة لا إكراه فيها من بعض اليهود فى العهد المدنى ، بل بحسن إقبال قد يؤدى إلى أذى المقبلين كما كان فى العهد المكى مما شرحناه فى مبحث سابق ؛ وعلى أن مواقف الكيد والدس والجحود والتآمر إنما كانت لأسباب لا تمت إلى الحق والإنصاف والرغبة فى الهدى ، بل إلى هوى الأحبار والربانيين والزعماء ، وأغراضهم ، وتأثرهم بالمؤثرات الدنيوية ، والجبلة الخلقية ، وتأثيرهم فى العامة ، وسوقهم وراءهم فى الطريق التى ساروا فيها كما كان شأن أكثر أهل مكة زعماء وعامة أيضا ؛ وهذا وذاك يدعم ما قلناه غير مرة من أنه لم تكن هناك أى فكرة مضادة لليهود منذ البدء كعنصر

ولليهودية كدين ، وأن كل ماهناك هو دعوة الناس جميعا إلى الله وإلى مكارم الأخلاق ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، من دون ما إكراه ولا سيطرة ؛ مما اتسق القرآن المكى والقرآن المدنى فيه ، وقد أوردنا فى المباحث السابقة آيات عدة مكية ومدنية فيها التأييد الوافى لذلك ؛ وإليك الآن الآيات الاستثنائية الواردة :

- ١ -

١ - فى سورة البقرة الآية التالية :

« وإذ أخذنا ميثٰق بنى إسرٰءيل لا تعبدون إلا الله وبالوٰلدين إحسانا وذى القربى واليتٰمى والمسٰكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون ...

٨٣

ومع أن الكلام قد ربط الآباء بالأبناء فإن الفقرة الاستثنائية جاءت بضمير المخاطب القريب ولا تتضمن دلالة على أن الفريق المستثنى قد آمن بالنبي ؛ غير أنها تتضمن على أى حال دلالة على أنه كان فى عهد النبي فريق قليل منهم يتق الله ويخلص لوصاياه ويقف عند حدودها ، وبالتالى لاينحرف عن الحق ولا ينساق مع الهوى .

٢ - ومن هذا الباب الآيات التالية فى سورة المائدة :

١ — قل يٰأهل الكتٰب هل تنقمون منا إلا أن ءامنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فٰسقون ... ٥٩

٢ — وترىٰ كثيرا منهم يسٰرعون فى الإثم والعدوٰن وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ... ٦٢

٣ — ولو أنهم أقاموا التورىٰة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ... ٦٦

٤ — تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِم وفى العَذابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ... ٨٠

وقد جاءت هذه الآيات فى سياق يدل على أنها فى حق اليهود[1]، وعبارات «أكثركم» و «كثيراً منهم» و «كثير منهم» تدل - على الأقل - على أن هناك فريقا قليلا لم يتورط فيما تورطت فيه الكثرة من الدس والكيد وعمل السوء والفساد. وهذا المعنى بارز بروزاً أكثر فى جملة «منهم أمة مقتصدة»، كما هو ظاهر.

٣ - وفى سورة آل عمران الآيات التاليه:

«لَيْسُوا سَواءً مِّنْ أَهْلِ الكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ اللهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ويُسَـٰرِعُونَ فى الخَيْرَ ٰتِ وأُولَـٰئِكَ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ. وما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ واللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ... ١١٢ - ١١٤

وقد جاءت الآيات عقب آيات تضمنت حملة على اليهود، لأنها ذكرت أوصافهم[2]؛ ولذلك نرجح أن الاستثناء لفريق منهم؛ وروح الآيات تلهم أنهم ممن آمنوا بالنبوة المحمدية، كما أن أقوال المفسرين والرواة تؤيد ذلك؛ وعلى كل حال فإن التنويه القوى الذى تضمنته، والوصف الرائع الذى وصفتهم به، يسوغ القول أنهم كانوا على درجة عالية من الإخلاص لله، والاستغراق فى عبادته، والسير فى طريق الخير والعمل الصالح، وبالتالى وقفوا من مواقف قومهم الجحودية والمؤذية موقف المنقبض، بل المنكر، وحاولوا جهدهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الخير والإصلاح.

٤ - وفى السورة نفسها أيضا الآية التالية:

«وإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَـٰتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰئِكَ

---

(١) اقرأ آيات المائدة ٦٠ - ٦٦ و ٧٨ - (٢) اقرأ الايات ١١٠ - ١١١

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ... ١٩٩

والآية قد جاءت بعد فصل سابق تناول اليهود بحملة شديدة [1] مما يجعل من المحتمل كثيرا أن يكون موضوع الآيه فريقا من اليهود ؛ وهى صريحة الدلالة على إيمانه بالنبوة المحمدية والتنزيل القرآنى ؛ ويستلهم من روحها ومما سبقها فى السياق أنها بسبيل طمأنة المسلمين : فإذا كان أكثر اليهود قد وقف موقف الجحود والتعجيز والأذى والتآمر ، وكتمان العلم ، فإن هذا منهم منبعث عن الهوى والنية الخبيثة ؛ لأن من حسنت نيته منهم قد آمن بالحق ، وتمسك به ، ولم يبع دينه وعلمه بالثمن البخس .

٥ ـ ومن هذا الباب آية جاءت فى سورة النساء وهى هذه :

« لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ... ١٦٢

وقد جاءت الآية عقب حملة شديدة وصريحة على اليهود ؛ ولذلك فإن الاستثناء الذى احتوته هو لفريق منهم حتما . ويلفت النظر إلى وصفها إياهم بالراسخين فى العلم ، وصراحتها بأنهم آمنوا بالنبوة المحمدية والتنزيل القرآنى . ولما كانت آيات عدة حملت على الأحبار والربانيين وأولى العلم من اليهود لكتمهم الحق ، وتدليسهم بالتوراة وحاف الأيمان ، وإلباسهم الحق بالباطل ، وبيعهم دينهم وعلمهم وعهدهم بأعراض الدنيا ، فإن فى الآية دليلا واضحا على أن فريقا من علماء اليهود قد أبى عليه علمه ودينه أن يندمج فيما تورط به سائرهم فينكر أعلام النبوة ، ويكابر فى صدق الدعوة النبوية والتنزيل القرآنى ، فآمن بهما ، ولم يعبأ بموقف قومه وزملائه .

هذا ؛ ومن الحق أن ننبه فى ختام المبحث على ما فى هذه الاستثناءات القرآنية من عبرة بالغة ، ومثل رائع لتسجيل الحسنة لصاحبها ، والتنويه بالمحسن لإحسانه ، وذكر الفضل لذويه ، مما يظل مصدر تلقين قرآنى جليل الشأن ويدحض حجة المغرضين .

---

(١) اقرأ الآيات ١٨١ - ١٨٨

# فصل فى النصارى فى العهد المدنى

## تمهيـــد

فى السور المدنية آيات كثيرة فى النصارى وعقائدهم ، وما كان بينهم من خلاف ونزاع ، وفى عيسى عليه السلام وأمه والحواريين ؛ وقد جاء بعضها بأسلوب محبب وثناء جميل ، وفى بعضها تحذير وتنبيه وتنديد ، وفى بعضها جدل ومناظرة ، وحكاية صدّ وكيد ، وفى بعضها شيء من العنف وأمر بالقتال ، واستنفار إليه ، ومشاهد رحلة بسبيله .

ومعنى هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لقى فى العهد المدنى نصارى ودعاهم واحتك بهم ، وأن بعضهم أظهر روحاً طيبة وتلقى الدعوة بالإقبال ، وأن بعضهم تردد أو نأى أوجادل وكابر ، وأن بعضهم قد صدر منه ماتجاوز حد الجدل والمكابرة إلى البغى والعدوان .

والآيات فى النصارى وعقائدهم ومواقفهم فى القرآن المدنى أكثر وأصرح منها فى القرآن المكى ؛ بل إن هذا القرآن ـ إذا استثنينا آيات سورة مريم والزخرف التى هى تقريرية والتى كانت الإشارة فيها إلى انحراف النصارى فى عقيدة المسيح والتنديد به بأسلوب عام وغير عنيف ـ لم يذكر أهل الكتاب المعاصرين بصورة عامة ، ومنهم النصارى ، إلا بالخير، على ماذكرناه فى فصل أهل الكتاب فى العهد المكى .

وهذا الفرق يلهم أن دائرة الاتصال بين النبي صلى الله عليه وسلم والنصارى فى العهد المدنى كانت أوسع منها فى ذلك العهد ، كما يلهم أن المؤثرات التى كان يخضع لها النصارى الذين لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم واحتك بهم أكثر تنوعاً ، وأن الذين لقيهم فى العهد المكى كانوا أكثر تجرداً عن الهوى والرغبات المادية ، وأكثر استعداداً بالتبعية للاستجابة إلى الدعوة والاندماج فيها .

وننبه إلى أن الروايات لم تذكر فيما اطلعنا عليه شيئاًما عن وجود نصارى مستقرين فى المدينة ظلوا متمسكين بنصرانيتهم إلى النهاية ، وليس فى القرآن عن ذلك شيء صريح إيجابى . ولقد ذكرت الروايات خبر وفود بعض النصارى إلى المدينة

مَن اليمن والحبشة ، ومنهم من جادل وتمسك بنصرانيته ، ومنهم من أذعن وصدق بالقرآن والنبي ، مما يمكن أن يكون نتيجة لانتشار صيت النبي وأخباره فى العهد المدنى أكثر منه فى العهد المكى ؛ كما ذكرت أخبار اتصالات كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وسكان مشارف الشام الذين كان أكثرهم أو كثير منهم من نصارى العرب الحضر منهم والبدو ، وأخبار سرايا جهادية إليهم ؛ وفى سورة التوبة فصل طويل فى ظروف غزوة تبوك التى سميت فى القرآن بيوم العسرة ، والتى كانت ضد أولئك السكان ، بسبب ما بدا منهم من عدوان ؛ وفى هذا مصداق التنوع الذى ذكرناه آنفاً .

وسنعرض صور النصارى فى هذا العهد على حسب ما يلهم تصنيف الآيات فيهم كما يلى :

١ - مدى ما ورد فى القرآن عن حالتهم والتنديد بهم .

٢ - مواقفهم من الدعوة النبوية .

٣ - مواقفهم الحجاجية .

٤ - الصدام بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

وسيكون كل موضوع من هذه المواضيع فى مبحث خاص كما فعلنا فى الفصول السابقة .

# المبحث الأول

## الأول حالة النصارى فى العهد النبوى
## والتنديد بهم فى القرآن

مدى الآيات الواردة وملهماتها بصورة عامة - صورة من سورة البقرة عن نزاعهم وخلافاتهم - صورة أخرى من سورة المائدة - إنذارهم فى سورة المائدة بوجوب تطبيق أحكامهم على التوراة ودلالته - صورة من سورة الحديد عن صفاتهم بصورة عامة مع استدراك انحراف كثير منهم - مدى دعوة المسلمين فى سورة الصف بالتأسى فى الحواريين . التنديد بعقيدتهم فى بنوة المسيح فى سورة المائدة ومداه - التنديد بعقيدتهم فى سورة التوبة ومداه

— ١ —

إن الآيات الواردة فى حالتهم مطلقة من جهة ، وتمزج بين حاضرهم وماضيهم من جهة أخرى ؛ وفيها بعض الصور الأخلاقية كما فيها إشارة إلى ماقام بينهم من خلاف ونزاع ؛ أما الآيات التنديدية فهى مصبوبة فى الدرجة الأولى على عقيدتهم فى المسيح وأمه ، ومذكرة لما كان من دعوة المسيح الصادقة إلى الله وانحرافهم عنها ، وهى تمزج كذلك بين حاضرهم وماضيهم .

وننبه إلى أمر مهم فى هذا الصدد ؛ وهو أن الآيات الواردة فى حالة النصارى والتنديد بهم مع ما فى بعضها من عنف فإنه لا يمكن أن تنعقد أية نسبة بينها وبين ما جاء فى حق اليهود ؛ هذا إلى أن هناك آيات تحتوى ثناء محببا عليهم وعلى أخلاقهم ومواقفهم تلهم صيغتها أن ما احتوته هو الحالة العامة التى كانوا عليها ، فى حين أن عكس هذا ينطبق على اليهود ؛ أى أن الآيات التى تضمنت حملات شديدة عليهم ، ووصفت سوء أخلاقهم ومواقفهم وصفا قارعا ، تمثل الحالة العامة التى كانوا عليها ، وكل ما فى الأمر أن القرآن استثنى فريقا قليلا من ذلك .

والمبحث يتناول موضوعين يتميز بعضهما عن بعض تميزاً ما : الأول فيما ورد من الآيات عن حالتهم ، والثانى فيما ورد فى التنديد بهم ؛ وسنورد كلا منهما لحدته .

- ٢ -

فأولا ما ورد عن حالتهم ومداه :

١ - فى سورة البقرة الآية التالية :

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ... ٢٥٣

فى هذه الآية وصف لواقع حال أهل الكتاب من لدن رسالة عيسى عليه السلام خاصة ، وما آل إليه أمرهم من خلاف ونزاع ؛ وهذا الوصف يشمل اليهود والنصارى ؛ ومما لا يكاد يحتمل تردداً أنه وصف لحالة كل من الفريقين فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم التى كان يشاهدها الناس ومنهم العرب غير الكتابيين . ولقد كان يقع فى ظروف البعثة النبوية وقبلها بقليل قتال ، وثورات بين النصارى والإسرائيليين فى بلاد الشام نتيجة لما كان من نزاع وعداء بينهم ، ولما كانت فيه البلاد من اضطراب سياسى ، إذ كان يتداول الحكم فيها الروم والفرس ، فيتقوى النصارى بالأولين كما يتقوى الإسرائيليون بالآخرين ، وهلم جرا ؛ كما أنه كان كل من اليهود والنصارى مختلفين فيما بينهم ، ومنقسمين فرقاً ومذاهب ، وقد كان يصل الأمر بين النصارى خاصة قبيل البعثة النبوية وفى ظروفها إلى الثورات والاضطهادات الدامية ، مما ذكرته الآثار التاريخية المعتبرة والمستندة إلى الوثائق القديمة ؛ ومما لاريب فيه أن هذه الحالة مما كان له أثر إيجابى فى استعلاء الموقف النبوى والدعوة النبوية فى الكتابيين وغير الكتابيين على السواء ، كما أن هذه الحالة تفسر بعض حكم الله فى البعثة المحمدية التى استهدفت فيما استهدفته إنهاء النزاع والخلاف بين الكتابيين ، وحلّ مشاكلهم المذهبية والذهنية ، وجمعهم تحت راية القرآن مع غيرهم ؛ مما احتوته آيات

عدة منها هذه الآيات :

« يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُ سُبُلَ السَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... ١٥ - ١٦ المائدة

٢ - وفى سورة المائدة الآية التالية :

« وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَٰرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ... ١٤

وقد احتوت تقريراً مطلقاً عن انحراف النصارى عن بعض عهود الله ووصاياه، فأدى بهم الانحراف إلى الشقاق والتنازع ، والعداء والبغضاء ؛ وروح الآية وظروف نزولها لا تدع مجالا للتردد فى أن هذا التقرير يتضمن وصف حالتهم حينما كان ينزل القرآن . ولقد جاءت الآيات ١٥ - ١٦ التى أثبتناها آنفاً بعد هذه الآية مباشرة متضمنة إيذان أهل الكتاب ببعثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم بكتاب من الله يهدى إلى الحق وسبيل السلام ، ويخرج من اتبعه من الظلمات إلى النور ؛ فورود الآيتين المذكورتين عقب هذه الآية يؤيد أن التقرير الذى تضمنته يشمل حالة النصارى حينما كان ينزل القرآن من جهة ، ويؤكد ما قلناه قبل قليل من حكمة ربانية فى البعثة المحمدية إذ استهدفت دعوة النصارى واليهود إلى الانضواء إلى الحق والنور اللذين جاء بهما النبى ، والخلاص مما هم فيه من خلاف وانحراف .

٣ - وفى سورة المائدة أيضاً الآيات التالية :

« وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ

فيهِ ومَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الفَـٰسِقُونَ ... ٤٦ - ٤٧

ولقد جاءت الآيات استطراداً فى سلسلة تضمنت خبر موقف لليهود فى التقاضى عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع أنها تنطوى على تقرير عام فإن الأخيرة خاصة تلهم أنها احتوت إنذاراً ربانيا للنصارى المعاصرين بالسير وفق الإنجيل فى أحكامهم ، وتلميحاً إلى أن بعضهم لا يفعل ذلك ؛ ثم إن الآيتين معاً تحتويان تقريراً تشريعيا لما يجب على المسلمين أن يحترموه إزاء النصارى ، وهو إقرارهم فى القضاء على أحكام الإنجيل دون حرج ، على شرط أن لا ينحرفوا عنها ؛ وهذا التقرير مطلق بحيث يشمل النصارى الذين كانوا يعاصرون النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً بطبيعة الحال .

٤ - وفى سورة الحديد الآية التالية :

« ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَٰنِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ... ٢٧

وقد تضمنت تنويها محببا وشاملا بما جعله الله فى قلوب أتباع عيسى عليه السلام من رأفة ورحمة ، وبما كان منهم من جنوح إلى الرهبانية ابتغاء رضوان الله أقرهم الله عليها ، كما تضمنت استدراكا لذلك التنويه العام وهو عدم رعايتهم لأحكام الرهبانية حق الرعاية ، وانحراف كثير منهم عن جادة الحق والهدى ؛ ومع إطلاق الكلام فى الآية فإن روحها تلهم أن ما فيها من وصف كله أو بعضه يشمل حالة النصارى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

٥ - وفى سورة الصف الآية التالية :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَٰءِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ

فَأَصْبَحُوا ظَـٰهِرِينَ ... ١٤

والآية بسبيل دعوة المسلمين إلى الاقتداء بالحواريين فى تأييدهم عيسى ونصرهم له ، وقد احتوى مطلع السورة حملة على بعض المسلمين لأنهم يقولون مالا يفعلون فى صدد الجهاد فى سبيل الله ونصر نبيه ؛ وبذلك اتسقت المناسبة بين هذه الآية وذلك المطلع ؛ على أن هذه الدعوة من جهة ما ، والقصة التى سيقت بسبيلها ، تنطويان على ثناء الله على الحواريين ، وإيجاب احترام ذكراهم ومواقفهم على المسلمين أيضا . وفى هذا تدعيم للمودة وحسن الصلات بين المسلمين والنصارى فى عهد النبى على مانبهنا إليه فى مناسبة قريبة .

وهذا المعنى مندمج فى آيات من سلسلة طويلة فى آل عمران ذكر فيها الحواريون كما ترى:

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ءَامَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّـٰهِدِينَ ... ٥٢ - ٥٣

وهو مندمج كذلك فى آية أخرى فى سورة المائدة كما ترى :

« وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ... ١١١

— ٣ —

وثانيا : مما ورد فى التنديد بهم ومداه :

١ - فى سورة المائدة هذه الآيات :

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ... ١٧

والآية تحتوى تقريراً تنديديا ومطلقا بكفر القائلين بألوهية المسيح ، وطبيعى أن هذا التقرير التنديدى يشمل النصارى المعاصرين للنبى والقائلين بهذه الألوهية ؛ ولقد جاءت هذه الآية عقب الآيات ١٥ - ١٦ التى نقلناها قبل قليل ، والتى وجهت إلى أهل الكتاب تهيب بهم إلى اتباع الحق والنور والكتاب المبين الذى جاء به النبى ؛ وهكذا تكون هذه الآية متصلة بهاتين الآيتين ؛ وكأنما تقول للنصارى - والنصارى المعاصرون للنبى هم المخاطبون الأولون بطبيعة الحال - إن القائلين بألوهية المسيح قد كفروا بالله وإن عليهم أن يرعووا وينضووا إلى ماجاء به النبى من الهدى والنور وما قرره القرآن المنزل عليه من الحق .

٢ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وقالَ الْمَسِيحُ يَـٰبَنِي إِسْرٰءِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وربَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ومَأْوٰهُ النَّارُ وما لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ . لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلٰثَةٍ وما مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا إِلَـٰهٌ وٰحِدٌ وإن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ . أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانَا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْأَيَـٰتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ما لا يَمْـلِكُ لَكُمْ ضَرًّا ولا نَفْعًا واللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ... ٧٢ - ٧٦

والتنديد فى هذه الآيات أقوى ، كما أن شموله للنصارى المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم أصرح ، كما هو واضح من صيغتها ومضمونها ؛ والآية الأخيرة تلهم أنها نزلت معقبة على مشهد حجاج مواجه بين النبى صلى الله عليه وسلم وفريق من النصارى ؛ مما سنعود إلى الكلام عنه فى مبحث آخر من هذا الفصل .

٣ - وفى السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

« وإذْ قالَ اللهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وأُمِّى إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قالَ سُبْحَـٰنَكَ ما يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فى نَفْسِى ولا أَعْلَمُ ما فى نَفْسِكَ إنَّكَ أَنْتَ عَلَّـٰمُ الغُيُوبِ . ما قُلْتُ لَهُمْ إلَّا ما أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وربَّكُمْ وكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَهِيدٌ ... ١٦ - ١٧

والآيات حكاية حال لمشهد أخروى ؛ غير أن احتواءها سؤالا استنكارياً لعيسى عليه السلام عما يعتقده النصارى بألوهيته وألوهية أمه، وحكاية تنصله من ذلك، ينطويان على تنديد بعقائد النصارى يدخل فى شموله المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى إفحام وإنذار لهم ورد عليهم أيضا .

٤ - وفى سورة التوبة الآيات التالية :

« وقالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وقالَتِ النَّصَـٰرَى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللهِ والمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ومَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّا إِلَـٰهَ إلا هُوَ سُبْحَـٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ... ٣٠ - ٣١

وواضح أن الآيات تنطوى على التنديد بعقيدة بنوة المسيح وألوهيته ؛ وقد احتوت تنديداً فيه صورة من الصور التى كان عليها عامة النصارى ، وذلك فى طاعتهم لرهبانهم طاعة عمياء ، واتخاذهم إياهم أرباباً أيضا ؛ وصيغة الآيات ومضمونها يلهمان أن ما احتوته من تنديد وصورة يشمل النصارى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

# المبحث الثانى

## دعوة النصارى ومواقفهم إزاءها

دعوة النصارى فى القرآن المدنى - تنوع مواقفهم من الدعوى وتعليله - صورة رائعة لايمان بعضهم وفيهم القسيسون والرهبان - ترجيح كون الصورة لبعض وفودهم ومداها ودلالتها - إشارات قليلة أخرى إلى إيمان بعضهم - التعليل القرآنى لمواقف الذين جحدوا منهم - تعليل قلة الآيات المدنية التى تشير إلى إيمانهم .

— ١ —

إن آيات المائدة ١٥ - ١٦ التى نقلناها فى المبحث السابق قد احتوت دعوة إلى أهل الكتاب ، وبطبيعة الحال قد شملت اليهود والنصارى ؛ ثم جاء بعدها الآية ١٧ التى نقلناها كذلك ؛ قد وصفت الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم بالكفر ، ووجهت إليهم سؤالا استنكاريا ؛ وورود هذه الآية عقب تلك الآيتين يلهم بقوة أن النصارى قد اختصوا نوعاً ما بالدعوة فى هذا المقام ؛ ثم جاءت بعدها الآية ١٩ التالية :

« يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ... ١٩

وفيها عود على مابدأته الآيتان ١٥ - ١٦ بأسلوب آخر ، إذ احتوت تقرير أن رسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قد شملت أهل الكتاب الذين منهم النصارى كما هو واضح ؛ وفيها فى الوقت نفسه الهدف الذى نبهنا إليه فى المبحث السابق وحكمة من حكم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وشمولها لأهل الكتاب ، ليكون لهم فيه بشير ونذير بعد ما مر عليهم فترة انحرفوا فيها عن الأسس التى احتوتها كتبهم وأوغلوا فى الخلاف والشقاق ؛ على أن فى سورة النساء آيات فيها دعوة مماثلة ، واختصاص النصارى فيها واضح ، وهى :

« يَٰأَهْلَ الكِتَٰبِ لا تَغْلُوا فى دِينِكُمْ ولا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلا الحَقَّ إِنَّما المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وكَلِمَتُهُ أَلْقَـٰها إِلَىٰ مَرْيَمَ ورُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا بِاللهِ ورُسُلِهِ ولا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّما اللهُ إِلَٰهٌ واحِدٌ سُبْحَٰنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فى السَّمَٰوٰتِ وما فى الأَرْضِ وكَفَىٰ بِاللهِ وكِيلًا . لَّنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلهِ ولا المَلَٰئِكَةُ المُقَرَّبُونَ ومَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ ويَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ ءامَنُوا وعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ويَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا واسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذابًا أَلِيمًا ولا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا ولا نَصِيرًا ... ١٧١ - ١٧٣

إذ تهيب بالنصارى المعاصرين إلى الارعواء والانتهاء عما هم فيه من باطل لايتسق مع عظمة الله وصفاته الكاملة ، وتقرر أن عيسى عليه السلام والملائكة المقربين لايمكن أن يستنكفوا عن عبادة الله ، وأن ماينسبونه إلى المسيح إنما هو افتراء عليه ؛ وقد تضمنت الآية الأولى دعوتهم بصراحة إلى الإيمان بالله ورسوله ؛ هذا إلى أن هناك آيات عدة وردت فى المحاجة معهم سنوردها فى مبحثها الخاص ، وقد احتوت دعوتهم إلى الإيمان بالنبي والتنزيل القرآنى ، إلى الآيات التنديدية التى أوردناها فى المبحث السابق واحتوت دعوتهم ضمناً وصراحة أيضا .

- ٢ -

أما مواقفهم إزاء الدعوة فهى متفاوتة ؛ إذ كان منهم المستجيب المقبل أحسن إقبال ، ومنهم المنقبض المتمسك بما هو عليه ، بل المجادل المشاقّ الصادّ عن سبيل الله ، وهو تفاوت طبيعى ، لأن الذين لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم من النصارى فى العهد المدنى فئات متنوعة متباينة ، فيهم البدو والحضر ، والنساك والزهاد المتجردون عن أعراض الدنيا الراغبون فى الله وحقائقه ، وفيهم الأمراء وأصحاب

المركز والجاه والمطامع، ممن يخضعون على الأكثر لمؤاثرات الدنيا وأعراضها، كما أن فيهم عوام سذجا يتبعون رؤساءهم ويطيعونهم طاعة عمياء

ولقد احتوت آيات من سورة المائدة وصفاً محبباً للنصارى بسورة عامة، ومشهداً رائعاً واقعيا من مشاهد استجابة فريق منهم إلى الدعوة والإيمان بالنبي والتنزيل القرآني كما ترى فيما يلي:

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ . فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ... ٨١ - ٨٦

ولقد تعددت الروايات فى المشهد الذى وصفته الآيات؛ فمنها ما ذكر أنه مشهد نجاشى الحبشة ورجال الدين النصارى الأحباش حينما تلا جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه سورة مريم فى مجلسه إبان الهجرة؛ ومنها ما ذكر أنه مشهد وفد حبشى أرسله النجاشى أو جاء مع المهاجرين العائدين، ومنها ماذكر أنه مشهد لبعض وفود نصرانية لجاءت من الشام أو نجران اليمن.

ومن الصعب الجزم بإحدى هذه الروايات؛ غير أن الوصف كما قلنا وصف مشهد واقعى، وروحه تلهم أنه فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم، والفقرة الأولى من الآية الاولى تلهم أن الآيات نزلت فى وقت كان العداء فيه مشتدا بين المسلمين واليهود، وبالتالى فى وقت كان اليهود فيه مايزالون فى المدينة على شىء من القوة؛ وهذا

لا يمكن أن يكون إلا قبل أواسط العهد المدنى التى تم فيها إقصاؤهم عن المدينة ، وبالتالى قبل رجوع المهاجرين من الحبشة الذى لم تختلف الروايات فى أنه كان بعد صلح الحديبية . والروايات ، وروح آيات آل عمران التى احتوت تعقيباً على مجلس المناظرة الذى انعقد بين النبى صلى الله عليه وسلم ووفد نصارى نجران ، بل نصها ، يسوغ الجزم بأن الوفد رجع دون أن يؤمن ؛ وعلى هذا فالوفد الذى كان منه ذلك المشهد إمّا أن يكون حبشياً أرسله النجاشى للقاء النبى صلى الله عليه وسلم والسماع منه بعد أن عرف عنه ما عرف من المهاجرين ، وإمّا أن يكون قد جاء من أطراف الجزيرة الشمالية حيث كانت الديانة النصرانية هى السائدة ؛ وكلا الاحتمالين ممكن ومعقول ، وإن كنا نرجح الثانى ، ونرجح أن يكون الوافدون ممن يفهمون العربية ؛ فهذا التأثر الشديد يرجح أن يكون من أسلوب القرآن وروحانيته وصدق لهجته ، مما يدركه العارف بالعربية ويتأثر به أكثر .

وهكذا يمكن أن يقال إن أخبار النبى صلى الله عليه وسلم قد انتشرت إلى خارج الجزيرة ، فأثارت الأفكار ، واسترعت الأسماع ، وجعلت بعض رهبان النصارى وقسيسيهم ، وبتعبير آخر، علماءهم الذين يستطيعون الحجاج والجدل ووزن الأقوال ويرغبون فى معرفة وقائع الأمور وحقائقها ، والوقوف عليها بأنفسهم - يشدّون الرحال إلى المدينة ، كما فعل بعضهم فى العهد المكى على ما ذكرناه فى حينه، ليروا هذا النبى ويسمعوا منه ، وليحاجوه ويجادلوه ؛ وإن منهم من أخذ بما رأى وسمع ، ولمس القوة والحق والروحانية ، والتطابق مع جوهر ما جاء به الرسل ، فصدق وآمن، وكان منه هذا المشهد الرائع . وخطورة هذا المشهد - وما كان من أمثال فى العهد المكى مما انطوت إليه الإشارة فى عدة آيات مكية وخاصة آيات الإسراء ١٠٧ - ١٠٩ - عظيمة جدا من جهة سير الدعوة وأثرها كما هو واضح ؛ إذ جاء شهادة عيان قوية صادقة على ما كان لروحانية القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم والدعوة من أثر نافذ فيمن كان يسمعها بقلبه وعقله ، وكان رائده الحق والهدى من النصارى ، وفى مقدمتهم رؤساء دينهم .

والآية الأخيرة من آيات المائدة تتضمن إنذارا للذين كفروا وكذبوا بآيات الله، فمن المحتمل أن تكون الآية مطاقة عامة وبسبيل التنديد بهؤلاء مع ما ظهر من أعلام النبوة وروحانية القرآن وأثرها فى رؤساء الدين النصرانى ، كما أن من المحتمل أن

تكون قد قصدت الذين كفروا وكذبوا من النصارى خاصة ، لهذا القصد نفسه ؛ وقد يكون هذا أوجه بمناسبة موضوع الآيات نفسها .

— ٣ —

وليس فى القرآن المدنى آيات أخرى فيها مثل الصراحة التى احتوتها آيات المائدة عن إيمان النصارى وتصديقهم ، غير أن ثمة إشارتين فى بعض الآيات يحتمل أن تكونا قد عنتا ذلك ؛ منها ما احتوته الفقرة الأخيرة من آية سورة الحديد التى نقلناها فى المبحث السابق ، إذ تشير على ما نرجحه إلى الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم من أتباع عيسى عليه السلام ، وإلى الذين لم يؤمنوا منهم وظلوا فاسقين ، أى منحرفين عن جادة الحق والصواب ؛ لأن أول الآية قد احتوى أشارة إلى الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ؛ ويلاحظ فى وصف الفاسقين تعبير « كثير منهم » ؛ ولا ندرى أيعنى هذا أن كثيرا من الذين لقوا النبى ظلوا فاسقين ، أو أنه يعنى وصف النصارى عامة ؟ ونميل إلى هذا أكثر ، لأن كل ما يمكن أن يستفاد من الروايات أن النصارى الذين لقيهم النبى فى المدينه قليلون جدا ، قد لا يتجاوز عددهم مئات قليلة ؛ وسورة الحديد نزلت بعد الفتح المكى على ما يستفاد من بعض نصوصها ؛ وهذا الظرف قد كان ظرف استنفار المسلمين إلى غزوة تبوك ، وبعبارة أخرى إلى قتال أهل منطقة كثير منهم نصارى ، بسبب ما كان منهم من بغى وعدوان ؛ فليس من المستبعد أن يكون ذلك الوصف قد عنى هؤلاء بصورة خاصة .

ومنها ما احتوته آية فى سورة البقرة ننقلها مع آية قبلها للاتصال الوثيق بينهما :

« وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ...

١٢٠ - ١٢١

والآيتان وإن جاءتا فى سلسلة طويلة فى حق اليهود جاء ذكر النصارى فيهما استطرادا على الأرجح كما قلنا فى مناسبة سابقة ، فإن ما حكى عن النصارى فى الآية الأولى لابد أن يكون حكاية لموقف جحودى وحجاجى وقفه بعضهم ، وهذا يجعل الاحتمال واردا بأن تعبير « الذين آتيناهم الكتاب » فى الآية الثانية قد عنى النصارى كما عنى اليهود ؛ وقد احتوت هذه الآية استدراكا لما جاء فى الآية الأولى بشأن موقف المكابرين من الفريقين، وتقريرا بأن منهم من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فالذين فتح الله بصائرهم ، وآتاهم فهم الكتاب منهم ، يتلونه حق التلاوة ، ويفهمونه حق الفهم ، فيؤمنون بالنبي والقرآن لما يجدونه من التطابق بين ماجاء به وما عندهم ؛ أما الذين كفروا منهم فهم الذين عميت بصائرهم فلا يتدبرون آياته ، ولا يفهمونها حق الفهم ، وهكذا تكون الآية قد أشارت كما قلنا إلى الذين آمنوا بالنبى من النصارى ، إلى مافيها من تعليل قوى بليغ لموقف الكافرين به . ولقد احتوت آيات فى سورة التوبة تعليلا لموقفهم أقوى وأصرح كما ترى فيها .

« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَـٰفِرُونَ . هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ... ٣١ - ٣٤

وقلة الآيات المدنية التى تشير إلى إيمان النصارى بالنبي والقرآن ، يمكن أن تعلل بأن الذين لقوا النبى فى المدينة كانوا قليلين ، فلم تتكرر مشاهد إيمانهم بحيث تذكر فى

القرآن كثيرا . ولقد قلنا فى مناسبة قريبة إن ما جاء فيهم فى القرآن المدنى وخاصة فى آيات المائدة ٨٢ - ٨٥ والحديد ٢٧ من الثناء المحبب ، قد جاء بأسلوب مطلق وتعميمى ، ويكاد يوحى بأنه يشملهم كافة ؛ وقد ينطوى هذا على الإشارة إلى أن أكثر الذين لقوا النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة قد آمنوا به وصدقوا التنزيل القرآنى ؛ كما يحمل على القول إن الحملة عليهم التى وردت فى آيات التوبة التى نقلناها آنفاً وفى غيرها مما نقلناه قبل ومما سننقله بعد ، قد عنت بعض الوفود التى ظلت على جحودها ومكابرتها ، وعنت كذلك أولئك الذين وقفوا موقف البغى وأمر النبى والمسلمون بقتالهم من سكان مشارف الشام على ما سوف نشرحه فى مبحثه الخاص .

---

# المبحث الثالث

## مواقف النصارى الحجاجية

المواقف الحجاجية مع النصارى فى القرآن ومداها ـ مقايسة بينها وبين مواقف اليهود ـ أهم المواقف الحجاجية مناظرة وفد نجران ـ تعليق وبيان وخلاصة ما ذكرته الروايات فى صددها ـ ترجيح انعقاد جلسات متعددة لها ـ الفصول الواردة فى صددها فى سورة آل عمران ـ تعليقات وتحليلات فى صدد الصور والمشاهد التى جرت فى هذه الجلسات مستلهمة من الفصول القرآنية ـ تعليق على بعض الروايات فى صدد حادث المباهلة بالذات ـ دلالة وفادة وفد نجران ـ صور حجاجية محتملة من سورة البقرة وتحليلات للآيات التى تلهمها ـ صورة حجاجية محتملة من سورة النساء ـ صورة حجاجية محتملة من سورة المائدة ـ دس اليهود للنصارى فى الموقف الحجاجى الذى تلهمه آيات هذه السورة .

— ١ —

فى القرآن المدنى بعض الفصول والمقاطع القرآنية التى تدل على أنه كان ينعقد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض النصارى مجالس مناظرة وحجاج حول الدعوة الإسلامية وأسسها ، والعقيدة النصرانية فى السيد المسيح عليه السلام وغلو النصارى فيها ؛ غير أنها قليلة إذا ماقيست بما احتواه هذا القرآن من الفصول الكثيرة الطويلة فى مواقف اليهود الحجاجية ؛ مما يتسق مع ظروف الفريقين فى العهد المدنى ، من قلة النصارى الذين لقيهم النبي ، وقلة المستقرين منهم فى المدينة ، وما كان يتحلى به النصارى بصورة عامة من دماثة وبعد عن العنف واللجاج ، كما تلهمه الآيات القرآنية التى أوردنا بعضها ؛ فى حين كان اليهود جالية كبيرة مستقرة ، لها مصالح متنوعة ، ولها كيان قوى متشعب الجذور والتوغل فى حياة المجتمع العربى ، ولها طابع خاص وجبلة متوارثة فى التفكير والحياة والمعيشة والأخلاق ، على ما فصلناه فى فصلهم الخاص استلهاماً من القرآن .

— ٢ —

وأهم هـذه المواقف أو المجالس ما كان بين النبي صلى الله عليه وسلم ووفد من

نصارى نجران اليمن ؛ والاسم لم يرد فى القرآن صراحة ، ولكن الروايات التى لا اختلاف فى جوهرها مجمعة على ذلك ، وعلى أن الفصل الطويل الذى شغل حيزاً كبيراً من القسم الأول من سورة آل عمران هو فى صدد ذلك .

ويستفاد من الروايات أن هذا الوفد قد قدم إلى المدينة فى الربع الأول من الهجرة ، وكان مؤلفاً من ستين شخصاً ، منهم أربعة عشر من أشرافهم ، وثلاثة من كبار رجال دينهم ؛ فاجتمعوا بالنبى صلى الله عليه وسلم فى مسجده وعليهم الحبرات ، وجرت بينهم مناظرة كان أهم مواضيعها ولادة عيسى عليه السلام وصلته بالله ورسالته ، وقد جادلوه مستشهدين بما قرره من أن عيسى عليه السلام كلمة الله وروحه ؛ ورد عليهم منددا بتأويلاتهم التى لا تتسق مع جوهر الأمر ومبدإ التوحيد المطلق الذى قرره القرآن ودعا إليه ؛ ولكنهم لم يقتنعوا ، وظلوا يدعون أنهم على الحق ؛ فطلبهم إلى المباهلة ، أى أن يدعو ويدعون هم بأن تكون لعنة الله على الكاذبين ؛ فلم يجيبوا الطلب ووادعوه وانصرفوا .

وليس من السهل بطبيعة الحال الجزم بأن هذا الفصل الطويل القرآنى قد نزل قبل المناظرة أو بعدها ، ولكن روح آياته قد تلهم أن المناظرة لم تكن فى جلسة واحدة ، وأن بعض أقسام الفصل نزل عقب الجلسة الأولى ، كما أن بعضها نزل عقب الجلسة الأخيرة وقبل انصراف الوفد إلى أهله ؛ ومما لا يحتمل شكا أن أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وحججه كانت فى نطاق ما احتواه الفصل على كل حال ؛ ولهذا فإن الفصل قد انطوى على مشاهد جلسات المناظرة ومادار فيها ، وخاصة حجج النبى صلى الله عليه وسلم وأقواله .

ومما نكاد نجزم به أن جلسات المناظرة كانت حاشدة ، إذ شهدها أعضاء الوفد ، وشهدها فريق كبير من المسلمين أو كبارهم ؛ ولعل بعض اليهود كانوا من شهودها ؛ وفى بعض الآيات ما قد يلهم أنهم حاولوا أن يتدخلوا أو يدسوا ؛ وإليك الآن مقتطفات من الفصل القرآنى الذى استلهمنا أنه فى صدد هذه المناظرة :

١ — الٓمٓ . اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَٰةَ وَالْإِنجِيلَ . مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ

وأنزل الفرقان إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ واللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . إنَّ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فى الْأَرْضِ ولا فى السَّماءِ . هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فى الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ والرَّاسِخُونَ فى العِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ . رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا من لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ...

١ - ٨

٢ — زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والبَنِينَ والقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والْأَنْعَامِ والْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ورِضْوَانٌ مِنَ اللهِ واللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنا وقِنا عَذابَ النَّارِ . الصَّابِرِينَ والصَّادِقِينَ والْقَانِتِينَ والْمُنْفِقِينَ والمُسْتَغْفِرِينَ بالْأَسْحارِ . شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ والْمَلَائِكَةُ وأُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ وما اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ومَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وقُلْ لِلَّذِينَ

أُوتُوا الْكِتَٰبَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ... ١٤ - ٢٤

٣ — إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى الْعَٰلَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَٰنِ الرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فَنَادَتْهُ الْمَلَٰئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ . قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ

يَفعَلُ ما يَشاءُ . قالَ رَبِّ اجْعَل لِّى ءَايَةً قالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا واذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وسَبِّحْ بِالْعَشِىِّ والإِبْكَٰرِ. وإِذْ قالَتِ المَلٰئِكَةُ يٰمَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفٰكِ وطَهَّرَكِ واصْطَفٰكِ عَلَى نِساءِ العٰلَمِينَ . يٰمَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ واسْجُدِى وارْكَعِى مَعَ الرّٰكِعِينَ . ذٰلِكَ مِنْ أَنْباءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِذْ قالَتِ المَلٰئِكَةُ يٰمَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فى الدُّنْيا والآخِرَةِ ومِنَ المُقَرَّبِينَ . ويُكَلِّمُ النَّاسَ فى المَهْدِ وكَهْلًا ومِنَ الصّٰلِحِينَ . قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى وَلَدٌ ولَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قالَ كَذٰلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ . ويُعَلِّمُهُ الكِتٰبَ والحِكْمَةَ والتَّوْرٰةَ والإِنْجِيلَ . ورَسُولًا إِلَىٰ بَنِى إِسْرٰءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وأُحْىِ المَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ وأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وما تَدَّخِرُونَ فى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فى ذٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ . ومُصَدِّقًا لِّما بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرٰةِ ولِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وجِئْتُكُمْ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ إِنَّ اللهَ رَبِّى ورَبُّكُمْ فاعْبُدُوهُ هٰذا صِرٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللهِ قالَ الحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ ءَامَنَّا بِاللهِ واشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنا ءَامَنَّا بِما أَنْزَلْتَ واتَّبَعْنا الرَّسُولَ فاكْتُبْنا مَعَ الشّٰهِدِينَ . ومَكَرُوا ومَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ المٰكِرِينَ . إِذْ قالَ

اللهُ يَـٰعِيسَىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ورافِعُكَ إِلَىَّ ومُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَـٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذابًا شَدِيدًا فى الدُّنيا والآخِرَةِ وما لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ وأَمَّا الَّذِينَ ءامَنُوا وعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ فيُوَفِّيهِمْ أُجورَهُمْ واللهُ لا يُحِبُّ الظَّـٰلِمِينَ ...

٣٤ - ٥٧

٤ — ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَـٰتِ والذِّكْرِ الحَكِيمِ . إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وأَبْناءَكُمْ ونِساءَنا ونِسَاءَكُمْ وأَنْفُسَنا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الكَـٰذِبِينَ . إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الحَقُّ ومَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا اللهُ وإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَـٰأَهْلَ الكِتَـٰبِ تَعالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ....

٥٨ - ٦٤

٥ — يَـٰأَهْلَ الكِتَـٰبِ لِمَ تُحَاجُّونَ فى إِبْرَٰهِيمَ وما أُنْزِلَتِ التَّوْرَٰةُ والإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْم واللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ . ما كانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا ولا نَصْرَانِيًّا ولَـٰكِنْ كانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا

وما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وهَٰذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ ءامَنُوا واللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ... ٦٥ - ٦٨

— ٤ —

فالآية ١٥ من المجموعة الثانية فيها خطاب لمخاطبين قريبين ، ثم يعقبها تقرير عن حقيقة الإسلام ومعناه ، والآية ٢٥ تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم فى صدد محاجة الذين يحاجونه فى الله والإسلام ، والآية ٢٣ منها تندد بفريق من الكتابيين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى تحكيم كتاب الله فأبوا ، والآيات ٦٠ و ٦٤ من المجموعة الرابعة ، وآيات المجموعة الخامسة ، موجهة إلى كتابيين مواجهة وعلى سبيل المجادلة والتحدى ؛ فكل هذا يلهم بقوة صحة وقوع المناظرة التى أجمعت الروايات على ذكرها .

ومما ذكرته الروايات أن الوفد أراد أن يتخلص بأسلوب جدلى ، فقال للنبي : ألست تقول بأن عيسى روح الله وكلمته ؟ قال بلى ؛ فقال الوفد : هذا حسبنا . والمجموعة الأولى احتوت - على ما يتبادر لنا - ردا وتفنيداً لما عمدوا إليه من حجة ، وبالتالى تؤيد صحة الرواية ؛ فقد احتوت الآية ٧ منها تقرير أن الله هو الذى يصور الناس فى الأرحام كيف يشاء ، واعتبرت الآية ٨ سؤالهم مغالطة ، فردت عليهم مفندة إذ قررت أن هناك آيات محكمات هن أم الكتاب وفيها جوهر الدعوة وأسسها التى لا تحتمل تأويلا ، وهناك آيات متشابهة للتمثيل والتقريب ، فلا يتمسك بهذه ويتجاهل تلك ، أو يريد أن ينقض تلك بهذه على تأويل خاطئ إلا من فى قلبه زيغ ولم يكن رائده الحق وإنما يقصد المكابرة والتمحك ؛ أما المؤمنون الراسخون فى العلم فلا يمكن أن يتورطوا فى ذلك ، وإنما قولهم فى صدد الآيات المتشابهة : آمنا به كل من عند ربنا . ولا بد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد شرح ذلك بالآيات والأمثال ، وأورد الآيات القرآنية المحكمة التى تقرر وحدة الله وحدة لا شائبة فيها بحيث لا يجوز فى حقه أبوة ولا بنوة ولا تعدد ولا تجزؤ ولا انفصال ، وقال إنه إذا جاء فى القرآن أن عيسى كلمة الله ومن روحه فإنما أريد بذلك التقريب والتمثيل والتنويه بالمعجزة الربانية التى تمت بولادته بلا أب ، فلا يصح أن يحاول

بهذا نقض تلك الآيات المحكمة . ومن الجدير بالتنبيه أن المجموعة الرابعة احتوت تمثيلا لخلقة عيسى عليه السلام بآدم ، وفى الآيات المكية ذكر أن الله نفخ فى آدم وفى الإنسان من روحه فصار حيا [1] فيحتمل أن تكون هذه الآيات قد أوردت فى معرض المجادلة ؛ ويبدو أن المناظرين جادلوا فى القرآن وأنكروا نزوله من عند الله وقالوا إنهم لا يتقيدون به ، فجاءت الآيات الأولى من المجموعة الأولى تنوه بكتب الله ثم تقرر أن الله قد أنزل القرآن مثلها ، فليس هو بدعا ، وإن فيه لفرقاناً بين الحق والباطل فيجب أن يؤمن به من آمن بكتب الله السابقة ، وإن الذين لا يؤمنون به سيكونون موضع انتقام الله وعذابه .

وعلى هذا فمن السائغ أن يقال إن المجموعة الأولى قد نزلت بعد جلسة ما ، أو بعد الجلسة الأولى، ردا على ما كان منهم من إنكار للقرآن ، ثم تفنيداً المغالطة التى عمدوا إليها ؛ كما أن من السائغ أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد رد عليهم فى نطاق هذه الحجج ثم نزلت الآيات مرددة أو مؤيدة له ؛ ولهذا نظائر عدة فى القرآن نبهنا إليها فى مناسبات سابقة .

ويلمح خلال آيات المجموعة الأولى وملهماتها - إذا صح شرحنا وتوجيهنا - تناقض للمناظرين ، أو أسلوب من أساليب المناظرة والجدل ، فقد أنكروا القرآن ثم أخذوا يحاجون النبى صلى الله عليه وسلم فيما قرره بشأن عيسى عليه السلام وأنه كلمته أو روحه أو من روحه ؛ ولعلهم قالوا كما يقول المناطقة أو المتناظرون: لنسلم جدلا بالقرآن ، فالقرآن يقول كذا وكذا ، وفى هذا صورة بارزة وطريفة من صور المشهد على ما هو المتبادر .

وفى المجموعة الثانية خطاب موجه إلى مخاطبين حاضرين ، وخطاب آخر موجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى صدد المحاجين ، وهذا ما جعلنا نستلهم أنها هى أيضاً فى صدد المناظرة ؛ وقد احتوت تدعيما للنقطة التى جرى الحجاج فيها ، والتى انطوت على الإشارة إليها المجموعة الأولى ؛ فوحدانية الله أمر محكم لا يتحمل أى كلام ، والله وملائكته وأولو العلم يشهدون على هذا ويشهدون بما اتصف به من القيومية الدائمة بالحق والقسط ؛ والطاعة والانقياد والإسلام لله هو الدين الحق الواجب على الناس .

---

(١) اقرأ آيات الحجر ٢٩ والسجدة ٧ - ٨ مثلا .

وحجاج الكتابيين ولجاجهم فى الأمور المحكمة ليس من الدين ، وإنما هو مظهر من مظاهر اختلافهم فى التأويل وتجاوزهم فيه حدود العقل إلى البغى والغلو ، ومن لم يطع وينفذ ويرعو عن البغى فعند الله حسابه ؛ ثم نقل الكلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم : فإذا ظل المناظرون فى لجاجهم بعد سطوع الحجة البالغة فليعلن عن نفسه وعمن تابعه، إسلامهم لله؛ وليكتف بدعوة الناس كتابيين وأميين إلى مثل ذلك ، وليكل إلى الله أمر من يتولى ويعرض منهم .

ولقد تكون بعض آيات المجموعة محل تساؤل عما إذا كانت ذات صلة بالمناظرة ، وذلك بسبب أن ما احتوته مما وصف به اليهود فى آيات أخرى ، ونعنى الآيات الأربع الأخيرة ٢١ - ٢٤ ؛ غير أن انسجامها مع السياق من جهة ، وبعض مضامينها وخاصة الآية ٢٣ من جهة أخرى ، جعلانا نميل إلى القول بصلتها بالمناظرة ؛ وورود الصفات التى فيها فى حق اليهود لا يمنع - فيما يتبادر لنا - أن يوصف بها فريق من النصارى وقفوا موقف اللدد والمكابرة ؛ على أن مما يرد على البال أيضاً أن يكون النبي قد دعا المناظرين إلى تحكيم كتاب الله وآياته فتدخل اليهود ودسوا حتى جعلوهم يأبون .

وقد يكون فى الآية الأولى من المجموعة تأييد لما ذكرته الروايات من أن الوفد جاء وعليه الحبرات الديباجية الموشاة ، وعلى هيئة أثارت دهشة المسلمين ؛ إذ أشارت إلى طبيعة البشر فى إنهماكهم فى حب الدنيا وزينتها مع أن ما عند الله أعظم وأبقى للمؤمنين المستغفرين الصابرين الصادقين القانتين الخ .

وعلى كل حال فإنه يتبادر لنا أن كل الآيات أو جلها متصلة بالمناظرة ، وأنها نزلت بعد جلسة ما من جلساتها وقبل انتهائها ؛ ومما لا ريب فيه أن النبي قد تلاها فى الجلسة التالية ، أو أدار حديثه فى نطاقها مقررا ومنددا وداعيا إلى تحكيم كتاب الله ثم داعيا إلى الإسلام والانقياد لله .

أما المجموعة الثالثة فهى - على ما هو المتبادر الواضح - فى صدد موضوع المناظرة بالذات ، أو أهم مواضيعها ، وهو خلقة عيسى عليه السلام ورسالته ، وتقرير قرآنى لما هو الحق فيه ؛ وقد احتوى تمهيدات مثل تقرير نذر أم مريم ما فى بطنها لخدمة الله ، وتقبل الله لها في خدمته بقبول حسن ، ورعايته لها رعاية عظيمة ، وذلك بسبيل تقرير

طهارتها وانقطاعها لله وتأهلها للمعجزة الربانية ؛ ومن هذه التمهيدات قصة ولادة يحيى عليه وسلم وما فيها من إعجاز ، وذلك بسبيل تقرير أن ذلك لم يقتض أن يكون يحيى إلها أو جزءا من إله .

وقد احتوى الفصل تقرير أمر واقع هو أن خلقة عيسى معجزة ربانية ليس غير ، وتقرير أمر رسالته وحكاية ما كان من دعوته الناس إلى عبادة الله وحده ، وما كان من نسبته ما ظهر على يده من خوارق إلى الله ، وتقرير استجابة الحواريين لدعوته فى حياته على وجهها الصحيح المحكى ، وأن الاختلاف فيه وفيها إنما كان بعد توفيه .

ولقد علقنا فى فصل الكتابيين من قسم العهد المكى تعليقات كافية فى سياق فصل سورة مريم تغنينا عن الزيادة هنا ، وفى هذه المجموعة عود على بدء اقتضته حكمة التنزيل توكيداً وتأييداً ؛ ويلاحظ بعض الفروق بين ماجاء فى فصل سورة مريم وماجاء فى هذه المجموعة ؛ مما يحمل على القول أن هناك من أدار الحديث على بعض جزئيات من سيرة السيد المسيح وأمه ورسالته وخوارقه وموقف الحواريين منه ، أو سأل عن ذلك ، فاحتوت الآيات ما فيه البيان مما لم يرد فى فصل سورة مريم .

وليس من الممكن الجزم بأن آيات هذه المجموعة نزلت قبل المناظرة ، أو بعدها ، أو خلالها ؛ والحالات الثلاث واردة الاحتمال على تفاوت فى قوته ؛ ولعل أوجه الاحتمالات أن تكون نزلت بعد جلسة من جلسات المناظرة دار الحديث فيها حول الموضوع مبدئيا ، فتليت فى الجلسة التالية كتقرير قرآنى ربانى فيه ، ونرجح أنها نزلت بعد نزول المجموعتين الأوليين ، إذ يتبادر لنا أنه دار فى الجلسة الأولى بحث حول ولادة عيسى عليه السلام ، فتلا النبى صلى الله عليه وسلم الآيات المكية فيها ، فجادلوه على ماذكرناه قبل قليل ، ففند أقوالهم فى نطاق ماجاء فى المجموعتين ؛ ثم نزلتا بعد الجلسة فتلاهما ، ثم نزلت المجموعة الثالثة بعد هذه أيضا فتلاها فى الجلسة التى تلتها .

ونرجح أن المجموعة الرابعة نزلت هى والمجموعة الثالثة فى آن واحد ؛ وتلهم أن المناظرة قد انتهت بها ؛ إذ احتوت تقريراً وتعقيباً وتحدياً ودعوة ختامية ؛ فخلقة عيسى ليست أعظم من خلقة آدم ، وهي مما يعترف به المناظرون ؛ ولم يعد ثمة إمكان للمراء

لمن يريد الحق : فإذا أصر المناظرون فى لجاجهم بعد هذا فلم يبق ما يقال لهم إلا تحديهم بأن يجتمع الطرفان ومعهم من يعزون من أبنائهم ونسائهم ، فيطلب الجميع من الله أن يجعل لعنته وسخطه وغضبه على الكاذبين منهم ، وإلا أن يدعو النبي الكتابيين - المناظرين - إلى كلمة سواء بينهم وبينه ، فيعلنوا معا أنهم لا يعبدون إلا الله ، ولا يشركون به شيئاً ، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دونه ؛ فإن لم يعلنوها معه فليعلنها هو باسمه واسم أتباعه ، وليشهدهم على أنهم مسلمون لله وحده لا شريك له ، ولارب غيره .

ومما لاريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تلا عليهم هذه الآيات القوية النافذة أو خاطبهم بما فى نطاقها ، وأنه دعاهم إلى ما أمر بأن يدعوهم إليه ، وأعلن ما أمر أن يعلنه فى المشهد الحافل ؛ ومضمون الآيات وروحها يلهمان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان فى موقف القوى المطمئن بقوة موقفه وصحة دعواه ، والمستعلى على مناظره بالحجة الدامغة ، والصميمية العميقة ، والتحدى المفحم ، والدعوة التى لايردها إلا الممترى .

وقد عرفت الدعوة إلى الابتهال إلى الله بالمباهلة فى تاريخ السيرة النبوية ؛ وقد قال الرواة إن الوفد لم يستجب إليها ، وقال للنبي ليكن كل منا على ماهو عليه ؛ ثم وادعوه وانصرفوا .

ولقد ورد فى صدد المباهلة وآيتها رواية متصلة بالمشهد ، وهى أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليا وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم وغدا بهم ليباهل القوم ، ولم يكن معه أحد من نسائه ؛ ونحن مضطرون إلى التوقف فى قبول هذه الرواية ، فالروايات تذكر أن عليا وفاطمة رضى الله عنهما لم يقترنا إلا بعد الهجرة ، وأن الحسن والحسين رضى الله عنهما لم يولدا إلا فى أواسطها ، والروايات تذكر أن وفد نجران قد جاء فى أوائل الهجرة ، والقرآن قد سمى زوجات النبي بنساء النبي ، وقد كان له زوجات حين وفد هذا الوفد ، وليس من المعقول أن يخالف صريح الأمر القرآنى ؛ على أننا من ناحية ثانية نتوقف فى رواية أن النبي استعد أو خرج للمباهلة فعلا ؛ ولانرى الآية تقتضى ذلك ، وإنما جاءت بأسلوب التحدى والإفحام .

وقد ألحقنا المجموعة الخامسة بمجموعات المناظرة بسبب احتوائها لفظى « الإنجيل » و « نصرانيا » إذ رأينا من المحتمل أن يكون موضوع ملة إبراهيم قد أثير فى

جلسات المناظرة ، وأن المناظرين النصارى ادعوا أن ملتهم وملة إبراهيم سواء ، فنزلت الآيات تردد ذلك وترد عليه ؛ على أننا لا نتشدد فى الاحتمال لأن ذكر النصارى فى موضوع ملة إبراهيم قد ورد أيضاً فى سلسلة حجاجية مع اليهود خاصة ؛ مما جعلنا نقول إن ذكرهم قد جاء من قبيل الاستطراد .

وعلى كل حال فالمجموعات القرآنية التى نقلناها مع الروايات الواردة فى صددها والتى استأنسنا بها ، سمحت لنا باقتباس صور عدة لمشاهد حادث يمكن أن يعد من أعظم أحداث السيرة والدعوة فى العهد المدنى ، ومن أشدها إثارة للدهشة ، وبعثاً للاهتمام ، بما كان من وفرة عدد الوفد ، وهيئته ، ومجالس المناظرة الحاشدة التى انعقدت بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم كما هو المتبادر ، مما يدل على أن شأن النبي واسمه ظلا يتجاوزان أفق الحجاز ويلفتان أنظار الملل الأخرى ، ويسترعيان أسماعها ، ويبعثان فى نفوس رجالتها رغبة إلى الاستطلاع والاستماع والاستيثاق ؛ وعلى أن دار الهجرة النبوية صارت مما يشد إليه الرحال بقصد العلم والمعرفة والمناظرة والمحاجة .

— ٥ —

وهناك آيات فى سور البقرة والنساء والمائدة من المحتمل كثيرا أن تكون نزلت فى صدد مواقف حجاجية مواجهة بين النبي صلى الله عليه وسلم وفريق من النصارى أيضاً :

١ - فقد جاء فى سورة البقرة الآيات التالية :

« وقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ... ١١١ - ١١٣

وهى تحكى أقوالا لليهود والنصارى فى آن واحد. والآيات من سلسلة طويلة فى حق اليهود ، ومن المحتمل أن يكون ذكر النصارى جاء فيها من قبيل التعميم والاستطراد، غير أن مما لا يحتمل أن يكون اليهود قالوا (كونوا نصارى تهتدوا)، وأنه لابد أن يكون هذا القول قد صدر من نصارى فى موقف ما ؛ وفى القول رد حجاجى على دعوة موجهة إلى القائلين كما هو واضح ، فيه تبجح وفيه استكبار .

والآية الثالثة جديرة بالتعليق ؛ إذ تحكى حكاية قول كل فريق ورأيه فى الآخر ؛ وصدور هذا القول من كل منهما فى حق الآخر مما لايحتمل شكا ؛ فهو متردد على ألسنتهم أبداً : أمس واليوم وغداً ؛ والراجح أنه صدر من كل فريق فى غياب الآخر بسبيل دعواه أنه هو وحده على الحق وأنه لن يدخل الجنة إلا من هو على ملته! والآية قرينة قوية على صدور القول الأول أيضا فعلا أمام النبي صلى الله عليه وسلم فى موقف مواجه . ولاريب فى أنه كان لموقف ورأى كل فريق فى الآخر أثر إيجابى فيما كان من استعلاء الموقف النبوى والدعوة النبوية ، فى نفوس العرب والكتابيين على السواء ؛ وأن يكون من أسباب تبرم بعض علماء الكتابيين من نصارى ويهود ، وإقدامهم على التفلت من المؤثرات المتنوعة ، واستجابتهم إلى الدعوة النبوية دون مبالاة ببنى قومهم وملتهم ؛ لاسيما أن الخلاف بين الكتابيين مما كان موضوع بحث وعجب وسخرية عند العرب على ما ذكرناه فى مناسبات سابقة .

(٢) وقد جاء فى سورة البقرة أيضاً الآيات التالية .

« وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ...

١٢٠ - ١٢١

والآيات تحكى موقف كل من النصارى واليهود من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهى من سلسلة طويلة فى حق اليهود فى الوقت نفسه ، مما يجعل من المحتمل كثيراً أن

يكون ذكر النصارى فيها قد ورد من قبيل التعميم والاستطراد ، غير أن مما لا يحتمل شكا أنها حكاية واقع حال كل منهما فعلا ؛ ولا بد أن تكون قد تكشفت للنبي صلى الله عليه وسلم بالاحتكاك والمواقف الحجاجية المواجهة ؛ وفى الآية الثانية تدعيم لذلك إذ تأمر النبي بأن يقول لهم إن هدى الله هو الهدى الحق .

٣ ـ وقد جاء فى سورة النساء الآيات التالية :

« يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ لا تَغْلُوا فى دِينِكُمْ ولا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وكَلِمَتُهُ أَلْقَٰهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ ورُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا بِاللهِ ورُسُلِهِ ولا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُ أَن يَكُونَ لهُ وَلَدٌ لَّهُ ما فى السَّمَٰوَٰتِ وما فى الْأَرْضِ وكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا . لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ولا الْمَلَٰٓئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ومَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ ويَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ويَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا واسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ولا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا ولا نَصِيرًا ...

والآيات موجهة إلى النصارى كما هو واضح ، وبأسلوب مزج فيه الحجاج والنهى والدعوة والتنديد والإنذار معاً ، والصيغة تلهم أنها تخاطب فريقاً يسمع أو من الممكن أن يسمع مواجهة ، ومما لا يحتمل شكا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تلا عليه الآيات فى موقف حجاجي مواجه .

٤ ـ وقد جاء فى سورة المائدة الآيات التالية :

« قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ لا تَغْلُوا فى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ولا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وأَضَلُّوا كَثِيرًا وضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ . لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ...

٧٧ - ٨٠

وهذه الآيات قد جاءت عقب الآيات (٧٢ - ٧٦) التى قررت كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وإنه ثالث ثلاثة ، ونددت بهم ودعتهم إلى التوبة والاستغفار ، وقررت حقيقة ما دعا إليه المسيح صلى الله عليه وسلم وأنه ليس إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل ، وقرعتهم على عبادتهم ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعاً من دون الله ، والتى نقلناها فى مبحث سابق من الفصل ، والتى يجب أن تعد جزءا من هذه الآيات وما احتوته من موقف حجاجى وتنديدى ، ومضمونها يدل بجزم على أن النصارى هم موضوع الخطاب ؛ ومما لا ريب فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قد وجه الآيات إلى فريق نصرانى لقيه فى موقف مواجه .

ويلفت النظر خاصة إلى الآية ٧٧ التى تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بنهى هذا الفريق عن اتباع أهواء القوم الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً من غيرهم وما زالوا ضالين عن سواء السبيل ؛ إذهى تسوغ لنا القول بجزم إن المقصود هم اليهود ؛ وقد أكدت هذه الآية التالية لها إذ ذكرت بنى إسرائيل بصراحة وما كان من لعنة داود وعيسى لهم بسبب ما ارتكسوا فيه من المنكرات وعدم نهى أحد منهم أحداً عنها ؛ وقد أشارت الآية الأخيرة إلى واقع حالهم الحاضر ، إذ لا يتورعون عن تولى الكافرين المشركين مع مايدعونه من التوحيد وما ينتسبون إليه من كتاب الله وأنبيائه كحجة منضمة أريد بها التدليل على ارتكاسهم فى الضلالة وتضامنهم مع المشركين بقصد الدس على دعوة الله ، والصد عن سبيلها ، وإضلال الناس عنها .

ويبدو أن فريقاً من اليهود حاولوا صد الفريق النصرانى عن الإسلام ، وتثبيته على ما هو عليه من كفر صريح ؛ فكان هذا النهى وهذا التقريع ، وكانت هذه الإشارة إلى توليهم المشركين ليكون فيها عبرة للفريق النصرانى ، ورادع عن الاستماع إليهم .

وفى كل هذا صور من المشهد الحجاجى الذى انطوت عليه السلسلة كما هو المتبادر ؛ والآية ٧٩ قصدت تقويه العظة وداعى العبرة والروع الموجه للفريق النصرانى ؛ فعيسى عليه السلام قد لعن اليهود لما ارتكسوا فيه من المنكرات ، وداود عليه السلام - جده لأمه - قد لعنهم من قبله ؛ وفى هذا ما يجب أن يكون رادعاً وعبرة للفريق النصرانى ، وصارفاً عن الاستماع إلى دسهم ووساوسهم .

وفى هذا أسلوب بديع من الجدل المحكم والحجة البالغة بالنسبة للموقف الذى طرفه نصارى كما هو واضح أيضا .

# المبحث الرابع

## الصدام مع النصارى

حالة النصارى فى المدينة وأخلاقهم لم تكن تتحمل صداماً - مدى النهى القرآنى عن اتخاذهم أولياء - اختلاف الحالة بالنسبة لنصارى مشارف الشام - ماذكرته الروايات من أخبار عدوان قبائل هذه المشارف وسرايا النبى إليها - آيات التوبة بقتال الكتابيين وترجيح نزولها بين يدى غزوة تبوك - آيات التوبة بالاستنفار إلى غزوة تبوك - مدى الآيات - تعليقات وتحليلات حولها - ماتلهم من سبق بنى سكان المشارف وسبق الصدام الذى روته الروايات - خلاصة الروايات عن ظروف وأحداث غزوة تبوك - مقاطع من سورة التوبة تحتوى صوراً ومشاهد من حركة الاستعداد للغزوة وتأليفها - إشارة إلى مايتبعها من جيش أسامة ثم جيوش الفتح وصلتها بها - مغزى هذه الغزوة ومداها - تفنيد لمزاعم بعض المستشرقين فيها .

— ١ —

لم يكن فى المدينة جالية ذات شأن وكيان يمكن أن يقع بينها وبين النبي والمسلمين صدام ، وأن يصدر منها مواقف عملية مؤذية وخطرة كما كان شأن اليهود ، هذا إلى أن الآيات القرآنية المدنية لم تحتو حملات عنيفة قاسية عليهم ، بل وصفتهم بأوصاف محببة إطلاقاً ، مما يلهم أن الذين لقيهم النبي منهم فى المدينة كانوا دمثى الأخلاق لينى الجانب ، غير جانحين إلى عنف وكيد ؛ وهذا ماجعلنا نرجح فى مناسبة سابقة أن موضوع آيات المائدة ٥١ - ٥٢ و ٥٧ - ٥٨ التى نهى فيها المسلمون عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، هم اليهود مباشرة ، وأن ذكر النصارى فى الآية ٥١ قد جاء استطراديا ومعللا بالتعليل الذى احتوته الآيات ٥٧ - ٥٨ ليكون تلقيناً قرآنيا مستمر المدى ؛ وترجيحنا مستلهم مما احتوته الآية ٥٢ من نعى على المنافقين أن يتمسكوا بأوليائهم خشية الدوائر ؛ واليهود هم الذين كان بينهم وبين المنافقين ولاء متصل بما قبل الهجرة ، ومحتج به .

- ٣ -

أما بالنسبة إلى خارج المدينة فالأمر مختلف ؛ حيث كان غالب سكان مشارف الشام نصارى تابعين لنفوذ دولة نصرانية كبرى ؛ وقد ذكرت الروايات أخبار اعتداء بعض قبائل هذه المشارف كقضاعة وبنى كلب على قوافل التجار ، وخبر قتل أحد رسل رسول الله فى هذه المنطقة ، وأخبار سرايا جهادية مثل سرية ذات الاطلاح التى قتل أكثر رجالها بيد قبائل العرب ، ومثل سرية دومة الجندل ؛ ومثل سرية مؤتة المشهورة التى وصلت إلى أبواب البلقاء ودارت الدائرة فيها على المسلمين إذ قتل ثلاثة من قوادهم وعدد من رجالهم ونجت بعد ذلك برجعة ماهرة تولاها خالد بن الوليد رضى الله عنه ؛ وقد بدأت هذه السرايا منذ السنة الهجرية السادسة على مايستفاد من تلك الروايات التى ليس بينها خلاف جوهرى ، والتى يصح أن يكون ماذكرته معتبراً من حيث الأساس بقطع النظر عن التفصيل ، وهكذا يكون الصدام المسلح بين النبى والمسلمين من جهة ، وسكان تلك المشارف من جهة أخرى ، قد بدأ منذ أوائل النصف الثانى من العهد المدنى واستمر .

وليس فى القرآن إشارة صريحة إلى ذلك ؛ غير أن فى سورة التوبة آيات تأمر بقتال الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، وتذكر أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله ، وأن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يصدون عن سبيل الله ، وهى هذه :

« قَـٰتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ باللهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ ورَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وهُمْ صَـٰغِرُونَ . وقالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وقالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دونِ اللهِ والمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ومَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ

سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ... ٢٩ - ٣٤

والآية الأولى تشريعية، والأخرى تنطوى على حكمة التشريع بالإضافة إلى ما فى الأولى من هذه الحكمة. وقد يدخل فى الآيات اليهود والنصارى معاً ؛ غير أن الآيات قد نزلت بعد الفتح المكى على ما تلهمه ظروفها ، ولم يكن قد بقى يهود فى الحجاز ، كما أنها نزلت بين يدى غزوة تبوك التى هى من مشارف الشام والتى غالب سكان مناطقها نصارى ، وبين يدى آيات أجمعت الروايات على أنها فى صدد الاستنفار إلى هذه الغزوة ، وقد احتوت وصفاً يلهم بقوة أنه وصف لها كما ترى فيما يلى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . لَوْ كَانَ

عَرَضًا قَرِيبًا وسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ ولَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وسَيَحْلِفُونَ باللهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ...[(١)] ٣٨ - ٤٢

فهذه الآيات وتلك والحالة هذه تنطوى على إشارات قرآنية إلى الصدام بين النبي والمسلمين من جهة ، والنصارى من جهة أخرى .

— ٣ —

ومع أن كثيراً من المفسرين قد صرفوا الأوصاف الثلاثة المذكورة فى الآية الأولى إلى أن كفر الكتابيين برسالة النبي والدين الذى أتى به سبب مطلق ، وقالوا إنه موجب التشريع ، فإن هناك ما يحمل على التوقف فى التسليم بذلك ؛ لأنه يقتضى أن يكون المسلمون مأمورين بمقاتلة كل كتابى إطلاقا إذا جحد رسالة النبي ، مع أن الآية قد احتوت حرف التبعيض « من » الذى لا شك فى أنه يعترض ذلك القول الإطلاقى ، ويسوغ صرف الأوصاف المذكورة إلى حالات أوسع تناولا ، ويجعل أمر القتال منوطاً بأسباب أخرى ؛ فعدم تحريم ما حرم الله ورسوله ، وعدم الدينونة بدين الحق ، يتسعان لمعان كثيرة أخرى مثل العدوان على القوافل وإخافتها وسلب أموالها ، مما هو مناقض لكل حق ودين ، ومما كان حالة واقعة عند نزول الآيات والاستنفار إلى غزوة تبوك ، ومثل عدم تقيدهم بقيود الحق والعدل فى معاملة الناس وفى أموالهم ودمائهم وحرياتهم المتنوعة مما يأمر به دين الله وأنبيائه ، ويزجر عنه خوف الله واليوم الآخر ، ومما يصح أن يكون تعليلا مستمراً لحكمة التشريع التى انطوت فى الآية الأولى ؛ وقد يدعم هذا ما ورد فى الآيات التى تلت هذه الآية من إرادتهم إطفاء نور الله ، وصد كثير من رهبانهم الناس عن سبيل الله ، مما يعنى وقوفهم فى وجه الدعوة وحريتها ونشرها والاستجابة لها ، ومما كان فى الغالب حالة واقعة ، ويصح أن يكون كذلك تعليلا مستمراً لحكمة التشريع أيضا ؛ ومعلوم أن هذا كان من الأسباب التشريعية لقتال المشركين ؛ هذا إلى أن قولهم ذاك ينقض المبدأ

---

(١) الآية الأخيرة هى التى احتوت وصف الرحلة بأنها بعيدة الشقة غير يسيرة المنال .

القرآنى المحكم فى آية الممتحنة ٨ خاصة وفى البقرة ٢٩ - ٤١ و ١٩٠ - ٢٩٤ والنساء ٩٠ - ٩١ وغيرها ، من أن الجهاد الإسلامى دفاعى ورد لبغى وعدوان سابقين يشملان الطعن فى الدين والفتنة عنه والوقوف فى وجه حرية الدعوة إليه وممارسة شعائره ؛ إلى مناقضته كذلك لما هو ثابت من النهى النبوى عن قتال غير المحاربين من الكتابيين كالرهبان والشيوخ والنساء والأطفال ؛ إذ ينطوى فيه أن لا يكون عدم إسلام إنسان ما سببا لقتاله ؛ وعلى هذا كله فإننا نقرر بشىء من الجزم أن الآيات قد نزلت فى قتال الكتابيين الذين يبدو منهم بغى وعدوان ، حتى تخضد شوكتهم ويؤمن بغيهم وعدوانهم بالخضوع التام ، ودفع الجزية للسلطان الإسلامى ؛ وهو ما يتسق مع المبادئ والتقريرات القرآنية بوجه عام . وما دام الأمر كذلك فإن من الممكن القول بجزم أيضا إن غزوة تبوك التى استنفر إليها بالآيات التى أوردناها آنفا والتى نزلت تلك الآيات بين يديها قد كانت غزوة مقابلة على عدوان وبغى سابقين ؛ وهذا يؤيد ما ذكرته الروايات بوجه عام من قيام حالة الحرب بين المسلمين وسكان مشارف الشام نتيجة لعدوان وبغى كان هؤلاء السكان بادئين بهما مما ذكرته الروايات أيضا كالاعتداء على القوافل ، وقتل رسول رسول الله ، ورد بعض المسلمين منهم إلى الكفر أو ما شاكل ذلك .

ونقول بالمناسبة وبسبب ما ردده بعض المغرضين عن سير وأغراض الجهاد فى الإسلام : إن تقرير مبدأ الصلح مع المحاربين الكتابيين [1] على الجزية قد انطوى على تبرير غاية الحرب الإسلامية الدفاعية ، وأن نشر الإسلام لم يكن هدفا رئيسيا للقتال أو من أهدافه أو نتائجه ، وإنما هو لخضد شوكة العدو الباغى بشكل من أشكال البغى على ما ذكرناه قبل قليل ؛ ومما لاريب فيه أن قادة الفتح الإسلامى الأول والخلفاء الراشدين بنوع خاص قد التزموا هذا بكل دقة وإخلاص .

- ٤ -

وغزوة تبوك هذه كانت فى السنة الهجرية التاسعة على ما ذكرته الروايات التى

---

(١) من السنة النبوية والراشدية الثابتة أن الجزية أخذت من غير الكتابيين أيضا مثل المجوس وعبدة الكواكب وعلى هذا تكون السنة قد فسرت الآية بحيث يفهم منها أن ذكر أهل الكتاب لا يعني اقتصار الجزية عليهم وإنما خصوا بالذكر لأنهم موضوع مباشر حاضر .

لا خلاف فى جوهرها ، أى بعد فتح مكة بسنة ، وهى آخر غزوات النبى صلى الله عليه وسلم ومن أهمها مدى ومعنى وكثرة عدد وبعد شقة ، إن لم نقل أهمها . ومما ورد عن أسبابها المباشرة أن النبى قد بلغه تجمع جموع كثيرة على حدود الشام تريد غزو الحجاز ردا على حملة مؤتة ، كما ورد أن قبائل العرب فى هذه الحدود تجرأت أكثر من ذى قبل على القوافل بعد ما كان من عاقبة حملة مؤتة المحزنة ما كان ؛ فرأى النبى صلى الله عليه وسلم أن يجمع أكبر عدد ممكن من المسلمين ويخرج بهم إلى هذه الحدود إرهابا للعدو ؛ فاستنفر الناس واستعانهم بالمال ، ولم يزل بهم محرضا مرغبا ومنذراً منددأ حتى تمكن من جمع جيش عظيم بلغ ثلاثين ألفا ونيفا بين مشاة وركبان ، وحتى تمكن من جمع عدة وافرة من السلاح والخيل والإبل والماشية والطعام والثياب ، بالرغم مما كان من شدة الحر من جهة وعسر الوقت من جهة أخرى ، حتى سمى الجيش بجيش العسرة .

وخرج النبى صلى الله عليه وسلم بجيشه العظيم فى شهر رجب ، فوصل تبوك بعد عشرين يوما ، وعسكر فيها ولم يتعدها ، وقد أرسل منها رسله وسراياه مستطلعة ومنذرة ، وجاءه إليها أمراء ووفود الأيلة ودومة الجندل وأذرح والجرباء ومنقبا ، وعقدوا معه عقودا على جزية ورسوم سنوية يؤدونها إليه ، وعلى المسالمة والمناصحة من ناحيتهم ، وتعهد من ناحيته بحمايتهم وذمته وذمة المسلمين لهم ، ثم قفل راجعا إلى المدينة وقد تأخر وفود قرى يهودية فى هذه المنطقة فلحقوا بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وهم بنو عاديا وبنو غريض ، وتعاقدوا معه على المسالمة والجزية .

- ٥ -

ولقد جاء فى سورة التوبة مقاطع عدة حول هذه الغزوة دون ذكر اسمها ، عدا المقطعين الذين نقلناهما سابقا ونوردهما فيما يلى لأن فيهما بعض الصور والمشاهد فى صدد تأليف الحملة :

١ ـ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَٰذِبِينَ . لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَٰهِدُوا

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَٰعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَٰلَكُمْ (١) يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّٰلِمِينَ . لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ . وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَٰفِرِينَ ... (٢) ٤٣ - ٤٩

٢ — قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ . قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ . وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ...

٥١ - ٥٤

٣ — فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ

---

(١) لسعوا سعياً حثيثاً بينكم بالافساد والفتنة .

(٢) تقرأ مع هذه الآيات الآيات السابقة لها ، والتى نقلناها قبل ، وهى الآيات ٣٨ - ٤٢ لأنها سلسلة واحدة .

لِلْخُرُوجِ فَقُل لَنْ تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ... ٨١ - ٨٣

٤ — وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ (١) مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ...

٩٠ - ٩٤

٥ — لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ...

١١٧ - ١١٨

---

(٣) أى المعتذرون .

٦ — ماكانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ومَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللهِ ولا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ فى سَبِيلِ اللهِ ولا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكُفَّارَ ولا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ... ١٢٠

وبعض مضامين المقاطع تلهم بقوة أن بعضها نزل فى أثناء الرحلة ، بقصد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ويستلهم منها أن الاستنفار إلى الغزوة كان فى موسم الصيف واشتداد الحر ، كما كان فى وقت ضيق وشدة ؛ وأن السفرة قد صعبت على فريق من المسلمين المخلصين فضلا عن المنافقين ، وقوبلت بشيء من الفتور والتثاقل حتى اقتضت الحكمة التشديد فى الحث والإنذار ، وقد استجاب المخلصون وفيهم من صعبت عليه السفرة ، بادئ ذى بدء ، ولم يتخلف من سكان المدينة إلا ثلاثة ؛ أما المنافقون ، لاسيما أغنياؤهم ورؤساؤهم ، فقد اعتذروا للنبي بأعذار كاذبة ، وواهية ، واستأذنوه بالتخلف بعد أن حاولوا تثبيط عزائم الناس بحجة الحر وأخفقوا ، فأذن لهم ؛ ومع العتاب المحبب الذى عوتب به فى الآيات على الإذن لهم ، والذى إنما كان بقصد فضح كذبهم ، يبدو من الآيات أنه كان هناك مبررات لهذا الإذن ، إذ أريد منه تفادى دسهم وكيدهم بين المسلمين ، فى أثناء الرحلة ، لا سيما وبينهم وبين كثير من المسلمين روابط القربى والمصلحة والألفة ؛ وقد أراد بعضهم أن يساعد بماله دون نفسه فلم يقبل منهم ذلك زيادة فى النبذ والإهمال ؛ وقد استنفر النبي صلى الله عليه وسلم البدو المسلمين أيضاً ، فسارع فريق منهم إلى الاعتذار ؛ والاستئذان فى التخلف ، كما تخلف آخرون بدون اعتذار ولا استئذان ، مع قدرة هؤلاء وأولئك ؛ وقد كان لبعضهم مع ذلك موقف رائع جدا ، وكانوا فقراء ، فجاءوا إلى النبي يعرضون أنفسهم ، ويطلبون معونته على الرحلة ، فلما قال لهم إنه ليس فى إمكانه معونتهم تولوا باكين حزنا على حرمانهم من الاشتراك فى الجهاد النبوى ؛ ومشهد المتخلفين الثلاثة رائع حقا هو أيضا ، إذ يستفاد من الآية ١١٨ وما ورد

فى صددها من روايات أنهم من المخلصين ، وأن تخلفهم كان كسلا ، وأنه لما عادت الحملة قوبلوا من النبى صلى الله عليه وسلم والمجاهدين بالإهمال والمقاطعة حتى قاطعهم نساؤهم ، وظلوا مقاطعين نحو أربعين يوماً لا يكلمهم أحد ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، فلجأوا إلى الله يستغفرون ويعلنون توبتهم فتاب عليهم .

وعلى ضوء الآيات الأخرى يتبادر أن الآية ١٢٠ هى عتاب وحث بالنسبة للمستقبل ، وأن المعقول أن يكون فيها كلمة مقدرة ، لتكون الجملة الأولى هكذا « ما كان لأحد من أهل المدينة ... » وبذلك يزول ما توهمه من تخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إطلاقاً ، مع تقرير الآيات بصراحة اشتراك جميع المخلصين القادرين من أهل المدينة عدا الثلاثة ، ومع ورود حرف التبعيض فى الآية ٩٠ التى تحكى اعتذار الأعراب ، وما فى ذلك من دلالة على أن منهم من اشترك ولم يتخلف .

وهذا التخلف من البدو والمنافقين والحملة الشديدة عليهم من أجله ، قد يوهم أن العدد المروى للجيش مبالغ فيه ، لا سيما أن هناك رواية غريبة تمسك بها بعض المستشرفين تذكر أن معسكر المنافقين قد بلغ فى عدده مقدار معسكر المخلصين وقد تخلفوا فى النهاية ؛ ومع أننا لسنا فى موقف يساعدنا على الجزم بصحة العدد المروى ، بل نرى من المحتمل أن يكون فيه شىء من التزيد ـ نعتقد أنه كان وافر العدد ، بحيث يصح أن يقال إنه جيش عظيم بالنسبة لظروف ذلك الزمن ، كما أننا نقول بجزم إن الرواية عن عدد معسكر المنافقين لا يمكن أن تكون صحيحة ، وفى سورة التوبة آيات فى صدد تقريع المنافقين تؤيد ذلك ، إذ تحكى خوفهم وتزلفهم ، مما لا يمكن أن يكون إلا من فئة قليلة ، مستضعفة كما ترى :

١ — وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وما هُم مِنْكُمْ وَلَـٰكِنَّهُم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَـٰرَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وهُمْ يَجْمَحُونَ ...

٥٦ - ٥٧

٢ — يَحْلِفُونَ باللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ واللهُ ورَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ ورَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ

خَـٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْىُ الْعَظِيمُ . يَحْذَرُ الْمُنَـٰفِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَءَايَـٰتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ . لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ... ٦٢ - ٦٦

٣ — يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَـٰهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى الْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلا نَصِيرٍ ... ٧٤

وذكر تخلف الثلاثة من المخلصين دليل على أنه لم يتخلف من مسلمي المدينة المخلصين القادرين غيرهم ؛ وإذا لوحظ أن المدينة قد اكتظت بالنازحين من مكة وغيرها بعد الفتح ، بدا احتمال وفرة المشتركين من سكانها وفرة كبيرة ، قويا جداً كما هو المتبادر .

وقد نبهنا إلى أن الأعراب المعتذرين والمتخلفين ليسوا هم جميع الأعراب، بدليل حرف التبعيض ؛ ونضيف إلى هذا أنه ورد فى سلسلة الحملة على هؤلاء آية تثنى على المخلصين منهم كما ترى :

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَٰتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٩٩

مما يصح أن يكون قرينة أخري على اشتراك هذا الفريق المخلص الذى نرجح أنه كان وافر العدد ، إذا ما ذكرنا أنه اشترك منهم عدد كبير فى الفتح المكى ، وأنهم أو أن غالبيتهم العظمى لم تندمج فى فتنة الردة ، بل كانوا فى فصائل قمعها على ماذكرته الروايات :

- ٦ -

هذا ؛ ومما تجدر الإشارة إليه أن الروايات قد ذكرت دون خلاف - حتى ليكاد يصح أن يقال إن ما ذكرته يقيني - أن النبي صلى الله عليه وسلم جهز قبيل وفاته جيشا بقيادة أسامة رضي الله عنه بقصد تسييره إلى مشارف الشام ، وبتعبير أدق ، إلى البلقاء ، وأنه كان فى هذا الجيش كثير من كبار الصحابة وفى مقدمتهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم مات قبل سيره فسيره خليفته الأول رغم ما كان يحيط به وبالإسلام من مشاكل وأخطار ، حرصاً على تنفيذ خطة رسول الله ، مما يمكن أن يلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد الانتفاع بما تم له من توطيد هيبة الإسلام فى مشارف الشام ، وتمهيد السبيل لحرية الدعوة بإخضاع أمراء تلك المشارف فى غزوة تبوك ، فجهز هذا الجيش ليصل إلى أبواب الشام - البلقاء - ويوطد هذه الهيبة ويمهد هذه السبيل أيضاً ، وانتداب كبار الصحابة فى الجيش ذو مغزى عظيم فى هذا الصدد كما هو المتبادر. ولقد ذهب هذا الجيش بدون أبى بكر وعمر رضى الله عنهما لمشاغلهما الجديدة العظمى بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عاد ؛ ولم يكد ينتهى أبو بكر رضى الله عنه من إخماد فتنة الردة حتى جهز الجيوش وعهد بقيادتها إلى قواد معروفين ، وسيرها فى الوجهة التى سير فيها النبي صلى الله عليه وسلم حملة مؤتة أولا ، ثم سير حملة أسامة ، فكان لها ما كان من الفتوحات الباهرة وتوطيد سلطان الإسلام ونشر رايته فى بلاد الشام نتيجة لذلك .

فغزوة تبوك والحالة هذه - وإن كانت إمتداداً لحالة الحرب التى بدأت منذ السنة الهجرية السادسة - لا نعدو الحق إذا قلنا إنها كانت تهدف فوق ذلك - وقد حشد لها ذلك الحشد العظيم وتبعها جيش أسامة رضى الله عنه ثم جيوش الفتح - إلى أن تكون عنواناً لما بلغه الإسلام فى الجزيرة تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم من قوة وسعة وانتشار يراه سكان مشارف الشام فيرهبون ويقفون عند حدهم ، وقارعاً لأسماع من وراءها بالنبي ودعوته العظمى ؛ بل لعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إنها كانت تدعيما للخطوات التاريخية الخالدة التى خطاها خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم وتم بها ما تم من فتح باهر ، وسلطان عزيز ، وأعلام منشورة فى ربوع الأرض ؛ بالرغم

مما يحلو لبعض المستشرقين [١] من تقليل شأنها وأغراضها ونتائجها ، ومن زعمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يخطر بباله أن يمد دعوته إلى أفق خارج جزيرة العرب ، وإنكارهم رسالات النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الأرض ، وقولهم إن الروايات والأخبار والأقوال مما حمل على السيرة النبوية حملا .

فالأوامر القرآنية بتبليغ الرسالة للناس والكتابيين متكررة ، والآية ٦٧ من المائدة خاصة ، وقد نقلناها فى مناسبة سابقة ، قوية جدا فى حث النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ؛ وقد دان الحجاز كله تقريباً بدوه وحضره بالإسلام ، بل أخذت وفود الأنحاء القاصية من الجزيرة تفد إلى المدينة وتدين به قبيل السفر إلى تبوك ، وسرايا النبي صلى الله عليه وسلم قد تكررت ، وقرعت إحداها أبواب الشام قبل ذلك ، فليس هناك ما لا يتسق مع منطق الحوادث والظروف والتوجيهات القرآنية ويبرر مزاعم المستشرقين .

---

(١) المستشرق كايتانى فى كتابه تاريخ الاسلام .

# فصل فى المنافقين فى العهد المدنى

## تمهيـــد

ـ حركة النفاق فى المدينة ومقابلتها مع ما جاء فى الآيات المكية من صفات نفاق بعض المسلمين ـ علة ظهور الحركة فى المدينة دون مكة ـ مدى نفاق المنافقين فى العهد المدنى ـ أثر مواقفهم وخطورتها ـ أثر اليهود فى حركتهم ـ مباحث الفصل على حسب تصنيف الآيات ـ مدى ما فى القرآن من ملهمات بأن المنافقين طبقات ـ عدم اعتبار النبى المنافقين اعداء محاربين وقتلهم أو قتالهم ومدى ذلك ـ ملهمات القرآن بأن معظم المنافقين أفراد بارزون .

— ١ —

مع أن آيات العنكبوت ١٠ - ١١ قد احتوت كلمة « المنافقين » وحملت على الموصوفين بها لنفاقهم وذبذبتهم وهلعهم ، ومع أن آيات مكية أخرى قد احتوت وصفاً لبعض المسلمين بمثل ذلك كآيات الحج ١١ - ١٣ - وقد نقلنا هذه وتلك فى مناسبات سابقة - فإن حركة النفاق التى نجمت لمناوأة النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين والإسلام هى فى الحقيقة من حركات العهد المدنى وأحداثه : لأن أولئك الاشخاص الذين كانوا موضوع تنديد الآيات المكية القليلة لم يكونوا مناوئين للنبي والمسلمين والإسلام ، وإنما كانوا ضعفاء قلب وشخصية ، فلم يستطيعوا أن يصمدوا كما صمد أكثر المسلمين أمام إزعاج المشركين واضطهادهم ، صموداً قويا ومستمرا ، فكان يظهر عليهم الهلع والجزع والتبرم بحالتهم الصعبة التى كانوا عليها .

— ٢ —

وعلة ظهور تلك الحركة فى المدينة واضحة ؛ فالنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون الاولون فى مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ فى حالة تستدعى وجود ثمة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم ، فتتملقهم وتتزلف إليهم فى الظاهر ، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم فى الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجه عام ؛ ولقد كان أهل مكة وزعماؤها خاصة يناوئون النبي جهاراً ، ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد ،

ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ماتحرز أو تحفظ ، وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فراراً بدينهم ودمهم إلى الحبشة، أولا ثم إلى يثرب ؛ وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه ، أو بالإغراء والتهويش ، وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين ، وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب ، كما مر تفصيله فى مباحث العهد المكي.

أما فى المدينة فقد كان الأمر مختلفاً جدا . فالنبي صلى الله عليه وسلم استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصاراً أقوياء من الأوس والخزرج ، ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه ، ولم يبق تقريبا بيت عربى فيها لم يدخله الإسلام [١] فى هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به - إما عن جهالة وغباء ، وإما عن غيظ وحقد وعناد لأنهم رأوا فى قدوم النبي حدا لنفوذهم وسلطانهم - [٢] موقف الجحود والعداء العلني للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار ؛ وكان للعصبية فى الوقت نفسه أثر غير قليل فى عدم الوقوف هذا الموقف ، لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبي ، ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر ، إلى أن جلهم قد حسن إسلامهم ، وغدوا يرون فى النبي رسول الله وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة ، ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع ؛ فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك ، ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد ويحملهم ذلك على مناوأة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ونفوذه - أن يظهروا علنا فى نزعتهم وعدائهم ، ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام والقيام بأركانه ، والتضامن مع قبائلهم ، وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والمواربة والخداع والتمويه ؛ وإذا كانوا وقفوا أحياناً مواقف علنية فيها كيد ودس وعليها طابع من النفاق بارز ؛ فإنما كان هذا منهم فى بعض الظروف والأزمات الحادة التى كانت تحدق بالنبي والمسلمين ، والتى كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعى المصلحة والمنطق والاحتياط ، ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو بالنفاق ، غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم فى الكيد

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣١ .

(٢) فى سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٣٥ أن الخزرج كانوا مزمعين المناداة بعبد الله بن أبى زعيم المنافقين ملكا عليهم قبيل الهجرة ، وأنه حقد على النبي لأن قدومه حال دون ذلك .

والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، كما أن تلك المواقف العلنية التى كانوا يقفونها فى فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتاً ؛ وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضائح المرة بعد المرة ، وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون ، وتدمغهم بشرورهم وخبثهم ومكايدهم ، وتحذر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين منهم فى كل ظرف ومناسبة .

- ٣ -

ولقد كانت مواقف المنافقين ومكايدهم بعيدة المدى والأثر على ما تلهم الآيات المدنية ، حتى لكأنه نضال قوى يذكر بما كان من نضال بين النبي صلى الله عليه وسلم وزعماء مكة وإن اختلفت الأدوار والنتائج ؛ إذ أن النبي لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد ، وقوته تزداد ، ودائرة الإسلام تتسع ، وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز ؛ وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة ؛ وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيراً متناسباً عكسيا مع ما كان من تزايد قوة النبي صلى الله عليه وسلم واتساع دائرة الإسلام ، وتوطد عزته وسلطانه .

ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذى قام به المنافقون، وخاصة فى أوائل العهد ، أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبيا بعصبياتهم التى كانت ما تزال قوية الأثر فى نفوس سواد قبائلهم ، كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة ، ولم يكن الإسلام قد رسخ فى هذا السواد رسوخاً كافيا ؛ وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان محوطا بالمشركين الجاحدين من كل جانب ؛ وأهل مكة خصومه الألداء ، وهم قبلة الجزيرة ، يتربصون به الدوائر ، ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ؛ واليهود فى المدينة وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطيروا به ، ثم جاهروه بالكفر والعداء والمكر والكيد ؛ ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعى على توحيد المسعى ، والتضامن فى موقف المعارضة والكيد ، حتى ليمكن القول إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار

فى الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد ، وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق ، ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي من هؤلاء وأظهره عليهم وكفاه شرهم .

— ٤ —

والآيات التى تتضمن أوصاف وأخبار ومواقف المنافقين والحملات عليهم كثيرة جدا ، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية منها ، وخاصة الطويلة والمتوسطة ؛ وهذا يعنى أن هذه الحركة ظلت طيلة العهد المدنى تقريباً ، وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأول ، وهى متنوعة المدى والدلالات ، ويمكن تصنيفها كما يلى :

١ - ما جاء فى صفاتهم وأحوالهم .

٢ - « « « مواقفهم الكيدية والساخرة وتآمرهم ضد المسلمين والإسلام .

٣ - « « « مواقفهم من الجهاد ووقائعه .

— ٥ —

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى ثلاث فى صدد هذا الفصل :

أولاها ما جاء فى الآيات التى سنوردها من وصف « الذين فى قلوبهم مرض » بدل وصف « المنافقين » ، ومن اجتماع الوصفين معاً فى آية واحدة ، ومن تفاوت الشدة فى الحملات وتنوع الصور ؛ مما يسوغ القول إن هذه الفئة كانت فريقين أو طبقتين ، واحدة كافرة كل الكفر ، عدوة كل العداوة ، ماكرة كل المكر ؛ وأخرى ضعيفة النفس ، مريضة القلب ، تميل مع المنفعة ، وترغب بنفسها عن ما تسميه مخاطر ومجازفات ومشاكل ، ويأخذها شيء من الشك والتردد فى طاعة الله ورسوله طاعة تامة ، وتنجر أحياناً إلى الفئة الأولى فتحذو حذوها ، أو تقع فى شباكها وتندمج معها .

ومما يجدر التنبيه إليه مع ذلك أن الحملات القرآنية العنيفة ، ووصف الكفر والنفاق ، والأمر بالمجاهدة والشدة ، قد تناول هذه الطبقة فى آيات عدة كما تناول تلك ، مما يمكن الاستدلال به على ، أن القرآن وإن تضمن إلهام كونهم طبقتين

أو طبقات - إذا أردنا أن نصنفهم على حسب تنوع مواقفهم - فإنه تضمن إلهام أنهم فئة واحدة، وتضمن بالتالى إلهام أن أى ختل أو شك أو تردد أو تهرب أو سخرية أو تقصير فى الواجبات العظمى كالإيمان التام بما يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم من قرآن أو يأمر به من أوامر أو يحكم به من أحكام، وكالطاعة التامة له، وكاحترامه كل الاحترام، وكالقيام بواجب الجهاد بالنفس والمال لتوطيد حرية الإسلام، ودفع الخطر والبغى والكيد عن الإسلام والمسلمين ومصالحهم، والتضامن القوى التام فى كل هذا مع سائر المسلمين باطناً وظاهراً؛ أو الاندماج مع أعداء الإسلام والمسلمين فى مؤامرة أو مكايدة، أو مسايرتهم فى أى موقف أو قول مهما كان نوعه ومهما كان ناتجاً عن أوشاج الرحم والقربى والعصبية والمصلحة نفاقاً - يعتبر داخلا فى شمول صفات النفاق التى وردت فى الآيات القرآنية، وفى شمول ما ورد بحق المتصفين بها من تنديد قارع، وإنذار قاصم، وإن كان فريق أقل شدة أو أكثر تحفظا من فريق آخر، وننبه إلى ما فى هذا من تلقين قرآنى جليل مستمر المدى.

والثانية ولها أهمية عظمى فيما نعتقد من ناحية السيرة النبوية: هى عدم ورود روايات وثقة تتضمن أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتبر المنافقين أعداء محاربين أو عاملهم كذلك، أو أمر بقتلهم، أو قتل بارزيهم، بسبب صفة النفاق، أو بسبب موقف منبعث عنه من تلك المواقف الكثيرة المتنوعة التى حكتها الآيات التى نزلت فى مختلف أدوار التنزيل عنهم، والتى احتوت صوراً كثيرة من الأذى والكيد والسخرية بالله ورسوله وآياته، والتناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، والتثبيط عن الجهاد والختل فيه، ودس الدسائس وإثارة الفتن والأحقاد، وإشاعة الفاحشة والإرجاف بين المسلمين بما يثير قلقهم وفزعهم، والتعرض لنساء المسلمين، بل لنساء النبي بالأذى والكيد، والتضامن مع أعداء الإسلام وموالاتهم، وتقرير كونهم قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إيمانهم الخ، وفى حين أن القرآن أمر بمجاهدتهم مع الكافرين، والإغلاظ لهم واعتبارهم أعداء، وأمر بقتل من لم ينته منهم عن مواقف الأذى والإرجاف، وبنفيه، وبتقتيله أينما ثقف، فضلا عما أنذروا به من عذاب دنيوى وأخروى شديدين، وفى حين أن القرآن حكى مواقف لهم مثل هذه المواقف، وبعد هذه الأوامر والإنذارات والتقريرات

الحاسمة ؛ كما أن القرآن لم يتضمن إشارة ما إلى ذلك .

فإزاء هذا لا نعدو الصواب إذا قلنا (١) إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعتبر المنافقين أعداء محاربين ، فلم يقاتلهم فعلا كما كان شأنه مع الكفار ، لا سيما أن حرب النبي لهؤلاء إنما كان لبدئهم بالعدوان واستمرارهم فيه ، وحربه لليهود إنما كان لمثل ذلك ، وغزوته لتبوك بسبيل التنكيل بسكان المشارف الذين كان غالبهم نصارى ، وتسييره السرايا على هذه المشارف واشتباكها بحرب مع النصارى فيها إنما كان كذلك لعدوان سابق ؛ ولم يكن حال المنافقين على كل حال يشبه حال كفار العرب أو اليهود أو النصارى المحاربين . (٢) إن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتبر ما جاء فى الآيات القرآنية بمثابة توجيهات متروك إليه أمر تقدير ظروف تنفيذها والسير فيها بما يوافق مصلحة الإسلام والمسلمين ؛ لا سيما أن بعض الآيات الواردة فى هذا الصدد قد تخللتها جمل تلهم معنى التعليق على شرط مثل جمل « فإن يتوبوا يك خيراً لهم » و « لئن لم ينته المنافقون » و « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم » و « إن نعف عن طائفة منهم نعذب طائفة » الخ كما تخلل الآيات الواردة فى شأنهم إشارات إلى أنهم كانوا يصلون مع الجماعة وكان يؤدون الزكاة ، — مع وصف ذلك بأنه وقع كرها ورياء — وكانوا يحلفون الأيمان على حسن نيتهم وصدق إسلامهم ؛ قد رأى أن يعاملهم بسعة صدر وحلم وصبر إلى النهاية ، لما كان بينهم وبين كثير من المخلصين من روابط القربى والرحم ، وقد رأى أن خلاف هذه الخطة قد يفتح فى صفوف الإسلام ثغرات واسعة ، ويثير أزمات داخلية حادة [1] ؛ لا سيما أنه كان مطمئن القلب بوعد الله بالنصر النهائى ، وإظهار دينه على الدين كله ؛ وقد أخذ يرى منذ أوائل النصف الثانى من العهد المدنى وبعد ما خضدت شوكة اليهود — وهو الوقت الذى صار فى إمكانه من جهة مادية شن حرب عملية عليهم مأمونة عواقبها بعض

---

(١) فى روايات السيرة أن عبد الله بن أبى هو الذى قال « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، و « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » ، وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم بقتله وأبى قائلا ما مفاده : لا أريد أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، وأن كعب بن عبد الله رضى الله عنه ، وكان مخلصا ، جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له يارسول الله إن كنت قاتل أبى فأمرنى أنا أقتله ولا تأمر غيرى لأنى لا أطيق أن أرى قاتلا لأبى ، فأقتله فأكفر ! فأجابه النبي صلي الله عليه وسلم قائلا بل نعفو ونصبر عنه . وفي هذا مصداق ما قررناه آنفاً .

الأمان - أن صوتهم بدأ يخفت ، ونشاطهم يخمد ، وعددهم يقل ، وتزلفهم يشتد ، ومداراتهم تزداد ، وخوفهم يبدو واضحاً ؛ وربما ندم منهم كثيرون فعادوا إلى حظيرة الحق والإسلام الصحيح ، فكانت هذه الظواهر مما ثبته فى خطته ورأى فيها الصواب والمصلحة .

أما الثالثة فهى أن الآيات الواردة فى حق المنافقين ومرضى القلوب ، تلهم روحاً أو مضمونا ، أو روحا ومضمونا فى آن واحد ، أن حركة النفاق إنما قام بها وتولى كبرها أفراد من البارزين فى قومهم وعشائرهم قليلا أو كثيرا ، بل إننا لنكاد نقول استلهاما من روح الآيات ومضمونها إن معظم أفراد هذه الفئة من تلك الطبقة ، وإنه إذا كان اندمج فيها أناس من طبقة السواد أو العامة فإنهم لم يكونوا كثيرين وإنما انساقوا فيها بتأثير أولئك ، من ناحية زعامتهم وعصبية الأرحام التى تربط بينهم ، أو من ناحية الإغراء والمنفعة .

وهذا طبيعى كما هو المتبادر ؛ لأنه ليس لأفراد من السواد مصلحة فى مناوأة حركة اندمج فيها غالب قومهم ، إيمانا وتصديقا وإخلاصا وجهادا ثم مصلحة وكيانا ، كما أنه قلما يكون فى هؤلاء من يظن أنه أعقل من أن يندمج فى حركة اندمجت فيها الكثرة الكبرى ؛ وإن الذين اندفعوا فى مناوأتها واغتاظوا منها وحقدوا عليها لا يمكن أن يكونوا إلا أفرادا من البارزين الذين يمكن أن يتوهموا فيها ضررا وخطرا على مركزهم ومصلحتهم ، وأن يأنفوا لكرامتهم ولما يتوهمونه فى أنفسهم من عقل من الاندماج فيها ؛ ولقد كان لليهود يد قوية فى هذه الحركة كما ذكرنا ؛ فالذين أخذوا على عاتقهم مهمة تغذية هذه الحركة وتنميتها لا يمكن أن يتصلوا بشأنها إلا مع أمثال هؤلاء كما لا يخفى .

- ٦ -

كذلك نريد أن نشير إلى ما كان من انقسام المسلمين فى الرأى فيهم ؛ فقد جاء فى سورة النساء الآيات التالية :

« فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ

أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا . وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ولا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا ولا نَصِيرًا ... ٨٨ - ٨٩

إذ تلهم الآية الأولى أن المسلمين كانوا منقسمين فى الرأى فى المنافقين ، منهم من يحسن الظن بهم ويعتذر عنهم ويأمل فى ارعوائهم ، ومنهم من لا يرى ذلك . ولقد ذكرت الروايات أنها بحق منافقى المدينة الذين خذلوا المسلمين فى وقعة أحد ؛ كما ذكرت أنها بحق فريق من البدو أعلنوا إسلامهم ولكنهم لم يتضامنوا مع المسلمين فى الجهاد والهجرة ؛ وبعض الروايات قال إنها بحق الفريق الذى تخلف فى مكة ولم يهاجر ؛ والرواية الأولى قد تصح إذا دلت كلمة « يهاجروا » بمعنى يجاهدوا أو يخلصوا ، وقد أولها غير واحد من المفسرين هذا التأويل .

ومع احتمال وجاهة الروايتين الأخريين فإننا نرى الرواية الأولى - بقطع النظر عن ظرف وقعة أحد - بهذا التأويل أوجه ، لأن اختلاف المسلمين فى الرأى فى المنافقين أكثر احتمالا بالنسبة لمنافقى المدينة ؛ وقد يكون فى الآية الثانية تدعيم لهذا أيضاً ، إذ تذكر كفرهم ، وتذكر تمنيهم أن يكفر المسلمون مثلهم ؛ وهذه صفات وصف بها منافقو المدينة على ماورد فى آيات التوبة وغيرها مما سنورده فى هذا الفصل ؛ لاسيما أن الروايتين الأخريين لا تذكران بصراحة اتصاف البدو أو المتخلفين عن الهجرة فى مكة بصفة النفاق والكفر ، ولا تتحمل حالتهم المروية هذه الصفة .

والأمر بقتلهم حيث وجدوا إذا تولوا ولم يخلصوا ليس من شأنه أن يضعف توجيهنا بأن المقصودين هم منافقو المدينة ، فقد ورد فى آيتى الأحزاب ٦٠ - ٦١ اللتين سنوردهما فى أحد مباحث هذا الفصل صراحة أن المقصودين هم منافقو المدينة إذا لم ينتهوا .

وقد احتوت الآية الثانية حكم الله فى هذا الخلاف ، وفيه تأييد للمتشددين فى أمرهم وبيان لمواقع حالهم من الارتكاس فى الفتنة والكفر والضلال .

والذى نرجحه أنه كان للعصبية الاجتماعية والمصالح المشتركة الوثيقة أثر فيما كان

من رأى التسامح الذى أبداه الفريق الأول ، كما نرجح أن المنافقين كانوا يستغلون هذه الروابط القوية المؤثرة فيما كان منهم من مواقف دس وكيد وتشكيك وسخرية وعدم تضامن الخ مما احتوت صوره آيات كثيرة سنوردها فى مباحث الفصل، ثم فى الاطمئنان من عدم الوقوف منهم موقف الشدّة والغلظة رغم ما كان منهم من مواقف شديدة الأذى والكيد ، فاقتضت الحكمة نزول الآيات بالحكم الحاسم والأمر الشديد حتى يسد الباب أمام هذا الاستغلال ويقف المسلمون موقفاً واحداً ورأيا واحداً منهم ، وهو موقف الشدة والتكفير إذا لم يتوبوا ويخلصوا .

ولقد احتوت إحدى آيات سورة النساء وهى هذه :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَـٰفِقِينَ وَالْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ... ١٤٠

شيئاً من التدعيم لما قررناه من هذا الأثر ، إذ تلهم أن بعض المسلمين لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من التردد على مجالس الزعماء المنافقين ، والإغضاء عما يدور فيها من كفر وهزء بآيات الله ونبيه ، فأمروا بعدم مجالستهم أثناء الخوض فى مثل ذلك على الأقل ؛ كأنما رأت الحكمة حرجاً فى منعهم بالمرة .

ومن هنا تبدو لنا ناحية من حكمة الخطة النبوية فى المنافقين التى شرحناها فى الفقرة السابقة . ولما كانت الخطة المذكورة قد استمرت إلى آخر العهد النبوى أو أواخره ، فإن هذا يسوغ القول إن فريقاً من المسلمين ظل على رأيه فى العطف على ذوى قرباه منهم ، والاعتذار عنهم وأمله فى ارعوائهم ، وظل متأثراً بالعصبية والقرابة والمصلحة ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم رأى من الحكمة أن يستمر فى خطته تلك .

ولقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى آية التوبة هذه :

« وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ... ٨٤

التى نزلت فى أواخر العهد المدنى ، أى فى ظروف غزوة تبوك ، بعدم الصلاة على من يموت منهم وهو ثابت على نفاقه وكفره ، مما يلهم أن النبى كان يستجيب إلى طلب ذوى قربى المنافق فيصلى عليهم إذا ماتوا ويدعو لهم ، وأن هذا قد استمر إلى أواخر العهد المدنى ؛ (وفى هذا تدعيم لما نحن بسبيل تقريره) .

# المبحث الأول

## فى صفات المنافقين وأحوالهم

وصف شامل للمنافقين فى سورة البقرة ومداه – وصف آخر لهم فى نفس السورة – صور وأوصاف وحالات متنوعة لهم من سورة النساء – من سورة التوبة – ما تلهم آيات التوبة من تبدل حالهم إلى القلة والضعف – النفاق فى الأعراب – منافقون متكتمون – صور وحالات من سورة الحديد – من سورة محمد – من سورة « المنافقون » .

– ١ –

(١) فى سورة البقرة الآيات التالية :

« ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءامَنَّا باللهِ وباليَوْمِ الآخِرِ وما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَٰدِعُونَ اللهَ والَّذِينَ ءامَنُوا وما يَخْدَعُونَ إلَّا أَنْفُسَهُمْ وما يَشْعُرُونَ . فى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . وإذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فى الأَرْضِ قالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ ولَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ . وإذَا قِيلَ لَهُمْ ءامِنُوا كَمَا ءامَنَ النَّاسُ قالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ولَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ . وإذا لَقُوا الَّذِينَ ءامَنُوا قالُوا ءامَنَّا وإذا خَلَوْا إلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قالُوا إنَّا مَعَكُمْ إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ . اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ويَمُدُّهُمْ فى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَٰلَةَ بالهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وما كانُوا مُهْتَدِينَ ... ٨ - ١٦

وقد احتوت الآيات وصفا قويا شاملا للمنافقين ، فهم يدعون الإسلام كذبا ، ويدسون ويفسدون ثم يزعمون أن فيما يبدو منهم إصلاحا ومصلحة ، ويأنفون أن

يكونوا كالمخلصين فناء فى الإسلام وواجباته وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم، ويعتبرون ذلك سفها، وقد عقدوا الصلات الوثيقة باليهود فكلما خلوا إليهم أكدوا لهم أنهم معهم، وأنهم إذا تظاهروا بالإسلام فليس إلا خداعا واستهزاء؛ وكل هذا منبعث عن مرض قلبي ونية خبيثة فيهم.

والآيات لا تحتوى كلمة «المنافقين» ولكنها لا تدع أى شك فى أنها تعنيهم. والآية (١٣) التى تحكى وصفهم المؤمنين المخلصين بالسفهاء، تلهم أن القائلين من الزعماء البارزين الذين تدفعهم عنجهيتهم إلى الترفع، والذين كانوا يرون فى التفانى فى النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته غلوا لا محل له؛ والراجح مع هذا أن ما حكى عنهم إنما كان يصدر منهم حينما يكون مخاطبهم أو معاتبهم من طبقتهم، أو من ذوى رحمهم، بحيث يأمنون النميمة والعصبية؛ ومثل هذا ما حكته عنهم الآية (١٢) أيضا إذ نرجح أن الذين كانوا يعاتبونهم على دسهم وإفسادهم هم من طبقتهم أو ذوى رحمهم؛ ولعل فى جملة «وإذا قيل لهم» فى كلتا الآيتين قرينة ما على ذلك. ويبدو أن تفانى المخلصين فى النبي والإسلام مما كان يزيد فى لهيب حقد هذه الفئة، لأن ذلك كان مما يحبط مكايدهم، ويبعد عنهم ذوى أرحامهم؛ ولعل فيما حكى عنهم فى الآيتين من الاعتذار الواهى المكابر قرينة ما على ذلك أيضا.

ومهما كان احتمال أن لا تكون هذه الآيات من أول ما نزل من القرآن المدنى. فإننا لا نشك فى أنها مما نزل فى عهد مبكر، ويستلهم هذا من أنها إنما تحتوى وصفا عاما. وتبكير نزولها يلهم أن هذه الحركة قد ظهرت مبكرة جدا،[1] وأن التواثق بين القائمين بها واليهود قد توطد كذلك فى عهد مبكر جدا.

٢ - وفى سورة البقرة الآيات التالية أيضاً:

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فى الْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مافى قَلْبِهِ وهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ. وإذا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها

(١) ورد فى روايات السيرة أن غيظ بعض زعماء المدينة الذين صاروا زعماء المنافقين قد بدأ قبل الهجرة النبوية، وفى عهد القارئ أو الامام الذى أرسله النبي صلى الله عليه وسلم مع وفود المدينة ليعلمهم القرآن ويؤمهم فى الصلاة.

ويُهلكَ الحَرْثَ والنَّسلَ واللهُ لا يُحِبُّ الفَسادَ . وإذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أخذَتْهُ العِزَّةُ بالإثمِ فحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ولَبِئسَ المِهادُ ... ٢٠٤ - ٢٠٦

وفى هذه الآيات صورة أخرى للمنافقين ، وإن لم يرد فيها كذلك كلمة « المنافقين » وهى صورة قوية الملامح للناس الذين يستثيرون الإعجاب بأقوالهم المنمقة ، وأيمانهم المغلظة ، ولكنهم لا يتورعون عن أفظع الآثام ؛ ثم يغضبون إذا ما عوتبوا وطولبوا بتقوى الله وخوفه مما يقترفونه ، ويعتبرون ذلك إهانة لكرامتهم ، ووسيلة للإيغال فى الشر والفساد والفتنة . والصورة وإن كانت مطلقة تعبر عن فئة من الناس قد توجد فى كل زمن ومكان لأنها متصلة بطبائع البشر المختلفة ، فلا شك فى أن الآيات قد نزلت فى صدد أناس من المتظاهرين بالإسلام كانوا يبطنون الكفر ، ويوغلون فى الإثم والعداء والفتنة ؛ ولقد ذكرت الروايات أنها نزلت فى زعيم بدوى اسمه شريق ابن الأخنس ، غدر وأثم بعد توكيده الأيمان ، وعهده على عدم الخيانة والغدر .

- ٢ -

٣ - فى سورة النساء الآيات التالية :

١ — إنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ولا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا . بَشِّرِ المُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذابًا أَلِيمًا ... ١٣٧ - ١٣٨

٢ — إنَّ المُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللهَ وهُوَ خادِعُهُمْ وإذا قامُوا إلَى الصَّلوٰةِ قامُوا كُسالَىٰ يُراءُونَ النّاسَ ولا يَذْكُرُونَ اللهَ إلّا قَلِيلًا . مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذٰلِكَ لا إلَىٰ هٰؤُلاءِ ولا إلَىٰ هٰؤُلاءِ ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ... ١٤٢ - ١٤٣

وقد ذكر المنافقون فى الآيات بصراحة ، وفى الآيات الأولى صورة نفاق وتذبذب عجيبة لهم ، إذ كانوا يعلنون إيمانهم ثم يكفرون ثم يعلنون إيمانهم ثانية ثم

يكفرون ، على حسب ماتوحيه إليهم ظروف الأمن والخوف والمصلحة ؛ وفى الآيات الأخرى صورة ثانية ، فقد كانوا يظنون أنهم ناجحون فى دور خداعهم مع أنهم مفضوحون فيه ، وقد كانوا إذا حضرت الصلاة قاموا إليها كسالى مراءاة للناس فحسب، وقلما ذكروا الله ذكر المؤمل فى رحمته الخائف من نقمته ؛ وهكذا كانوا مذبذبين فى حالتهم ، تبعاً للظروف ، غير صادرين على أى حال عن نية حسنة ، ورغبة صالحة ؛ وروح الآيات تلهم أن موضوع الكلام أفراد معدودون وغير مجهولين كما هو واضح فيها ؛ ولقد تكرر التنديد بهم لقيامهم إلى الصلاة كسالى فى الآية ٥٤ مما يلهم :

(١) أنهم كانوا يمارسون الصلاة مع الجماعة و (٢) أن حالتهم هذه كانت من الأمارات العامة على نفاقهم وعدم إخلاصهم فى إسلامهم .

٤ - وفى السورة نفسها هذه الآيات أيضاً :

« إِنَّ الْمُنَـٰفِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ... ١٤٥ - ١٤٦

فالمنزلة التى يتوعد الله بها المنافقين فى النار تلهم كما هو المتبادر شدّة نكايتهم ، وسوء أثر مواقفهم ، حتى لكأنهم من شر الكفار الصريحين . أما الآية الثانية فإنها بسبيل بث الأمل فيهم بعد بيان تلك المنزلة الرهيبة ؛ ودعوة لهم إلى الكف والارعواء حتى لايتحقق وعيد الله فيهم . ومع أن فتح باب الإنابة والتوبة للجاحدين والآثمين هو مما تكرر فى القرآن تقريره من المبادئ العامة ، فإن الآية مما يمكن أن تلهم أن المنافقين أو أن فريقاً منهم ، وخاصة المخدوعين بزعمائهم ، لم ينقطع الرجاء من ارعوائهم وإخلاصهم ؛ ولقد احتوت سورة التوبة آيات فيها ما يدل على تناقص عددهم وضعف شأنهم سوف نوردها بعد ؛ فلعل فى هذا التطور ما يدعم ما يمكن أن تلهمه الآية . وننبه إلى أن فى الآية وما تلهمه تأييداً لما استنتجناه من حكمة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيهم على ما قررناه فى الفقرة الأخيرة من التمهيد .

- ٣ -

٥ - فى سورة التوبة الآيات التالية :

١ - وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وما هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ...

٥٦ - ٥٧

٢ - يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْىُ الْعَظِيمُ ... ٦٢ - ٦٣

٣ - الْمُنَـٰفِقُونَ وَالْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ . وَعَدَ اللهُ الْمُنَـٰفِقِينَ وَالْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ... ٦٧ - ٦٨

٤ - يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ جَـٰهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَـٰهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وما لَهُمْ فى الْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ . وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ اللهَ لَئِنْ ءَاتَـٰنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ . فَلَمَّا ءَاتَـٰهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ

وسورة التوبة من أواخر ما نزل من القرآن ، وهذه المقاطع قد نزلت - على ما يستلهم من سياقها ومضامين المقاطع الاخرى المتصلة بها - فى ظروف الاستنفار إلى غزوة تبوك ، وبسبب ما كان من مواقف المنافقين يومئذ ؛ مع التنبيه إلى أنها قد جاءت بقصد التنديد والتذكير بمواقفهم وأخلاقهم وحالتهم بصورة عامة .

والمقطع الاول احتوى صورة لما وصل إليه شأنهم من خوف وضعف وقلة وتزلف ؛ وهذه الصورة تمثلهم فى أواخر العهد المدنى ، لانهم كانوا يستشعرون القوة والعزة شيئاً ما قبل ذلك ، كما تلهمه آيات أخرى سوف نوردها بعد .

والمقطع الثانى احتوى صورة من صور تزلفهم للمخلصين وحلفهم الأيمان على إخلاصهم بقصد إرضائهم ؛ وينطوى فى هذا صورة الضعف والخوف والتزلف أيضا كما هو واضح ؛ وبهذا يمكن أن ينسحب عليها ما قلناه آنفا من تمثيلها لهم فى أواخر العهد المدنى .

والمقطع الثالث يحتوى وصفا لسوء أخلاقهم وتضامنهم فى النهى عن المعروف والخير ، والأمر بالمنكر والشر ؛ ويسوى فى ذلك بين الرجال والنساء منهم ، والراجح أن هذا التضامن إنما كان منهم فى صدد الدعوة الإسلامية ، وتعليمات النبي صلى الله عليه وسلم وتبليغاته ؛ إذ كانوا يأمرون بمخالفة أوامر النبي ومبادئ الإسلام ، وينهون عن الانقياد للنبي والتزام تلك المبادئ التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر

أما المقطع الرابع فقد احتوى أمراً بمجاهدتهم هم والكفار سواء وبالإغلاظ عليهم ، وتتبع الأمر ببيان عن بعض حالاتهم وأخلاقهم ، فهم ينكرون أنهم كفروا بعد إيمانهم ويحلفون على ذلك مع أنهم كاذبون ، لان الكفر صدر منهم قولا وعملا ، وحاولوا تقويض الإسلام جهدهم فخابوا وفشلوا ؛ ولم يكن لموقفهم هذا من سبب إلا الحقد والغيظ من النبي واشتداد أمره ، مع أنه قد عاد عليهم من ذلك بسطة العيش والغنى ؛ ولقد كان منهم من ينذر بأن يتصدق فى سبيل الله ويخلص له إذا أنعم عليه ، فلما آتاه الله من فضله بخل وتولى ، فنم عن خبث نيته وسوء طويته ، ودمغ إلى الأبد دمغة النفاق .

وفى المقطع ما يدل على ما عاد على أهل المدينة ، من الهجرة النبوية والحركة الإسلامية، من الخيرات والبركات ، وفى هذا مشهد من مشاهد هذا العهد كما هو واضح .

ويلفت النظر خاصة إلى الآية (٧٣) التى تأمر النبى صلى الله عليه وسلم بمجاهدة المنافقين والكفار ، وما يتضمنه هذا من اعتبار الفريقين فى موقف واحد من العداء للإسلام والكيد له ؛ ومما لا ريب فيه أن هذا قد كان بسبب ما بدا منهم من بغى ودس وكيد ، وينطوى فيه الإشارة إلى خطورة مواقفهم وشدة نكاية حركتهم ، كذلك يلفت النظر إلى الفقرة الأخيرة من الآية (٧٤) ففيها إنذار لهم بالتوبة ، وتنبيه إلى أن فى ذلك خيرهم ، وبالتالى إبقاء باب التوبة مفتوحا أمامهم ، مما هو متسق مع التقريرات القرآنية ، وما عللنا به صبر النبى صلى الله عليه وسلم عليهم وعدم معاملتهم معاملة الأعداء المحاربين ؛ ومما ينطوى فيه أمل ارعوائهم . على أن فيها صورة أخرى لما وصلوا إليه من ضعف وازورار عن المسلمين وفيهم ذوو رحمهم ، وذلك فى جملة « وما لهم فى الأرض من ولىّ ولا نصير » ، كما يتبادر لنا .

والمقاطع الأول والثانى والرابع تلهم أن موضوع الكلام أفراد بارزون كما هو واضح ، وفى ذلك مصداق لما ذكرناه فى التمهيد .

(٦) وفى سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« ولا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ولا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وماتُوا وهُمْ فَـٰسِقُونَ . ولا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وأَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فى الدُّنْيا وتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وهُمْ كَـٰفِرُونَ ... ٨٤ - ٨٥

وهى من سلسلة تضمنت حملة على المنافقين لتخلفهم عن غزوة تبوك بأنفسهم وتثبيطهم غيرهم مما سوف نورده فى مبحث آخر ؛ والمتصل بهذا المبحث منها هو ما تدل عليه (١) من افتضاح أمرهم أو أمر بعضهم بأعيانهم ، وتقرير كفرهم ونفاقهم بأسلوب حاسم ؛ بحيث نهت النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على من يموت منهم والدعاء له والقيام على قبره . (٢) من غناهم أو غنى بعضهم وكثرة أولادهم ، واعتدادهم

بذلك ؛ وقد تلهم الآية الثانية إلى هذا ما كان لهم من تأثير بسبب ذلك ، وما كان يعتلج فى نفس النبي والمسلمين من رغبة فى ارعوائهم ، وغيظ مما حازوه من ذلك لما كان لهم بسببه من قوة التأثير فى غيرهم ؛ وواضح من هذا أن موضوع الكلام أفراد بارزون أيضا . ولقد ورد فى السورة نفسها آية مقاربة النص لهذه الآية وهى الآية ٥٥ ؛ وتكرار ذلك فى سلسلة واحدة تقريباً ، قد يدل على صحة ما استلهمناه ، واستهداف القرآن إضعاف ما قام فى نفوس المسلمين من رغبة أو ثار من عاطفة .

- ٤ -

(٧) وفى سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ...

٩٧ - ٩٨

وقد جاءت هذه الآيات فى سياق التنديد بالمتخلفين من الأعراب عن غزوة تبوك ، وهى صريحة الدلالة على أن النفاق لم ينحصر فى منافقى المدينة ، بل كان فى الأعراب منافقون أيضا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، ويتملقون المسلمين حينا مع تربصهم الدوائر بهم ، ولا يرون فيما يدفعون من زكاة ونفقات جهاد إلا مغرما ، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يرجون وجه الله وثوابه فيما يفعلون .

ولعل من الجائز أن يقال إن منافقى الأعراب لم يكن منهم ذلك الدور الخطير المؤذى الذى كان من منافقى المدينة ، وإن مواقفهم النفاقية إنما كانت تظهر فى المناسبات وعند الاختبار ، وخاصة فى ظروف الاستنفار إل الجهاد ، واستيفاء زكاة الأموال ، كما كان أحيانا يظهر من أعراب لم ينعتوا بنعت النفاق كما جرى فى الاستنفار إلى زيارة الكعبة التى انتهت بصلح الحديبية على ما جاء فى آيات سورة الفتح ١١ - ١٢ التى نقلناها فى مناسبة سابقة . ولعل عدم الإشارة إليهم إلا فى هذه السورة وبمناسبة غزوة تبوك قرينة على ذلك ؛ وقد يكون هذا طبيعيا ، لأن منافقى المدينة فى حالة

مواجهة واتصال واحتكاك دائمة مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين وذوى قرباهم واليهود ؛ هذا إلى ما فى الآية الأولى من تعليل متصل بطبيعة البدو والبادية وما يلهم هذا التعليل من الفرق بين منافقى الأعراب ومنافقى المدينة .

(٨) وفى السورة نفسها الآية التالية :

« وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ... ١٠١

وهى تقرر أنه كان هناك طبقة من المنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب استطاعت أن تتقن كتم نفاقها عن المسلمين أو جلهم ؛ ويبدو أنه كان لهؤلاء أذى بليغ ، لأن الآية توعدتهم بالعذاب مرتين فى الدنيا فوق ما ينتظرهم من عذاب الآخرة ، وفى هذا صورة جديدة من صور حركة النفاق فى العهد المدنى كما هو واضح .

٩ - وفى سورة محمد الآيات التالية :

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ . وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ... ٢٩ - ٣٠

راجع ١٩٤

— ٥ —

١٠ - وفى سورة الحديد الآيات التالية :

« يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ... ١٣ - ١٤

وهى وإن كانت وصف حال مشهد أخروى ، فإن الآية الثانية قد احتوت بيان ما كان من واقع حالهم الدنيوى من انحراف وريبة وغرور وتربص ، إلى سائر صفات النفاق التى كانوا متصفين بها . وقد ذكر المنافقات إلى جانب المنافقين كما ورد أكثر من مرة واستدللنا به على أنه كان للمرأة دور فى حركة النفاق كما كان لها دور فى الحركة الإسلامية والحركة الجحودية معاً .

وفى الآيات إنذار لمرضى القلوب بالفضيحة ، وبأن الله لايخفى عليه أمرهم ولوشاء لدل النبى عليهم فرداً فرداً ؛ ومع ذلك فقد أكدت أن النبى صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يعرفهم من أسلوب أقوالهم . ويبدو أن الآيات قد عنت الفريق الذى أتقن كتم نفاقه عن سواد المسلمين والذى أشارت إليه آيات التوبة الآنفة ، غير أن أحواله وأقواله ومواقفه كانت تفضحه أحياناً ، أو على الأقل كانت تكشف للنبى صلى الله عليه وسلم عما فى قلبه من مرض ؛ وهذا الإنذار بهذا الأسلوب قد يلهم أن من هذا الفريق من كان يرجى ارعواؤه وعودته إلى حظيرة الإخلاص خشية الفضيحة التامة على الأقل ؛ وروح الآيات تلهم أن موضوع الكلام أفراد بارزون أيضاً .

١١ - وفى سورة المنافقون الآيات التالية :

« إِذَا جَاءَكَ الْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ ماكَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لايَفْقَهُونَ . وإذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجسَامُهُمْ وإنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ورَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وهُم مُسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ

لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ . هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ لا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ... ١ - ٨

وفى الآيات صورة قوية وصريحة للمنافقين : فهم يظهرون الإسلام ويحلفون كذباً أنهم مصدقون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى حين أنهم لا يتورعون عن الكفر ، ويعطلون الناس عن تأييد النبي ، ويصدون عن سبيل الله ، ويأنفون أن يطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر الله لهم على ما اقترفوه من آثام ؛ وإن مظاهرهم لتعجب الرائى ، وأقوالهم لتحمل المخاطب على الاستماع ، لما فيها من تنميق وتزويق ، فى حين أنها عاطلة من الإخلاص ، وصادرة عن نية خبيثة ، وطوية مريبة ؛ وهم إلى هذا كله دائمو الخوف والقلق النفسى ، كلما هتف امرؤ ظنوا أنه يهتف ضدهم ، وكلما أشار امرؤ إلى أحد توهموا أنه يشير إليهم ويحاول أن يفضحهم ؛ فهم العدو الذى يجب الحذر منه وعدم الركون إليه فى حال . والآيتان الأخيرتان فى صدد مواقف كيدية للنبي والمسلمين دعا إليها بعض زعماء المنافقين فى بعض المناسبات ، ~~وسنشرحها فى مبحث آخر~~ ؛ غير أنهما تحتويان بالنسبة لحالتهم مايلهم أنهم كانوا على شىء من القوة ونفوذ الكلمة حينما نزلت الآيات ، أو أنهم كانوا يشعرون بذلك فى أنفسهم ؛ إذ جهروا بالدعوة إلى مقاطعة المهاجرين وعدم مساعدتهم ، وإلى نذر إخراجهم مع النبى من المدينة .

وروح الآيات تلهم أن الصورة هى بنوع خاص لزعماء المنافقين وبارزيهم ؛ ~~وهذا ينسحب فيما نعتقد على ماجاء فى الآيات الأخرى من صورة ووصف حال.~~

# المبحث الثانى

## فى مواقفهم الكيدية والساخرة والتآمرية

صور لمواقفهم الكيدية من سور النساء والتوبة والأحزاب والمجادلة والمنافقون - إشارة تذكيرية إلى صور كيدية سابقة - صور لمواقفهم الساخرة من سور النساء والتوبة ومحمد . صور لمواقفهم التآمرية من سور النساء والتوبة ومحمد والمجادلة تذكير بصور تآمرية سابقة إتماماً للسلسلة .

– ١ –

إن هذا المبحث يتناول كما هو واضح من عنوانه ثلاثة أنواع من المواقف ؛ ولهذا رأينا أن نقتبس صور كل منها لحدتها .

فأولا مواقفهم الكيدية .

١ - فى سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّٰغُوتِ وقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا . وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ...

٦٠ - ٦١

وقد احتوت صورة لما كان من تعطيل المنافقين وصدهم عن التقاضى لدى رسول الله ، وتفضيلهم التقاضى لدى زعيم من زعماء اليهود عرف بشدة حقده وعدائه للنبي والإسلام ؛ والصورة من صور الكيد الواضحة كما هو المتبادر .

٢ - وفى سورة التوبة الآية التالية :

« ومِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فى الصَّدَقَٰتِ فإنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وإن لم يُعْطَوْا مِنْهَا إذا هُمْ يَسْخَطُونَ ...

وقد احتوت صورة كيدية للنبي صلى الله عليه وسلم باتهامهم إياه بالمحاباة فى توزيع أموال الزكاة ، وتقريراً لواقع حالهم فى هذا الاتهام ، فهم يتوسلون بالافتراء والكيد للحصول على نصيب منها قد لايرى النبي لهم حقا فيه .

٣ - وفى سورة الأحزاب الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا . وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا . يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ...

٥٧ - ٦١

وقد تضمنت إشارات إلى مواقف كيدية للمنافقين فيها أذى وسوء أدب إزاء النبي والمؤمنين والمؤمنات ، وإلى ما كانوا يسعون فيه من نشر إشاعات السوء عنهم والإرجاف فى حقهم بما هم براء منه ؛ والآية ٥٩ قد تلهم أنه كان من جملة مواقف هذه الفئة ما يتنافى مع الرجولة والمروءة من التعرض للحرائر من نساء المسلمين أثناء خروجهن إلى حاجاتهن ، وأذيتهن بفاحش القول وبذيئه . والإنذار الذى احتوته الآيتان الأخريان قاصم وحاسم ومتناسب مع ما أشارت إليه الآيات من مواقف الأذى والكيد والإرجاف . وعدم ورود ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد طردهم أو طرد بعضهم عن المدينة ، أو أمر بقتلهم أو قتل بعضهم بعد هذا التوجيه القرآنى الحاسم ، قد يلهم أن الذين كانوا يقفون هذه المواقف الكيدية والمؤذية قد ارتدعوا عنها .

ولقد نقلنا فى بحث حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية آيات عدة من سورة النور احتوت إشارات إلى ما كان من بعض زعماء المنافقين من موقف شديد الأذى

للنبى صلى الله عليه وسلم وآله فى ظروف ما عرف فى تاريخ السيرة بحديث الإفك ؛ وهذا الموقف من حيث الشكل والأسلوب يتصل بما أشارت إليه آيات الأحزاب من مواقف ، كما أن آيات النور قد احتوت إنذاراً شديداً لهم وقررت أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، وحذرت من خطتهم القائمة على اتباع الشيطان الذى يأمرهم بالفحشاء والمنكر ؛ وهذا مقارب لما احتوته آيات الأحزاب من إنذار ، ومن بابه أيضاً .

— ٢ —

(٤) وفى سورة المجادلة الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ... ٨

وقد احتوت صورة لموقف شديد الأذى والكيد مما كان يقفه المنافقون ؛ فقد كانوا يعقدون المجالس والحلقات الخفية ليضعوا خطط الكيد والعصيان والتمرد على النبى ؛ فعاتبهم النبى صلى الله عليه وسلم ونهاهم عن ذلك فلم يأبهوا للعتاب وظلوا فى خطتهم الآثمة ؛ ومما روى أن هذه الحلقات كانت تعقد أكثر ما تعقد فى ظروف الأزمات الحادة التى كان يضطرب لها النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وهذه الرواية متسقة مع منطق الأمور ، حيث تكون الفرصة سانحة لهم لوضع خطط الدس والتثبيط والكيد ، استغلالا للظروف الحرجة ؛ وفى هذا ما هو ظاهر من شدة الكيد والأذى ؛ وقد يدعم هذه الرواية آية جاءت بعد قليل وهى :

« إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ... ١٠

إذ احتوت طمأنة المسلمين بأن هذه الحلقات السرية هى من وساوس الشياطين

بقصد إدخال الحزن على نفوسهم مع أنها ليست بضارتهم شيئاً لأن الضرر والنفع إنما هو من الله ، وعليهم أن يتوكلوا عليه .

وفى الآيات إلى صور مواقف الأذى والكيد صور تصف سخرية المنافقين من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ تضمنت الإشارة إلى أنهم كانوا حينما يأتون إليه لا يسلمون عليه بالسلام المعتاد ؛ وإنما بسلام فيه غمز أو سخرية ثم يتساءلون ساخرين جاحدين متى يقع عليهم عذاب الله الذى أنذرهم به النبي صلى الله عليه وسلم جزاء ما يصدر منهم من أقوال وأفعال ! ؟

ولما كان من المرجح أن هذا التساؤل إنما كان يقع فيما بينهم ، كما أنهم كانوا يعقدون تلك الحلقات متكتمين ، فإن من المحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل عليهم عيوناً يأتونه بأخبارهم وما يبيتونه من خطط الكيد والأذى ، كما تلهمه روح الآيات ، لاسيما أنه ليس فيها ما يفيد أن الله هو الذى أطلع النبي بالوحى على ما يعقدونه من حلقات وما يصدر منهم من أقوال جحودية ساخرة ، وهذا مما قد ينسحب على كثير من خطط المنافقين الكيدية على ما هو المتبادر ، وفيه إن صح مشهد من مشاهد السيرة النبوية .

(٥) وفى سورة المنافقين آية نقلناها فى المبحث السابق وهى الآية ٧ ؛ وقد تضمنت حكاية توصية كيدية من زعماء المنافقين للناس بعدم الإنفاق على المحتاجين ممن هم حول النبي حتى تضيق بهم الحال وينفضوا عنه وتضعف حركته وشأنه ، والراجح أن المقصودين هم المهاجرين من قريش الذين أصبح كثيرون منهم أو بالأحرى أكثرهم فقراء محتاجين بتركهم أموالهم فى مكة على ما أشارت إليه إحدى آيات الحشر هذه :

« لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَـٰجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّـٰدِقُونَ ...

٨

وفى السورة نفسها آية أخرى نقلناها كذلك فى المبحث السابق وهى الآية ٨ ؛ وقد تضمنت حكاية نذر شديد الخطورة والكيد من زعماء المنافقين بأنهم سيخرجون النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه القرشيين من المدينة ؛ وهذا النذر يدل على ما كان

يستشعره هؤلاء الزعماء من الثورة والعزة والقدرة على النكاية والكيد، على ما ذكرناه في المبحث السابق.

— ٣ —

وثانيا مواقفهم الساخرة.

(١) في سورة النساء الآية التالية :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَـٰفِقِينَ وَالْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ... ١٤٠

وقد جاءت الآية في معرض التنديد بالمنافقين؛ واحتوت صورة لما كان يعقده المنافقون من مجالس يستهزءون فيها بالنبي والقرآن، وينكرون أن يكون متصلا بالله. وفي الآية صورة لبعض المسلمين هم المقصودون بالنهي في الآية، إذ تلهم أن فريقا منهم لم يكن يرى بأساً في التردد على مجلس المنافقين والسمر معهم، والإغضاء عما يدور فيها من استهزاء وكفر؛ وكما كان للعصبية والقرابة والمصالح المشتركة أثر فيما كان من مواقف دس المنافقين، فإن لهما أيضا أثراً في هذا الموقف كما هو المتبادر، ويبدو أن هذا الأثر كان قويا بحيث أن الآية اكتفت بالنهي عن الاشتراك في مجالس فيها كفر وهزء بآيات الله فقط، إلى أن ينتقل الكلام إلى مالا حرج فيه.

(٢) وفي سورة التوبة الآية التالية :

« وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ٦١

وقد احتوت حكاية قول ساخر لهم إزاء النبي في نقدهم له، وقولهم عنه إنه سماع لكل ما ينقل له، كما أن فيها تنبيها إلى أن هذا القول كان مما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم؛ وقد روي في صدرها أن بعضهم كان يقدح في النبي فإذا حذر بعضهم بعضا من وصول

الخبر إليه قالوا إنه أذن سهل الاقتناع فنحلف له فيصدق ؛ والتنبيه على أن قولهم كان مما يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم مما يجعل الرواية سائغة كما هو المتبادر .

(٣) وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« يَحْذَرُ الْمُنَـٰفِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَءَايَـٰتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ...

٦٤ - ٦٥

ولقد روى أن الآيات نزلت فى فريق من المنافقين كمنوا للنبى صلى الله عليه وسلم فى طريق عودته من تبوك ليوقعوه عن دابته، فعلم بالمؤامرة وعاتبهم فأنكروا واعتذروا؛ كما روى أن بعضهم كان يقدح أثناء الغزوة فيه ويستهزئ بما يقول ويعد من نصر الله على الروم ، فعلم بأقوالهم فأوقف الركب وعاتبهم فأنكروا واعتذروا ، ومنهم من تاب وحسن إسلامه .

والروايتان لاتتسقان مع روح الآيات ومضمونها وسياقها إذا ما أنعم النظر فيها ، ولعلها متصلة بموقفهم الذى حكته عنهم الآية السابقة مباشرة لها من أنهم كانوا يغتابون النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون إنه أذن ، ثم يقولون على سبيل الهزؤ أيضاً إنه سينزل فيهم سورة تفضحهم ؛ بل إن مضمون الآيات وروحها تدعم هذا أكثر كما هو المتبادر منها . وعلى كل حال فإن فيها صورة واقعية لموقف كيد وسخرية وسوء أدب وقفه فريق من المنافقين .

- ٤ -

(٤) وفى السورة نفسها الآية التالية أيضا :

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فى الصَّدَقَـٰتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ...

وقد روى أنها نزلت فى مناسبة دعوة النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى التصدق ، فأقبل أغنياؤهم وفقراؤهم على السواء ، كل يتصدق بحسب قدرته ، فأخذ المنافقون يلمزون الفريقين ، فيقولون عن الأغنياء إنهم إنما يعطون رياء ، وعن الفقراء إن ما أتوا به تافه لاقيمة له ، وإنهم إنما أعطوه ليذكروا بأنفسهم به ، وليكون لهم وسيلة إلى نيلهم نصيبا من مال الصدقة ؛ وقد عينت الرواية عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه من الأغنياء حين تصدق بنصف ماله ، وأبا عقيل من الفقراء حين جاء بصاع من تمر ؛ ومع احتمال صحة الرواية واتساقها مع الآية فإنه يتبادر لنا أنها أوسع شمولا ؛ والراجح أن الدعوة النبوية كانت بسبيل تجهيز حملة تبوك ، لأن الآية قد نزلت فى ظروفها ، وموقف السخرية والكيد بارز فى الآية كما هو واضح ؛ ولقد جاء عقبها آية شديدة حاسمة فى دمغ المنافقين بالكفر وعدم إمكان غفران الله لهم كما ترى فيها :

« ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ... ٨٠

ومع أن المروى أن هذه الآية نزلت فى صدد مراجعة أحد أقرباء زعيم من زعماء المنافقين كان فى حالة الاحتضار وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال إن الله خيرنى واستغفر له تطييبا لقلب المؤمن المخلص الذى طلب منه ذلك ، فإننا نرجح أنها أسلوبية استهدفت كما قلنا دمغ المنافقين بالكفر والفسق ، وعدم احتمال غفران الله لهم ، بسبب ما حكته هذه الآيات وما قبلها من مواقفهم الكيدية والساخرة ؛ ولا نعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم خالف روح الآية واستغفر لأحد ممن كان مصراً على نفاقه وكفره ومواقفه الكيدية والساخرة .

(٥) وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ . أَوَ لَا يَرَوْنَ

أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ .
وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ
انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ... ١٢٤ - ١٢٧

وقد احتوت صوراً عن سخرية المنافقين واستخفافهم بما كان النبي صلى الله عليه وسلم يبلغه من آيات القرآن وسوره حينما تنزل عليه ، واستخفافهم كذلك بمجالسه ، وانصرافهم عنها خلسة .

(٦) وفى سورة محمد الآية التالية :

« وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ... ١٦

وقد احتوت صورة مقاربة للصورة التى احتوتها آية التوبة (١٢٤) ؛ إذ تلهم أنهم كانوا يتلهون عن سماع الآيات القرآنية والمواعظ النبوية ، وحينما ينصرفون يتساءلون تساؤل المستخف عما تلاه وقاله .

— ٥ —

وثالثاً مواقفهم التآمرية .

(١) فى سورة النساء الآيات التالية :

١ ـ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ... ١٣٨ - ١٣٩

٢ ـ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ... ١٤١

وقد احتوت الآية (١٣٩) تقريراً بأن المنافقين كانوا يتمسكون بولائهم ، للكفار دون المؤمنين ابتغاء الاعتزاز بذلك ، واحتوت الآية (١٤١) صورة أخرى عن نفاقهم وذبذبتهم ، إذ كانوا يقفون موقف المتربص المنتهز للفرصة متى جاءت وكانت ؛ وقد قال المفسرون إن المقصود من الكافرين هم اليهود ، وقد جاء بعد الآيات بقليل سلسلة فيها حملة شديدة على اليهود مما يمكن أن يوجه ذلك القول ؛ وعلى هذا فالآيات بسبيل الإشارة إلى موقف تآمرى بين المنافقين واليهود ؛ والأرجح إن هذا الموقف كان قبل التنكيل باليهود جميعهم ، وبالتالى فى وقت كان اليهود فيه أقوياء بعض القوة ، وكان المنافقون فيه كذلك أقوياء بعض القوة ؛ والآيات تلهم هذا وتلهم أنها فى صدد اليهود ؛ فاحتمال اعتزاز المنافقين بالولاء للكفار ، واحتمال قولهم لهم إنهم نصروهم بموقفهم السلبى فتم لهم النصر على المسلمين ، لا يمكن أن يكون إلا مع المنافقين واليهود ، وفى وقت كان الفريقان فيه على شىء من القوة.

(٢) وفى سورة التوبة الآيات التالية :

« وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ . أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... ١٠٧ - ١١٠

والجمهور على أن الذين بنوا هذا المسجد الذى عرف فى تاريخ السيرة بمسجد الضرار ، اتساقا مع الوصف القرآنى ، فريق من المنافقين كانوا يقطنون محلة قباء ، وكان

فى المحلة مخلصون أيضا استأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم فى بناء مسجد حيث كانت صلاته حينما جاء مهاجراً من مكة ، وحيث أقام بعض الوقت ، ليصلوا فيه فى أيام الشتاء والبرد والليل بسبب بعد المحلة عن مسجده ، فأذن لهم ؛ وكان راهب عربى اسمه أبو عامر قد تلاحى مع النبى صلى الله عليه وسلم وأقسم أن يحاربه أينما وجد محاربا له ، فلما انتصر المسلمون فى فتح مكة ويوم حنين ، تآمر مع المنافقين على أن يبنوا مسجداً فى قباء ليكون مركز اجتماعاتهم ، وينتظروا عودته من بلاد الروم حيث أزمع أن يذهب ليدبر المكايد للنبي والمسلمين ؛ فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد مثل رفاقهم ، فأذن لهم ، ورجوه أن يصلى لهم فيه فوعدهم بذلك بعد عودته من غزوة تبوك .

والصورة التآمرية واضحة فى الآيات وليس فيها ما لا يتسق مع الرواية ؛ والمروى أيضا أن الآيات قد نزلت أثناء غزوة تبوك ، وأن النبي علم وهو فى الرحلة بخبث نية بناة المسجد ؛ وقد أرسل فور عودته إلى المدينة من هدمه وحرقه . ومضمون الآيات يلهم أنها نزلت فى وقت كان المنافقون فيه فى ضعف وضآلة شأن ، إذ جاؤوا للنبي صلى الله عليه وسلم يؤكدون له حسن نياتهم .

— ٦ —

(٣) وفى سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ... ٢٥ - ٢٦

وقد احتوت الآية الثانية منها إشارة إلى ما كان من وعد المنافقين ، للذين كرهوا ما نزل الله — وهم اليهود على الأرجح — بطاعتهم والاندماج فى مكايدهم ؛ وفى هذا صورة تآمرية واضحة كما هو المتبادر ؛ وتعبير « إسرارهم » قد يلهم أن المنافقين واليهود كانوا يعقدون جلسات خفية يتآمرون فيها على النبي والإسلام .

(٤) وفى سورة المجادلة الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ

وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ... ١٤ - ١٦

ومع أن ذكر المنافقين لم يرد فى الآيات إلا أن صفاتهم التى جاءت فى آيات أخرى قد وردت فيها، كما أن الجمهور على أنهم هم موضوع التنديد وما تبع الآيات من حملة شديدة؛ وتعبير « ماهم منكم ولا منهم » يدل بقوة على أن المقصود من القوم الذين غضب الله عليهم وليسوا من العرب، هم اليهود على الغالب؛ وفى الآيات صورة لما كان بين اليهود والمنافقين من تواثق وتآمر كما هو ظاهر.

ويظهر أن المنافقين كانوا يعاتبون على مواقفهم التآمرية فينكرونها، ويحلفون على ذلك الأيمان الكاذبة، شأنهم فى كل موقف من مواقفهم الأخرى على ما احتوته الآيات التى نقلناها.

هذا؛ وإتماماً للسلسلة نذكر هنا بالصور التآمرية التى احتوتها آيات الحشر (١١ - ١٤) والبقرة (١٤) والمائدة (٥١ - ٥٣) التى أوردناها فى فصل اليهود، لاتصالها بهذا المبحث أيضاً بقدر اتصالها بالفصل المذكور.

# المبحث الثالث

## مواقفهم من الجهاد ووقائعه

هذه المواقف نوعان ـ الأول إزاء الدعوة ـ صور له من سور آل عمران والنساء والتوبة ومحمد ـ الثانى إزاء الوقائع الجهادية ـ صور له من سور آل عمران والأنفال والأحزاب ـ إشارة تذكيرية بما كان من موقفهم إزاء وقعتى بنى النضير وغزوة تبوك ـ صور أخرى للنوع الثانى من سورتى التوبة والمنافقون ـ تعليق على شدة نكاية مواقف النوع الثانى ـ إشارة إلى ما كانوا عليه من قوة فى ظروفها .

ـ ١ ـ

إن هذه المواقف على ما يستفاد من الآيات نوعان ، نوع إزاء الدعوة إلى الجهاد والاستنفار إليه ، وآخر إزاء الوقائع الجهادية .

(١) فى سورة آل عمران الآية التالية :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاتَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وقَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فى الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا ما مَاتُوا وما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فى قُلُوبِهِمْ واللهُ يُحْيِ ويُمِيتُ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... ١٥٦

وقد جاءت الآية فى سياق الإشارة إلى مشاهد وقعة أحد ، وما كان للمنافقين وبعض فئات المسلمين المخلصين من مواقف فيها ؛ والآية مطلقة تلهم أنها بسبيل تقرير موقف متكرر منهم ؛ وهو أنهم كانوا يعمدون إلى إثارة شجون أهل الشهداء والموتى من المسلمين الذين يستشهدون فى الجهاد أو يموتون فى السفر فيقولون إنهم لو لم يخرجوا إلى ما خرجوا إليه لما ماتوا وما قتلوا ؛ وواضح أن فى هذا دسا خبيثا وتثبيطا عن الاستجابة إلى الجهاد ؛ وقد تلهم الآية أن المقصودين بالذين يضربون فى الأرض هم الذين كان النبى صلى الله عليه وسلم يندبهم لمهمة ما فيلقون حتفهم ؛ لأن الدس والتثبيط إنما يجدان سبيلهما فى ذلك دون الأسفار المطلقة

الخاصة التى لا غنى للناس عنها ولا سبيل إلى إثارة الشجون والدس فيها .

(٢) وفى سورة النساء الآيات التالية .

١ - يَٰأَيُّها الَّذِينَ ءامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا . وإنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ فإنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنعَمَ اللهُ عَلَىَّ إذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا . ولَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّم تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُم فَأَفُوزَ فوزًا عَظِيمًا ...

٧١ - ٧٣

٢ - وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فإذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقولُ واللهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وكَفَىٰ باللهِ وَكيلًا ... ٨١

وقد احتوت الآيات الأولى إشارة إلى ما كان من تبيط المنافقين الناس عن الاستجابة إلى دعوة الجهاد ، فضلا عن تربصهم وانكماشهم ؛ واحتوت الآية (٨١) صورة من صور مواقفهم من الدعوة أيضا ؛ فقد كانوا يعلنون فى مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم السمع والطاعة ويخرجون للاستعداد ، ولكنهم لا يلبثون أن ينقضوا ما أبرموا ويجنحوا إلى الخلاف والتخلف .

وفى الآيات الأولى صورة تأكيدية لنفاقهم وأن مايصدر عنهم لايصدر عن إيمان وإخلاص ، فى صورة تقرير لما يكون منهم فى حالتى انتصار المسلمين وانكسارهم.

(٣) وفى سورة التوبة مقاطع عدة فى صدد مواقف المنافقين إزاء الدعوة إلى الجهاد ؛ وقد نقلنا أكثرها فى مبحث الصدام مع النصارى لأنها نزلت فى ظروف الدعوة إلى غزوة تبوك ؛ فنكتفى بالإشارة هنا إلى أرقامها وهى (٤١ - ٤٩) و (٨٠ - ٨٣) و (٩٠ - ٩٤) . وفيما يلى آيتان لم ننقلهما ثمة وهما متصلان بنفس الموضوع ، وقد نزلتا فى نفس الظروف :

« وإذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءامِنُوا باللهِ وجَٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَئْذَنَكَ

أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وقالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ . رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ... ٨٦ - ٨٧

ففى هذه الآيات التى نزلت فى معرض التنديد بالمنافقين والحملة عليهم وذكر مواقفهم المنكرة ، صور عدة ولكنها متقاربة لتلك المواقف ؛ فهم إذا اتبعوا النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فإنما يتبعونه حينما يكون السفر سهلا والخطر مأموناً ؛ فإذا ما انعكس الحال اعتذروا بعدم الاستطاعة وأقسموا الأيمان وهم كاذبون ، فيستأذنون النبى صلى الله عليه وسلم بالتخلف من جهة ، ويثبطون الناس عن النفرة من جهة أخرى ؛ وكلما دعا الله ورسوله إلى الجهاد سارع أولو الطول والقدرة إلى النبى يطلبون منه أن يتركهم فى المدينة . ويبدو من روح بعض الآيات أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأذن لهم تفادياً لما يعلمه من دسهم وشغبهم وتثبيطهم وأثر ذلك فى المخلصين الذين كان منهم من تربطه بهم الروابط الوثيقة المتنوعة .

(٤) وفى سورة محمد الآيات التالية :

« وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ . فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ... ٢٠ - ٢٣

وقد احتوت الآية الأولى وصفاً بديعاً وقويا لجبن المنافقين حينما كانت تنزل سورة فيها أمر حازم بالجهاد توافق رغبة المخلصين من المسلمين . وفى الآيات الأخرى حملة عليهم لجبنهم ، وتنبيه إلى ما فى ذلك من تقطيع الأرحام ، وتدمير البلاد ، لأن فيه تشجيعاً للعدو وإغراء له .

- ٢ -

وثانيا : مواقفهم فى وقائع الجهاد .

(١) وفى سورة آل عمران الآيات التالية :

« وما أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ ولِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . ولِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَٰتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فى قُلُوبِهِمْ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ وقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا ما قُتِلُوا قُلْ فادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ... ١٦٦ - ١٦٨

والآيات مما نزل عقب وقعة أحد التى دارت الدائرة فيها على المسلمين ، والتى أثارت فيهم آلاما مرة ؛ وقد احتوت الأولى صورة لموقف المنافقين فى هذه الوقعة ، إذ يستفاد منها أنهم دعوا إلى الاشتراك فى الجهاد فى سبيل الله ، أو التضامن على الأقل فى الدفاع عن وطنهم وقومهم ، فأبوا وتخلفوا قائلين إنهم لا يظنون أن يقع اشتباك ، ولو تيقنوا من ذلك لخرجوا معهم ؛ وكان قولهم كذبا لأنهم تخلفوا بقصد الخذلان ، واجتناب الحرب ، وتربص السوء بالمسلمين ؛ وقد احتوت الثانية صورة لموقف آخر لهم بعد المعركة ، فإنهم عمدوا إلى الدس الخبيث ، وإثارة شجون أهل الشهداء ، فقالوا إنهم لو أطاعونا وتخلفوا كما تخلفنا لما قتلوا ؛ وفى جملة « لو أطاعونا » صورة لموقف ثالث قبل المعركة ، إذ تلهم أنهم لم يكتفوا بالتخلف بل حاولوا حمل غيرهم من المخلصين الذين تربطهم بهم روابط القربى والعصبية على التخلف أيضا ولكن هؤلاء لم يسمعوا لهم .

(٢) فى سورة الأنفال الآية التالية :

« إِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ والَّذِينَ فى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٤٩

وسورة الأنفال نزلت عقب وقعة بدر الكبرى على ما أجمع عليه المفسرون والرواة ؛ وقد احتوت حكاية صور ومشاهد وظروف الوقعة فى معرض العظة والطمأنة والتشريع ؛ ومما ذكره الرواة أن فريق المنافقين خرجوا مع النبي والمخلصين حينما كان هدفهم من الخروج كسب القافلة التجارية القرشية الواردة من الشام بقيادة أبى سفيان ، والتى لم يكن معها حامية كافية ؛ فلما نجت القافلة ، ووجد النبي والمسلمون أنفسهم أمام الجيش القادم من مكة لإمداد القافلة وإنقاذها استشار النبي الناس ، فأعلن المهاجرون والمدنيون استعدادهم للاشتباك ، فما كان من الفريق المنافق إلا المخالفة والرجوع ؛ فالذى نرجحه أن الآية تحكى قولهم فى هذا الظرف ؛ إذ رأوا فى قرار الاشتباك مع المكيين الذين يبلغون ضعف المسلمين تورطا وغروراً فقالوا إنما غرهم وورطهم دينهم .

- ٣ -

(٣) وفى سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا . وَلَقَدْ

كانوا عاهدوا اللهَ من قبلُ لا يولّون الأدبار وكان عهدُ اللهِ مسئولا . قل لن ينفعكم الفرارُ إن فررتم من الموتِ أو القتلِ وإذا لا تمتّعون إلّا قليلا . قل من ذا الذي يعصمكم من اللهِ إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمةً ولا يجدون لهم من دونِ اللهِ وليا ولا نصيرا . قد يعلمُ اللهُ المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلّا قليلا . أشحّةً عليكم فإذا جاء الخوفُ رأيتهم ينظرون إليك تدورُ أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموتِ فإذا ذهب الخوفُ سلقوكم بألسنةٍ حدادٍ أشحّةً على الخيرِ أولئك لم يؤمنوا فأحبط اللهُ أعمالهم وكان ذلك على اللهِ يسيرا . يحسبون الأحزابَ لم يذهبوا وإن يأتِ الأحزابُ يودّوا لو أنهم بادون في الأعرابِ يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلّا قليلا ... ٩ - ٢٠

وهذه الآيات مما نزل عقب وقعة الخندق أو الأحزاب ، وفى صدد وقائعها ومشاهدها ؛ وقد احتوت صوراً لمواقف المنافقين ودسائسهم فى ظروف الوقعة ؛ وإذا لاحظنا أن هذه الآيات هى معظم ما نزل فى صدد الوقعة بدا لنا أنها إنما نزلت للتنديد بهم وفضيحتهم خاصة .

والآيات الثلاث الأولى تصور مقدار ما كان من شدة اضطراب المسلمين لقدوم جيوش الأحزاب ووفرتها ؛ ودسائس المنافقين وتثبيطهم فى هذه الحالة يكون بطبيعة الحال شديد الأذى بعيد المدى بحيث يتناسب مع تلك الشدة ؛ يضاف إلى هذا أن هذه الغزوة كانت أشد ما تعرضت له المدينة والمسلمون من خطر ، بل كان من شأنها أن تعصف بالإسلام لولا تأييد الله وثبات رسوله ، لاسيما أنها جاءت بعد وقعة أحد التى كانت الدائرة فيها على المسلمين وكاد النبى يقتل فيها ؛ وهذا مما يجعل مواقف الدس والتثبيط التى وقفها المنافقون أشد خطرا وأبعد نكاية وأذى .

وفى الآية الرابعة تبدو صورة للمنافقين فى جرأتهم على الله ورسوله جهرة وقولهم

إن ما وعدوا به من نصر ليس إلا غروراً أو تغريرا بالناس ؛ ومما لا ريب فيه أن خطورة الظرف هي التي جرأتهم على هذا القول .

وفي الآية الخامسة تبدو صورة أخرى لهم في تثبيطهم أهل المدينة وتخويفهم إياهم ودعوتهم إلى الرجوع إلى المدينة ، وصورة ثانية أيضاً في استئذانهم النبي صلى الله عليه وسلم بالعودة إلى بيوتهم لحمايتها وزعمهم كذبا أنها مكشوفة للعدو ، وقد قررت الآية والآية التالية لها واقع أمرهم في الحقيقة ، فهم لا يبغون إلا الفرار ، وإذا قدر للعدو أن يدخل إلى المدينة منصوراً وطلب منهم أن يجهروا بالكفر وأن يثيروا الفتنة لما توقفوا في الإجابة إلى ذلك ؛ ويبدو من الآية السابعة أن المنافقين عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأشهدوا الله عليهم على عدم الفرار بعد ما كان منهم ما كان في وقعة أحد فذكرتهم الآية بهذا العهد تذكير تأنيب وتنديد .

وفي الآية التاسعة صورة أخرى لهم في ظروف الوقعة إذ تلهم أنه كان منهم من يبثون فكرة الالتحاق بمعسكر النبي لتعويق الناس عنه ، ويدعون بني قومهم وذوي قرباهم إلى الانضمام إليهم بحجة الرغبة في القتال فريقاً خاصاً ، في حين أنهم كانوا لا يقصدون إلا التفريق ، ولم يبيتوا النية على الاشتباك في الحرب إذا نشبت بصورة فعالة .

وفي الآية العاشرة تقرير آخر لواقع حالهم ؛ فهم بخلاء ، وحينما يحدق الخطر بهم يظهرون جبنا شديدا صورته الآية أبلغ تصوير ، وحينما يذهب الخوف يطلقون ألسنتهم بالنقد الشديد والتبجح العريض ، وهم بعيدون عن كل خير . وفي الآية الحادية عشرة وهي الأخيرة صورة أخرى لهم ، إذ يبدو أنهم حينما قيل لهم إن الأحزاب قد ارتدوا خائبين عن المدينة لم يكادوا يصدقون . وقد احتوت تقريرا لحالة فرضية لهم متصلة بموقف الجبن وعدم التورط الذي وقفوه ، فقررت عنهم أنه لو عاد الأحزاب ثانية لتمنوا أن يكونوا في البادية بعيدين عن المدينة ، فلا يشهدوا الوقعة ، ولا يتورطوا فيها ، ويكتفوا بالسؤال عن الأخبار ؛ وقد استدركت الآية فقررت أنهم لو كانوا مع المسلمين لما قاتلوا قتال جد فيه غناء .

والصور القرآنية واضحة كل الوضوح ؛ وهي تؤيد ما قلناه من شدة نكاية مواقف

المنافقين وبعد مداها فى ظروف هذه الوقعة التي هي أشد ما تعرض له الإسلام من خطر .

- ٤ -

(٤) ولقد نقلنا فى مبحث سابق آيات سورة الحشر ١١ - ١٤ ونبهنا إلى ما فيها من تضامن المنافقين مع اليهود ؛ وفى الآيات صور تتصل بهذا المبحث أيضا ، لأن الموقف الذى وقفه المنافقون وحكته الآيات إنما كان فى ظروف وقعة يهود بنى النضير ، ويستفاد من الآيات والروايات التى وردت فى صددها والمتسقة معها أن المنافقين تدخلوا وأوعزوا لليهود بعدم التسليم ، ووعدوهم بالتضامن معهم فى القتال وفى الجلاء ، فتمرد هؤلاء نتيجة لهذا الوعد والإيعاز ، ورفضوا شروط النبى صلى الله عليه وسلم المتسامحة ، فشدد الحصار عليهم واضطرهم إلى قبول شروط أشد ، على ماذكرناه فى فصل اليهود ؛ وعلى كل حال ففى الآيات صورة لموقف من مواقف المنافقين فى ظروف الوقائع الجهادية ، فيه تقوية للعدو كما هو واضح .

(٥) وفى القسم الأول من هذا المبحث أشرنا إلى آيات التوبة وما فيها من صور لمواقف المنافقين من الدعوة إلى الجهاد عامة وغزوة تبوك خاصة ؛ وفى بعض هذه الآيات صور لمواقفهم من وقائع الجهاد نفسها مما يدخل فى باب هذا القسم أيضاً وتحسن الإشارة إليه لتتم السلسلة ، فالآية (٤٢) تذكر أن المنافقين كانوا أحياناً يستجيبون للدعوة ويشتركون فى حملات الجهاد حينما تكون الرحلة قريبة والغزوة سهلة مأمونة . والآية (٨٣) احتوت أمراً للنبى بإعلانهم أنه لن يسمح لهم بالخروج معه إلى غزوة ما أو بمقاتلة عدو ، بسبب ما كان من تخلفهم وتهربهم وتثبيطهم ؛ والآيتان ٤٧ - ٤٨ تصفان واقع حال المنافقين فى الوقائع الجهادية . فهم لا يألون جهدهم فى بث الفتنة وإثارة القلق وتثبيط الهمم ودس الدسائس إذا ما خرجوا مع الحملات الجهادية ؛ ولمساعيهم هذه أثر فى بعض المسلمين الذين يستمعون إليهم بسبب الروابط التى تربط بينهم ؛ وفى الآية الثانية إشارة إلى موقف واقعى منطبق على ما ذكرته الآية الأولى من واقع حالهم ، إذ لم يألوا جهدهم فى فتح الثغرات ، وخلق المشاكل ، وظلوا

كذلك إلى أن صارت كلمة الله هي العليا ، وتوطدت قوة الإسلام رغم أنوفهم وعلى كره منهم .

— ٥ —

(٦) وفى سورة التوبة آيات لم ننقلها قبل وهى متصلة بمواقف المنافقين فى ظروف الوقائع الجهادية ، منها الآيات التالية :

« إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ ويَتَوَلَّوْا وهُمْ فَرِحُونَ . قُل لَّنْ يُصِيبَنَا إلَّا ما كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَـٰنَا وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنونَ . قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إلَّا إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ونَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ . قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتقَبَّلَ مِنْكُمْ إنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ... ٥٠ - ٥٣

وهى صور متصلة بوقائع الجهاد من بعض النواحي أيضاً ، إذ حكت الأولى تربص المنافقين الدوائر بالمسلمين حتى إنهم ليستاءون من فتح يفتح عليهم ، وليتمنون أن تدور الدائرة عليهم . وهذه المساجلة التى تأمر بها الآيات تدل على ما كان من شدة أثر مواقف المنافقين فى نفوس المسلمين فى ظروف الوقائع الجهادية كما هو المتبادر .

والآية (٥٣) مع ما ورد فى صددها من روايات ، تلهم أن المنافقين حاولوا أن يفتدوا أنفسهم بالاشتراك ماليا فى غزوة تبوك ، فألهم الله نبيه رفض ذلك مع تعليل الرفض فى الآية ، وهو تعليل بليغ يلهم أن قبول المال منهم قد يتخذ دليلا على تصديقهم فيما يدعونه من نيات حسنة ويقدمونه من أعذار كاذبة .

ومنها الآية التالية :

« ومِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَمًا ويَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ...

وقد تضمنت صورة لمنافقى الأعراب ؛ فقد كانوا يعتبرون ما يؤخذ منهم من مساعدات وصدقات ، تكاليف إجبارية ، وكانوا يدفعونها تفادياً لا إيماناً واحتساباً ، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر حتى يخلصوا من هذه التكاليف .

(٧) ولقد نقلنا سابقاً الآية (٨) من سورة « المنافقون » ، ولها اتصال وثيق بموقف للمنافقين أثناء إحدى الغزوات النبوية ؛ إذ روى فى صددها أن أنصاريا خزرجيا تلاحى مع قرشى فاستغاث كل منهما بقومه على عادة العصبية القبلية الجاهلية ، وكادت تكون فتنة هوجاء ، فأخذ عبد الله بن أبىّ كبير المنافقين الغضب والحمية وأقسم : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، كأنما كان واثقا من أنه هو الأعزّ ؛ ففى الآية من جهة صراحة بأن المنافقين كانوا أحيانا يخرجون فى غزوات النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيها من جهة أخرى صورة لما كان من استعدادهم لإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين أثناءها .

ومما لا ريب فيه أنهم إنما كانوا يخرجون فى الغزوات الهينة المضمونة العاقبة على ما وصفت إحدى آيات التوبة وهى (٤٢) من واقع حالهم فى ذلك .

- ٦ -

ولا بد أن القارئ قد لاحظ أن المنافقين قد وقفوا من الوقائع الجهادية الخطيرة فى تاريخ السيرة مثل بدر وأحد وبنى النضير والخندق وتبوك موقف الخذلان والتثبيط ، وأن موقفهم خاصة من وقعتى أحد والخندق اللتين دارت فى أولاهما الدائرة على المسلمين وكادت ثانيتهما تعصف بالإسلام والمسلمين أشد العصف ـ من أشد مواقفهم نكاية وخبثا وأبعدها مدى .

وهذا يفسر الحكمة التى اقتضت إنزال الحملات القرآنية العنيفة فى حقهم كما هو المتبادر .

ويلاحظ من ناحية أخرى أنهم كانوا فى ظروف الوقائع الاربع الأولى على شىء من القوة ، فلم يعبأوا بما يمكن أن يكون لمواقفهم منها من رد فعل فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

# فصل فى الجهاد ووقائعه

## تمهيد

آيات الجهاد مدنية - ليس فى القرآن المكى إلا نواة - تعليل ذلك - حدود التشريع الجهادى فى القرآن - كثرة آيات الجهاد ودلالتها - الآيات الجهادية نوعان : دعوة ووقائع - أسلوب ومدى كل منها - روعة الأسلوب وأثره - الوقائع الجهادية وطبيعتها - شمول الدعوة للجهاد بالمال - الجهاد الاسلامى قام على التطوع - الجهاد الاسلامى استهدف الدفاع ورد العدوان وضمانة حرية الدعوة واستجابتها فقط قطعية التزام النبى هذا الهدف فى التطبيق - مباحث الفصل .

— ١ —

إذا استثنينا آيات الشورى ٣٩ - ٤٣ التى نقلناها فى مبحث الأذى والفتنة ، لانجد فى القرآن المكى شيئاً عن الجهاد والدعوة إليه وواجب الدفاع عن الإسلام والمسلمين بالقوة ؛ على أن هذه الآيات ليست فى الحقيقة دعوة ، وإنما هى فى معرض وصف أخلاق المسلمين التى منها الانتصار من البغى ، وعدم الحرج عليهم فى دفع العدوان بمثله ؛ وعلى هذا فكل مايمكن أن يقال فيها إنها نواة لمبدإ الجهاد الإسلامى الذى هو دفاع ورد بغى وعدوان فحسب ، جاءت بأسلوب الوصف والحث والتنويه والوعظ ، كما هو شأن أسلوب القرآن المكى فى صدد المبادئ الإسلامية .

وبناء على هذا فإنه يصح أن يقرر أن جميع الآيات القرآنية الواردة فى الجهاد تشريعاً ودعوة ووقائع هى مدنية ، وهذا طبيعى ؛ فإن المسلمين قبل الهجرة لم يكونوا من حيث العدد والقوة فى الموقف الذى يساعدهم على قتال حتى لدفع الظلم والأذى ، فقد كانوا فى مكة يتحملون الأذى صابرين محتسبين ، ومافتئت الآيات المكية تحثهم على الصبر والدفع بالتى هى أحسن مع الوعد بالنصر فى النهاية ، واضطر كثير منهم إلى الهجرة إتقاء للفتنة عن دينهم ، وفراراً بدمهم ، على ما مر تفصيله فى بحوث سابقة .

وإذا كان بعض الأقوياء من المسلمين حاولوا أحياناً مقابلة العدوان والإساءة بمثلهما

مما استلهمناه من بعض الآيات فى مبحث محنة الأذى والفتنة ، فإنما كان ذلك محاولات شخصية وفردية .

فلما بايع الأوس والخزرج النبى صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، ثم على الدفاع ، وتمت الهجرة النبوية ، تبدل الموقف ، وأصبح النبى صلى الله عليه وسلم فى عاصمة مستقلة ومحيط قائم بذاته مستغن عن غيره ، للإسلام فيه صوت قوى ، وشيوع غير ضيق ؛ وحينئذ كانت الخطوة الجدية إلى مقابلة مشركى مكة على ما كان منهم من ظلم وبغى ظلا مستمرين فى الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام ، وأذى وفتنة لمن لم يستطع الإفلات من المستضعفين المسلمين على ماذكرناه كذلك فى المبحث المذكور آنفاً .

- ٢ -

وتتمثل هذه الخطوة بثلاثة حدود : الأول فى آيات الحج ٣٨ - ٤١ التى نقلناها فى المبحث الآنف الذكر ، والتى تقرر أن المسلمين قد ظلموا ، وتأذن لهم بالانتصار والدفاع ، وتعدهم بنصر الله ؛ والثانى فى آيتى البقرة والأنفال المتقاربتين نصا واللتين تأمران بقتال المشركين البادئين بالعدوان والظلم إلى أن ينتهوا عن عدوانهم وتصبح حرية الدعوة مضمونة ويكون الدين كله لله ، كما ترى فى إحداهما هذه :

« وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ (١) وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى الظَّـٰلِمِينَ ... البقرة ١٩٣

والثالث فى آيات النساء والتوبة والممتحنة التى تأمر بعدم قتال المسالمين والحياديين والمعاهدين ، وباحترام عهد المعاهدين ما احترموه ، وبقتال الناكثين والغادرين والطاعنين بالدين والذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وتشجع على البر بالمسالمين ، كما ترى فيما يلى :

١ - إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ

(١) إن بعض المفسرين قال إن كلمة « فتنة » بمعنى شرك ، وإن الأمر فى الآيتين بقتال المشركين إلى أن لا يبقى شرك . وفى القرآن نصوص تخالف هـذا من الجهة اللغوية ومن الجهة التشريعية ، كما أن فى السيرة النبوية ما يخالفه بما سيرد فى هذا الفصل بعد .

حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَـٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَـٰتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ... النساء ٩٠

٢ — إِلَّا الَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ... التوبة ٤

٣ — كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ . ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَـٰتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَـٰنَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... التوبة ٧ - ١٣

٤ — الآية ٢٩ من التوبة التى نقلناها فى مبحث الصدام مع النصارى .

٥ — لَا يَنْهَـٰكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا

يَنْهَـٰكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ ...

الممتحنة ٨ – ٩

ويلفت النظر إلى أن هذه الآيات مما نزل فى مختلف أدوار التنزيل ، أى فى أوائل وأواسط وأواخر العهد المدنى وأن بعضها متسق مع بعض فى الروح والحكم والمدى ، مما يصح أن يقال معه إنها مبادئ أو حدود محكمة .

— ٣ —

والآيات القرآنية فى موضوع الجهاد قد شغلت من حيث كثرتها حيزاً كبيراً يكاد يبلغ نصف القرآن المدنى ؛ وفى هذا دلالة على أن هذا الموضوع كان من أهم أدوار السيرة النبوية فى العهد المدنى ، أو أهمها .

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم محوطا من جهة باليهود ، ولهم الحصون والقرى والمزارع والمال والعدة ، والمركز القوى المتغلغل فى حياة العرب ؛ وكان من جهة ثانية على عداء شديد مع أهل مكة بقيادة زعمائها الأقوياء ؛ وكان العرب الآخرون من جهة ثالثة ينظرون إلى هؤلاء وأولئك فيرون أن النبي مايزال ضعيفا منعزلا مع مسلمى الأوس والخزرج ومهاجرى مكة القليلين ، فكان منهم من يقف موقف المتربص ، ومنهم من يقف موقف المناوئ ، ومنهم من يجرؤ على الغدر والخيانة ليتقرب بإثمه إلى مشركى مكة أو يهود المدينة ؛ وكل هذا كان يستدعى الحرب والدفاع والتأديب والتنكيل والبعوث والسرايا والغزوات بصورة مستمرة ؛ ويكفيك أن تعلم مثلا أن عدد الغزوات والسرايا والبعوث قد بلغ خمساً وستين ، قاد النبي صلى الله عليه وسلم منها بنفسه سبعاً وعشرين ، وكل ذلك فى نحو عشر سنين – لتقدر خطورة الدور الذى كان للجهاد فى هذا العهد ، وتفهم حكمة شغل موضوعه ذلك الحيز الكبير من القرآن .

— ٤ —

والآيات فى هذا الموضوع على نوعين : نوع تضمن دعوة عامة إلى الجهاد

بالنفس والمال ، وحث عليه وتثبيت وترغيب فيه ، وتنويه بالمستجيبين ، وتنديد بالمنكمشين والقاعدين ؛ وقد تضمنت آيات هذا النوع مبادئ عامة فى الجهاد وأهدافه والاستعداد له ، جليلة الشأن مستمرة التلقين والمدى والإلهام فى كل نزاع بين المبادئ القويمة والفاسدة ، وفى كل صراع بين الحق والباطل ، والضعيف والقوى ، والحرية والاستعباد ؛ وتضمنت كذلك صورا لمواقف المسلمين من الدعوة إلى الجهاد ، وما كان من أزمات حادة فى سبيل ذلك ؛ ونوع ثان أشير فيه إلى وقائع الجهاد النبوى البارزة وما كان فيها ؛ ومن الجدير بالتنبيه أن آيات النوع الثانى قد نزلت بعد الوقائع ؛ مما يسوغ القول إن الوقائع قد كانت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ورأيه ، وبدون وحى قرآنى كما هو شأن أكثر أحداث السيرة النبوية ، وإنها جاءت مؤيدة لكل ماصدر من النبي تقريبا ، وفيها مايلهم أن ما كان إنما كان بإلهام ربانى ، كما أنها لم تكن قصصا عن الوقائع وسيرها ونتائجها ، بل كانت بمثابة تعقيبات عليها قصد بها التشريع أو التنبيه أو التنويه أو التنديد أو الطمأنه أو التسكين أو الوعظ الخ مما اقتضته ظروف كل واقعة وسيرها ؛ بل إن هذه النواحى هى البارزة فيها أكثر من مشاهد الوقائع وسيرها ؛ وقد تضمنت مثل النوع الأول مبادئ عامة فى الجهاد أيضا ؛ وإنه ليصح أن يقال إن ماجاء فى القرآن من الإشارات إلى وقائع لم يقصد به غير هذه النواحى ، ولعل هذا مما يفسر السكوت عن وقائع جهادية مهمة روتها الروايات حتى كانت يقينا مثل غزوات مؤته واليمن وفتح الطائف ، ويفسر الاكتفاء كذلك بالإشارات الخاطفة الغامضة إلى وقائع مهمة أخرى مثل فتح مكة وخيبر والقرى اليهودية الأخرى ، وماتم فى أثناء غزوة تبوك من شؤون .

- ٥ -

وكل من يتمعن فى الآيات القرآنية من كلا النوعين يقف حالا على المعجزة القرآنية الخالدة فيما يجده ، أولا : من تلك المبادئ العامة التى تركزت فيها كل مبادئ الحق والعدل والرأفة والتسامح مع القدرة ؛ وثانيا : من الإسلوب الأخاذ ، والحيوية الرائعة ، والإشراق الباهر وبما يمكن أن يوجبه من الإيمان النافذ المستولى ، والذى من شأنه أن يأخذ بالمرء صاعدا به إلى ما فوق مستوى المادة ، وأن يشعره بقوة

الإيمان العميق الفياض الذى تمتلئ به النفس وتسعد فيه ، وهى بسبيل نصرة الحق والحرية والمبادئ السامية ، مهما أحاط بصاحبها من شظف وحرمان وتعب وبؤس واستهدف له من مخاطر ومصاعب وموارد هلاك وفناء .

وليس من ريب فى أن هذا هو ما حصل فى نفوس السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وسجل الله رضاءه عنهم ورضاءهم عنه فى القرآن ، فجعلهم وهم الفئة القليلة المحوطة بالخصوم الأقوياء بالعدة والعدد ، والمكر والدسائس والتى فى صفوفها أناس ضعفاء أو منافقون ومرضى قلوب ، ينتصرون فى جزيرة العرب أولا ، ثم يخرجون بعد ذلك إلى الدنيا لا يملكون إلا هذا الإيمان ، وما يوحيه من طمأنينة بنيل إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وما يبثه من قوة زاخرة فى النفس ، واستهانة بالموت فى سبيل المثل الأعلى الذى تشبعت به قلوبهم ، فيضربون ضرباتهم الجبارة ، ويأتون بالمعجز الخارق ، ويسيطرون على الكون ، فتبقى آثار ذلك كله على مدى الدهر قوية وهاجة النور ، داوية الصوت ساطعة النور .

## - ٦ -

وفى النوع الأول فرض الجهاد على المسلمين فرضا ، وعبر عن ذلك بأنه كتب عليهم «كتب عليكم القتال» كما استعمل نفس التعبير فى فرض الصيام ؛ وبذلك توطد الجهاد فى الإسلام كركن من أركانه إذا لم يقم به المسلمون حينما تدعو الحاجة إليه وقعوا فى الإثم ضمن المبادئ العامة التى وضعت له ، وفى نطاق الحدود التى رسمت له فى الآيات القرآنية .

## - ٧ -

ووقائع الجهاد التى أشير إليها فى القرآن قد انحصرت فى وقائع كبرى وقعت بين جمهرة من المسلمين وجمهرة من المشركين أو اليهود ؛ منها ما أشير إليه باسمه وهو وقعتان : بدر وحنين ، ومنها ما أشير إليه بدون تسمية وأجمعت الروايات على توضيحها وهو وقائع أحد والخندق ويهود بنى قينقاع والنضير وقريظة وخيبر والحديبية وفتح مكة وتبوك ؛ منها ما بسطت مشاهده بسطا ما ، ومنها ما أشير إليه إشارات خاطفة

على حسب ما اقتضته حكمة التنزيل وأهدافها .

وهذه الوقائع وما تخللها من غزوات وسرايا و بعوث صغيرة وكبيرة لم تكن أهميتها على حسب خطورة سير الحرب فيها وعدد المقاتلين والقتلى والجرحى والأسرى والغنائم ، إذكان جلها فى الحقيقة موضعيا قليل الخطورة من هذه الناحية ؛ وإنما كانت أهميتها من حيث أنها مظهر عملى للصراع الهائل الذى كان بين التوحيد والشرك ، والإيمان بالرسالة النبوية وجحودها ، والحرية والصد والعدوان ، وهو الصراع الذى انتهى بانتصار حرية الدعوة ودخول الناس فى دين الله أفواجا .

- ٨ -

ولم تقتصر الدعوة القرآنية إلى الجهاد على الناحية البدنية والحربية ، بل تناولت الناحية المالية أيضا ، فالمال عصب الحرب ، وليس من الميسور الاضطلاع بأعبائها المتنوعة إلا بالمال ؛ بل إن الأرواح التى توهب للجهاد وتقدم ضحية فيه أيسر وجودا وأسرع استجابة إليه ؛ وقد كان من هذا مثل رائع حكته إحدى آيات سورة التوبة :

« ولا عَلَى الَّذِينَ إِذَا ماأَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاأَجِدُ ماأَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مايُنْفِقُونَ ... ٩٢

فكان من الطبيعى والحالة هذه أن تتضمن الآيات دعوة إلى الانفاق فى سبيل الله وحضا عليه ؛ ولقد تخلل آيات الجهاد نفسها كثير من مثل تلك الآيات للمناسبة والملازمة التامتين ، وأطلق تعبير الجهاد على الجهاد البدنى والمالى معا ، بل قدم الثانى بالذكر فى كل موضع ذكر فيه الاثنان تنويها بخطورته ؛ ولا تكاد تقرأ مجموعة من الآيات فى صدد الجهاد والاستعداد له إلا وجدتها فى سياق واحد مع آيات الحث على الإنفاق فى سبيل الله ، بأسلوب قوى نافذ ومستول من شأنه أن يملأ النفس الطيبة الحسنة إيماناً ورضاء وإقداما ، ويجعلها تخرج عن ما لها طائعة مختارة . ولقد تخللت الآيات حملات لاذعة ، ووعيد قاصم بأسلوب قوى رهيب على البخلاء الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، والأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ؛ وقد كادت هذه الحملات أحياناً تكون رعداً وبرقا ومطراً من نار

محرقة وعذاب شديد تقشعر الجلود لسماعها ، كما أن أكثر آيات النفاق والمنافقين الواردة فى صدد الجهاد والتى نقلناها سابقا وردت متخللة فى أثناء الإشارات إلى الجهاد ؛ فإن جبن المنافقين وقبض أيديهم ، وتهربهم وتثبيطهم ، وتخلفهم واعتذارهم إنما كان بسبب هذه المناسبة ، وقد رأيت ما كانوا هدفا له من حملات لاذعة .

- ٩ -

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى نقطتين :

الأولى : إن الحث على الجهاد بالمال والنفس ، وعذر الذين لا يجدون ماينفقون من الفقراء ، والحملة على القادرين إذا ما تهربوا وشحوا ، يسوغ القول إن السلطان الإسلامى فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قد وصل إلى درجة تجهيز الحملات ، وتموين المجاهدين بالسلاح والمال والمعدات الأخرى ، وإن الجهاد كان يقوم على التطوع والتبرع بدافع الإيمان والرغبة فى التقرب إلى الله وطاعة الرسول ، وكان المجاهدون هم الذين يجهزون أنفسهم بالسلاح والركائب والزاد ؛ وكل ما فى الأمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفق من الفيء والغنائم والصدقات ـ الزكاة ـ فى هذا السبيل ، ويساعد الفقراء على التجهز بقدر ما كان نصيب بيت المال يتسع له ، على كثرة ما كان يطلب منه من ناحية ، وقلة الوارد من ناحية أخرى .

وهذا يفسر لنا حكمة تقسيم غنائم الحرب على خمسة أقسام ؛ قسم يخصص لبيت المال وينفق منه على الطبقات المحتاجة وفى سبيل الله ، والأقسام أو الأخماس الأربعة توزع على المجاهدين ، كما تفسر لنا حكمة حصر الفيء ، أى ما يدخل فى حوزة النبي دون قتال ، فى الطبقات المحتاجة وسبيل الله كذلك .

أما النقطة الثانية فهى أن الجهاد لم يستهدف بصورة رئيسية إجبار الناس على الإسلام ؛ فمن ناحية التعاليم القرآنية قامت الدعوة على مبدأين (١) الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال فيها بالتى هى أحسن (٢) عدم الإكراه فى الدين ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها .

والآيات التى تضمنت تقرير هذين المبدأين كثيرة جدا ، أوردنا وشرحنا كثيراً منها فيما سبق ، وسنورد جملة منها فى مباحث هذا الفصل ؛ ونكتفى بإيراد مايلى هنا :

١ - لا إكْرَاهَ فى الدِّينِ قَدْ تَبيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنْ باللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ... البقرة ٢٥٦

٢ - قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وما أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ...

يونس ١٠٨

٣ - ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ...

النحل ١٢٥

وأما من ناحية سير الجهاد ووقائعه فقد كانت ضمن المبادئ القرآنية ؛ فكل سرية أو بعث أو غزوة وقعت فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت ردا على عدوان وانتقاما منه ، أو دفعاً لأذى ، أو تنكيلا بناكث أو غادر ، أو تأديباً لبغاة أشرار ، أو ثأرا لدم إسلامى أهدر ، أو ضمانة لحرية الدعوة والاستجابة المهددتين أو المعطلتين بغياً وعدواناً .

ولا يمكن أن يكون قد وقع من النبي صلى الله عليه وسلم نقض للمبادئ التى قررها القرآن وبلغها النبي بطبيعة الحال ، والتى استمرت تترى فى الآيات القرآنية فى مختلف أدوار السيرة النبوية فى عهديها إلى آخرها ؛ ولقد وقع مرة أن حصل سوء تفاهم بين قائد إحدى السرايا وبعض العرب الذين أظهروا الإسلام أو المسالمة ، فظن القائد أنما كان ذلك خدعة فلم يقبل منهم وقتل بعضهم وغنم ماشيتهم ، فغضب النبى أشد الغضب ، ولم يلبث أن أوحى بآية قوية رائعة فيها عتاب على عدم قبول ظواهر الناس كما ترى فيها :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فى سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا ولا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا

فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنْتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ... النساء ٩٤

والمشركون كانوا يدخلون فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فشددت الآيات بالوفاء لهم ماداموا محافظين على عهدهم غير غادرين به ، كما أنه كان هناك مشركون يلتزمون الحياد والمسالمة فى حرب بين المسلمين وبنى قومهم، فنبه القرآن إلى أنه لاسبيل عليهم ، على ماتدل عليه آيات عدة أوردنا بعضها قبل قليل . ولم يرد فى الروايات خبر وثيق بأن النبي صلى الله عليه وسلم رفض طلب صلح أو عهد أمان من أعداء محاربين ، كما أنه لم يرد خبر بأنه قاتل أناساً مسالمين وحياديين دون سبب مبرر بدا منهم ، مما هو متسق مع المبادئ والتلقينات القرآنية التى لاشك فى أنه أشد المسلمين وأصدقهم تمسكا بها ، والتزاماً لها .

— ١٠ —

وعلى ماتقدم سنصنف الآيات على حسب النوعين الذين أشرنا إليهما ، وسيكون الفصل والحالة هذه مؤلفا من مبحثين :

الأول : الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس ، ومواقف المسلمين منها

الثانى : الوقائع الجهادية وسيرها ونتائجها .

# المبحث الأول

## الدعوة إلى الجهاد ومواقف المسلمين منها

الطريقة فى استعراض الآيات ـ آيات سورة الحج . مداها ـ مبادىء وأوامر وصور جهادية من سورة البقرة ـ سلسلة فى الحث على الانفاق فى سبيل الله ومبادئه وما فيها من صور ـ مبادىء وصور من سورة النساء ـ من سورة المائدة ـ من سورة الأنفال ـ من سورة براءة ـ من سورة محمد ـ مبادىء فيما يقع من قتال بين المسلمين من سورة الحجرات ـ مبادىء وصور من سورة الحديد فى موضوع الانفاق فى سبيل الله ـ مبادىء وصور من سورة الممتحنة ـ من سورة الصف ـ

ـ ١ ـ

إن آيات الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس متصلة بسياق واحد على الأكثر ، ولذلك فإننا سنورد الآيات متسلسلة على حسب ترتيب السور المدنية فى المصحف ، ونشرح مداها وما تنطوى عليه من مبادئ بدون تفريق ؛ ونريد أن نستثنى من هذا الترتيب آيات سورة الحج ٣٨ ـ ٤١ التى أشرنا إليها قبل قليل ؛ فإن هذه الآيات هى أولى الآيات التى نزلت فى مبادئ الجهاد على ماذهب إليه الجمهور وما يلهمه مضمونها وصيغتها ، وقد تضمنت مبدأ أساسيا من مبادئ الجهاد ، كما أن السورة مما اختلف فى مكيته ومدنيته وإن كان المتفق عليه أن الآيات مدنية .

والآيات صريحة الدلالة على اعتبار المسلمين فى موقف المظلوم المبغى عليه ، وتقرير حثهم على الانتصار والدفاع : وهذا هو أحد الحدود الأساسية للجهاد فى الإسلام كما أشرنا إلى ذلك فى التمهيد ؛ وجميع الآيات الجهادية ظلت فى نطاق هذا الحد كما أنه لا ريب فى أن النبى صلى الله عليه وسلم التزمه بدقة تامة .

ويلفت النظر فى الآيات إلى نقطتين جليلتى الشأن والتلقين المستمر ، أولاهما تعليل المبدأ وهو حق المبغى عليه بالدفاع ، وأن دفاع الناس عن أنفسهم وحريتهم ونضالهم فى سبيل دفع الأذى عنهم هو من السنن القويمة التى لابد منها فى حياة البشر والاجتماع ، وضمانة الحريات الدينية وغير الدينية ؛ وثانيتهما تقرير أن تمكين المسلمين المبغى عليهم فى الأرض ، ونصرهم على ظالميهم والمعتدين عليهم ، من شأنهما تيسير إقامة حكمهم

الصالح على أساس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مما ينطوى فيه جماع صفات هذا الحكم وضروراته.

وإليك الآن الآيات الأخرى المتصلة بهذا المبحث متسلسلة كما قلنا على حسب ترتيب سورها:

- ٢ -

(١) فى سورة البقرة الآيات التالية:

« ولا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ. ولَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ والْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَٰلِ والْأَنفُسِ والثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ الصَّـٰبِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْـهِ رَٰجِعُونَ. أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ورَحْمَةٌ وأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ... ١٥٤ - ١٥٧

وقد احتوت إعدادا للمسلمين لما يمكن أن يصابوا به من خسائر وآلام، وحثهم على الصبر والتحمل وتبشيرهم بالعاقبة، وطمأنتهم بأن الذين يقتلون فى سبيل الله أحياء مكرمون عند الله.

والآيات تلهم أنها نزلت عقب حادث صدام بين فريق من المسلمين وآخر من الكفار، وأن بعض المسلمين قد استشهد فيه، وأنه كان لذلك أثر مرير إلى حد ما فى نفوس بعضهم أو ذويهم، فاقتضت الحكمة نزول الآيات تستهدف ما قررناه من أهداف متصلة بمعنى الدعوة للجهاد والإعداد له، بهذا الأسلوب القوى النافذ إلى أعماق النفس.

(٢) وفى السورة نفسها الآيات التالية:

« وقَـٰتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. واقْتُلُوهُمْ (١) حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ

---

(١) الضمير راجع إلى « الذين يقاتلونكم ».

أَخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه فإن قتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص(١) فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين . وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ...

١٩٠ - ١٩٥

وقد احتوت أمراً للمسلمين بقتال الذين يقاتلونهم من الكفار ، وباعتبار ما كان من هؤلاء من فتنة المسلمين وأذيتهم واضطرارهم إلى الخروج من وطنهم بدءاً بالعداء يبرر للمسلمين قتالهم ، وقد نهت عن قتالهم عند المسجد الحرام أو فى الشهر الحرام إلا إذا بدأوهم بذلك ، إذ يصبح من حقهم المقابلة بالمثل ، كذلك احتوت حثا على الإنفاق فى سبيل الله ، وتحذيراً من البخل الذى يؤدي حتما إلى الخطر والتهلكة بإهمال الاستعداد لمقابلة البغى والعدوان .

وهذه المجموعة وإن كانت تحمل من حيث سبب نزولها المباشر طابعا محليا لأن المقصود فيها قتال مشركى مكة ، فإنها يصح أن تعتبر ثانى مجموعة احتوت مبادئ عامة فى الجهاد الإسلامى جليلة الشأن مستمرة التلقين . وما نزل من الآيات بعدها ظل ينزل فى نطاقها باستثناء تطور قليل فى مبدإ القتال فى الشهر الحرام والمسجد الحرام على ما سوف نشرحه بعد قليل . كما لا يمكن أن يكون محل شك ومماراة أن النبي التزمه بكل دقة أيضا .

ويلفت النظر خاصة إلى نقطتين مهمتين فى الآيات : أولاهما اقتصار أمر القتال على الذين يقاتلون المسلمين وعدم العدوان ، ومعنى هذا أن المسالم والحيادى والذين

(١) القصاص بمعنى الانتقام أو المقابلة بالمثل ، والآية تعني أن للمسلمين أن يقابلوا العدوان بمثله ، وفى الشهر الحرام إذا وقع عليهم فى الشهر الحرام .

لا يبدو منهم أى موقف مؤذ لا يصح قتالهم ، كما لا يصح للمسلمين أن يبدأوا أحداً بعداء أو عدوان ؛ وثانيتهما الحث على الإنفاق وعدم التعرض للخطر بالبخل ، وينطوى فى هذا احتمال امتناع العدو عن العداء والقتال فى حال ما إذا كان المسلمون يقظين مستعدين لكل طارئ ، وتقرير أن القتال ليس أصلا وإنما هو ضرورة يحسن أن تدفع بأيسر الأسباب وهو الاستعداد .

(٣) وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وهُوَ شَرٌّ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ . يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وكُفْرٌ بِهِ والْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ والْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ولا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ومَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فى الدُّنْيا والآخِرَةِ وأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا فى سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ... ٢١٦ - ٢١٨

وهذه المجموعة مثل سابقتها تحمل طابعا محليا من حيث سبب نزولها المباشر ، غير أنها تتضمن مبادئ عظيمة دائمة الإلهام والتلقين فى الجهاد الإسلامى ، فالقتال غير محبب للنفس ولكنه ضرورة لا مندوحة عنها للدفاع ، ومن أجل هذا كتب على المسلمين،أى فرض عليهم كركن من أركان الإسلام مع علم الله بكرههم له ؛ والحرية الدينية فوق كل شىء ، والاضطهاد الدينى أشد من القتال ، وهو سبب شرعى لإقدام المسلمين على الجهاد ، وكل ما قد يكون مقدسا من التقاليد هين فى سبيل ضمان تلك الحرية وقمع هذا الاضطهاد ؛ والذين يستهينون بحرمة المقدسات فيضطهدون غيرهم . ويحولون بينه وبين حريته الدينية ، ويفتنونه عن دينه فى ظل هذه المقدسات ، يقابلون

على عدوانهم وبغيهم دون أن يسمح لهم بالاحتماء بهذه المقدسات ، ولقد كان هذا مما بدا من مشركى مكة فى الشهر الحرام والمسجد الحرام ، فلا ضير على المسلمين فى مقابلتهم على بغيهم فيهما أيضا .

وهذه الفقرة الأخيرة هى التى عنيناها بالتطور القليل الذى نبهنا إليه فى الفقرة السابقة ؛ إذ نهت آيات المجموعة السابقة عن قتال المشركين عند المسجد الحرام وفى الشهر الحرام إلا إذا بدأوهم بذلك ، ومع ذلك فمضمون الآيات يلهم أن المشركين بما كان منهم من بغى وأذى ضد المسلمين فى العهد المكى دون أن يرعوا حرمة البيت الحرام والشهر الحرام ، قد اعتبروا بادئين بذلك .

ومما هو جدير بالتنبيه فى صدد هذه المجموعة وسابقتها ، ومجموعة سورة الحج ، أن كلا منهما قد احتوى تعليلا قويا ورائعا لما تضمنه من حث ودعوة وإذن ، شأنها فى هذا شأن كثير من المجموعات القرآنية التى احتوت أمرا ونهيا وتشريعا ، بل ترغيبا وترهيبا .

كذلك ننبه إلى أن المجموعات الثلاث تلهم أنها نزلت بمناسبة اشتباكات بين المشركين والمهاجرين المسلمين ، وأثير حول بعضها ضجة ، مما سوف نعود إليه فى مبحث الوقائع .

(٤) وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« وَقَـٰتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً واللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ... ٢٤٤ - ٢٤٥

وقد احتوت حثا على القتال والإنفاق فى سبيل الله ؛ ولقد أعقبها سلسلة من الآيات ٢٤٦ - ٢٥١ فيها قصة ما كان من بنى إسرائيل من بعد موسى ، ورغبتهم فى قيام ملك يقاتلون تحت لوائه انتصارا مما يقع عليهم من عدوان ، ثم ما كان من تردد أكثرهم وجبنهم ، وثبات فئة قليلة منهم وانتصارها على جالوت وجنوده تحت لواء طالوت [١] ، وانتهت بتبرير الحرب الدفاعية وأنها مانعة لاستشراء البغى والفساد فى الأرض ؛ وكل هذا قد يلهم أن الدعوة إلى الجهاد بالنفس والمال كانت تقضى ضرب الأمثال وإيراد القصص ، ليكون من ذلك حافز للمسلمين عامة والمخلصين

---

(١) جالوت تعريب جليات وطالوت تعريب شاؤول .

خاصة، وزاجر للمترددين والمقترين، ويتبادر لنا أنه ينطوي في هذا صورة لموقف بدا من بعض المسلمين إزاء الدعوة إلى الجهاد مما تكررت الإشارة إليه بصراحة أكثر في آيات أخرى.

— ٣ —

(٥) وفي السورة نفسها سلسلة رائعة في الحث على الإنفاق في سبيل الله وهي هذه:

« مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَاءُ واللهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ. الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنفَقُوا مَنًّا ولا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ومَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى واللهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ. يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَٰتِكُم بالْمَنِّ والْأَذَىٰ كالَّذِى يُنفِقُ مالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ولا يُؤْمِنُ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا واللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ. ومَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ الله وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فإن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ لَهُ فِيهَا من كُلِّ الثَّمَرَٰتِ وأَصَابَهُ الْكِبَرُ ولَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ. يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَٰتِ ما كَسَبْتُمْ ومِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ولا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ولَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إلا أَن

تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم . يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب . وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار . إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير . ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ... ٢٦١ - ٢٧٤

وفي هذه السلسلة كذلك تلقينات ومبادئ عامة مستمرة المدى ، إلى ما فيها من إلهام لسبب نزولها المباشر الذي ينطوي فيه صور عدة للمسلمين إزاء الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله ؛ إذ تدعم ماقلناه من أن الجهاد إنما كان يقوم على التطوع والتبرع ، كما تلهم أنه كان فريق من المسلمين ينفق بالليل والنهار سرا وعلانية استجابة للدعوة وابتغاء لمرضاة الله على حين كان فريق منهم يتثاقل في الاستجابة ، ويرفق ماينفقه بالمن وسوء الأدب في القول ، وفريق آخر يضن بأجود غلته ولا يتصدق إلا بالرديء منها ؛ وكذلك تلهم أنه كان هناك فريق فرغ نفسه للجهاد في سبيل الله وانقطع عن الضرب في الأرض واكتساب الرزق فمسته الحاجة والفقر ولكنه مع ذلك تعفف عن سؤال الناس ؛ أما المبادئ والتلقينات العامة التي احتوتها

فهى إيجاب الإنفاق فى سبيل الله دون من ولا أذى فى القول ولا مراءاة للناس ، والإنفاق من الغلات الجيدة دون الرديئة ، وتفضيل إخفاء الصدقات التى تعطى للفقراء على إعلانها ، وإيجاب القيام بأود الفقراء الذين يتفرغون للخدمة فى سبيل الله ويمنعهم ذلك عن التكسب ولو تعففوا عن السؤال والكشف عن عوزهم .

والآية ٢٧٢ خاصة تلفت النظر فى المبدأ الذى احتوته تلقينا والصورة التى تلهم أنها منطوية فيها واقعيا ؛ فمساعدة الفقراء واجبة لذاتها دون أى اعتبار ، ولا يصح لامرئ أن يمسك يده عنها ولو كان المحتاج على غير رأيه وملته وطريقته أو كان بينه وبينه ضغينة أو شنآن ؛ وهذا مبدأ رائع من حيث المعنى الإنسانى المجرد عن أى ملابسة ؛ ويبدو أن بعض المسلمين كانوا يمسكون أيديهم عن مثل هؤلاء فوردت الآية فى السلسلة لتكون مرشدة إلى أفضل الطرق وأكرم الخلال [1] ، ولتقرر أن المسلم إنما يفعل الخير لنفسه وابتغاء وجه الله ، والله يعلم نيته ويجزيه عليه .

- ٤ -

٦ - وفى سورة النساء الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا . وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا . فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَٰنِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا

---

(١) مما ذكره المفسرون والرواة أن الآية نزلت بمناسبة تردد بعض المسلمين فى التصدق على الفقراء من ذوى قرباهم من المشركين أو الكتابيين بقصد إرغامهم على الإسلام

مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا . الَّذِينَ ءامَنُوا يُقَـٰتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ والَّذِين كَفَرُوا يُقَـٰتِلُونَ فى سَبِيلِ الطَّـٰغُوتِ فقَـٰتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَـٰنِ إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَـٰن كانَ ضَعِيفًا ... ٧١ - ٧٦

وفى الآيات صورة لموقف فريق من المسلمين ـ نرجح أنه ليس من المنافقين ـ كان يجنح إلى التثبيط والتثاقل والتربص ، وصورة أخرى أشرنا إليها من قبل وهى صورة المستضعفين من المسلمين الذين لم يتمكنوا من الهجرة من مكة وظلوا تحت يد ذويهم الأقوياء واضطهادهم ، وكانوا شاعرين بشدّة وطأة الاضطهاد ، ويدعون الله أن يخلصهم ؛ وقد احتوت الآيات حثا للمسلمين على النفرة إلى القتال فى سبيل الله ثم فى سبيل إنقاذ هؤلاء المستضعفين الذين ينتظرون فرج الله ، وتنديدا بالذين يستثقلون الدعوة إلى هذا وذاك ، وتهويناً لأمر المشركين الذين إنما يقاتلون فى سبيل الباطل والشيطان على حين يدعى المسلمون إلى القتال فى سبيل الله ، والله قوى عزيز والشيطان ذليل ضعيف ؛ وروح الآيات تلهم أن الاستنفار إنما هو لقتال أعداء محاربين من جهة وصادين عن سبيل الله ومضطهدين للمستضعفين من جهة أخرى ؛ والأرجح أن هؤلاء المستضعفين كانوا يرسلون بأخبارهم إلى النبي وإخوانهم فى المدينة ويستغيثون ، فيزيد هذا فى اهتمام النبي والمخلصين فى اتخاذ الوسائل التى من شأنها إرغام مشركى مكة على الارعواء وعدم الاسترسال فى البغى والأذى .

والآيات إلى هذه الأسباب المتصلة بالواقع من عهد السيرة النبوية احتوت مبادئ مستمرة الإلهام والتلقين ؛ سواء فى إيجاب الاستجابة إلى دعوة قتال الأعداء دون توان أو تثاقل ، أو فى إيجاب العمل على تخليص المضطهدين من المسلمين وإنقاذهم ودفع الأذى والاضطهاد عنهم ؛ وفى الآيات تشجيع نافذ على الإقدام على الجهاد ، من شأنه أن يدفع بالمؤمن إلى تقبل كل تضحية فيه راضياً مطمئناً ، وأن يبعث الطمأنينة فى قلبه بنصر الله وتأييده .

(٧) وفى سورة النساء الآيات التالية أيضاً :

« أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وءاتوا

الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وقَالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنا القِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ولا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ ولَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَٰؤُلاءِ القَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ... ٧٧ - ٧٨

وقد احتوت إشارة إلى حادث شرحناه فى مبحث محنة الأذى فى العهد المكى ، وتنديداً بالذين استثقلوا تعجيل صدور الأمر الربانى بالقتال خائفين من العواقب الدنيوية ؛ وفيها صورة غير مستحبة لموقف بعض مسلمين - يرجح أنهم من غير المنافقين - من الدعوة إلى الجهاد ، ولعلها تلهم أن بعض المهاجرين اندمجوا فيه أيضا ؛ لأنها تحكى ما كان من استئذان فريق من المسلمين فى مكة بالمقابلة على الأذى وتصبيرهم ، وتقول إن فريقا منهم من الذين استثقلوا تعجيل الأمر بالقتال ؛ ولعل الذين اندمجوا فى هذا الموقف من المخلصين كانوا يرون أن قوة المسلمين ما تزال ضعيفة لا تقوى على فتح باب لا يغلق إذا فتح ، فعد هذا منه مما يستحق التنديد ، لأن المسلم المخلص يبيع نفسه فى سبيل الله ولا يبالى شيئاً آخر ؛ وعلى هذا يصح أن يقال بشىء من الجزم إن هذا الفصل القرآنى قد نزل فى أوائل الهجرة النبوية ، وعلى أثر تسيير النبى للسرايا ونزول آيات الإذن بالقتال والأمر به .

وفى الآيات تلقين مستمر المدى فى الحث على الجهاد وعدم التردد فيه ، وعدم الخشية من الموت والعواقب مادام فى سبيل الله .

(٨) وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« فَمَا لَكُمْ فِي المُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ واللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا . وَدُّوا

لوْ تَكفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكونُونَ سَواءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ولا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا ولا نَصِيرًا . إلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أوجاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ولوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وأَلْقَوْا إلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا . سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ ما رُدُّوا إلى الفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإنْ لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ...

٨٨ - ٩١

وقد احتوت الآيتان الأوليان ماكان من انقسام رأى المسلمين فى أمر المنافقين والموقف الذى يجب أن يقفوه منهم إذا لم يخلصوا ويتضامنوا مع المسلمين قلبا وقالبا ، على ماشرحناه فى فصل المنافقين ممالاحاجة إلى إعادته ؛ أما الآيتان الأخريان فقد احتوتا صوراً لمواقف غير المسلمين من النبى والمسلمين، إذ تلهمان أنه كان هناك أربع حالات لغير المسلمين إزاء المسلمين : حالة حرب وعداء ، وحالة ميثاق صلح وسلام ، وحالة رغبة اعتزال فريق منهم حرب المسلمين مع قومهم ووقوفهم موقف الحياد والمسالمة ، وحالة فريق مخادع يريد أن لايغضب قومه المحاربين ولا المسلمين حتى يأمن الفريقين معاً ؛ وقد احتوتا تقرير ما يجب على المسلمين إزاء كل حالة من الحالات : فالحرب للمحارب ، والوفاء للمعاهد ، والسلم للمسالم ، وعدم الطمأنينة للمخادع إلا إذا اعتزل القتال وجنح إلى السلم على وجه يدعو إلى الطمأنينة ، وقتاله إذا لم يفعل واعتباره عدوا محارباً ؛ والروعة والحق وبعد المدى فى هذا التقرير قوية مشرقة ؛ وفى الآيات مبادئ جليلة محكمة ظلت هى الناظم فى العهد النبوى لحركة الجهاد وأهدافه .

**(٩) وفى الآية (٩٤) التى نقلناها فى التمهيد من سورة النساء مبدأ جليل من مبادئ**

الجهاد الإسلامى فيه رد مفحم على من يزعم أن هذا الجهاد إنما كان وسيلة للغنائم ؛ وفيه أمر بقبول الظواهر من الناس دون تشدد ، بحيث يقبل السلام والإسلام من كل من يعلنه ، ويكف عنه ؛ وهو من المبادئ المحكمة المستمرة التلقين ؛ وهذا بالإضافة إلى مافيها من صورة واقعية من صور الجهاد ، وتصرف بعض المسلمين فيها تصرفا اقتضت الحكمة التشديد فى النهى عنه وحظره ، حتى لايشوب الجهاد الإسلامى شائبة لاتلائم أهدافه ودواعيه .

١٠ - وفى السورة نفسها هذه الآية :

« لا يَسْتَوِى الْقَـٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ والْمُجَـٰهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً وكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وفَضَّلَ اللهُ الْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى الْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ... ٩٥

وقد احتوت تمييزاً للمجاهدين على القاعدين بسبيل الحث على الجهاد ، واحتوت صورة لما كان عليه الأمر عند نزولها ، وهو اعتبار الجهاد فضيلة أو فرض كفاية لا يجب على جميع المسلمين ، والتساهل فى قبول أعذار المعتذرين عنه ، ثم كون الجهاد قائماً على التطوع والترغيب والترهيب ؛ ولما كان هناك آيات كثيرة فيها حملات شديدة على المتخلفين والقاعدين والمثبطين والمتثاقلين والمعتذرين ، وفيها أوامر حاسمة بالقتال والجهاد ، فإنه يصح أن يقال إن هذه الآية من أول ما نزل من آيات الجهاد ، وإن الآيات التى أشرنا إليها قد كانت بمثابة نسخ أو تعديل لها .

١١ - وفى السورة نفسها الآية التالية أيضاً :

« ولا تَهِنُوا فى ٱبْتِغَاءِ الْقَوْمِ إن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فإنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وتَرْجُونَ مِنَ اللهِ ما لايَرْجُونَ وكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ...

١٠٤

وقد احتوت حثا على الاستمرار فى مجاهدة العدو ، بأسلوب قوى التلقين دائم

المدى ؛ فإذا كانت الحرب مريرة فهى كذلك على المسلمين كما هى على أعدائهم ، مع الفارق العظيم بالنسبة للمسلمين الذين يقاتلون فى سبيل الحق والحرية وإعلاء كلمة الله ، ونفوسهم مطمئنة بحسن العاقبة مهما كانت ؛ والآية تلهم أن فريقا من المسلمين كان يشعر عند نزولها بمرارة الحرب وآلامها ، فاقتضت الحكمة الإيحاء بها لتكون معالجة نفسية لهذا الشعور .

- ٦ -

١٢ - وفى سورة المائدة الآيات التالية :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَٰلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ ... ٥٤ - ٥٦

وقد جاءت هذه الآيات عقب آيات شرحناها فى فصل المنافقين ووصف ما كان من استمساكهم بولائهم لليهود خشية الدوائر فيما يزعمون؛ وهى بمثابة تعقيب على موقف المنافقين ، كما احتوت تصويراً قويا لعلاقة الجهاد بالإيمان ، وحثا بليغا عليه ، وتقريراً بأن المتأخرين عنه ، الذين يخافون الناس والعواقب ، يوشك أن يكونوا فى عداد المرتدين ؛ ويبدو من خلالها صورتان واقعيتان : أولاهما تضامن المخلصين مع النبى فى الجهاد إذ عدوا حزب الله ، وطلب من عامة المسلمين التأسى بهم ، وتوليهم دون غيرهم ؛ وتلهم ثانيتهما وجود فريق من المسلمين لا يستجيب إلى دعوة الجهاد استجابة حسنة ، محتجا بأعذار لا تتمق مع الإيمان والإسلام الصحيح .

١٣ - وفى سورة الأنفال الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا

ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ . لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ... ٣٦ - ٤٠

ولقد نزلت سورة الأنفال عقب انتصار المسلمين فى بدر الكبرى ، فتكون هذه الآيات تعقيبا على ذلك الانتصار ؛ وقد انطوى فيها صورة ما لاستعلاء المسلمين وشعورهم بالعزة بعد ذلك الانتصار ، كما احتوت عرض الصلح والتوبة على الكفار ، والانتهاء من موقفهم العدائى والجحودى ؛ ولهذا العرض بعد ذلك الانتصار معناه الرائع القوىّ كما هو واضح ؛ سواء من ناحية الشعور بالعزة أو من ناحية الرغبة فى الحلم عند القدرة ، أو من ناحية الاستفادة من فرصة انكسار الكفار ؛ وقد احتوت الآية (٣٩) تقريراً لحدٍ رئيسى من حدود الجهاد فى الإسلام ، وهو قتال الأعداء المحاربين إلى أن تزول قدرتهم على الفتنة والصدّ عن سبيل الله ، أو ينتهوا عن موقفهم العدائى الباغى .

ومع خصوصية نزول الآيات المباشرة فإن ما احتوته من تقريرات مما يدخل فى سلك المبادئ الجهادية المستمرّة التلقين ، وخاصة هدف الجهاد الذى هو ردّ البغى ووقفه عند حدّ تضمن به حرّية الدعوة ، والتساهل مع من يجنح إلى الارعواء والانتهاء من موقف العداء والبغى .

— ٧ —

١٤ — وفى سورة الأنفال الآيات التالية أيضا :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ

عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ . وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ . وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ . وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ... ٥٥ - ٦١

إذ احتوت تعليما لما يجب أن يكون مع الناكثين للعهد ومع من يخشى غدره وخيانته من المعاهدين ؛ فالناكثون يجب أن يحاربوا ، ومن يخشى غدره وخيانته يجب أن يحذر ويقابل بالمثل ، ومع ذلك فإن جنح أولئك أو هؤلاء إلى السلم فيجب أن يجنح إليها معهم أيضا ، ومما يجب على كل حال أن يستعد للعدو بكل وسائل الاستعداد دونما تهاون أو بخل ، فى هذا إرهاب للعدو المعروف والعدو الماكر الذى لا تعرف حقيقة أمره قد يغنى عن الاشتباك .

وفى كل هذا مبادئ جليلة للجهاد الإسلامى وأهدافه متسقة مع ما نبهنا إليه من أن هذا الجهاد هو دفاع ومقابلة ، وتنكيل بغادر أو ناكث أو خائن ، وإرهاب للعدو ، وأن الأصل فيه أن يكون بقدرماتدعو الضرورة وحسب .

والآيات فى أصلها وسبب نزولها المباشر تتضمن ـ كما هو المستلهم من مضمونها وروحها ـ صوراً لواقع الحال فى العهد النبوى المدنى فوق ما تتضمنه من مبادئ وتلقينات جليلة مستمرة المدى ؛ إذ تلهم أنه كان ثمة كفار معاهدون لم يتورعوا عن نقض عهدهم مرة بعد مرة ، معاهدون تخشى خيانتهم ، وكما كان هناك أعداء متكتمون يتربصون الدوائر بالمسلمين زيادة على الأعداء العلنيين ؛ وهكذا تبدو صورة لما كان يحدق بالنبى والدعوة والمسلمين من أخطار ومكايد ، وما كانت

الحاجة والحكمة تقضيان به من اتخاذ الوسائل والاستعداد والحذر والإقدام فى سبيل دفع تلك الأخطار وإحباط هذه المكايد. ولقد ذكرنا فى فصل اليهود أنّ بعض هذه الصور متصلة بمواقف اليهود فى المدينة، فنكتفى هنا بالإشارة إلى ذلك.

١٥ - وفى سورة الأنفال أيضا الآيات التالية :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ . وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ... ١٥ - ١٦

٢ — يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَـٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ ... ٤٥ - ٤٦

وقد احتوت الأولى تشديداً بعدم التولى والفرار من المعركة حينما يتلاقى المسلمون مع الكفار الأعداء، إلا إذا كان هذا بسبب تدبير حربى، كما احتوت الأخرى حثا للمسلمين على الثبات أمام الأعداء وذكر الله إذ تمتلئ به نفوسهم قوة وطمأنينة، وأمراً بالطاعة لله ورسوله، وعدم التنازع لأن فيه الفشل والهزيمة. ومضمون الآيات وروحها يلهمان - على ما يتبادر - أنها نزلت أو نزل بعضها بمناسبة أخطاء أو مواقف خطرة أو غير مستحبة بدت من بعض المسلمين فى ظروف الوقعة، ولكن الله سلم فلم تكن ذات تأثير كبير فى المعركة ونتيجتها، فاقتضت حكمة التنزيل إنزالها لتكون معقبة ومنبهة للمسلمين السامعين من جهة، وتلقينا مستمر المدى للمسلمين فى كل آن ومكان من جهة أخرى.

١٦ - وفى سورة الأنفال أيضاً الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ

لا يَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فإنْ يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّٰبِرِينَ ... ٦٤ - ٦٦

وقد احتوت الآيتان الأولى والثانية أمراً للنبي بحث المسلمين على القتال ، وطمأنة لقلبه بكفاية من معه من المسلمين المخلصين ؛ وبشرى لهم باستطاعتهم أن يغلبوا عشرة أمثالهم من الكفار لأنهم يستمدون دونهم من إيمانهم واطمئنانهم بحسن العاقبة على كل حال، القوة والصبر والإقدام ؛ أما الآية الثالثة فيبدو أنها نزلت بعد الثانية بمدة ما ، وقد روى أن المسلمين خشوا أن تكون الآية الثانية تفرض عليهم مقابلة عشرة أمثال عددهم وعدم التولى والفرار من أمامهم ، فنزلت بالتخفيف .

والآيات مما نزل عقب وقعة بدر، مثل معظم آيات السورة ، وقد تلهم أن ما احتوته إنما هو ترديد لما كان من سير وقعة بدر ونتيجتها الباهرة ، إذ ثبت مع النبي المسلمون المخلصون من المهاجرين والأنصار وانسحب المنافقون ، وإذ قابلوا ثلاثة أمثالهم عدداً من كفار قريش ونصروا عليهم .

(١٧) وفي السورة نفسها الآية التالية أيضاً :

« إنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وهَاجَرُوا وجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وأَنفُسِهِمْ فى سَبِيلِ اللهِ والَّذِينَ ءاوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ والَّذِينَ ءامَنُوا ولَمْ يُهَاجِرُوا ما لَكُم مِّنْ وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وإنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فى الدينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... ٧٢

وهى تؤكد واقع الأمر من تبادل الولاء والنصر وإيجابهما بين الأنصار والمهاجرين دون الذين لم يهاجروا من المسلمين ، وتحتوى صورة أخرى من صور واقع الحال ، وهى وجود مسلمين متخلفين فى دار الكفر عن الهجرة واللحاق بدار الإسلام فى المدينة ، وكان تخلفهم بإرادتهم . وقد احتوت الآية تعليما للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار للموقف الذى يجب أن يقفوه منهم ؛ فليس عليهم أى واجب من ولاء أو تضامن مع المتخلفين فى الشؤون العادية ، مادام تخلفهم قد كان بإرادتهم وارتضوا

لأنفسهم الانفراد فى دار الكفر ، لأن هذا الواجب إنما هو بين المسلمين الذين جمعت بينهم وحدة الدار والجهاد ، وحفزهم إخلاصهم لدينهم إلى ترك دار الكفر ولو خسروا أموالهم ونأوا عن وطنهم وذوى أرحامهم ؛ أما إذا وقع على المتخلفين اضطهاد بسبب دينهم ، واستغاثوا بهم ؛ فعليهم أن يسرعوا إلى نجدتهم إذا لم يكن بينهم وبين المستنصر عليهم ميثاق وعهد ؛ أى أنه لاينبغى للمسلمين أن ينقضوا ميثاق عهد بينهم وبين الكفار حتى ولو اضطهد هؤلاء إخواناً لهم اضطهاداً دينيا فضلا عن الاضطهاد غير الدينى ! ومع أن من المحتمل أن يكون هذا التعليم قد استهدف حمل المتخلفين على الإسراع فى الهجرة ، فإن مافيه تشديداً على احترام العهود والمواثيق بالغ الروعة ، يدل على ماكان يستهدفه التنزيل القرآنى من ذلك الاحترام وترسيخه فى نفوس المسلمين؛ ولايمارى إلا مكابر فى أن النبي والمسلمين قد التزموا ذلك بكل دقة . وإطلاق الآية يجعل ما تضمنته من التعليم مستمر التلقين ببالغ روعته وعظيم مداه وهدفه كما هو واضح .

— ٩ —

(١٨) فى سورة التوبة الآيات التالية .

« بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ . وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ

وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ١ - ٥

ومعظم فصول سورة التوبة مما نزل فى أواخر العهد المدنى ؛ وهذه الآيات تلهم أنها مما نزل بعد الفتح المكى بمدة ما ؛ واستثناء المشركين المعاهدين الذين يظلون أوفياء لعهدهم دون ما كيد ولا نقض من البراءة ، والأمر بالوفاء معهم إلى مدتهم ، قرينة حاسمة على أن المقصود من البراءة المشركون المعاهدون الذين لم يفوا بعهودهم ، ونكثوا أوظهر منهم ختل وتلاعب فيها ؛ كما أنه قرينة حاسمة على أن الآية الأخيرة هى بصدد هؤلاء فحسب ؛ وليس معنى هذا أن مدى الأمر الذى احتوته لا يتناول المشركين المحاربين ، فإن الاستمرار فى قتال هؤلاء غرض أصيل لا يحتاج إلى أمر جديد بطبيعة الحال ؛ وهكذا يبدو من خلال الآيات أنه كان بعد الفتح المكى مشركون معاهدون موفون بعهدهم ، ومشركون معاهدون ناكثون فيها ، زيادة على المشركين المحاربين .

والآيات قد احتوت مبادئ بالنسبة للمشركين المعاهدين الموفين والغادرين ؛ فالغادرون يقاتلون باستمرار إلى أن يتوبوا ويرعووا ويسلموا ، والموفون يوفى معهم إلى مدتهم ؛ وحينئذ إما أن يتجدد العهد معهم أو يعودوا إلى الموقف الذى كانوا عليه قبل العهد وهو موقف المحارب المعتدى ؛ ومما لاريب فيه أن هؤلاء هم على بينة من هذا الأمر ، وأنهم يعرفون أن الميثاق القائم بينهم وبين المسلمين إنما هو ميثاق هدنة سلم وصلح موقوتة الأجل ؛ ومما لاريب فيه أن هذه المبادئ هى التى كانت ناظماً للموقف بين المسلمين والمعاهدين ، كما أنها غدت تشريعاً مستمر المدى .

ولقد يرد سؤال عما إذا كان مبدأ قتال المشركين المحاربين أو المعاهدين الناكثين منهم إلى أن يسلموا لم يأت ناسخاً أو معدلا للمبادئ والتقريرات القرآنيـة السابقة من أنه لا إكراه فى الدين ، ومن أن غاية الجهاد هى رد بغى المشركين وعدوانهم إلى أن ينتهوا عن موقفهم وتتوطد حرية الدعوة والمسلمين ؟

ومع أن عبارة الآية الرابعة قد تتحمل هذا المدى فإن المتبادر من روح ومضمون الآيات جميعها أنها لم تلغ مبدأ التعاهد ، فضلا عن أنها لم تلغ مبدأ عدم قتال المسالمين والحياديين وغير المحاربين ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فما دامت الحرب مع

المشركين قد كانت فى أصلها ردا على عدوان ، ومقابلة على بغى وصد وأذى ، وما دام استئنافها مع المعاهدين الناكثين إنما كان بسبب هذا النكث الذى يتضمن معنى العدوان والبغى أيضاً - فليس مما يتحمل نقداً أو مماراة أن يكون المسلمون فى الخيار بحيث لا يقبلون منهم عهدا ، أو بالأحرى بحيث لا يطمئنون إلى عهد جديد منهم ، ولا يرون ضمانة إلا إسلامهم وانتهاءهم من موقف المحارب المناوئ والخائن المتربص . وفى آيات أخرى قريبة من هذه الآيات سنوردها بعد تدعيم قوى لما نقول .

ولقد قلنا إن الآيات تلهم أنها نزلت بعد الفتح المكى ، استلهاماً من الآية الثالثة التى تلهم أن البراءة أو الأذان قد أذيع يوم الحج الأكبر ، وطبعاً لا يمكن أن يكون هذا إلا إذا كان المسلمون هم أصحاب الأمر فى الحج . وقد أيدت الروايات هذا ، وذكرت أن البراءة أذيعت فى السنة التاسعة التى تولى فيها إمارة الحج أبو بكر الصديق رضى الله عنه بأمر النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وفى هذا وتؤيده الآيات صورة من العهد ، إذ يبين منها ماصار إليه الإسلام من قوة ونفوذ بعد الفتح . وفيها إلى ذلك صورة لقوة وصدق المبادئ القرآنية إذ استمر القرآن يحث على الوفاء من ناحية ، ويشجع على التوبة ويعد بالعفو عما سلف من ناحية مع ماصار للمسلمين من قوة بأس ، وعزة جانب ، وشيوع سلطان وكلمة ؛ وفيها أيضاً صورة ثالثة وهى أن المعاهدين الذين ظلوا أوفياء والمعاهدين الناكثين من المشركين هم غير أهل مكة الذين خضعوا لسلطان الإسلام ودانوا به عقب الفتح ؛ وقد روت الروايات أسماء قبائل من العرب فى منطقة مكة ، ونرجح أن فيهم أهل الطائف التى لم يتمكن النبى من فتحها حينما حاصرها عقب الفتح والتى لم تكن فتحت حينما نزلت الآيات بالبراءة على الأرجح .

ولما كانت الآيات قد نزلت كما قلنا فى أواخر العهد المدنى أو قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بنحو عام فقد صح أن يقال إن حرمة الأشهر الحرم وتحريم القتال فيها قد ظلا من المبادئ القرآنية المكررة : وكل ما صار من أمر هو تحليل القتال فيها ضمن الرخصة والضرورة اللتين ذكرتا فى آيات البقرة ١٩٤ و٢١٧ على ماشرحناه فى مطلع هذا المبحث .

١٩ - وفى سورة التوبة الآية التالية أيضاً :

« وإنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ... ٦

وهى تأمر النبى صلى الله عليه وسلم بإجارة من يريد أن يأتى إليه ويسمع منه ، وبإعادته إلى مأمنه سالماً ؛ وقد روى أن بعض المشركين الذين كانوا يودون الوفادة على النبى صلى الله عليه وسلم تخوفوا من البراءة التى أذيعت يوم الحج الأكبر وذكروا ذلك لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، فنقله إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فنزلت الآية ؛ وليس فى الرواية مالا يتسق مع مدى الآية ؛ وهكذا يكون قد انطوى فى الآية صورة لما صار إليه أمر المسلمين من قوة وعزة وهيبة ، ولما صار ينبثق فى نفوس العرب من رغبة فى الوفادة على النبى صلى الله عليه وسلم والاستماع إليه بعد أن انهدم الستار الكثيف بينهم وبينه بالفتح المكى .

٢٠ - وفى سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا ولا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ . ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ ماكَانُوا يَعْمَلُونَ . لا يَرْقُبُونَ فى مُؤْمِنٍ إِلًّا ولا ذِمَّةً وأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فى الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وإن نَّكَثُوا أَيْمَٰنَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وطَعَنُوا فى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَٰنَهُمْ وهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ...

٧ - ١٦

وفى هذه الآيات تدعيم لما قررناه قبل قليل ، وتنظيم للموقف الذى وجب على النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن يقفوه من المشركين المعاهدين ؛ فالذين لا يبدو منهم للعهد إخلاص خالص من كل شائبة كيد وغدر ، هم فى الحقيقة أعداء للمسلمين ، يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم خداعاً ، وهم المعتدون والصادون فى الأصل عن سبيل الله ، ولا يمكن أن يكونوا موضع ثقة واطمئنان إلا إذا تابوا عن شركهم وغدرهم وأسلموا وقامت أخوة الدين بينهم وبين المسلمين . وفى الآيات صور لواقع الحال إذ تلهم أنه كان هناك معاهدون مريبون فى تصرفاتهم ، ومعاهدون من منطقة المسجد الحرام لم يبد منهم أمارات نكث صريحة فأوجبت الآيات الوفاء لهم ماداموا موفين بالعهد للمسلمين ، أما إذا نكثوا وعادوا إلى بغيهم وصدهم فقد وجب عدم التوانى فى قتالهم لاسيما أنهم كانوا أعداء محاربين للمسلمين قبل العهد ، وهم الذين بدا منهم مابدا من بغى وصد واضطرار النبى إلى الخروج ...

ولقد تلهم الآيات أنها نزلت قبل الفتح المكى ، وأن المقصود بالمعاهدين عند المسجد الحرام أهل مكة ومن دخل فى صلحهم فى عهد الحديبية ، كما تلهم أنهم وإن لم تبد منهم أمارات نكث صريحة فإن هذا مما كان متوقعاً منهم . واحتمال نزول الآيات قبل الفتح وبالتالى قبل الآيات التى سبقتها من السورة ، يجعل التدعيم الذى أشرنا إليه للآيات التى نزلت بعد طبعاً ، والحالتان سواء ، لأن كلتا المجموعتين تدعم الأخرى كما هو المتبادر ؛ كما أن ذلك الاحتمال يجعل الصور التى تحتويها كل من المجموعتين مستقلة عن الأخرى ، وإن كانت متشابهة ؛ بحيث يصح أن يقال إنه كان

قبل الفتح معاهدون من المشركين مريبون ، ومعاهدون متظاهرون بالوفاء ؛ وإنه كان بعد الفتح أيضاً مثل ذلك ؛ وقد جاء التنظيم القرآني واحداً لكلا العهدين ، وهو الوفاء للموفين ، والتنكيل بالناكثين والمريبين ؛ والحض على قتال الناكثين قوى ، وفيه معالجة روحية امتزجت بشيء من العتاب والإنذار ، وينطوي في هذا صورة من صور موقف المسلمين من الدعوة إلى القتال ، إذ تلهم صيغة الآيات ١٣ - ١٦ أن بعض المسلمين كانوا يترددون في الاستجابة إلى داعي الجهاد ويتخوفون عواقبه ، ولعل هذا مما يقوى ما أشرنا إليه من أن أهل مكة هم المقصودون ، وأنه كان يتوقع منهم نكث صريح للعهد القائم بينهم وبين المسلمين . وسنورد بعد هذا آيات تقوى هذا الاستنتاج أيضاً .

٢١ - وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَـٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَـٰسِقِينَ ... ٢٣ - ٢٤

والمتبادر أن النهى الشديد الوارد في الآيات موجه إلى المهاجرين ، وأن الآيات نزلت قبيل الفتح المكي ؛ ويمكن أن تلهم أنها نزلت في ظروف أخذت تبدو فيها أمارات النكث بصلح الحديبية صريحة من أهل مكة ومن دخل في صلحهم ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يتهيأ لغزو مكة ويدعو إليه ؛ وفي هذا تدعيم للاستنتاج الذي استنتجناه في آخر الفقرة السابقة .

والآيات تدل من جهة أخرى على أن بعض المسلمين المهاجرين كانوا يقاسون أزمات نفسية في اضطرارهم إلى الوقوف من ذوي قرباهم موقف العداء ، وأن بعضهم كان رغم إخلاصه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الاستشعار لصلة الرحم ما في ذلك من ضرر للمصلحة العامة ، وأن بعضهم كان يفعل ذلك محافظة على مع

ما له من مصالح مادية فى مكة ؛ ولعل هذا مما يفسر لنا سبب شدة الآيات، ليكون الأمر محسوماً ومأمون الخطر ، لا سيما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على أهبة غزو مكة . وفى الآيات صورة لواقع الحال قبل الفتح ؛ إذ كان لبعض المهاجرين المسلمين آباء أو أبناء ما يزالون كفاراً فى مكة مندمجين مع أهلها فى موقف العداء من النبي والمسلمين وآبائهم وأبنائهم المهاجرين معه .

ولقد يتوهم البعض أن فى نهي الأبناء المسلمين عن اتخاذ آبائهم أولياء شيئاً من التطور أو التناقض ؛ إذ حثت الآيات المكية الأبناء المسلمين على حسن معاشرة آبائهم الكفار وعلى صحبتهم مع عدم طاعتهم فى أمر الكفر والشرك ، كما جاء فى آيات لقمان ١٤ - ١٥ والعنكبوت ٨ التى نقلناها فى مناسبة سابقة ؛ غير أننا لا نرى محلا للتوهم ، لحسن المعاشرة أو الصحبة شيء ، والتولى والتناصر شيء آخر ، لا سيما أن الحالة حالة حرب وعداء .

٢٢ - وفى سورة التوبة أيضاً الآية التالية :

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ... ١١١

وقد احتوت تقرير مبدأ إسلامى جهادى رائع وعام من الناحية الإيمانية ، وهو أنه حينما يؤمن المسلم يكون كأنه باع نفسه وماله لله ، وأن الله يكون اشترى ذلك منه بالجنة ؛ وبمعنى آخر: إن المؤمن لا يكون مؤمناً حقا إلا إذا أقدم بنفس طيبة على الجهاد بماله ونفسه حينما تدعو مصلحة الإسلام والمسلمين . وقد احتوت الآية طمأنة عظيمة للمسلمين ليقدموا على إجابة داعى الجهاد بكليتهم .

ولقد نزلت الآية فى ظروف غزوة تبوك وحين أوبة الحملة من الرحلة إلى المدينة كما يستلهم من سياقها ، وقد يكون فى هذه الظروف ما اقتضت الحكمة معها نزولها للتنويه بجيش المؤمنين الجرار الذي اشترك فى الحملة وإقدامهم وحسن استجابتهم ،

ولهذا صلة بمشاهد السيرة النبوية الجهادية كما هو واضح .

٢٣ - وفى السورة نفسها كذلك الآيات التالية :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ . ما كان لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ومَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللهِ ولا يرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ فى سَبِيلِ اللهِ ولا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكُفَّارَ ولا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . ولا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً ولا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ ... ١١٩ - ١٢١

وهذه الآيات مثل الآية السابقة نزلت فى ظروف غزوة تبوك وحين أوبة الحملة من الرحلة إلى المدينة ؛ وقد احتوت عتاباً ما للذين تخلفوا أوحدثتهم أنفسهم بالتخلف عن الحملة من مخلصى المسلمين من سكان المدينة والأعراب ، لما فى ذلك من دلالة عدم التضامن والوهن لقوة الإسلام ؛ كما احتوت حثا لعامة المسلمين على تقوى الله والتضامن مع الطبقة الأولى من المؤمنين الصادقين الذين تضامنوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى الحملة وتجهيزها بكليتهم ؛ وفى هذا وذاك صلة بمشاهد السيرة النبوية الجهادية كما هو واضح ، فوق ما فى الآيتين من تلقين مستمر المدى بعدم تخلف المسلمين فى أى وقت عن الاستجابة إلى داعى الجهاد ضد أعدائهم ، وبوجوب تضامنهم مع دعاة الجهاد منهم ، وببث الطمأنينة فيهم .

٢٤ - وفى السورة نفسها الآية التالية :

« وما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ ولِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ... ١٢٢

وقد احتوت الآية مبدأ من مبادىء الجهاد الإسلامى وصورة لواقع الحال فى العهدالنبوى ؛ والمبدأ هو أن نطاق النفرة إلى الجهاد ينبغى أن يكون على حسب الضرورة ، وأنه ليس من الضرورى أن ينفر إليه جميع المسلمين بل يكفى أن يشترك فيه جميع فئاتهم ومناطقهم بفصائل أو فرق بقدر ما تقتضيه تلك الضرورة ؛ أما الصورة فهى بسبيل توكيد أن الجهاد فى العهد النبوى كان تطوعيا وليس إلزاميا . ولعل المبدأ مما سوغ للعلماء أن يقولوا إن الجهاد فرض كفاية ، إذا اشترك فيه فريق سقط عن الباقى ، وإن لم يقم به أحد أثم الكل ؛ غير أننا نرى أن يزاد إلى هذا وجوب الاشتراك بقدر ما تقتضيه المصلحة والضرورة ، لا بمجرد الاشتراك ؛ إذ يكون هذا غير مجز وإذن لا يرتفع الإثم عن القاعدين .

والآية مما نزل عقب الأوبة من غزوة تبوك على ما يلهمه سياقها السابق ولقد روى فى صددها أن المسلمين بعد أن سمعوا التقريع القرآنى الشديد فى حق المتخلفين والمعتذرين القاعدين اعتزموا تجنب ذلك ، وأخذوا يسارعون إلى استجابة الدعوة بغض النظر عما كان لهم من أعذار وأسباب مانعة مشروعة ، فكان فى ذلك مشقة كبرى خففتها عنهم الآية . ومضمون الآية مما يلهم صحة الرواية ، ولعل هذا كان منهم حينما استنفر النبى صلى الله عليه وسلم إلى غزو البلقاء وأخذ يجهز من أجل ذلك جيش أسامة بعد عودته بقليل من تبوك ؛ وهكذا تكون الآية قد احتوت أيضا صورة لرد فعل التقريع القرآنى فى عامة المسلمين .

(٢٥) وفى السورة نفسها الآية التالية أيضا :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ... ١٢٣

وقد قيل فى صددها إنها نزلت مبكرة ثم نسخت بفقرة «وقاتلوا المشركين كافة» الواردة فى الآية ٣٦ من سورة التوبة : ويبدو هذا القول غريباً ؛ ولعل الأمثل أن تكون قد جاءت عقب الآية السابقة لتقرير مبدأ آخر من مبادئ الجهاد الإسلامى من الناحية التنظيمية ، وهو عدم توزيع المسلمين قواهم ، ومقاتلة الأقرب فالأقرب إليهم من الكفار وعدم الهوادة معهم ، أو مقاتلة كل صقع إسلامى من فى منطقته منهم ؛ وإن

كنا نرجح الأول. ونعتقد أن الآية إنما تدعو إلى قتال الكفار الأعداء فى نطاق الأصل والمبادئ القرآنية ، وليست هى بسبيل تعميم القتال لكل كافر حياديا كان أو معاهداً أومسالماً أو عاجزاً ...

وعلى كل حال فإن الوقائع الجهادية النبوية قد سارت على الأسلوب الأول الذى استلهمنا أن الآية قد أشارت إليه ، إذكان يقاتل الأقرب فالأقرب من أعداء الإسلام البغاة والمعتدين ، فلايشتغل بأناس حتى يكون آمناً أوفارغاً من غيرهم ، وهذا ما كان فى غزوتى خيبر وتبوك ، ووقائع بنى قينقاع والنضير وبنى قريظة ، مما مر تفصيله ، وما كان فى غيرهما مما سوف نلم به بعد ، وحكمة هذه الخطة فى غنى عن التعليق ، ولعل فى هذا ما يقوى استلهامنا من الآية.

- ١٠ -

(٢٤) وفى سورة محمد التى تسمى أيضا سورة القتال الآيات التالية :

« الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ . والَّذِينَ ءامَنُوا وعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وءامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَٰطِلَ وأَنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ . فإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ ولَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ ولَٰكِن لِّيَبْلُوا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ والَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ ويُصْلِحُ بَالَهُمْ . ويُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ... ١ - ٧

وقد احتوت الآيات حثا قوى الأسلوب على الجهاد ، والشدة فى القتال مع الكفار

إذا ما صار اللقاء بينهم فى المعركة والإثخان فيهم ؛ وتعبير « وصدوا عن سبيل الله » و « إذا لقيتم » قرينتان حاسمتان على أن الحث ليس على قتال الكفار إطلاقاً ، بل على قتال الذين صدوا عن سبيل الله واضطهدوا الناس ومنعوهم عن الإسلام منهم ، والذين كانت حالة الحرب قائمة بينهم وبين المسلمين . وقد احتوت تقريراً لمبدإ تشريعى للأسرى كان من دون ريب ناظماً لتصرف النبي فيهم ، فضلا عن أنه ناظم تشريعى عام : إذ جعل أمر الأسرى للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن تنتهى المعركة ، فإما أن يسرحهم عفواً ومنا بدون فداء ، وإما أن يستوفى منهم الفدية ويسرحهم ؛ ومما يلفت النظر أنه ليس فى هـذا المبدإ استرقاق للأسرى مع أن بعض الروايات ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى استرقاق سبي هوازن ، وأنه استرق سبي بنى قريظة وباعه ؛ وعدم احتواء المبدإ القرآنى تشريع الاسترقاق يجعلنا نتوقف فى التسليم بالروايات ، إلا أن يكون ما ذكرته - إذا صحت - كان قبل نزول الآية ومن قبيل الاجتهاد المستمد من العرف العام السائد فى عصر النبي وفى مختلف البيئات ، أو من قبيل التفسير النبوى لما سكتت عنه الآية ، وهو مصير الذين لا يطاق سراحهم منا ولا يفتدون أنفسهم .

وفقرة « ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض » تلهم أنه كان يحيك فى نفوس بعض المسلمين أمنية ، وهى أن يسحق الله الكفار البغاة دون ما حاجة إلى اشتباك المسلمين معهم فى حرب يتحملون آلامها وشدائدها ؛ فردت الآية معللة بأن الاشتباك إنما هو اختبار لهم ؛ وفى هذا على كل حال صورة طريفة لحالة واقعية إزاء الجهاد والدعوة إليه .

٢٥ — وفى السورة نفسها الآيات التالية :

١ — وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ... ٣١

٢ — فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ... ٣٥

وقد احتوت الأولى تقرير أن الحرب مع الكفار هى ابتلاء للمسلمين ليتميز منهم المجاهدون والصابرون عن غيرهم ؛ وهذا التقرير مشابه لما قررته الفقرة التى نوهنا بها آنفاً ، ودال على أن التردد الذى كان يحيك فى نفوس بعض المسلمين ظل يبدو أثره ، فاقتضت الحكمة توكيد التعليل للطمأنينة .

وقد احتوت الآية الثانية نهياً للمسلمين عن الضعف والتوانى فى الجهاد والجنوح إلى السلم إيثاراً للعافية ، وقد يلهم هذا أنه كان يبدو على فريق من المسلمين - ولعله الفريق الذى تضمنت الآية الأولى والفقرة التى نبهنا إليها الإشارة إليه - توان فى الاستجابة إلى داعى الجهاد ، ورغبة فى مسالمة الكفار ؛ وأسلوب الآيات يدل على أن هذا الفريق ليس من المنافقين ، فاحتوت تحذيراً ونهياً رقيقين ، وحفزاً وتثبيتاً نافذين ، وهما فى الوقت نفسه مستمرا التلقين والإلهام فى الظروف والمواقف المماثلة .

٢٦ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

« إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ . إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ[1] تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ . هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَـٰلَكُمْ ... ٣٦-٣٨

والآيات تستهدف تهوينا للمادة وتنديداً بالبخل والبخلاء ، وتقرير أن البخل إنما يضر صاحبه ، وحثا ضمنيا على الإنفاق فى سبيل الله ؛ وهى إلى ما فيها من تلقين قوى مستمر المدى تتضمن كما يتبادر ما يلهم أنه كان يبدو من فريق من المسلمين شح وقبض يد ، وتردد فى الاستجابة السريعة السمحة إلى دعوة الجهاد بالمال ؛ ويبدو أن هذا مما كان متمكنا وكثير الشيوع بحيث اقتضت الحكمة أن تكون الآيات بالأسلوب الذى جاءت به .

---

(١) فيشدد عليكم فى التكليف .

## - ١١ -

٢٧ - وفى سورة الحجرات الآيات التالية :

« وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ...

٩ — ١٠

والآيات ليست فى صدد الجهاد الإسلامى ضد الأعداء ، غير أنها احتوت مبدأ جليلا فى تنظيم الموقف بين المسلمين فى حالة اقتتال فريق مع آخر منهم ، مما يلهم أنها نزلت فى ظرف حادثة واقعية من مثل ذلك ؛ وهذا ما يجعل المناسبة قائمة لإيرادها فى هذا المبحث .

ولقد احتوت الآيتان تعليما تام الأركان رائع المدى بشأن مايقوم من نزاع وقتال بين فريقين مسلمين ، موجهاً إلى فريق ثالث ليس طرفا فى النزاع ، وموجبا عليه ألا يقف منه موقف الساكت المتفرج ؛ بل يسارع إلى فضه وإقامة الصلح والسلام بين المسلمين ، وإحقاق الحق لأهله بدون محاباة ، ونصرة المظلوم المبغى عليه بالسلاح إذا لم يرتدع الظالم ويقف عند الحق والعدل وحدود الله .

ومما روى أن الآيتين نزلتا بمناسبة نزاع بين عائلتين متصاهرتين انتهى إلى الاقتتال ، وهو ماتلهمه الآيتان ، وفيه صورة متصلة بمشاهد وقائع المسلمين فى أثناء السيرة النبوية ، غير أن أسلوبهما المطلق التشريعى يجعل ما احتوتاه مما يتسع لأمور أعظم وأعم ؛ ولقد يكون من ملهمات تطبيقهما احتمال قيام حكومات إسلامية عدة ، ووجوب قيام الأخوة والتضامن والاتحاد بينها ، وإقامة العلاقات بينها على أساس العدل والحق والأخوة ، فإذا ما نشب خلاف وقتال بين حكومتين منها وجب على سائرها التدخل لحل المشكل على ذلك الأساس ، والتضامن فى فرض قبول المحق على المبطل

ولو أدى ذلك إلى قتاله . وإذا لاحظنا أن مثل هذا النظام هو أسمى الأمانى التى يتوق إلى تحقيقها العالم ويرى أن السلام والحق لا يتوطدان إلا بها ؛ بدا لنا ما فيه من جلالة وروعة وخطورة .

- ١٢ -

٢٨ - وفى سورة الحديد الآيات التالية :

« وما لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فى سَبِيلِ اللهِ وللهِ مِيرَاثُ السَّمَٰوَٰتِ والْأَرْضِ لا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وقَٰتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وقَٰتَلُوا وكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُ لَهُ ولَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ... ١٠ - ١١

ويبدو من خلال الآيات أنها نزلت بعد الفتح المكى ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قد وسّع دعوته إلى الإنفاق والجهاد حتى يتمكن من التنكيل بأعداء المسلمين وتوطيد السبيل إلى نشر كلمة الله على أوسع ما يكون بعد أن زال العائق المهم وهو مكة ، كما يبدو أيضاً صورة واقعية لفريق من المسلمين لم يستجيبوا استجابة سمحة وكافية للدعوة ، ولم يعطوا إلا القليل محتجين بالزهيد الذى كان ينفقه المسلمون قبل الفتح ؛ فاقتضت الحكمة الإيحاء بها منددة معاتبة ، ومبينة للفرق العظيم بين ما قبل الفتح وبعده ، منوهة بفضل الذين استجابوا إلى دعوة الجهاد بالنفس والمال قبله مهما كان نطاق ذلك ، وحافزة لهمم اللاحقين . وهكذا تكون الآيات قد احتوت - بالإضافة إلى ما احتوته مما ذكرناه - مبدأ مستمر التلقين بتفضيله المقدمين فى الأزمات واشتداد الأخطار .

٢٩ - وفى السورة نفسها الآيات التالية :

١ — إنَّ الْمُصَّدِّقِينَ والْمُصَّدِّقَٰتِ وأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ ولَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . والَّذِينَ ءامَنُوا بِاللهِ ورُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ

والآية (٧) خاصة تلهم صحة ماذكرناه مما كان يعتلج فى نفوس بعض المهاجرين من أزمات ، وتستهدف ـ فيما هو المتبادر ـ تهدئتها ، إذ تطمئنهم باحتمال انقلاب أولئك الأعداء أصدقاء ، وتبدل العداء بالمودة ؛ والآية (٨) قد استهدفت حل المشكلة حلا ما زيادة فى التوسعة والتهدئة وذلك بإباحة البر والقسط للمسالم الحسن النية ، وتقوية الحجة على الضارين المؤذين . وهكذا يبدو واضحاً أن الآيات متصلة بمشاهد السيرة النبوية ، ومعالجة الحالات النفسية وغير النفسية التى كانت تبدو فى ظروفها ، ومع خصوصية الآيات ففيها من دون ريب تلقين مستمر المدى ، ومبدأ محكم جليل من المبادئ التنظيمية للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين ، يظل خالد الروعة على مر الدهر .

## — ١٤ —

(٣١) وفى سورة الصف الآيات التالية :

١ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مالا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مالا تَفْعَلُونَ . إنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ . ٢ - ٤

٢ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ باللهِ ورَسُولِهِ وتُجَٰهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُم خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ويُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَٰرُ ومَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وفَتْحٌ قَرِيبٌ وبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِى إلَى اللهِ قالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَـَٔامَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَٰءِيلَ وكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَٰهِرِينَ ... ١٠ - ١٤

فالآيات الاولى تتضمن صورة لموقف بعض المسلمين فى عدم تأييدهم قولهم بالفعل فى الجهاد ، وعدم استجابتهم للدعوة إليه والتضامن فيه استجابة شافية ، كما أنها تلهم أن هذا الموقف قد أثار أزمة شديدة فى نفس النبى والمخلصين ؛ بل إن الإطلاق فيها ليلهم أن هذا الموقف لم يكن حادثا فرديا بل كان مما يتكرر حدوثه ، الأمر الذى يلهم ما تكرر من الآيات المنددة حينا والحاثة حيناً ، مما أوردناه فى بعض فقرات هذا المبحث .

والآيات الأخرى احتوت عودا على بدء فى الحث على الجهاد بأسلوب آخر فيه قوة وفيه بشرى وليس فيه ذلك العتاب المرير ، وفيه كذلك تمثيل بموقف الحواريين من عيسى عليه السلام ، حفزاً لهمم المسلمين ودعوة للتأسى بهم ، وقد يبدو أن ما انطوى فى الآيات الأولى من صورة قد كانت شديدة الأثر بحيث اقتضت الحكمة العودة إلى الموضوع بهذا الأسلوب فى السورة نفسها .

والآية (١٣) وإن تكن تعد بالنصر والفتح ، مما اتخذه بعض المغرضين وسيلة إلى القول بأن الغنيمة كانت هدفاً من أهداف الجهاد النبوى والإسلامى ، فإن مما يجدر التنبيه إليه أن هذا الوعد لم يكن هو الرئيسى فى الآيات ، وإنما جاء تالياً ؛ على أن النصر والفتح لايعنيان الغنائم أو الغنائم فحسب كما هو واضح فوق أن هذا مما يتسق مع طبائع الأمور وحقائق الأشياء ، وليس فيه ما يتحمل غمزاً ولا نقداً مادام داعى الجهاد هو رد البغى والدفاع ، وتوطيد حرية الدعوة والدين .

# المبحث الثانى
# فى الوقائع الجهادية

طريقة استعراض الآيات والصور - صور من سورة البقرة للاشتباكات الجهادية الأولى بين المشركين وللمهاجرين - صورة قرآنية لوقعة بدر وظروفها ونتائجها - خلاصة الروايات عنها - تعليقات متنوعة - صورة قرآنية لوقعة أحد وظروفها ونتائجها - خلاصة الروايات عنها - تعليقات متنوعة - تعليق على ترتيب سورتى الحشر والأحزاب - صورة قرآنية لوقعة الخندق وأثرها ونتائجها - خلاصة الروايات عنها - تعليقات متنوعة - صورة قرآنية لوقعة الحديبية وظروفها ونتائجها - خلاصة الروايات عنها - تعليقات متنوعة - صور قرآنية لأحداث متصلة بصلح الحديبية - الاشارات القرآنية الغامضة فى القرآن إلى فتح مكة - خلاصة الروايات عنه - تعليقات متنوعة - صورة قرآنية ليوم حنين - خلاصة الروايات عنه - مدى حظر دخول المسجد الحرام على المشركين الوارد فى القرآن وصلته باسلام أهل الطائف - صورة قرآنية لسلاح الشعر فى الجهاد .

— ١ —

سنستعرض فى هذا المبحث الفصول القرآنية التى تنطوى - على حسب ما تبادر لنا وذكره الرواة والمفسرون - على وقائع جهادية، سواء منها المهم والثانوى ، على حسب ترتيب وقوع هذه الوقائع الذى تواترت الروايات عنه وأيدته روايات ترتيب النزول أيضا . وقد رأينا أن نكمل الصور القرآنية لكل وقعة ذكرت فى القرآن بإسهاب أو اقتضاب أو إشارة بالروايات الواردة عنها فى كتب السيرة والتفسير ، مع إبداء ما يعن من ملاحظات فى صدد ذلك .

— ٢ —

(١) إن أولى الإشارات القرآنية إلى وقائع الجهاد هى ما انطوى فى آيات سورة البقرة (١٥٤ - ١٥٧) و (١٩٠ - ١٩٤) و (٢١٦ - ٢١٨) التى نقلناها فى المبحث السابق ؛ فالآيات ١٥٤ - ١٥٧ تلهم أن بعض أفراد من المسلمين قد استشهد فى اشتباك ، والآيات ١٩٠ - ١٩٤ و٢١٦ - ٢١٨ تلهم أن اشتباكا وقع فى الشهر الحرام ، وأن المشركين أثاروا ضجة تهويشية حول ذلك وزعموا أنه كان خرقا لتقليد مقدس وهو

هدنة الأشهر الحرم ، ويبدو أن الضجة أثرت فى بعض المسلمين وجعلتهم يتساءلون هذه الأسئلة التى رددتها الآيات والتى ردت على هذه الضجة ردا مفحما فيه تبرير لما وقع فى حال وقوعه على ماشرحناه فى مناسبة سابقة .

ولقد قال المفسرون إن الآيات ١٩٠ - ١٩٤ أولى الآيات التى نزلت بالقتال بعد الإذن به ، وطابع التبكير عليها بل على المجموعات الثلاث بارز ؛ ومن السائغ أن يقال إنها نزلت فى أواسط السنة الأولى من الهجرة النبوية ، وأن هذه الوقائع الصغيرة التى انطوت الإشارات إليها فيها قد بدأت تقع فى السنة المذكورة نفسها .

والآية ٢١٨ تلهم أن المجاهدين المسلمين فى هذه الوقائع أو السرايا كانوا من المهاجرين فقط ، ولم يشترك فيها الأنصار . ويبدو أن الأمر كان كذلك ، لأنه أريد من السرايا مقابلة عدوان مشركى مكة على ماسلف منهم وإزعاجهم من قبل أصحاب الشأن أو الثأر لأنفسهم ؛ لاسيما أن عهد الأنصار للنبي لم يكن إلا الدفاع والحماية فى دارهم

وروايات الرواة والمفسرين متسقة إجمالا مع هذه المستلهمات ، كما أن الروايات قد عينت أن سرية بطن نخلة قرب مكة التى كان يقودها عبد الله بن جحش رضى الله عنه هى التى ثارت الضجة بسببها ، كما قالت إنها أولى سرايا النبي صلى الله عليه وسلم بعد الإذن بالقتال . هذا مع التنبيه إلى أن الفصول القرآنية تلهم أنها فى صدد أكثر من سرية واحدة .

- ٣ -

(٢) وسورة الأنفال ـ التي يجيء ترتيبها فى النزول بعد سورة البقرة ـ احتوت فصولا أجمع المفسرون والرواة على أنها فى صدد وقعة بدر الكبرى ، واسم هذه الوقعة قد ورد فى الآية التالية من سورة آل عمران ـ التى يجيء ترتيب نزولها بعد الأنفال ـ على سبيل التذكير بنصر الله فيها ، والتسلية عما كان من آلام وقعة أحد على المسلمين :

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... ١٢٣

أما فصول سورة الأنفال فهي هذه :

١ ـ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ

وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ... ١ - ٤

٢ — كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ... ٥ - ١٤

٣ — فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللهَ

رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَٰفِرِينَ . إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ... ١٧ - ١٩

٤ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ...

٢٠ - ٢٨

٥ — إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ

قُل للذِينَ كَفَرُوا إن يَنتَهُوا يُغفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَف وإن يَعودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ وقَٰتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ويَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإنِ انتَهوْا فَإنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وإن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَٰكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ ونِعْمَ النَّصِيرُ واعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ولِلرَّسُولِ ولِذِي الْقُرْبَىٰ والْيَتَٰمَىٰ والْمَسَٰكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ إن كُنتُمْ ءامَنتُم بِاللهِ وما أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يومَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إذْ أَنتُم بِالْعُدْوةِ الدُّنْيَا وهُم بِالْعُدْوةِ الْقُصْوَىٰ والرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ولَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَٰدِ ولَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وإنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ إذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً ولَوْ أَرَٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ ولَتَنَٰزَعْتُمْ فِي الأَمْرِ ولَٰكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وإذْ يُرِيكُمُوهُمْ إذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً ويُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وإلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ... ٣٦ - ٤٤

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وأَطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ ولا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ واصْبِرُوا إنَّ اللهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ . ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ بَطَرًا ورِئَاءَ النَّاسِ ويَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ واللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وإنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وقَالَ إنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إنِّي أَرَىٰ ما لا تَرَوْنَ إنِّي أَخَافُ اللهَ واللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

إذْ يقولُ المُنَٰفِقونَ والَّذينَ فى قُلوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلاءِ دِينُهُمْ ومَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فإنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٤٥ - ٤٩

٧ — ماكانَ لِنَبِيٍّ أن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فى الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنيا واللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلاَ كِتَٰبٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلاً طَيِّباً واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . يَٰأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّمَن فى أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إن يَعْلَمِ اللهُ فى قلوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وإن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانوا اللهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إنَّ الذينَ ءامَنُوا وهَاجَرُوا وجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وأَنفُسِهِمْ فى سَبِيلِ اللهِ والَّذِينَ ءاوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ والَّذِينَ ءامَنُوا ولَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وإنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ...

٦٧ — ٧٢

وهذه الفصول قد نزلت بعد الوقعة ، والمتبادر المستلهم من أسلوبها ومضامينها أنها نزلت بقصد تنبيه المسلمين إلى ماكان من تأييد الله لهم وعدم إمكان انتصارهم لولا ذلك ، وإيجاب الرضاء عليهم بقسمة الغنائم ، أو بتعبير أدق بفرز الخمس منها ، وإطاعة الله ورسوله وعدم التنازع والشقاق ، والتذكير بموقف المنافقين ، وتأييد مافعله النبي صلى الله عليه وسلم فى الأسرى ، مع العتاب عليه لأنه خلاف الأولى ؛ ومع ذلك فإن من الممكن أن تقتبس منها صورة كاملة إلى حدما لأسباب الوقعة وسيرها ونتائجها ، نرسمها كما يلى :

١ - إن الله قد ألهم نبيه الخروج إلى العدو فندب المسلمين إلى ذلك ، ممنيا إياهم

بأن تكون لهم الغلبة على الطائفة غير ذات القوة التى أجمع المفسرون والرواة على أنها قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام .

٢ - لقد لبى الدعوة المهاجرون والأنصار معا ، وكان مع الأنصار فريق المنافقين من بنى قومهم .

٣ - لم يتحقق الأمل بلقاء القافلة ، ووجد المسلمون أنفسهم أمام الحملة المستعدة للحرب والتى جاءت لإنقاذ القافلة بناء على استصراخ قائدها ، والمجهزة بالعدة والعدد ، والتى تفوقهم كثيرا فى هذا وذاك .

٤ - لقد كان رأى النبي صلى الله عليه وسلم وقد خرج ملهما إلى العدو أن يناجز الحملة ، فكان هذا موضع أخذ ورد ؛ وقد جادل بعض المسلمين النبي فى هذا الرأى معتبرين أنفسهم كأنما يساقون إلى الموت من جراء لقاء عدو أكثر عددا وأقوى عدة ؛ غير أنه لم يكن للجدل محل لأن الحرب أصبحت واجبا لا محيص عنه بعد أن علم كل فريق بالآخر .

٥ - إن كلا من الفريقين نزل فى منطقة واحدة على غير ميعاد ، إذ كان المسلمون فى طرف الوادى الأدنى والمشركون فى طرفه الأبعد ، حتى أصبح تجنب الحرب غير ممكن بحال .

٦ - إن المنافقين ومرضى القلوب لما رأوا أن الرأى الغالب هو مناجزة العدو القوى أخذوا يقولون إن المؤمنين قد اغتروا بدينهم الذى يدفعهم إلى الموت الحتم .

٧ - إن الآية (٧٢) تلهم أن المسلمين الذين اشتبكوا فى المعركة هم المهاجرون والأنصار ؛ وعلى هذا يسوغ القول إن الفريق المنافق انسحب من القتال بعد أن قال ما قال .

٨ - إن المشركين قبل أن يلقوا المسلمين كانوا يستشعرون القوة والبطر ، وقد أنفقوا لتجهيز الحملة طائل الأموال ، وذهبوا قبل السفر إلى آلهتهم واستفتحوها ، أى طلبوا منها النصر والفتح على النبى وصحبه .

٩ - إن المسلمين والمشركين معا قد قدر كل منهم خصمه أقل عددا مما هو ، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى المشركين فى منامه كذلك أقل مما هم ، فكان هذا من أسباب إقدام كل من الفريقين على المناجزة .

١٠ - إن النبي صلى الله عليه وسلم حينما احتدمت المعركة أخذ يستغيث الله فألهم أنه يمده بألف من الملائكة بقصد البشرى والتثبيت .

١١ - لقد كان فى ظروف المعركة بعض مظاهر تأييدية للمسلمين طمأنتهم بأن الله معهم ؛ فقد كانوا تعبين قلقين فلم يقدروا أن يناموا مع شدة حاجتهم إلى النوم ، فألقى الله فى قلوبهم الطمأنينة وغشاهم النعاس فناموا واستراحوا ؛ وكانت حاجتهم ماسة إلى المطر فأمطروا وقضوا بذلك حاجاتهم .

١٢ - إنه كان ثمة خلاف ونزاع بين المسلمين فى صدد قسمة غنائم الوقعة ، وإنه لوحظ شىء من الخيانة فى بعض ما وقع فى يده من الغنائم ، وإنه بدا من بعضهم شىء من التردد فى قبول وتنفيذ واستماع أقوال ومقترحات النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن هذا أوشك إن يجر إلى الفتنة .

١٣ - إن النبي صلى الله عليه وسلم أوعز بعدم الإثخان الشديد فى العدو وأسر من يمكن أسره دون قتله منهم ، وإنه رأى بعد المعركة أن يطلق سراح الأسرى مقابل الفدية على أن يأخذ منهم عهداً بعدم خيانته أو حر به أو الكيد له مرة أخرى ، وإن الآيات بحق الأسرى قد نزلت قبل إطلاق سراحهم معاتبة على هذا الرأى الذى هو خلاف الأولى ، ومجيزة له مع ذلك ، وآمرة النبي بوعظ الأسرى وترغيبهم وإنذارهم . وطبيعى أنه نفذ أمر الله ووحيه .

- ٤ -

والروايات المعتبرة تتسق إجمالا مع الصورة التى أمكن اقتباسها من الآيات مع بعض تفصيل نلخصه كما يلى :

علم النبي صلى الله عليه وسلم أن قافلة تجارية لقريش آتية من الشام ، وليس معها حامية كافية ؛ فندب المسلمين للخروج لعل الله يهبها لهم ؛ فخرجوا أخلاطاً مهاجرين وأنصاراً وفيهم منافقون ؛ وفى الطريق عرفوا أن القافلة نجت ، وأن حملة قوية آتية من مكة ، فاقترح بعضهم العودة وعدم الاشتباك لأنهم إنما خرجوا للقافلة ، وكان المنافقون على هذا الرأى ، غير أن فريقاً آخر من المسلمين أبدوا استعدادهم للاشتباك ؛ وبعد التشاور تم الرأى على ذلك فانسحب المنافقون وعادوا ؛ ومما ذكرته الروايات

أن النبي لم يعزم على الدخول فى المعركة إلا بعد أن أعلن زعماء الأنصار رضاءهم واستعدادهم للدخول فيها ، إذ طلب أن يشير عليه الناس حتى فهم الأنصار أنه يعنيهم ، فقال له زعماؤهم : امض يا رسول الله لما أمرك الله ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت البحر بنا لخضناه . وذلك لأنه لم ير له حقا عليهم فى الحرب خارج المدينة، لأنهم إنما وعدوه بالحماية و الدفاع عنه فى دارهم ، وقد اطمأن بعض المشركين بنجاة القافلة فاقترحوا العودة ، فأبى بعض صناديدهم إلا البقاء على ماء بدر يشربون ويطربون ، ابتهاجاً من جهة وإظهاراً لقوتهم من جهة أخرى ؛ وقد اشتبك المسلمون مع المشركين وكانوا يبلغون ثلاثة أمثالهم ، فثبت الله المسلمين وشملتهم عنايته وروحانيته ، واستغرقوا حتى رأوا الملائكة تقاتل معهم ، وأخذوا يتحدثون بذلك ، وصبروا واستماتوا حتى تم لهم النصر ، وقتل فى المعركة نحو سبعين من المشركين فيهم عدد غير يسير من الصناديد الذين قادوا حملة المشاقة والمعارضة فى مكة ، كما أسر نحو هذا العدد : فيهم عم النبي العباس وبعض أقاربه ، وقد نصب للنبي عريش لمشاهدة سير المعركة ، فكان يضرع فيه إلى الله ليؤتيه النصر بشدة واهتياج ، هاتفاً لربه بقوله: « اللهم إذا غلبت هذه الفئة فلن تعبد فى هذه الأرض » ؛ وقد اختلف المسلمون بعد المعركة فى شأن توزيع الغنائم ، فمنهم من رأى أن توزع على الذين حاربوا ، ومنهم من رأى أن توزع على من حضر المعركة حارب أو لم يحارب ، كما كان اختلاف بشأن أسلاب القتلى ونسبة التوزيع بين الركبان والمشاة . ومما ذكرته الروايات أيضاً أن زعماء مكة تخوفوا من بنى كنانة أن يأتوهم من خلفهم إذا هم خرجوا ، فتمثل إبليس لهم بصورة زعيم بنى كنانة وقال لهم إنى جار لكم فلا تخشوا من قومى بأساً ؛ وأن النبي شاور أصحابه فى شأن الأسرى فمنهم من ارتأى قتلهم لإرهاب أهل مكة - وكان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه من هؤلاء - ومنهم من جنح إلى الرفق وأخذ الفداء - وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه من هؤلاء - فأخذ النبي برأيه ؛ ثم نزل القرآن بالعتاب حتى بدا الخوف على النبي وصاحبه وبكوا لما كان منهم من خلاف الأولى ؛ وأن بعض الأسرى لم يقدروا ماليا على الفداء فجعل فداؤهم تعليم عدد من أطفال المسلمين القراءة والكتابة .

وإذا كان ثمة شيء من التعليق على الروايات التى قلنا أنها تتسق إجمالا مع الآيات فهو

أن الصورة القرآنية أقوى وضوحاً وحيوية من الروايات ؛ وأن الآيات تلهم أن الخلاف فى صدد الغنائم إنما كان على فرز الخمس أكثر منه على طريقة التوزيع ومقداره ، لأن الكلام فيها مصبوب على ذلك ، وأكثر ما جاء فى صدد نصر الله وتأييده قد استهدف تشريع الخمس ، وإيجاب قبوله والرضاء به ؛ ويبدو أن شيئاً من التلفيق قد وقع فى بعض الروايات بقصد التطبيق كقصة تمثل إبليس بصورة زعيم بنى كنانة ؛ لأن القرآن صريح بأن إبليس وقبيله يرون الناس من حيث لايرونهم [1] ولأن الأوجه أن تكون الآية فى هذا إنما جاءت بقصد التنديد بالكفار والسخرية والشماتة بهم بسبب مانالهم من خسران وهزيمة بعد ماكان من زهوهم وبطرهم ، وتقرير أنهم إنما خرجوا بتسويل الشيطان ووعده ، ولكن الشيطان لم يسعه إلا النكوص على عقبيه والتخلى عنهم أمام نصر الله وتأييده .

ويلمح من الفصول ومن الآيات ٥٥ - ٦٣ التى نقلناها فى مبحث التنكيل باليهود ، والآيات ٦٥ - ٦٩ التى نقلناها فى المبحث السابق ، ماكان للانتصار من أثر فى استعلاء الإسلام ، وشعور المسلمين بالعزة والقوة والتأييد الربانى الذى غلبت به فئة قليلة فئة كبيرة ، والرغبة فى اعتبار الفرصة سانحة لدعوة الكفار الذين كانت الضربة عليهم قاصمة إلى الانتهاء من موقفهم الجحودى والعدائى ، وللتنكيل بالناكثين والخائنين ، وهم يهود بنى قينقاع ، على ماذكرناه فى مبحث التنكيل .

— ٥ —

ونريد أن ننبه إلى بعض نقاط تلهمها الآيات والروايات التى تتسق معها ؛ فالذى يتبادر لنا أن تردد بعض المسلمين فى الاشتباك مع القرشيين ، وانسحاب المنافقين ، ورغبة النبى صلى الله عليه وسلم فى الاستماع إلى رأى الأنصار فى ذلك - ينطوى على ماكان مقدراً للنضال بين مشركى مكة والمسلمين فى المدينة - وخاصة أهلها الذين لم يكن قد قام بينهم وبين أهل مكة عداء صريح - أن ينتهى إليه من مظهر عنيف بهذا الاشتباك أخذت تبدو آثاره الخطيرة فيما كان من اشتداد أحقاد المكيين وتحفزهم للانتقام لدمهم وهيبتهم ، وفيما كان بعد ذلك من غزوهم المدينة أولا وثانياً بحشود عظيمة أزعجت

(١) اقرأ آية الأعراف ٢٧ .

المسلمين أيما إزعاج وأوشكت أن تكون كارثة على الإسلام .

ومما لا نرتاب فيه من الناحية الثانية أن النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه المخلصين وخاصة كبار المهاجرين منهم قد رأوا فى احتمال انتصارهم على المكيين فوائد عظيمة بعيدة المدى، سواء فيما يكون من إزعاجهم بتهديد طريق تجارتهم وهى من دعائم كيانهم القوية ؛ أو فيما يكون لهزيمتهم من أثر عظيم من ناحية إضعاف هيبة مكة ونفوذها على العرب ، ومن ناحية تعالى قوة الإسلام ، وانفساح المجال لانتشار الدعوة الإسلامية بالتبعية ، فكان هذا مما جعلهم يقدمون ، لا سيما أن وعد الله قد تكرر لهم بلسان القرآن بالنصر والتأييد ، وكانوا يؤمنون أعمق الإيمان بتحقيق الله وعده لهم ، ولعل فى الآيات ٧ - ٨ و ١٣ - ١٦ ما يقوى هذا التقرير .

ولقد أحدث اشتراك أهل المدينة فى المعركة تطوراً عظيما وحاسما فى موقف كل من المدينتين الكبيرتين تجاه الأخرى ، وبدءا لعهد عداء صريح وقوى بين الأوس والخزرج من ناحية ، والمكيين من ناحية أخرى لم يكن له سابقة ؛ وهو ما حسب هؤلاء حسابه وعواقبه حينما أزمعوا اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم وعدم تمكينه من الإفلات من أيديهم والهجرة إلى يثرب على ما نبهنا إليه فى مناسبة سابقة ؛ كما أنه أحدث تطوراً بارزاً فى التضامن القوى الدموى - بعد الدينى - بين المهاجرين والأنصار ؛ وهو ما استهدفت الآية (٧٢) تقريره على ما هو المتبادر ، بحيث اعتبرت الولاء بينهم أمراً راهناً وموطداً دون المؤمنين الذين لم يهاجروا .

وكذلك كان تشريع خمس الغنائم ذا خطورة عظيمة ، من ناحية أنه أول تشريع قرآنى مالى رسمى محدد ؛ توطد به بيت المال فى الإسلام ؛ وتيسر به تحقيق ما دعا إليه القرآن من مساعدة الطبقات المحتاجة والإنفاق فى سبيل مصالح المسلمين العامة بأسلوب رسمى غير قائم على التبرع . ووصفناه بالأول لأن مقادير الزكاة لم تحدد فى القرآن ، كما أن مصارفها إنما حددت فى القرآن فى آية من آيات سورة التوبة من الأرجح أنها نزلت بعد هذه الآيات بمدة ما ، ولا ريب فى أن توطيد بيت المال فى العهد المدنى ، وتعيين حق ثابت له يتسلمه وينفق منه أمر عظيم المدى .

- ٦ -

ولأجل الترتيب التاريخى فى ذكر الوقائع الجهادية نذكر بما مر فى فصل

اليهود مما استدللنا عليه من بعض آيات سورة الأنفال وغيرها من ظروف ونتائج وقعة بنى قينقاع، ومن أنها قد وقعت بعد مدة قليلة من وقعة بدر، وكان لهذه الوقعة أثر ما فى ظروف وقوعها أيضا.

- ٦ -

وسورة آل عمران التى يجىء ترتيبها فى النزول بعد سورة الأنفال احتوت فصولا عدة أشير فيها إلى حوادث وقعة حربية بين المسلمين والمشركين دارت فيها الدائرة إلى حد ما على الأولين؛ وهذه الوقعة لم يرد اسمها فى القرآن، ولكن الروايات أجمعت على أنها وقعة أحد، حتى ليعد هذا يقينا. وأحد: جبل مشرف على المدينة؛ وقد كان المشركون أهل مكة قد جاؤوا ينتقمون لهزيمتهم ودمهم وكرامتهم.

وإليك أولا الفصول القرآنية:

١ - وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ... بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ. لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ... ١٢١ - ١٢٨

٢ - قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ. هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ. وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. إِنْ يَمْسَسْكُمْ

قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَٰفِرِينَ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ . وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّٰكِرِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّٰكِرِينَ . وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّٰبِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ . فَـَٔاتَىٰهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ . بَلِ اللهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّٰصِرِينَ . سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّٰلِمِينَ . وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ

الآخِرَةَ ثمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ . إذْ تُصْعِدُونَ ولا تلوونَ عَلَىٰ أَحَدٍ والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فى أُخْرَاكُمْ فَأَثَبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ ما فَاتَكُمْ ولاَ ما أَصَابَكُمْ واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنْكُمْ وطَائِفَةٌ قدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ يُخْفُونَ فى أَنفسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ولِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فى صُدُورِكُمْ ولِيُمَحِّصَ مَا فى قُلُوبِكُمْ واللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور . إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يومَ الْتَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا ولَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ . يَاأَيُّها الَّذِين ءامَنُوا لا تَكُونُوا كالَّذِينَ كَفَرُوا وقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فى الْأَرْضِ أَو كانُوا غُزًّى لَّوْ كانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا ومَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فى قُلُوبِهِمْ واللهُ يُحْيِ ويُمِيتُ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . ولَئِنْ قُتِلْتُمْ فى سَبِيلِ اللهِ أَو مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ ورَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . ولَئِن مُّتُّمْ أَو قُتِلْتُم لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ . فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ ولَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وشَاوِرْهُمْ فى الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ . إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ . وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ... ١٣٧ - ١٦١

٣ — لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ . أَوَ لَمَّا أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . وَمَا أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَـٰتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ٱدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَـٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَٱدْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَـٰهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ . ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّـاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم

مُّؤْمِنِينَ . ولا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فى الْكُفرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فى الآخِرَةِ ولَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ ٱشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ولَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ومَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَـَٔامِنُوا بِاللهِ ورُسُلِهِ وإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ... ١٦٤ - ١٧٩

- ٧ -

ويصدق ما قلناه فى صدد فصول سورة الأنفال على هذه الفصول من حيث أنها نزلت بعد انتهاء المعركة ؛ وقد استهدفت فى الدرجة الأولى طمأنة المسلمين وتسليتهم عما حل بهم من أثرها ، وعتابا على ما كان من بعضهم فى ظروفها ، وتقريع المنافقين على مواقفهم فيها ، والتنويه بالمخلصين لما بدا منهم من حسن الاستجابة ، وتوجيهات للنبى صلى الله عليه وسلم فى مداراة المسلمين الخ ... ومع ذلك فإن من الممكن أن يقتبس منها كذلك صورة كاملة إلى حد ما لسير المعركة ونتائجها نرسمها كما يلى :

١ - إن المعركة وقعت قرب المدينة ، إذ غدا النبى صلى الله عليه وسلم من أهله لاختيار مكان صالح للقتال ؛ وقد كانت فى طرف الجبل الثانى ، إذ أن المسلمين حينما انهزموا أخذوا يصعدون حتى يبلغوا الذروة لينحدروا منها إلى المدينة .

٢ - إن المهاجرين والأنصار قد اشتركوا فى المعركة .

٣ - إن فريقا من المنافقين أيضا قد خرج مع من خرج من المؤمنين ، كما أن فريقا آخر ظل قاعداً ولم يخرج وحاول تثبيط من يتصل به من المسلمين .

٤ - لقد دار جدل ووقع خلاف على الخطة التى يجب السير عليها . وكان زعماء

من أخبارها ما ألهب حماستهم لنيل نصر مماثل ينالون به ثناء الله ورضاه، والفخر والاستعلاء - أخذوا يتحمسون ويبدون استعدادهم للموت، واستعظامهم وقوف المسلمين هذا الموقف الدفاعي البحت الذي يكشف عن خوف ووهن، ويلحون بالخروج ومقابلة العدو خارج الجدران، إلى أن مال النبي إلى ذلك، فدخل بيته ولبس عدة قتاله وندب الناس إلى الخروج وفي وجهه شيء من الاستكراه؛ وقد ندم الملحون على إلحاحهم وأعادوا الأمر إلى النبي فآذنهم أنه لا يصح لنبي لبس عدة حربه أن يخلعها قبل أن يقاتل، وأكد نداءه للخروج، فخرجوا في نحو ألف، وكان عدد الغزاة نحو ثلاث آلاف؛ وقد أعلن عبد الله بن أبي أنه قرر الانسحاب فانسحب معه نحو الثلث؛ وقد أثر هذا ببطنين من بطون الخزرج حتى هما أن ينسحبا ثم عادا وثبتا؛ وقد أمر النبي فريق الرماة باحتلال مكان عال من وراء الميدان، ورشق العدو بالنبل وحماية ظهر إخوانهم، وشدد عليهم بعدم مزايلة مكانهم في أي حال، ثم دارت رحى القتال فوقع الرعب في قلوب المشركين، ولاحت أمارات الهزيمة عليهم، ورأى الرماة ذلك فوسوس الشيطان لهم بالنزول للغنيمة، والخوف من احتجازها دونهم ففعلوا؛ ولما رأى قائد فرسان المشركين خلو مكان الرماة اغتنم الفرصة فدار بخيله من وراء المسلمين وفاجأهم فاضطربوا وذعروا ثم انهزموا لا يلوون على شيء ونال النبي عدة جروح وسقط في حفرة وظن الناس أنه قتل فازداد المسلمون ذعرا وبلبلة وذهب عدد غير يسير من المسلمين شهداء؛ وقد ثبت النبي صلى الله عليه وسلم في الميدان وحوله بعض المخلصين، وأرسل يهتف بالمنهزمين ليطمئنوا ويعودوا، وأخذ بعض الثابتين والعائدين يستميتون في الدفاع عنه، وألقى الله الأمن في قلوبهم والخوف في قلوب أعدائهم الذين اكتفوا بما كان وقفلوا راجعين دون التحام آخر، هاتفين: إن هذا اليوم بيوم بدر، متواعدين بالهتاف المتبادل على موعد آخر. ومما روى أن المكيين ندموا على ترك المسلمين وقد أثخنوا فيهم، وهموا بالكرة، ودرى بذلك النبي فندب الناس إلى الخروج ثانية، فاستجاب المخلصون مع ما هم فيه من جراح وبلاء ومع ما نقل إليهم من قبل بعض القادمين المتواطئين مع العدو من أخبار التجمع؛ وقد وصل المسلمون إلى مكان يقال له حمراء الأسد فلم يجدوا عدواً لأن المكيين لم ينفذوا عزيمتهم وظلوا في طريقهم إلى مكة؛ ومما روى أن بعض المنافقين

طلبوا من عبد الله بن أبيّ زعيمهم أن يتصل بأبى سفيان ويأخذ للمدينة منه أمانا ، وأن الذين تذمروا التذمر الذى حكته الآية ١٥٤ كانوا من المنافقين فقط ؛ ولقد عاتب النبي النبالة على مزايلتهم مكانهم وقال لهم بل ظننتم أننا نستأثر بالغنائم فلا نقسم لكم فيها .

- ٨ -

وإذا كان لنا تعليق على الروايات فهو أن الصورة القرآنية أقوى حيوية ووضوحاً منها ، وأن الآيات ٥٤ - ١٦١ تلهم أن الذين حكى تذمرهم فى الآية ١٥٤ ليسوا منافقين أو على الأقل ليسوا منافقين فقط ، وأن بعض المسلمين من الطبقة الثانية قد اشتركوا فى هذا التذمر متأثرين بشدة الضربة النازلة ؛ وأن هذا التذمر من فريق قليل يلهم أن الخروج إلى مقابلة العدو لم يكن من رأى أقلية وبتأثير حماسة الشبان ، والذى نرجحه إن لم نقل نجزم به أن النبي استشار مختلف الزعماء من الأنصار والمهاجرين والمنافقين ، وأن الخروج قد تم بموافقة أكثر المخلصين من الأنصار والمهاجرين ؛ ولا يمنع هذا أن يكون فريق من الشبان بل وغير الشبان قد تحمسوا وتحدوا الموت حينما دروا بقدوم المكيين لغزو المدينة ، لا سيما أن نصر بدر وتأييدات الله التي شهدوها ماتزال ماثلة لأعينهم ومالئة لقلوبهم وأسماعهم ، فكان هذا مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يعتزم الخروج ؛ وليس من الممتنع أن يكون بعض الزعماء من الطبقة الثانية قد ارتأوا مع المنافقين البقاء وراء الجدران فلم ير النبي أن يأخذ برأيهم ؛ فكان هذا مما غاظهم وغاظ المنافقين خاصة فجعل بعضهم لاينضم إلى الحملة ، وبعضهم ينسحب منها ، ثم جعلهم يثيرون وساوس المسلمين الذين آلمتهم عواقب المعركة شديد الألم .

وأسلوب الآيات المطمئنة المبشرة واللائمة والمسكنة والواعظة رائع قوى ، من شأنه أن يكون معالجة شافية لكل الحالات التي نشأت من ظروف الوقعة وسيرها ونتائجها ، كما أنه يدل على شدة ما كان من وقع النتائج على مختلف فئات المسلمين أيضا . وفى استنكار ما كان من هزيمة أو زيادة فوضى بسبب شائعة قتل النبي ، مدى باهر جدا فى بث القوة والعزيمة والإقدام فى نفوس المسلمين ، وفى تلقينهم أن واجب الاستمرار فى الدفاع عن الإسلام ونشره ورفع شأنه واجب عام لا يجوز أن يقعدهم عنه أو يجعلهم يقصرون فيه أى حادث حتى قتل النبي صلى الله عليه وسلم أو موته

فهما أمران طبيعيان ومنتظران ، لأن النبي ليس إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل .

وفكرة غزو المكيين للمدينة تدل على أن المسلمين كانوا مايزالون فى حالة ضعف وقلة ، وعلى أن هذا مما كان يعرفه المكيون حق المعرفة ، فضلا عن دلالتها على تفوق مكة على المدينة فى القوة والبأس بصورة عامة . وإذا صحت رواية أن عدد الغزاة كان ثلاثة آلاف ظهر هذا الضعف واضحا أكثر ، كما أن تمكير بعض الزعماء بعدم الخروج للقاء الغزاة ، والدفاع من وراء الجدر والبيوت يؤيد هذا على ما هو المتبادر .

وموقف المنافقين فى ظروف الوقعة تمرداً وتخلفاً وانسحاباً وتأثيراً وتهويشاً وتظاهراً على غيرما يليق ، يدل على أنهم كانوا أقوياء إلى حد ما ، وكانوا مستشعرين بقوتهم كما كان المسلمون مستشعرين بذلك أيضاً . والآيات ١٥٤ - ١٦١ على ترجيح أن المتذمرين مزيج من مخلصين ومنافقين تلهم أن الحكمة اقتضت مسايرة الموقف ومداراة المنافقين ، ولا ريب فى أنه ينطوى فى هذا ما يدعم ما قررناه آنفا .

- ٩ -

وفى ترتيب النزول تأتى سورة الأحزاب بعد آل عمران ، وفيها إشارات إلى وقعة الخندق ، مشاهدها ونتائجها . غير أن المجمع عليه أن وقعة بنى النضير التى أشير إليها فى سورة الحشر قد وقعت قبل وقعة الخندق ووقعة بنى قريظة التى كانت عقبها ، فى حين أن هذه السورة تتأخر فى ترتيب النزول المروى كثيراً عن الأحزاب ؛ وعلى هذا فإما أن يكون مطلع سورة الأحزاب وبعض فصولها قد نزل بعد سورة آل عمران فجعل ترتيبها بعدها من أجل ذلك ، وإما أن لا يكون ترتيبها المروى صحيحاً ؛ ولما كان التنكيل ببنى قريظة الذى أشير إليه فى سورة الأحزاب شديدا ، ويلهم أنه كان كذلك لأسباب منها عدم اتعاظ اليهود بما كان من عاقبة جماعتهم الأولى ؛ ولما كان هذا التنكيل قد وقع متأخراً ، وكان المجمع عليه أن إجلاء بنى النضير قد وقع قبله ، وأن اليهود ذهبوا بعده إلى مكة ليعقدوا حلفاً مع زعمائها ضد النبى والمسلمين ، وظاهروا جيوش الأحزاب حينما زحفت على المدينة بقضها وقضيضها - فإن من المعقول أن تكون آيات الحشر التى أشارت إلى وقعة بنى النضير قد نزلت قبل سورة الأحزاب ،

أو على الأقل قبل آيات وقعتى الخندق وبنى قريظه .

ولقد بسطنا أسباب وقعة بنى النضير وظروفها ونتائجها فى فصل اليهود فلا نعود إليها ثانية ، ونكتفى بالإشارة إليها ليتم التسلسل فى حلقات الوقائع الجهادية القرآنية على حسب وقوعها .

- ١٠ -

وآيات سورة الأحزاب التى احتوت مشاهد وقعة الخندق هى الآيات ٩ - ٢٠ التى أوردناها فى مبحث مواقف المنافقين من الجهاد ووقائعه ، ثم الآيات التالية لها هذه:

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا . وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا . مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِىَ اللهُ الصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا . وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ... ٢١ - ٢٧

وليس فى الآيات ذكر للخندق الذى أجمعت الروايات على أن النبى والمسلمين قد حفروه حول المدينة ، والذى سميت الوقعة به أيضاً وقد سميت كذلك بوقعة الأحزاب بسبب ذكر القرآن هذه الكلمة ، ولأن الغزاة مجموعة قبائل متحالفة متحزبة ؛ والآيات بسبيل ذكر ما كان من حالة الجزع التى استولت على عامة المسلمين ، ومواقف

الدس والتثبيط التي بدت من المنافقين ، والخيانة التي كانت من اليهود ، والتنويه بموقف النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصين ، والتنبيه على ما كان من تثبيت الله ونصره ورد الغزاة بغيظهم خائبين ، وتمكين المسلمين من اليهود الخائنين لهم - بسبيل سرد مشاهد الوقعة ؛ ومع ذلك فإن من الممكن اقتباس صورة لهذه المشاهد كما يلي :

١ - إن المشركين قد تجمعوا بجموع كثيرة ، مؤلفة من مختلف القبائل المتحالفة وزحفوا على المدينة حتى أحدقوا بها من فوقها ومن أسفل منها .

٢ - إن اليهود فى المدينة قد ظاهروا الغزاة على المسلمين .

٣ - إن جمهور المسلمين قد كربوا كرباً عظيما حتى زاغت أبصارهم ، وبلغت قلوبهم الحناجر وزلزلوا زلزالا شديداً من الجزع والخوف ، حتى لقد داخل بعضهم الريب فى تأييد الله ونصره .

٤ - إن المؤمنين المخلصين قد سلموا أمرهم لله وازدادوا إيماناً به واعتماداً عليه ، وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصبروا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ولم يبدلوا موقفهم من الايمان بالنصر والتأييد ، والتضامن مع النبي والالتفاف حوله .

٥ - إن المنافقين ومرضى القلوب أظهروا جزعاً شديداً ، واستغلوا الفرصة لإطالة ألسنتهم بالدس والتثبيط وسوء الأدب ، فقالوا إن الله ورسوله لم يعداهم إلا غروراً ، وهتف بعضهم بأهل المدينة ليرجعوا إلى بيوتهم بحجة أنها مكشوفة للعدو مع كذب ذلك ، وكان قصدهم الفرار فى حين أنهم عاهدوا الله ورسوله على عدم الفرار ، وأخذوا يترقبون الحالة ، ويتوقعون الشر بالمسلمين ، حتى إنهم لم يصدقوا حينما قيل لهم إن الغزاة قد ارتدوا عن المدينة خائبين .

٦ - إن إهابة المنافقين بأهل المدينة للرجوع إلى بيوتهم وعدم البقاء فى المقام الذى اتخذوه تدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم قد عسكر بالمسلمين بعيداً بعداً ما عن البيوت .

٧ - إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أظهر فى هذه الوقعة ما أظهره فى غيرها من رباطة الجأش وقوة الأعصاب والنشاط مما كان العامل الأكبر فى العاقبة المحمودة التى تمثلت فى ارتداد الغزاة دون أن ينالوا خيراً ، ومما كان أسوة للمؤمنين المخلصين ، وباعث طمأنينة لعامة المسلمين .

٨ - إن الله قد أرسل عاصفة من الريح أزعجت الغزاة أشد إزعاج ، وأوقع فى قلوبهم الرعب فيئسوا من نيل وطرهم ، وارتدوا خائبين ، ولم يقع اشتباك بينهم وبين المسلمين.

- ١١ -

وفى الروايات المروية عن هذه الوقعة بعض تفصيل نلخصه كما يلى :

كان زحف الأحزاب نتيجة لتحريض وفد يهودى لزعماء مكة وقبائل غطفان وقيس وغيلان ، وتحالفهم معهم ، وكان عدد الغزاة نحو عشرة آلاف ، وكان زحفهم فى السنة الهجرية الخامسة . ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بخبر استعداد الأحزاب للغزو تشاور مع المسلمين ، فاتفق الرأى على المرابطة حول المدينة وعدم الابتعاد عنها كما كان فى وقعة أحد ، وتقرر بإشارة من سلمان الفارسى رضى الله عنه حفر خندق حول القسم المكشوف من المدينة ، وتم حفره قبل وصول الغزاة ، وعسكر المسلمون من ورائه ، وكان عددهم ثلاثة آلاف ؛ وقد كان الخندق حائلا دون التشابك ؛ وظل الغزاة عشرين يوماً يحاصرون المدينة ، ولم يقع إلا حوادث قتال وبراز فردية ، وإلا تراشق بالنبال حينا بعد آخر ، ولم يصب إلا أفراد ومن الطرفين ؛ ثم أتى شخص من غطفان اسمه نعيم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه أنه مسلم يكتم إيمانه واستأمره فيما يقوم به من خدمة ، فأمره بالتخذيل والتثبيط ، فسعى بين اليهود وقريش حتى أوجد الشك والفتور فى كل فريق نحو الآخر ، ففترت العزيمة عن المناجزة والاستمرار ، وثارت فى هذه الأثناء زوبعة شديدة أزعجت الغزاة أيما إزعاج فاشتد فيهم السأم والفتور ، ولم يلبث أبو سفيان قائد قريش أن أعلن أنه مرتحل فتبعه الناس وارتحلوا .

والروايات غير متناقضة مع الآيات إجمالا ، والمتبادر أن ماجرى فى وقعة أحد هو الذى حمل النبي والمسلمين على البقاء قرب المدينة ، ويبدو أن الحملة على المنافقين عقب وقعة أحد جعلتهم يعتذرون ويعاهدون النبي صلى الله عليه وسلم على التضامن معه ومع المسلمين فى موقف آخر، فخرجوا وعسكروا معهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتفلتوا من تحيزتهم وخبثهم ، ومع أن من المحتمل جداً أن يكون لتحريض الوفد اليهودى أثر فى حركة الأحزاب، فالذى يتبادر لنا أن المكيين اعتقدوا أن ضربة أحد

أثرت فى المسلمين تأثيراً كبيراً ، ورأوا أن فى الإمكان استئصال شأفة النبي وحركته بزحف كبير يتضامنون فيه مع أحزابهم ومع من بقى من اليهود فى المدينة ، فأقدموا على تدبير الأمر حتى جاء على هذا الشكل الرهيب .

ووصف الآيات ما كان من اضطراب المسلمين الشديد يدل على أن اعتقاد المكيين بتحقيق هدفهم المذكور لم يكن واهيا ؛ لاسيما أن المسلمين كانوا ما يزالون قليلين وضعفاء ، وقوة أعدائهم المحيطين بهم تفوقهم كثيراً ، وبينهم مخامرون ، وبين ظهرانيهم خائنون . ولعل الحملة الشديدة اللاذعة التى حملتها الآيات على المنافقين ، وما كان من عدم الهوادة فى التنكيل ببنى قريظة ، متصلان بهذا الموقف العصيب الذى واجهه المسلمون وواجهته الحركة الإسلامية ؛ ولذلك نرى من الحق أن يعتبر ارتداد الأحزاب عن المدينة نصراً ربانيا عظيما ، بل من أعظم ما تم للنبي ودعوته من نصر وتوفيق ؛ ومما لا نرتاب فيه أنه كان ذا أثر كبير فيما تم من تعالى الإسلام ، وانتشار قوته ودعوته فيما بعد ، وأنه كان لهذا الارتداد أثر سلبي وإيجابى فى آن واحد ؛ إذ جعل العرب المتربصين والأعداء والمنافقين فى المدينة يرون فى هذه النتيجة دلالة النصر الربانى والقوة المعنوية العظيمة ؛ فيقف الأعداء عند حدهم ، ويكف المنافقون عن مواقفهم أو غلوائهم ، ويبدل المتربصون موقفهم من التربص إلى الإقبال . ومن حقائق وقائع السيرة النبوية أن الدعوة الإسلامية والقوة الإسلامية قد أخذتا بعد هذه الوقعة وبعد التنكيل ببنى قريظة ، وخضد شوكة اليهود فى المدينة نهائياً بالازدياد ، وأن قوة المنافقين قد أخذت بالضعف والتضاؤل ، وأن المكيين لم يفكروا فى متابعة عدوانهم وزحفهم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى فى نفسه القوة وفى الميدان مجالا فى السنة التالية من هذه الوقعة على اعتزام زيارة الكعبة ، وأن المكيين قد رأوا فيه هذه القوة ، فجنحوا إلى مسالمته وعقدوا معه صلح الحديبية على ما سوف نذكره بعد ؛ وكل هذا مما يدعم ماقلناه من أثر هذا النصر العظيم السلبي والإيجابى .

ولقد بسطنا الكلام على وقعة بنى قريظة وتنكيلهم فى فصل اليهود ، وهى الوقعة التى أشير إليها فى آيات الأحزاب ٢٥ - ٢٧ ، والتى تأتى فى حلقة الوقائع الجهادية القرآنية بعد وقعة الخندق ، فنكتفى بالإشارة إلى ذلك .

- ١٢ -

وفى سورة الفتح آيات احتوت إشارات إلى حدث عظيم من أحداث العهد المدنى يسلكه كتاب السيرة فى سلك الأحداث الجهادية بسبب ما كان فيه من مشاهد تمت إلى هذه الأحداث ، وهو صلح الحديبية .

وهذه هى آيات سورة الفتح :

١ — إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا . وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا . هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا . وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ... ١ - ٦

٢ — إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ

الْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا . وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ... ١٠ — ١٣

٣ — لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ... ١٨ - ٢٠

٤ — وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا . لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ... ٢٤ - ٢٨

وسورة الفتح أو معظم آياتها على الأقل نزل بعد الصلح، كما هو شأن الفصول القرآنية فى الوقائع الجهادية، واستهدفت على ما تلهم مضامينها وأسلوبها التسكين والتنويه، والتنديد والتذكير برحمة الله وعنايته بالمسلمين، تعقيبا على ما كان من توتر بين المسلمين بسبب نتائجها؛ ومن الممكن اقتباس الصورة الآتية عنها:

- ١٣ -

١ - إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أنه دخل مع المسلمين المسجد الحرام آمنين، وأدوا الزيارة، وتحللوا من الإحرام بحلق الشعر أو تقصيره على حسب تقاليد الزيارة والحج؛ فاعتبرها إلهاما من الله، وأعلن للمسلمين عزمه على الخروج إلى الزيارة، وندب المسلمين من أهل المدينة والأعراب للخروج معه.

٢ - وقد استجاب كثيرون إلى الدعوة، وتخلف فريق من الأعراب عنها ظنا أن النبي صلى الله عليه وسلم سيلقى مقاومة وحربا وأنه لا قبل له بأهل مكة وقد لا يرجع هو ومن معه إلى أهلهم أبداً.

٣ - ولما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى قرب مكة (بطن مكة) تصدى له المكيون، وأنذروه بالتوقف، وصدوه عن الزيارة، وصدوا الهدى الذى ساقه المسلمون ليقربوه إلى الله عن الوصول إلى المكان الذى تقرب فيه الأضاحى.

٤ - ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما كان من المكيين اعتزم هو أيضا أن يقف موقفاً، قويا فدعا من معه من المسلمين إلى مبايعته على الثبات والتضامن، فأقبلوا على البيعة تحت شجرة كان يأوى إلى ظلها، وبدت أمارات ما فى قلوبهم من الإيمان والعزيمة على نصرة النبي على وجوههم.

٥ - ولقد كانت جولة حربية ما ظفر فيها المسلمون، ثم شاءت حكمة الله أن يكف أيدى الفريقين بعضهما عن بعض.

٦ - وقد تمسك المكيون ببعض الأمور التى رأوها من مقتضيات الكرامة والحمية، فقابل النبي ذلك - بإلهام الله - بالتساهل والسكينة لما رآه فى الموقف

من الفتح العظيم .

٧ - إن روح الآيات وبعض نصوصها نلهم أن بعض المسلمين قد استعظموا ما كان من تساهل النبي مع الكفار ورضائه بعدم الزيارة التى ألهمها فى منامه فورا ؛ إذ احتوت كما أشرنا طمأنة وتسكينا ؛ فكررت وصف ما تم بالفتح العظيم والفتح المبين والفتح القريب ، وكررت ذكر ما كان من إنزال الله السكينة على رسوله والمؤمنين للفوز بهذا الفتح ، وأكدت أن الله مصدق الرؤيا التى رآها النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن المسلمين سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رؤسهم ومقصرين ، وأنه أعلم منهم بما يكون ، وأن الذى كان إنما كان بأمره وتدبيره وحكمته ، ولصالح المسلمين العاجل والآجل ؛ وأنه قد كبت به المنافقين والمشركين الذين ظنوا بالله ظن السوء ، وأن المؤمنين المصدّقين بالله ورسوله سيكون لهم من عفو الله ونعيمه ما فيه الفوز العظيم .

٨ - وسين الاستقبال فيما كان متوقعا من اعتذار المتخلفين يدل على أن هذه الآيات - أو بالأحرى جل آيات السورة إن لم يكن كلها - قد نزلت عقب الوقعة ، وفى طريق العودة إلى المدينة ، بقصد الطمأنة والتسكين ، كما هو المتبادر .

## - ١٤ -

ولقد احتوت الروايات بعض تفصيل نلخصه فيما يلى :

إن خروج النبي والمسلمين إلى هذه الزيارة كان فى أواخر السنة السادسة من الهجرة وفى أشهر حجها ، وإن عدد الذين خرجوا كان نحو ألف وأربعمائة ، وإن النبي حينما وصل إلى مكان اسمه « ذو الحليفة » أحرم وأمر المسلمين بالإحرام ، وأشعر الهدى وقلده [1] ؛ وقد كانت أخبار سيره وصلت إلى مكة ، فهاج زعماؤها وتعاهدوا على منعه على أى حال ؛ وجاء الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستشار أصحابه فأشاروا بالمضى فيما ألهم الله ، فإذا صدتهم قريش قاتلوهم ؛ وتقدم الركب حتى إذا وصل الحديبية -

---

(١) أشعره : جرحه وأسال دمه . وقلده : وضع فى عنقه القلادة ، وهذا وذاك تعظيم لقربان الله .

وهى قرية أو بئر على نحو مرحلة من مكة ـ بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستلهم من هذا وجوب التوقف وقال: والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة فيها تعظيم حرمات الله وفيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها ؛ وجاءه رئيس بنى خزاعة وكان مناصحاً للنبي مع قومه . فأخبره أن قريشاً وأحلافهم قد اعتزموا صده على كل حال ، فأرسله يخبرهم أنه إنما جاء للزيارة ولم يجئ للقتال ، وأنه يدعوهم إلى التهادن والسماح له بالزيارة ، والتخلية بينه وبين العرب ، فإن هلك كفوا مؤونته ، وإن أظهره الله كانوا فى الخيار ، وينذرهم إذا هم أمعنوا فى العناد وإرادة البغى بالقتال حتى تنفرد سالفته [٢] ولينفذن الله أمره ؛ فذهب الرجل وأبلغ الرسالة ، وكان زعيم ثقفى حاضراً ، فنصحهم بقبول ما يقترحه النبي صلى الله عليه وسلم ، وتكرر النصح من زعماء آخرين تحققوا أن النبي إنما جاء زائراً ومعه هديه ، ورأوا فى صده وقتاله بغياً ، وخاصة فى الأشهر الحرم ومنطقة المسجد الحرام ؛ وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم من جانبه عثمان بن عفان رضى الله عنه ليخبر الناس برغبته عن القتال ، ورغبته فى الزيارة وحسب ؛ فأبطأ فى العودة وشاع أن قريشا حبسته أو قتلته ؛ فدعا المسلمين إلى البيعة على الثبات والاستماتة إذا ما أصرت قريش على موقفها الباغى ، وتمت البيعة تحت شجرة ، وسميت بيعة الشجرة ، ولم يلبث عثمان أن رجع ؛ ورأت قريش أن ترسل سهيل بن عمرو إلى النبي صلى الله عليه وسلم للتفاوض على عقد هدنة ، مزوداً بشروط عسيرة ، مثل تأجيل الزيارة إلى العام القابل ، وإعادة من يأتى النبي صلى الله عليه وسلم مسلما من مكة على رغم أهله ، وعدم إعادة من يلتحق بمكة من المسلمين مرتدا . وقبل النبي صلى الله عليه وسلم الشروط بعد مفاوضات وجذب ودفع ، واتفق على أن تكون مدة الهدنة عشر سنين ؛ وكتب بذلك عهد ختمه النبي بخاتمه ووقعه سهيل عن قريش ؛ وحينئذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذبح الهدي وحلق الشعر أو تقصيره والتحلل من الإحرام ، ثم نادى بالعودة . وقد روى فيما روى أن بعض فرسان قريش حاولوا أخذ المسلمين على غرة قبل التراضى على الهدنة ، فدرى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل من كمن فى طريقهم ، وأمكن أسر بعضهم ثم منّ عليهم وأطلقهم . كذلك روى أن أبا جندل بن سهيل بن عمرو ـ وكان مسلماً وكان أبوه يعذبه ليفتنه ويمنعه عن الهجرة ـ جاء فاراً يرسف بأغلاله حينما درى

---

(٢) حتى يقتل .

أن النبي والمسلمين فى الحديبية ، وكان التراضى قد تم على الشروط ، فاحترم النبي صلى الله عليه وسلم عهده ، وردّ أباجندل إلى أبيه حينما أصر هذا على استرداده ولقد ثقلت شروط الهدنة على فريق من المسلمين ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وصعب عليهم خاصة الرجوع بدون زيارة ، حتى إن منهم من كاد يزيغ ، لأن رؤيا النبي حق ، وقد دعوا إلى الخروج بإلهامها الذى اعتبره النبي إلهاماً من الله ، وراجعوه وحاوروه ، ومنهم من تباطأ فى تنفيذ أمره فى نحر الهدى والتحلل من الإحرام ؛ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أعلمهم أنه إنما يسير بإلهام الله ، وثبت قلوبهم حتى عاودتهم الطمأنينة ؛ ولم تلبث أن نزلت سورة الفتح مؤيدة لما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، ومسكنة لنفوس المسلمين ؛ ومما رواه البخارى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد ما كان منه من تألم وتحمس سار إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه فلم يجبه ، ثم كلمه فلم يجبه ، فقال لنفسه: ثكلت أم عمر ! نزرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فلا يجيبك ؛ ثم تقدم أمام الناس وخشى أن ينزل فيه قرآن ، وأنه مالبث أن سمع منادياً يدعوه ، فقال فى نفسه : لقد وقع ما خشيت ، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له : لقد أنزلت علىّ الليلة سورة هى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ سورة الفتح . وكذلك مما روى أن بعض المسلمين قال: ما هذا بفتح، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : بئس الكلام هذا ؛ بل إنه أعظم الفتوح ، رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح ، ويسألوكم القضية [1] ، ويرغبون إليكم بالأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا .

وليس فى هذا الملخص ما لايتسق مع الآيات كما هو المتبادر . ولا ريب فى أن هذا الصلح الذى سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق ؛ بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى فى السيرة النبوية وفى تاريخ الإسلام وقوته وتوطده أو بالأحرى من أعظمها : فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتهما وكيانهما ، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها ، بل دفعتهم عنها بالتى هى أحسن فى حين أنها غزت المدينة فى سنتين مرتين وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم وبعثت هذه الغزوة فى نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقلتهم إزاء الغزاة ؛

---

(١) التقاضى والتفاوض بدلا من الصد والبغى السابقين .

ولهذا شأن عظيم فى نفوس العرب الذين كانوا يرون فى قريش الإمام والقدوة ، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودى كل التأثر . وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة ، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون ، بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح وبعد مداه .

ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي صلى الله عليه وسلم فيما فعل ، وأيده فيه القرآن ، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التى عادت على المسلمين منه : إذ قووا فى عيون القبائل ، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار ، وازداد صوت المنافقين فى المدينة خفوتاً وشأنهم ضآلة ، وإذ صار العرب يفدون على النبي صلى الله عليه وسلم من أنحاء قاصية ، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود فى خيبر وغيرها من قراهم المنتشرة على طريق الشام ، وإذ صار يستطيع أن يبعث بسراياه إلى أنحاء قاصية أيضاً كنجد واليمن والبلقاء [1] ؛ وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها ، وكان فى ذلك النهاية الحاسمة ؛ إذ جاء نصر الله وفتحه ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

وهذا التطور فى حالة مكة والمكيين من القوة والهجوم والتفوق والإيغال فى البغي والرغبة فى الاستئصال تجاه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والمدينة ، إلى شيء من الضعف ، وجنوح إلى المسالمة معه ، والاعتراف به نداً - لافت للنظر من دون ريب ؛ ومما يخطر على البال أنه قد طرأ طارئ ما مادى أومعنوى ، سياسى أوحربى ، أو شقاق فيما بينهم لسبب من الأسباب أوهن من تضامنهم وصلابتهم فكان هذا الموقف الذى عاد منه على الإسلام فتح عظيم كان له تلك الآثار الخطيرة المتنوعة .

ولقد روى أن أحد بنى بكر الذين دخلوا فى عهد مكة حينما عقد صلح الحديبية وخير أعراب مكة فى الالتحاق بعهد أحد الفريقين اعتدى على أحد بنى خزاعة الذين دخلوا فى عهد المسلمين فقتله ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم اعتبر هذا نقضاً للصلح ، وأن قريشاً أوفدت أبا سفيان إلى المدينة لتوثيق عقد الصلح القائم فأبى النبي صلى الله عليه وسلم عليه ذلك ؛ فهذه الرواية إذا صحت - ونحن نميل إلى صحتها لأن غزو مكة الذى

---

(١) هذه السرايا قد وقعت بعد صلح الحديبية ، وسرية البلقاء هي التي اشتهرت بوقعة مؤتة .

وقع بعد سنتين من الصلح من جانب النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يكون وقع إلا بسبب نقض من الجانب الآخر - تدعم ما قررناه من أسباب تبدل حال مكة والمكيين المحتملة كما هو ظاهر (١) .

على أن هذا لا يعني فيما يتبادر لنا أن لا يكون لارتداد الأحزاب عن المدينة - ذلك الارتداد الخاسر الذي زلزل ثقتهم في قدرتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولخضد شوكة يهود المدينة نهائيا ، ولضآلة شأن منافقيها ، ولازدياد إقبال الناس على الإسلام وتعاليه بعد هذا وذاك - آثار إيجابية في هذا التطور أيضا .

## - ١٥ -

هذا ؛ ولقد جاء في سورتي الممتحنة والمائدة بعض آيات لها صلة بصلح الحديبية رأينا إيرادها والتعليق عليها لأن فيها بعض مشاهد من السيرة متصلة بهذا الحادث العظيم . وإليك أولا آية الممتحنة :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... ١٠

والآية تلهم مع الاستئناس بالروايات المنسقة إجمالا معها أن بعض المؤمنات اللاتي لم يستطعن أن يهاجرن إلى المدينة قبل الصلح اغتنمن فرصته فهاجرن خلسة ، وأن ذويهن جاؤوا يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصلح ، فنزلت الآية تنهى عن إعادتهن ، وتأمر بالتعويض على أزواجهن ؛ ولقد تعددت الأقوال في حقيقة نص وثيقة الصلح ، ومنها أنه كان مطلقا وبصيغة التذكير ،

---

(١) للمستشرق الطلياني كايتاني توجيه في هذا الصدد .

فرأى المكيون أنه شامل للرجال والنساء معا فجاؤوا يطالبون بالإعادة ، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يشمل النساء فنزلت الآية حاسمة للأمر ؛ وهذا هو المعقول ، لأنه لو كان هناك مفهوم صريح لكان للأمر حكم أو موقف آخر ، إذ يكون فى عدم الإعادة نقض للعهد ، وهذا غير ممكن الصدور من النبي صلى الله عليه وسلم وغير متسق مع المبادئ القرآنية ؛ بل لقد حض القرآن على احترام عقد الحديبية بالذات فى آيات المائدة التى سنوردها بعد ؛ وآيات سورة التوبه ١ - ١٦ التى منها ما نزل قبل فتح مكة ومنها ما نزل بعد قد شددت على الوفاء بالعهد ما دام المعاهدون أوفياء له ، كما أن منها ما يلهم أن النقض إنما وقع من الجانب الآخر فكان ما كان من اعتزام النبي غزو مكة ؛ هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى إن المشركين ما كانوا يقبلون ذلك ، ولو كان لاعتبروا الهدنة منقوضة ، وحملوا تبعة النقض على النبي ، والمعروف أن نقض الهدنة كان من الجانب الآخر ، وأن النبي هو الذى اعتبرها منقوضة من جانبهم ؛ ولعل حكم الآية بالتعويض على أزواج المسلمات المهاجرات مما اقتضته الحكمة لإرضاء معاهد يرى له شبهة من الحق ، وللتدليل على حسن النية فى احترام الصلح من جانب النبي أيضا ؛ ولم يرد فى الروايات أن أزواج المهاجرات وذويهن قد رفضوا هذا الحل ؛ ولعل من السائغ أن يقال بالإضافة إلى ما قلناه أن التطور الذى نبهنا عليه فى حالة مكة والمكيين قد جعل المكيين لا يتشددون فى أمر ليس فيه مخالفة لنص صريح أيضا .

ومما يلفت النظر أن الآية جعلت الحقوق متبادلة بين المسلمين والمشركين فى مطالبة الأزواج المسلمين تعويضا عن نسائهم اللاتى تخلفن عنهم ولو كن كوافر ، وفى مطالبة الأزواج المشركين تعويضا عن نسائهم اللاتى أسلمن والتحقن بالمسلمين ؛ ففى هذا صور عما صار بين المسلمين والمشركين من ظروف عهدية وسلمية مستمرة ومحترمة من الطرفين .

أما آيات المائدة فهى هذه :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ :

يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ... ١ - ٢

وقد روى المفسرون فى صدد الآية الثانية أن زعيما من بنى بكر جاء مستطلعا فلقى النبى صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، ثم قفل لاستثارة قوم ، وصادف خارج المدينة مواشى فنهبها ، وأنه خرج بعد مدة ما مع بعض قوم إلى الحج وكانت طريقهم قريبة من المدينة ، فأراد بعض المسلمين أن يثأروا منهم فنزلت الآية بالنهى ؛ كذلك رووا أن بعض المسلمين ظلوا ناقمين على المكيين صدهم إياهم عن زيارة الكعبة حينما خرجوا إليها ، وكانوا يهمون باغتنام ما يسنح لهم من الفرص لإلحاق الأذى بهم ، ومن جملة ذلك صد الحجاج عن مكة .

ومهما يكن من أمر الروايات فإن مضمون الآية الثانية يلهم حدوث بعض تصرفات أو همّ ببعض تصرفات من جانب بعض المسلمين فيها إخلال بحرمة الحج وتقاليده ، ومنع للحجاج بقصد إلحاق الضرر بأناس بينهم وبينهم عداء أو بغضاء ، حتى إن الآية عدت ذلك تعاونا على الإثم والعدوان ، وأنذرت الذين يتضامنون فيه بعقاب الله الشديد ؛ وجملة « يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » تلهم أن الحجاج الذين نهى المسلمون عن التعرض لهم مسلمون أيضا ، وفى ذلك نقض للرواية التى أوردها المفسرون ؛ وهذا يسوغ القول إن بعض المسلمين عطلوا آخرين منهم عن الحج بقصد إلحاق الأذى بأهل مكة الذين كان الحج والحجاج من أعظم مواردهم ودعامات حياتهم الاقتصادية .

ولما كانت سورة المائدة تأتى فى ترتيب النزول بعد سورة الفتح ، ولما كان الراجح أن هذا الترتيب بسبب مطلع السورة فى الدرجة الأولى ، لأن فى السورة مجموعات يرجح أنها نزلت قبل سورة الفتح - فإن من غير المستبعد أن تكون كلمة

« العقود » الواردة فى الآية الأولى قد عنت عقد صلح الحديبية ، إذ اعتبرت تعرض المسلمين لصد الحجاج عن الحج وإخلال حرمة الأشهر الحرم وتقاليد الحج الأخرى نقضاً له ، لأن فيه أذى بالمعاهدين فوق ما فيه من إخلال بحرمات وتقاليد مقدسة أقرها القرآن من حيث المبدأ ؛ وكأن الآية أرادت أن تقول إن سفك دم الصيد فى الأشهر الحرم هو محرم فكيف بغيره ؟ وكيف بنقض العقود ؟

نقول هذا مع علمنا أن بعض المفسرين قالوا إن كلمة «العقود» قد عنت ما دخل المسلمون فيه من عهود مع الله فى احترام حرماته وتعظيم شعائره باعتناقهم الإسلام ديناً ؛ وقد رأينا فى هذا القول شيئاً من التكلف يظهر حينما نمعن النظر فى الآيتين معاً وهما مرتبطتان موضوعا ونزولا أيضاً ؛ على أننا لو سلمنا بما قالوه فالآية الثانية على الأقل صريحة الدلالة على همّ بعض المسلمين بالتعاون على الإخلال بتلك الحرمات والشعائر اندفاعا بفكرة إلحاق الأذى بمن يحقدون عليهم ويضمرون لهم العداء ، وهم أهل مكة على الأغلب ، لأن الحجاج إنما يؤمون البيت الذى فيها ؛ وفى هذا صورة من صور العهد المدنى تدل على تأصل العداء ، وعلى ما حفز هذا العداء المسلمين إليه من الوقوف هذا الموقف الذى اقتضت الحكمة النهى عنه بهذا الأسلوب الزجرى الشديد توطيداً لحرمات الله وشعائره ، وللحرية الدينية مهما كان الباعث والحافز ؛ وفى هذا من الروعة وبعد المدى ما هو ظاهر ؛ وقد كان من دون ريب ناظماً لتصرفات المسلمين فى العهد النبوى ، كما أنه مستمر التلقين والإيحاء فيما بعده من عهود

## — ١٦ —

وللتسلسل التاريخى نذكر أن من الأحداث الجهادية المهمة التى ورد ذكرها فى القرآن فتح خيبر وغيرها من القرى اليهودية ، إذ احتوت آيات من سورة الفتح إشارات إلى ذلك ، وقد وقع هذا بعد صلح الحديبية بمدة قصيرة . ولقد بسطنا الكلام عن هذه الوقعة وظروفها ونتائجها فى فصل اليهود ، فنكتفى بالإشارة إليها .

## — ١٧ —

وبعد صلح الحديبية بسنتين تم الفتح المكى . وعلى خطورة هذا الفتح وجلالة

شأنه فإنه لم يرد عنه فى القرآن إلا إشارات خاطفة وغامضة أوضحتها الروايات إيضاحا ما ، ففى سورة التوبة الآيات ٧ - ١٦ التى أوردناها فى مكان سابق من هذا الفصل ؛ ومضمون الآيات يلهم أنها نزلت قبيل فتح مكة ، وفى صدد الحث والاستنفار إلى غزوها ، كما يلهم أن ذلك قد كان بسبب نكث بدأ من جانب أهل مكة المعاهدين ؛ وفى السورة نفسها الآيات ٢٣ - ٢٤ التى أوردناها سابقاً أيضاً ، ومضمونها يلهم أنها نزلت كذلك قبيل الفتح وفى الصدد نفسه ، حتى لا يتأثر المهاجرون بروابط الرحم والقربى والمصلحة المادية التى كانت تربط كثيراً منهم بأهلها ؛ وفى سورة الممتحنة الآيات ١ - ٣ التى نقلناها فى الفصل الأول من العهد المدنى ، وقد أجمع المفسرون والرواة على أنها نزلت بين يدى الفتح المكى ، وبمناسبة إرسال أحد المسلمين لبعض زعماء مكة تحذيراً باستعداد النبى لغزو مكة ؛ وقد احتوت حثا وتحريضاً ، ونهياً عن موالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين ، وتنبيها على أن الأرحام والأولاد لن تغنى عن المسلمين شيئا ، مما ينطوى فيه التحريض والإعداد ؛ ولقد جاء بعدها آيات تذكر ما كان من براءة إبراهيم عليه السلام والمؤمنين معه من قومهم لكفرهم ، وتدعو المسلمين للتأسى بهم ، مما هو متصل بالهدف الذى ذكرناه ؛ وقد رجحنا فى مناسبة سابقة أن الآيات تلهم أنها أوسع شمولا وتناولا من حادث فردى ، وآيات براءة إبراهيم عليه السلام مما يقوى هذا الترجيح ؛ وفى سورة النصر جاءت كلمة الفتح التى يذهب جمهور المفسرين إلى أنها كناية عن فتح مكة ، والتى جاءت بسبيل بيان ما كان من أثر هذا الفتح فى قوة الإسلام ونصره وانتشاره ، ولو أنها نزلت كما يرجح بعد الفتح بمدة غير يسيرة ، لتذكر النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين بما أتمه الله لهم من فتح ونصر ، وبما صار للإسلام من قوة وشيوع .

أما ملخص ماذكرته الروايات عن هذا الفتح فهو أنه قد تم فى الثلث الأخير من شهر رمضان من السنة الهجرية الثامنة ، وأن السبب المباشر له نقض قبيلة بنى بكر التى كانت داخلة فى عهد قريش وقتل أحد أفرادها شخصا من بنى خزاعة التى كانت داخلة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وتشجيع بعض القرشيين البكريين فى موقفهم ، وقد ذهب الخزاعيون إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه بما وقع عليهم من بغى واستنصروه ؛ وقد شعر أبو سفيان بخطورة الحادث فسارع إلى المدينة للاعتذار منه ،

وتوثيق العهد القائم بين المسلمين والمكيين ؛ ولقد أخفق أبو سفيان فى مهمته ، وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يستفز المسلمين ، وتم له حشد عظيم بلغ عدده عشرة آلاف من مهاجرين وأنصار وأعراب ، وسار به نحو مكة ؛ ودرى المكيون فاستنفروا حلفاءهم ؛ ولكن معظم هؤلاء الحلفاء وخاصة هوازن وثقيف، تأخر فى مسيره ، ولم ينضم إلى القرشيين إلا بنو بكر من الأعراب وأحابيش مكة ، وهم الغرباء النازلون فى ضواحى مكة والمختلطون من شتى القبائل والأجناس ؛ وقد رأى القرشيون أن لاطاقة لهم بالمقاومة ، فاستسلموا للنبى صلى الله عليه وسلم وحكمه ، ولم يقع إلا اشتباك جزئى فى ناحية من أنحاء مكة ، ومع فريق من الجيش دخل منها وفقا لخطة سير الجيش ، وأسفر عنه بعض القتلى ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم أمراً بالكف عن القتال حالما بلغه الخبر . وقد خطب النبى صلى الله عليه وسلم عقب دخول مكة فأعلن العفو عن أهلها ؛ وقد طهر ساحة الكعبة وداخلها من الأصنام ، وأقبل الناس على مبايعته على الإسلام حتى عم وظهر فيها دين الله وكلمته ، ثم ولى فتى من أحد بيوتات مكة غير البارزة واليا عليها وقفل راجعا . ومما جاء فى خطبته .

« لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . يامعشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عندالله أتقاكم . يامعشر قريش، ماترون أنى فاعل بكم ؟ فأجابوا : خيراً ؛ أخ كريم وابن أخ كريم ! فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين . ألا وإنها لم تحل لأحد قبلى ولاتحل لأحد من بعدى ، وإنما حلت لى ساعة من نهار هى ساعتى هذه » .

ومما روى أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم أخذ أباسفيان إليه وهو معسكر على مرحلة من مكة يتهيأ للدخول مع جيشه فأسلم على يديه ، وكرمه النبي فآذن أن من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن ، كما أنه أذن أن من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

كذلك مما روي أن الأنصار أخذوا يتساءلون عما إذا كان النبي وقد نصره الله

على قريش ، وييسر له فتح مكة ، يعود ثانية إلى المدينة أو يبقى فى مكة ويتخذها مقره ؟ فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فجمع زعماءهم وقال لهم : « معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم » .

— ١٨ —

ونص سورة النصر الرائع يغنى عن التعليق على ما كان من آثار الفتح الباهرة ، إذ انهدم السد الذى كان بين الإسلام وسائر العرب فتدفق سيل وفودهم ـ بعد انهدامه ـ على النبى صلى الله عليه وسلم من كل صوب ، حتى ليقال إن النبى لم يمت حتى دانت الجزيرة إجمالا للإسلام ، وكان فى ذلك تحقيق البشرى القرآنية بإظهار الإسلام على الدين كله التى احتوتها آية سورة الفتح ٢٧ ولم يمض على نزولها إلا سنتان . ولقد كان من آثار الفتح العظيم ، تلك الغزوة الكبرى التى سار النبى صلى الله عليه وسلم على رأسها إلى تبوك بنحو ثلاثين ألفاً ، والتى تكشفت عن رؤيته إمكانا لدفع الإسلام إلى الآفاق البعيدة وتوطيد حرية الدعوة إليه على ما ذكرناه فى فصل النصارى .

وغزو النبى صلى الله عليه وسلم لمكة بعشرة آلاف مقاتل هو فى ذاته دليل على ما وصل إليه أمر الإسلام والمسلمين من قوة وتعال وشيوع ، كما أن نزول المكيين على حكم النبى صلى الله عليه وسلم دون محاولة دفاعية دليل على ما امتلأت نفوسهم به من هيبة المسلمين والرهبة منهم ، هذا إلى مانبهنا إليه قبل قليل من احتمال طروء ما بدل حالهم من قوة إلى ضعف ، ومن تضامن إلى تخاذل ، ومن صلابة إلى جنوح للمسالمة والمسايرة . وقدوم أبى سفيان لتوثيق العهد إذا صح ـ وهو ما لا نستبعده بعد ما ارتضت قريش الاعتراف بالنبى نداً وعقد صلح معه ـ دليل على هذا وذاك . ومما لاريب فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أدرك الموقف فاستغله أحسن استغلال .

— ١٩ —

وفى سورة التوبة آيات تشير إلى يوم حنين ، وهو أحد وقائع الجهاد النبوى . ومن الجدير بالذكر أنها الوقعة الوحيدة التى ذكر اسمها فى الآيات الواردة عنها . وقد جعلنا الكلام عنها عقب الكلام على فتح مكة لأنها وقعت عقب الفتح . وهذه

الآيات أولا :

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَٰفِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٢٥-٢٧

والآيات وردت فى معرض تذكير المسلمين بتأييد الله لهم ، وحثهم على الاعتماد عليه ، والاستجابة للنبي فى دعوته إلى الجهاد . والصورة التي يمكن اقتباسها منها هى هذه:

١ - إن عدد المسلمين فى هذا اليوم الجهادى كان كثيراً حتى أنهم ازدهوا به .

٢ - إن المسلمين مع ذلك اضطربوا حين اشتباكهم بالعدو ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، ولم يلبثوا أن انهزموا .

٣ - إن الله ثبت النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصين من المؤمنين فى الميدان وأيدهم بروحه ونصره ، فلم يلبث الموقف أن انقلب إلى مصلحة المسلمين وتمت الهزيمة على الكفار .

٤ - إن فريقا من المحاربين قد ترشح لعفو الله وتوبته أو قد نالهما فعلا فاندمج فى الإسلام والمسلمين .

أما ما جاء فى الروايات عن هذه الوقعة فيمكن تلخيصه كما يلى :

بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى مكة أن قبائل هوازن قد احتشدت بوادى حنين ، فاعتزم أن يسير إليها ، فسار بجمع كبير يتراوح على حسب الروايات بين عشرة وستة عشر ألفاً فيهم كثير من قريش الذين أسلموا ؛ وكان عدد المحتشدين من هوازن أربعة آلاف ؛ ولما اشتبك الفريقان بدا من المسلمين شيء من الاستهتار بالعدو لقلته وكثرتهم ، غير أن نبالة هوازن المهرة رشقوهم بمدرار من السهام فلم يلبثو أن اضطربوا واختل توازنهم وولى أكثرهم الادبار خلا النبي صلى الله عليه وسلم وبضع مئات من المخلصين ، وقد أخذ منادى النبي يهتف بالناس ويدعوهم إليه ، فلم يلبث المسلمون أن عادوا إلى

رشدهم وكروا ثانية فانهزم مقاتلو هوازن تاركين نساءهم وذراريهم ومواشيهم غنيمة للمسلمين؛ ثم أرسلوا وفداً يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم إسلامهم ويطلب رد سبيهم وماشيتهم، فاستشار النبي المسلمين من جهة، وخير رجال هوازن بين السبي والماشية من جهة: وقد تم الأمر على رد السبي وتوزيع الماشية، ودينونة هوازن بالإسلام. وقد وزع النبي أكثر الماشية على المسلمين المستجدين من زعماء مكة والقبائل قبل أن يعود، تألفاً لقلوبهم. وقد ذكرت الروايات فيما ذكرت موقفا رائعا بين النبي والأنصار فى صدد هذا التوزيع؛ فقد وجد بعض هؤلاء فى أنفسهم حينما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم قد وزع الغنائم على المستجدين ولم يعط الأنصار منها شيئا، وبلغ ذلك النبي فجمعهم وخطبهم قائلا: يامعشر الأنصار! ماقالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها على فى أنفسكم! ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ فقالوا: بل الله ورسوله أمن وأفضل. فقال لهم: أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلا فآسيناك؛ يامعشر الأنصار! أوجدتم فى نفوسكم بلعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم لإسلامكم؟ ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم وهتفوا قائلين: رضينا برسول الله قسما وحظا.

والمتبادر أن سير النبي صلى الله عليه وسلم إلى هوزان إنما كان بسبب احتشادها فى وادى حنين فى طريقها إلى مكة انتصارا لها على المسلمين؛ وبكلمة أخرى: إن موقف العداء المباشر قد بدأ منها فضلا عن موقفها العدائى السابق للمسلمين فيما كان من تضامنها مع قريش فى حملة الأحزاب. ومن روح الآيات وفحوى الروايات يبدو أنه كان لهذه القبائل حيز عظيم من حيث القوة والعدد، وطبيعى أن يكون لانتصار المسلمين عليهم، ودينونتهم بالإسلام بعد ذلك أثر فى ازدياد قوة الإسلام وشيوعه وتعاليه فى منطقة مكة.

- ٢١ -

وليس فى القرآن ما يشير إلى فتح الطائف وإسلام ثقيف على خطورة الحادث؛ أما الروايات فقد ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن انتهى من هوازن ذهب لحاصر الطائف ، لأن أهلها ثقيفاً كانوا حلفاء قريش وسارعوا إلى نصرتهم حينما جاء يغزو مكة ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق فقفلوا راجعين ، وقد كان لها سور منيع حال دون فتحها فى هذه المرحلة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بفك الحصار بعد عشرين يوما والعودة إلى المدينة . ولقد كانت رحلة تبوك الكبرى بعد ذلك بقليل ، مما يسوغ القول إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير خطراً من ترك الطائف إلى فرصة أخرى ، ورأى العودة والتعجيل برحلة تبوك ففعل ذلك ، لاسيما أن الطائف وسكانها قد غدوا شبه منعزلين فى وسط دان أكثره بالإسلام بدينونة مكة وهوازن والقبائل الأخرى المحيطة بمكة بالإسلام ، وكان بين بعض الذين لم يدينوا به وبين النبي صلى الله عليه وسلم مواثيق صلح وسلام على ما ألهمته آيات سورة التوبة الأولى .

ولقد جاء فى سورة التوبة الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... ٢٨

والآية فى صدد تحديد علاقة المشركين التقليدية بالمسجد الحرام ومنطقته المحرمة فى ظل الإسلام ، لأنها نزلت بعد فتح مكة كما يلهمه مضمونها ؛ وقد احتوت دلالة على توطد سلطان الإسلام وشموله فى مكة ، وما صار إليه من قوة وعزة جانب ، غير أنها إلى هذا انطوت على معنى من معانى إعلان المقاطعة وسد الأبواب فى وجه من بقى على شركه بعد الفتح ؛ ولعل أهل الطائف هم المقصودون فى الدرجة الأولى بهذا ، لأنهم أهم من بقى على شركه من سكان الحجاز . ولقد ذكرت الروايات أنهم بعد بضعة أشهر من فك الحصار عنهم أخذوا يفكرون فى طريقة التفاهم مع النبي ، وجاء منهم من فاوضه فعلا ، ثم انتهى الأمر إلى دينونتهم بالإسلام على يد وفد منهم جاء

إلى المدينة مبايعاً النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ؛ وهذا مما قد يدعم ما قلناه من أنهم كانوا هم المقصودون أو المقصودون بالدرجة الأولى من المقاطعة التي انطوت في الآية ؛ فلعلهم أسرعوا إلى الاتصال بالنبي حينما أعلن تحريم دخول المشركين للحرم يوم الحج الأكبر الذى أعلنت فيه البراءة من المشركين المعاهدين الذين بدا منهم الختل أو النكث على ما ذكرناه فى مناسبة سابقة . أو حينما سمعوا العزم على إعلان ذلك ، لأنهم رأوا فيه ضربة قاضية عليهم ماديا ومعنويا فلم يروا مناصا من المسارعة إلى الخروج من المأزق الحرج ؛ وطبيعى أن ترجيحنا أن أهل الطائف هم المقصودون فى الدرجة الأولى من المقاطعة لا يعنى أن لا يكون قد قصد بها سائر من بقى على شركه .

وواضح أنه لا يرد أى معنى من معانى مصادرة الحرية الدينية فى هذه المقاطعة والحظر ، لأن البيت الحرام قد أصبح طاهرا من مظاهر الشرك ، وأصبحت تقاليد الحج مثل ذلك ، وصار تحت السلطان الإسلامى ؛ وليس من المعقول أن يسمح للمشركين بممارسة تقاليد الوثنية فيه ، عدا ما له من الحق الطبيعى فى سد بابه على أعدائه السياسيين والدينيين .

## - ٢١ -

وفى صيف السنة التاسعة استنفر النبي المسلمين إلى غزوة تبوك التى بسطنا ظروفها ونتائجها فى فصل النصارى ، والتى نزلت فصول عدة من سورة التوبة فى صددها ؛ فنكتفى بهذه الإشارة إليها هنا لإتمام التسلسل التاريخى للوقائع الجهادية التى ذكرت فى القرآن .

هذا ؛ ونريد أن نشير إلى آية مدنية فى سورة الشعراء لما ينطوى فيها من صورة جهادية طريفة ؛ وهى الآية الأخيرة منها :

« إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ...

وقد جاءت بعد آيات مكية فيها حملة لاذعة على الشعراء ، وهى الآيات ٢٢٤ - ٢٢٦ التى أوردناها فى مناسبة سابقة .

وطابع الآية المدنى لا يتحمل شكا ؛ فالمسلمون إنما استطاعوا أن ينتصروا لأنفسهم فى العهد المدنى ، وحكمة وضعها من السورة المكية واضحة ، والاستثناء هو للشعراء المسلمين كما يبدو واضحا كذلك حينما يقرأ ما قبل الآية .

أما الصورة التى تنطوى فيها فهى أن شعراء المسلمين المخلصين كانوا ينتصرون للمسلمين بشعرهم ممن كان يبدؤهم بالظلم والبغى ، أى أن شعراء الكفار كانوا يحاربون النبي والمسلمين بسلاح الشعر ، وكان شعراء المسلمين يقابلونهم بالمثل ، وهذا مما أيدته الروايات المتواترة ، ومما هو طبيعى ؛ لأن الشعر كان جزءاً مهما من حياة المجتمع العربى وسلاحاً من أسلحته فى ذلك العهد .

ويلفت النظر خاصة إلى روعة اتساق استعمال شعراء المسلمين لهذا السلاح مع المبدإ الجهادى العام وهو الدفاع والمقابلة .

---

# فصـــــل
# فى التشريع القرآنى وصلته بالسيرة النبوية

## تمهيـــــد

صلة التشريع القرآنى بالسيرة النبوية ومشاهدها ـ مدنية التشريع ومداها . تعليل مدنية التشريع . مباحث هذا الفصل .

— ١ —

للتشريع القرآنى صلة قوية بالسيرة النبوية لا تحتاج إلى بيان مسهب ؛ فإن جل الآيات والفصول التشريعية إن لم نقل كلها قد نزلت إجابة على أسئلة واستفتاآت ، أو بمناسبة حوادث ووقائع وظروف متصلة بالسيرة النبوية ومواقف وتصرفات المسلمين وغير المسلمين فى أثنائها ؛ فكانت من جهة حلا لمشاكل وشؤون ومسائل واقعية ، ومن جهة تشريعا مستمر الحكم والتلقين والمدى ، وبعبارة أخرى إن التشريع القرآنى يشتمل على صور من السيرة النبوية والعهد النبوى ، والمجتمع الإسلامى فيه .

وفى التشريع القرآنى بعض التطورات ؛ نعنىأن هناك أحكاما أو أوامر ونواهى أبكر من أحكام وأوامر ونواهى ، وأن من المتأخر ما جاء ناسخا أو معدلا للمتقدم على حسب ما اقتضته الحكمة من مراعاة الظروف أو التطابق معها سلبا وإيجابا ، وتخفيفا وتشديدا ، وضيقا وسعة ؛ وينطوى فى هذا كذلك صور مثل تلك كما هو المتبادر .

— ٢ —

وإذا استثنينا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وركنى الصلاة والزكاة ، استطعنا أن نقول إن التشريع القرآنى مدنى ؛ مع التنبيه إلى نقطة هامة وهى أننا لا نقصد بالتشريع المبادئ المتنوعة التعبدية وغير التعبدية التى تضمنتها الدعوة القرآنية ، وإنما نقصد ما فيه من قواعد وحدود للشؤون السياسية

والاجتماعية والاقتصادية والعائلية ، بل الواجبات التعبدية أحيانا ؛ ذلك لأن جل المبادئ الإيمانية والتعبدية والأخلاقية والاجتماعية ، بل الاقتصادية والسياسية التي يصح أن يقال إن التشريع القرآني بالمفهوم الذي نبهنا إليه ، وباستثناء آت قليلة قد تناولها - قد وردت في القرآن المكي ، خلافا لما يتوهم بعض المسلمين ، ويحلو للمستشرقين والمغرضين أن يكرروه بسبيل غمز النبي صلى الله عليه وسلم بالتبدل من نبي إلى سلطان ، على ما شرحناه في كتاب خاص سميناه « تعاليم القرآن ونظمه »

وهكذا يصح أن يقال إن التشريع القرآني المدني صورة تطورية إلى حد ما للمبادئ القرآنية المكية في شكل قواعد وحدود . وفي هذا أيضاً دليل آخر على صلة التشريع بالسيرة النبوية كما هو واضح .

- ٣ -

وطبيعة كل من العهدين المكي والمدني توضح علة مدنية التشريع ومكية المبادئ العامة ؛ فالعهد المكي هو عهد دعوة كما كان عهد قلة وضعف ومحنة للمسلمين ، والمقتضى لهذا هو عرض المبادئ المتنوعة للدعوة عرضاً قويا ، وهو ما امتاز به الأسلوب المكي على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ؛ كما أن حالة المسلمين لم تكن لتستدعي تشريعاً وتقعيداً لأن مثل هذا إنما يكون في حالة الاستقرار وقيام بنيان رسمي ، في حين صار العهد المدني عهد طمأنينة واستقرار وكثرة مؤلفة من مختلف الفئات ، وقد توطد فيه للإسلام كيان سياسي واجتماعي، هذا إلى أنه لم يكن ثمة محل لتكرار ما جاء في القرآن المكي من المبادئ - لأن القرآن كل لا يتجزأ من حيث شموله ووجوب الإيمان والأخذ به - إلا بالقدر الذي اقتضته حكمة التنزيل .

ومن الجدير بالتنبيه أن مالا يوجد في القرآن المكي من شؤون اختص بها العهد المدني كالجهاد ، قد جاء عنه الكلام في القرآن المدني بأسلوب قوي رائع من جهة ، محتويا مبادئ عامة فيه من جهة أخرى ؛ كما يتضح من إنعام النظر في آياته التي استعرضناها في الفصل السابق . وبهذا تتسق حكمة التنزيل وأسلوبه اتساقا بديعا .

- ٤ -

والفصول التشريعية فى القرآن المدنى كثيرة ومتنوعة ، منها ما يتصل بالجهاد ، ومنها ما يتصل بالموقف الذى يجب أن يوقف من المنافقين وغير المسلمين فى مختلف الحالات ، ومنها ما يتعلق بالواجبات التعبدية ، ومنها ما يتصل بالشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعائلية والقضائية .

ولقد استعرضنا الآيات الواردة فى الجهاد والمنافقين والكتابيين فى الفصول الخاصة بهم ، ونبهنا إلى ما فيها من مبادئ وتشريعات ، ولهذا فإننا لانعود إلى الكلام عنها فى هذا الفصل إلا بالقدر الذى تمس الحاجة إليه مما يتصل بالشؤون الأخرى تدعيما أو توضيحا .

وعلى هذا فإن مباحث هذا الفصل هى ما يلى :

١ - التشريع التعبدى .

٢ - التشريع السياسى .

٣ - التشريع الاجتماعى .

٤ - التشريع الاقتصادى .

٥ - التشريع العائلى والآداب السلوكية البيتية .

وسيكون الكلام غير مسهب فى هذه المباحث ، لأن المقصد الرئيسى من الفصل هو استعراض صور السيرة النبوية من هذه الناحية فحسب ، ولنا كتاب مفصل فى تعاليم القرآن يصدر بعد هذا إن شاء الله ، ضمناه بحوثاً مستفيضة فى هذه الشؤون .

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى أمر فى صدد هذا الفصل ؛ فإن كثيرا من الآيات التى استعرضناها قد أوردت فى فصول سابقة ، وقد نبهنا فى تلك الفصول إلى الصور التى انطوت عليها ، غير أننا لم نر هذا مغنيا عن هذا الفصل ، حيث أردنا أن نرسم فيه صورة متسلسلة للتشريع القرآنى وتطوره بصورة خاصة ، ودون غيره من ملابسات ، مما رأينا فائدة كبيرة له لإتمام الصورة القرآنية للسيرة النبوية الشريفة .

# المبحث الأوّل

## التشريع التعبـــدى

تبكير فرض الصلاة وممارستها ـ ليس فى القرآن تحديد لكيفيات وأوقات وإنما كان هذا بتشريع نبوى ـ آيات التطهر للصلاة ومداها ـ ترجيح ممارسة الوضوء مبكراً بتشريع نبوى ـ تطهير الثياب ـ آيات صلاة الخوف ومداها ـ قصر الصلاة فى السفر مطلقا تشريع نبوى ـ آيات صلاة الجمعة ومداها وما فيها من صور ـ إقامة الجمعة قبلها بتشريع نبوى ـ الأذان تشريع نبوى ـ بدء القبلة تشريع نبوى ـ آيات الصوم وتبكير فرضه ـ تعليق على القول بالناسخ والمنسوخ فيها ـ بعض الصور والمناسبات التشريعية ـ الحج وترجيح مدنية تشريعه فى القرآن ـ الآيات الواردة فى الحج ومناسكه ـ إقرار مناسك الحج السابقة ومداه وحكمته ـ صور وتطورات تلهمها الآيات فى صدد الحج ـ ممارسة المسلمين الحج فى العهد المكى ـ وفى العهد المدنى .

**ـ ١ ـ**

### الصلاة ومتعلقاتها

إذا استثنينا صلاتى الجمعة والخوف ، والطهارة والقبلة المتصلتين بالصلاة : فإننا لانجد فى القرآن المدنى تشريعاً للصلاة . والمتبادر أن هذا كذلك لأن الصلاة قد فرضت ومورست منذ أول العهد المكى حتى أصبحت واقعية مستمرة كما يستفاد من الآيات التالية مثلا :

١ ـ أَرَءَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ... العلق ٩ ـ ١٠

٢ ـ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ... الأعلى ١٤ ـ ١٥

٣ ـ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ... طه ١٣٢

٤ ـ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ... الإسراء ٧٨

وفى مطلع سورة البقرة ـ وهو أول آيات العهد المدنى أو من أولها ـ تنويه بالمسلمين الذين يقيمون الصلاة ، مما يدل على ما قلناه من أنها عملية قائمة مستمرة :

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ » ...
٣

هذا مع التنبيه إلى أنه لم يرد فى القرآن مكيه ومدنيه تحديد لكيفية الصلاة وعدد ركعاتها وأوقاتها ، وكل ماذكر فيه حالات القيام والركوع والسجود . وقد حاول بعض المفسرين أن يستخرجوا أوقاتها من بعض الآيات مثل آية الإسراء التى نقلناها آنفاً ، ولكنهم على كل حال لم يقولوا إن القرآن احتواها بصراحة وضبط .

فالصلاة والحالة هذه قد فرضت أوقاتاً وكيفيات بالعمل والتعليم النبوى ، ومع أن هناك روايات تذكر أن أوقاتها الخمسة قد فرضت ليلة الإسراء ، أى حول منتصف العهد المكى على مايرجح وقت هذا الحادث ، فإنه ليس مما يتحمل شكا أن النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين كانوا يمارسون الصلاة الإسلامية منذ فجر البعثة ؛ وكل ما يمكن أن يحتمل أن تكون السنة النبوية قد ثبتت لها أوقاتاً وعدداً وكيفيات بعد هذا الفجر ، ولا نستبعد إن لم نقل نرجح أن يكون هذا قد جرى على مراحل وليس دفعة واحدة .

وهدف تعدد الصلاة الإسلامية هو ـ فوق أنه إلى واجب المؤمن بعبادة الله وأدائه بعض حقه من الشكر على آلائه ـ موالاة إيقاظ ضمير المسلم بذكر الله وتهذيب نفسه وتنقية روحه ؛ وعلى حاجة الإنسان الدائمة إلى هذا فإننا لا نشك فى أنه كان عظيم الأثر فى تهذيب وتنقية المجتمع الإسلامى الناشئ الذى كان جل أفراده يدينون بالشرك ويرتكسون فى أعمال وعادات وطقوس جاهلية .

— ٢ —

أما التطهر للصلاة فقد ورد تشريعه فى موضعين من القرآن المدنى كما ترى فيما يلى :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ النِّسَآءَ

فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا (١) صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ... النساء ٤٣

٢ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ...
المائدة ٦

والآية الثانية أوضح من الناحية التشريعية كما هو ظاهر. وقد روى المفسرون والرواة أن التيمم قد رخص به فى طريق العودة من إحدى الغزوات حيث أدرك المسلمين وقت صلاة ولم يتيسر لهم ماء للوضوء؛ وفى هذا صورة واقعية من صور السيرة، وواضح أنه أريد بالرخصة تلقين أهمية الاستعداد للصلاة بالتطهر ولو بما يقوم مقامه رمزيا.

ومع أن هناك روايات ذكرت أن النبي والمسلمين كانوا يتطهرون بالماء من الحدثين قبل الدخول فى الصلاة منذ العهد المكى، فإن روح الآيات ومضمونها يلهمان أن هذا التطهر لم يكن مرعيا رعاية تامة، فاقتضت الحكمة التنبيه والتشريع مرة بعد أخرى. والذى نرجحه أن هذا الإهمال أو عدم الرعاية إنما كان يقع من المستجدين فى الإسلام وخاصة من الأعراب.

على أن التشريع فى آية المائدة لايحتوى تفصيل الكيفيات الذى تكفلت به السنن المروية على اختلاف فيها؛ وقد يكون هذا محل بحث؛ فإن آية المائدة مما نزل

---

(١) أصل المعنى: اقصدوا أو اختاروا بقعة طاهرة من الأرض فامسحوا بغبارها وجوهكم وأيديكم، ثم صارت كلمة التيمم التى هى بمعنى القصد والتوجه اصطلاحاً إسلاميا.

متأخراً ، وعلى كل حال بعد آية النساء ، والتطهر للصلاة مما كان قديما ؛ فاكتفاء القرآن بما حددته آية المائدة ، وما فى الروايات فى السنن من خلاف ، ثم ماهناك من اجتهاد فقهى بأن الأركان الأربعة المذكورة فى الآية مجزية - قد يدل على أن هذا هو الأصل الذى كان جاريا منذ البدء ، وأن السنن المروية لم تكن مستمرة دون انقطاع وتبديل ، وأن الاهتمام قد ظل منصباً على الأركان الأربعة . وفى الفقرة الأخيرة من آية المائدة قرينة على هذا فيما يبدو لنا .

- ٣ -

وتطهير الثياب ركن من أركان الدخول فى الصلاة كما هو معلوم ؛ ولم يرد فيه تشريع مدنى ، ولقد ورد فى مطلع سورة المدثر آية هى من أبكر ما نزل : « وثيابك فطهرْ » ٤ ، مما يسوغ القول بأن هذا التطهير كان مثل التطهر من الحدثين منذ فجر البعثة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قد علمه للمسلمين وجروا عليه ؛ أما كيفياته وحدوده فقد تكفلت السنة ببيانها على اختلاف فى الروايات ، مما يسوغ القول إنه كان يتساهل فى ذلك بعض التساهل أيضاً ؛ ويلفت النظر خاصة إلى ماقررته الفقرة الأخيرة من آية المائدة من حكمة تشريعية سامية ، وإن أسلوبها ومضمونها ليلهمان أن من هدفهما إثارة الحافز فى نفوس المسلمين إلى التطهر والنظافة فى الدرجة الأولى ؛ وإذا لوحظ أن المجتمع الإسلامى الناشئ قد كان فيه جماعات كبيرة من البدو قلما يعنون بنظافة وطهارة ، وأنه كان يسكن منطقة شحيحة الماء تضطر ساكنيها إلى الاقتصاد بالماء وعدم التطهر والنظافة كما يجب ، بدت لنا الحكمة السامية الخاصة مضافة إلى الحكمة السامية الخالدة .

- ٤ -

وآية النساء تحتوى فوق تشريع التطهر للصلاة كمبدإ ، تشريع عدم المرور من المسجد إلا على طهارة مالم يكن هناك ضرورة ملزمة على ما أوله المفسرون لجملة « إلا عابرى سبيل » ، وقد رجحنا فى مناسبة سابقة أن هذا قد كان لأن حجرات النبى صلى الله عليه وسلم متصلة بمسجده الشريف . وفى هذا على كل حال صورة واقعية . أما النهى عن الصلاة فى حالة السكر ومافيه من صورة واقعية فسيأتى الكلام عنه بعد .

- ٥ -

وقد جاء فى صدد صلاة الخوف الآيات التالية :

« وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا . وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا . فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ...

النساء ١٠١ - ١٠٣

وفى الكيفية المذكورة لايذكر الركوع ولا قعود التشهد ولاماهية القصر من الصلاة ، مما تكفلت ببيانه السنة ؛ وفى هذه الرخصة صورة واقعية ، إذ تدل على أن المسلمين كانوا يرون حرجاً فى اضطرارهم إلى الوقوف أمام العدو فى ظروف الحرب أو الخوف ، وعدم تمكنهم من أداء الصلاة ، كما أن فيها تنبيها إلى خطر أداء الصلاة فى أوقاتها مهما كان الأمر ، فحلت المشكلة على الوجه المذكور .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الحل إنما كان فى حال الخوف ، فى حين أن هناك سنة بقصر الصلاة فى حالة السفر مطلقاً ، مما يسوغ القول أن هذه الرخصة تشريع نبوى ، وواضح أنه لايتعارض مع تلك الرخصة لأنه ليس فى الآية حصر ، وهذه واحدة من كثير من أمثالها جرت بتشريع نبوى ، منها مامر كالصلاة والتطهر لها

وكيفياتهما ، ومنها ماستأتى الإشارة إليه ؛ وفى هذا صورة من صور السيرة النبوية والتشريع فى أثنائها .

- ٦ -

وقد جاء فى صدد صلاة الجمعة الآيات التالية :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَٰرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ...
٩ - ١١

وروح الآيات وأسلوبها يدلان على أن هذه الصلاة لم تشرع حين نزول الآيات ، وإنما كانت أقدم من ذلك ، وأن الآيات إنما نزلت للتنبيه على خطورتها ، وإيجاب الاهتمام لها ، بسبب ما كان يبدو من المسلمين أو بعضهم من تقصير فى ذلك ناشئ عن الانهماك فى التجارة واللهو ، إذ احتوت أمراً تشريعيا بوجوب ترك البيع واللهو والمسارعة إلى صلاة الجمعة حينما يؤذن لها .

ولقد ذكرت الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أقام صلاة الجمعة فى حى بنى عوف حينما قدم مهاجراً من مكة ، وكان هذا طبعا قبل نزول الآيات ، مما يستأنس به على صحة الاستلهام ، ويؤيد أن النبي والمسلمين كانوا يجتمعون لصلاة الجمعة فى مكة منذ عهد قد يكون مبكراً ، ومما يسلك فى سلك التشريع النبوى أيضا ؛ كما ذكرت الروايات أن الأنصار كانوا « يجمِّعون » أى يقيمون الجمعة بعد إسلامهم وقبل الهجرة ، مما يسوغ القول بأنهم قد تلقوا ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ويدعم ما قلناه آنفا .

وعلى هذا فالآيات وهي تنبه على خطورة صلاة الجمعة تنطوى على صور متنوعة ،

منها اشتغال بعض المسلمين بالبيع عن هذه الصلاة ، ومنها انفضاض بعضهم من المسجد والصلاة قائمة أو والنبي قائم لهـا حينما تعرض لهم عارضة من تجارة أو لهو ، ومنها الاهتمام لتجميع المسلمين يوم الجمعة للصلاة وما فى هذا من قصد اجتماعى جليل فيه تعليم وتأديب ومصلحة عامّة ، سواء بالنسبة للمجتمع الإسلامى الناشئ الحاضر أو للمجتمع الإسلامى بصورة عامّة .

- ٧ -

وليس فى القرآن تشريع للأذان أيضا ، وكل مافيه إشارة إلى أن المسلمين كانوا ينادون للصلاة ، كما جاء فى آيات سورة الجمعة وكما جاء فى إحدى آيات سورة المـائدة هذه :

« وإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا ولَعِبًا ... ٥٨

وقد ذكرت الروايات أن الأذان للصلاة بالكيفية الجارية قد ابتدأ فى المدينة ؛ وهذا معقول ، لأنه متصل بطبيعة العهد المدنى دون المكى ، حيث لم يكن المسلمون فى هـذا كثرة وأحراراً يمكنهم أن ينادوا للصلاة جهرة وجماعة ، فى حين كان هذا ممكنا وضروريا فى العهد المدنى ؛ وعلى كل فإن حال تشريع الآذان هو تشريع نبوى كما هو واضح .

- ٨ -

والقبلة ركن من أركان الدخول فى الصلاة كما لايخفى ، وقد بسطنا الكلام عما تعلب عليه أمرها بما فيه الكفاية فى فصل اليهود فنكتفى بهذه الإشارة ، مع التنبيه إلى أن استقبال المسجد الحرام ( الكعبة ) قبل المسجد الأقصى ثم التحول إلى هذا إنما كانا تشريعا نبويا ، وأن التحول عن هذا إلى الأول هو وحده التشريع القرآنى ، مع ملاحظة ماقلناه فى المتاسبة السابقة من احتمال أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتحول قبل نزول آيات القبلة ونزول هذه الآيات بعد ذلك مثبتة مشرعة .

- ٩ -

## الصوم

هناك روايات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صام عاشوراء وحض على صيامه قبل نزول آيات فرض صيام رمضان ، وأن صيام هذا اليوم متصل بتقليد جاهلي يوم تجديد ستار الكعبة على ما ذكرناه فى كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » وعلى كل حال فإن صيام شهر رمضان لم يفرض إلا فى العهد المدنى بالآيات التالية :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ والْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ (١) فَلْيَصُمْهُ ومَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ولاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ولِتُكْمِلُوا العِدَّةَ ولِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى ولْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وكُلُوا واشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ

(١) أي من كان مقيما وحاضرا أيام الشهر .

الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ولاَ تُبَٰشِرُوهُنَّ وأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فى الْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ ءَايَٰتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ... البقرة ١٨٣ - ١٨٧

واستئناساً بأن سورة البقرة أولى سور العهد المدنى يمكن أن يقال إن صيام رمضان قد فرض فى السنين الأولى من هذا العهد ؛ والروايات تذكر أنه كان بعد تحويل القبلة إلى الكعبة بشهر ، أى فى الثلث الثالث من السنة الهجرية الثانية .

ولقد قال بعض العلماء والمفسرين بوجود ناسخ ومنسوخ فى آيات الصوم ، إذ استدلوا من الآية الثانية على أن الصيام فرض فى أوّل الأمر بصورة عامّة ، وبدون تحديد شهر كامل ، مع تخيير المسلمين القادرين عليه بين الصيام والفداء عنه بإطعام مسكين عن كل يوم ، ثم أكدت الفريضة بالآية الثالثة إذ جعلت كامل شهر رمضان ، وحتم صيامه على غير المريض والمسافر ، ونسخ التخيير بين الصوم والفداء بالنسبة للقادرين ؛ فإذا صح هذا كان الفرض الأوّل هو الخطوة الأولى التى اقتضت الحكمة أن تكون لعدم الإحراج ، حتى إذا تعود المسلمون الصيام كانت الخطوة الثانية . وفى هذا مظهر من مظاهر التطور يمكن أن يكون قد سار مع قوة رسوخ الدين فى عامّة المسلمين ورغبتهم فى التطوع لله بالصيام . على أن أمر النسخ ليس مسلماً به عند علماء آخرين قالوا إن جملة « شهر رمضان » هى بدل من الأيام المعدودات ، وإن الآيات الثلاث الأولى قد نزلت دفعة واحدة . والحق أن صيغة هذه الآيات ومضامينها تتحمل صحة القولين معاً . وإذا أردنا أن نقيس فرض الصيام على تشريعات تعبدية أخرى كالصلاة وكتحريم الخمر ساغ ترجيح القول الأول ، لأننا نرى فى هذا وتلك تدرجا اقتضته الحكمة ، ويمكن أن يكون فرض الصوم سار على مقتضى هذه الحكمة .

والآية الأخيرة تدل على أن المسلمين وقعوا فى شىء من الحرج أو الإثم فى صدد قرب نسائهم فى ليالى الصوم ، وقد ذكرت الروايات أنهم كانوا يرون وجوب الامتناع عن الأكل والنكاح إذا ناموا بعد العشاء ثم استيقظوا قبل الفجر ، وأن بعضهم قد فعل ذلك فأهمه الأمر فلجأ إلى النبى صلى الله عليه وسلم يعتذر فنزل الوحى

بالآية ؛ وطبيعى أن تكون الآية قد نزلت متأخرة عن الآيات الثلاث الأولى ، ومضمونها يؤيد ذلك ، وقد وضعت فى مكانها لإتمام السياق. وبعض العلماء يقولون إنها ناسخة لأمر كان يعتبره المسلمون واجباً ؛ ولعل هذا كان تعليما نبويا فى صدد الكيفيات حينما فرض الصوم ، فخفف الله عنهم حينما ظهر الحرج. وأسلوبها ومضمونها يؤيدان هذا على ما هو المتبادر .

- ١١ -

## الحج

إذا صح ترجيحنا أن آيات سورة الحج ٢٥ - ٣٧ مدنية - وترجيحنا مستند إلى إلهام الآيات ومضمونها ، وخاصة تنديدها بالكفار الذين يصدون عن المسجد الحرام - فإننا نستطيع أن نقول إن الآيات التى فرضت الحج وذكرت مناسكه مدنية ، وبالتالى إن تشريع الحج هو تشريع مدنى ؛ أما القرآن المكى فلم يحتو إلا إشارات إلى الحرم وأمنه وبيت الله المحرم وبركانه وعلاقة إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما وسلم به ... الخ .

وإليك أولا الآيات الواردة فى الحج وتشريعه :

١ — إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ...

البقرة ١٥٨

٢ — يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ... البقرة ١٨٩

٣ — وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ

أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج[1] فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب . الحج أشهر معلومت فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يأولى الألبب . ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضتم من عرفت فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هدكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم . فإذا قضيتم منسككم فاذكروا الله كذكركم ءاباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا ءاتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلق . ومنهم من يقول ربنا ءاتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب . واذكروا الله فى أيام معدودت فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه

---

(١) اعتمر بمعنى زار . والاعتمار فى الاصطلاح الفقهى هو الزيارة فى غير موسم الحج أو بغير نية الحج . فالحاج حينما يحرم إما أن ينوى العمرة فقط ، أو ينوى قرن العمرة والحج معا . فإذا نوى العمرة فإنه حينما يصل إلى مكة يطوف بالكعبة زائرا ثم يتحلل من أحرامه ، وحينما يأتى وقت الذهاب إلى عرفات يحرم بنية الحج ؛ أما إذا نوى القران فإنه يظل محرما إلى أن ينزل من عرفات فيزور الكعبة حين دخوله مكة ويظل محرما إلى أن يقف فى عرفات وينزل منها فيذهب إلى مكة ويطوف بالكعبة ثم يتحلل من أحرامه ؛ وكذلك إذا دخل زائر إلى منطقة الحرم فى غير موسم الحج فعليه أن يحرم بنية العمرة ، وحينما يدخل إلى مكة يزور الكعبة ويطوف بها ثم يتحلل من إحرامه .

تُحْشَرُونَ ... البقرة ١٩٦ - ٢٠٣

٤ — إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ . فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ... آل عمران ٩٦ - ٩٧

٥ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَٰٓئِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَٰٓئِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ...

المائده ١ - ٢

٦ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَٰلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ

وحُرِمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مادُمْتُمْ حُرُمًا واتَّقُوا اللهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ والشَّهْرَ الْحَرَامَ والْهَدْىَ والْقَلَٰئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مافى السَّمَٰوَٰتِ وما فى الْأَرْضِ وأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ... المائدة ٩٤ - ٩٧

٧ — إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ويَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ والْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَٰكِفُ فِيهِ والْبَادِ ومَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عذابٍ أَلِيمٍ . وإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ والْقَائِمِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ . وأَذِّن فى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ ويَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فى أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَارَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ . ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ . ذَٰلِكَ ومَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ إِلَّا مايُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ . حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ومَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فى مَكَانٍ سَحِيقٍ . ذَٰلِكَ ومَن يُعَظِّمْ شَعَٰئِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ . ولِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَىٰ مَارَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ والصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَاأَصَابَهُمْ والْمُقِيمِى

الصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . وَالْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا ٱسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَٰكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ...

الحج ٢٥ - ٣٧

- ١٢ -

وجل المناسك والطقوس التى أشارت إليها الآيات وشرعتها - إن لم نقل كلها - قد أقرّ على ما كان عليه قبل البعثة بعد تهذيبه من المناظر القبيحة وتجريده من شوائب الشرك والوثنية ؛ مما يسوغ القول بأنها كانت من التقاليد المقدسة الراسخة فى الناس ، كما أنها كانت تنطوى على فوائد متصلة بما توخته الدعوة فيما توخته من مثل جمع القاصين والدانين على اختلاف أجناسهم وأهوائهم فى مظهر متحد فى وقت ما وشكل ما ؛ وتبدو لنا حكمة أخرى فى هذا الإقرار وهى تأنيس الناس الذين كانت تلك التقاليد راسخة فيهم رسوخاً شديداً للدعوة الإسلامية وقد أخذ أفقها يتسع بعد الهجرة وترشح ليشمل جميع العرب على اختلاف منازلهم فضلا عن غيرهم .

وفى الآيات صور واقعية وخطوات تطورية متصلة بالسيرة النبوية ننبه عليها فيما يلى :

(١) يفهم من آية البقرة (١٥٨) أن المسلمين قد تحرجوا من الطواف بالصفا والمروة جرياً على تقليد الجاهلية فأقرّ هذا الطواف وأعلن أنه من شعائر الله .

(٢) ويفهم من آية البقرة (١٨٩) أن العرب كانوا يتحرجون من التظلل بالسقوف وبالتبعية من دخول البيوت من أبوابها المظللة أثناء أشهر الحج فظلوا على هذا إلى أن أبطلته الآية .

(٣) ويفهم من آية البقرة (١٩٨) أن المسلمين تحرجوا من الاشتغال بالتجارة

فى أثناء أشهر الحج ـ وقد كان العرب يقيمون الأسواق التجارية فى هذه الأثناء ـ وظنوا أن من الواجب أن يكرسوا جميع الوقت للعبادة وعدم مزج شىء من عمل الدنيا معها ، لا سيما أن الآية ١٩٧ قد نبهت على وجوب اجتناب الجدال والفسوق والرفث فى أشهر الحج ، فأباحت الآية لهم ذلك .

(٤) ويفهم من آية البقرة (١٩٩) أن بعض طبقات من العرب أو من الزعماء كانوا يأنفون من الوقوف فى موقف عامة الناس أثناء بعض المناسك ، وأن هذه العادة ظلت جارية وقتا ما بعد البعثة ، فأبطلت بها للتسوية بين الناس فى هذا الموقف التعبدى الذى يتجه الناس جميعهم فيه إلى الله وحده دون تجبر أو استكبار .

(٥) ويفهم من آيات البقره ١٩٦ - ٢٠٢ أنها توخت فيما توخته أن تستبدل بما كان من عادة الحجاج فى منى من عقد مجالس المفاخرة ، مجالس ذكر الله وعبادته وتكبيره

(٦) ويفهم من آيات المائدة ١ - ٢ أن أحداً حاول أن يلحق الأذى بأهل مكة فيمنع عنها الحجاج ، فحظرت ذلك بشدة وأيدت بقوة وجوب احترام حرمة الحج والأشهر الحرم وتقاليدها ومناسكها .

(٧) ويفهم من آيات المائده ٩٤ - ٩٧ أن العرب كانوا يحرمون صيد البر والبحر معا فى أشهر الحج المحرمة ، فأباحت صيد البحر للتخفيف عن الناس وخاصة عن القوافل وتيسير الطعام لهم ، كما أنها جعلت حالة التحريم قاصرة على وقت الإحرام الذى حددته السنة النبوية بلبس الثياب غير المخيطة حين دخول المسلم منطقة الحرم إلى أن يقضى عمرته أو حجه بعد أن كانت شاملة لأشهر الحج كلها .

٩ - ويفهم من آيات سورة الحج أن العرب كانوا يتحرجون من أكل لحوم قرابينهم ؛ ومنهم من كان يمنعها عن الناس ويعتبرها محرمة لله ، فأباحت لأصحابها الأكل منها وإطعام غيرهم وخاصة الفقراء والمعوزين منها .

- ١٣ -

والموضوع يتحمل بحث نقطة مهمة متصلة بوقائع السيرة وهى هل قام المسلمون بمناسك الحج فى العهد المكى وإلى السنة السابعة من العهد المدنى حين زاروا مكة وفاقاً لشروط صلح الحديبية زيارة رسمية وإجماعية وعلى رأسهم النبي عليه السلام ؟

فبالنسبة للعهد المكى ليس فى القرآن شىء صريح ينفى ذلك أو يثبته إلا ماجاء فى آية سورة الكوثر : « فصل لربك وانحر » إذ قال المفسرون فيما قالوه إن النحر هو نحر الأضحية عقب وقفة عرفات ؛ فإذا صح هذا ففيه إشارة إلى أن النبي والمسلمين كانوا يقومون ببعض مناسك الحج لله وهم فى مكة حيث كان المشركون يقومون بمناسكهم التقليدية أيضاً . على أنه إذا صح أن آيات الحج ٢٥ - ٣٧ مكية كما ذكرته بعض الروايات فإن فيها دلالات كثيرة على أن النبي والمسلمين كانوا يقومون بكثير من مناسك الحج وهم فى مكة ؛ إذ فيها خطاب للمسلمين بذكر اسم الله على القرابين التى تقرب فى الحج ، وبحل أكلها وإطعام المعوزين منها ، وبالطواف بالبيت وتعظيم حرمات الله وشعائره ، واجتناب الأوثان والتوجه إلى الله وحده ؛ ومما يلفت النظر ماتضمنته الآيات من تقرير جعل الله لكل أمة منسكا ، وما تضمنته آيات أخرى فى سورة الحج يحتمل جدا أن تكون مكية وهى :

« لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ . وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ...

٦٧ - ٦٩

إذ تلهم أن الله أجاز لنبيه القيام بمناسك الحج بغض النظر عما يقوم به المشركون من مناسكهم الوثنية ودون ضرورة ما إلى الجدل معهم ، ووكالة الأمر إلى الله فى معرفة المخطئ من المصيب ، مما يتسق كل الاتساق مع الأسلوب المكى وظروف المسلمين فى مكة .

أما بالنسبة للعهد المدنى فإن ورود آيات مناسك الحج وفرضه فى سورتى البقرة وآل عمران التى يحتمل كثيراً أن تكون قد نزلت قبل اعتزام النبي زيارة الكعبة الذى أسفر عن صلح الحديبية - يجعلنا نظن أنه أذن لمن يريد ويستطيع من المسلمين ، بالقيام بواجب الحج ومناسكه ، وتنبيه على ما يجوز ومالا يجوز منها له ، وأن من المسلمين من كان يقوم بذلك فعلا ، وإن كنا نميل إلى القول بأن هذا كان فى نطاق محدود جدا ؛ وفى بعض الآيات ما يمكن أن يساعد على صحة هذا القول ، كآيات

البقرة ٢٠٠ - ٢٠١ التى قد تلهم أن المسلمين كانوا يشتركون فى الحج إلى جانب المشركين ، فيدعون الله أن يؤتيهم حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة فى حين كان المشركون يكتفون بطلب حسنة الدنيا ، وكآية البقرة ١٩٦ التى قد تلهم أن بعض المسلمين كانوا يذهبون إلى الحج فيحصرون أو يحال بينهم وبينه ، ولعل آيات الحج ٢٥ والبقرة ٢١٧ والأنفال ٣٤ التى تندد بالمشركين لصدهم عن المسجد الحرام - وليس هذا إلا صد المسلمين - متصلة بذلك ؛ ثم على رجحان أن آيات الحج مدنية ، وأنها نزلت قبل صلح الحديبية ، فإنها بما احتوته من تشريع وتحديد ، وإباحة وحظر ، وتنبيه وتنويه ، ومن خطاب للمسلمين - لتلهم أن من المسلمين من كان يذهب إلى مكة فى الأشهر الحرم ويقوم بمناسك الحج ؛ ولعل فى آية آل عمران ٩٧ قرينة قوية تدعم هذا ، إذ تذكر أن لله على المستطيع من الناس حج بيته ، وتنطوى إلى ذلك على إذن أو حث للمستطيعين من المسلمين على ذلك ، ويرجح أن المستطيع منهم قد استجاب لهذا الحث أو استفاد من هذا الإذن ؛ وهذا إنما كان على الأغلب قبل الصلح المذكور . ولعل فى آية المائدة (٢) قرينة تكاد تكون حاسمة ، إذ تدل على أن من المسلمين من كان يحاول صد من أراد الحج عن قصده يريد نكاية أهل مكة ، وتعبير « يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » يدل على أن آمين البيت الحرام المذكورين فيها هم من المسلمين . ولقد ذكرنا فى الفصل السابق أن النبى صلى الله عليه وسلم قد خرج فى السنة السادسة معتمراً أو حاجاً مع جمع من المسلمين استلهاماً من رؤيا رآها فى نومه ، فتصدى لهم المكيون وصدوهم على ما ذكرته سورة الفتح ؛ وفى هذا دليل على ما كان يعتلج فى نفوس المسلمين من الرغبة فى الحج والعمرة تنفيذا لأمر الله وفرضه ، وعلى استجابتهم إلى نداء النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، واستبشارهم بإلهام الله له به ؛ فمن المعقول أن يكون من قدر قبل هذا على تحقيق هذه الرغبة قد سعى إلى تحقيقها .

هذا ؛ ويلفت النظر خاصة إلى ما فى إقرار جلّ تقاليد الحج بعد تهذيبها من شوائب الشرك والوثنية من معان متصلة بالمجتمع الإسلامى الذى كان إذ ذاك هو

المجتمع العربى بوجه عام ، فالعرب على مختلف منازلهم ونحلهم وثقافتهم كانوا متحدين فى هذه التقاليد تقديساً وممارسة ، وكان لهم فى ظروفها منافع عظيمة متنوعة ، وكانت راسخة فيهم رسوخاً شديدا من المتعذر التغلب عليه ، وكان أهل مكة وهم أئمة العرب متخوفين من انتشار الدعوة الإسلامية ظنا منهم أنها ستلغى هذه التقاليد ويفقدون بذلك مركزهم الممتاز ومنافعهم الكبيرة ، وهذه التقاليد فى أصلها مما هو متصل بملة إبراهيم التى دعا إليها القرآن ، وكان العرب يعرفون هذه الصلة ويبنون تقاليدهم عليها ؛ ولقد استهدف القرآن فيما استهدف توسيع أفق العرب وإخراجهم من نطاق القبلية الضيقة إلى كيان الأمة الموحدة ؛ فكل هذا مما يفسر حكمة ذلك الإقرار ، ويوضح المعانى التى أشرنا إليها كما هو المتبادر .

---

# المبحث الثانى

## التشريع السياسى

مدى التشريع السياسى ومتناوله - الآيات الواردة فى توطيد مركز أولى الأمر وما يجب لهم وعليهم ومداها ودلالاتها - الآيات الواردة فى توطيد العدل وحياطته ومداها ودلالاتها - الآيات الواردة فى العقوبات والحدود ومداها ودلالاتها - تعليق على تطور عقوبة الزنا وتشريع حد السكر والتطور التشريعى فى حظر الخمر - توطيد بيت المال - الزكاة ومدى ودلالة التبكير فى فرضها - تطور الأسلوب القرآنى فيها - صلة الزكاة ببيت المال - غنائم الحرب - تشريع الخمس من غنائم الحرب الفعلية ومغزاه - تشريع الفىء ومداه - تعليق على الفرق الملحوظ بين مستحقى غنائم الحرب والزكاة - بعض الصور فى صدد التشريعات المالية .

— ١ —

نقصد بهذا ما يتصل بتوطيد كيان الدولة فى الإسلام وواجباتها وصلاحيتها : والتشريع فى هذا مدنى ، وكل ما كان من أمر بالنسبة للقرآن المكى أن خطوطه مما تضمنته آيات مكية كآيات الشورى ٣٧ - ٤٣ التى تنوه بالمسلمين الذين يجعلون أمرهم شورى بينهم ، وينتصرون من ظالميهم ، وآيات الإسراء ٣١ - ٣٥ التى تنهى عن القتل وتجعل لولى الدم حقا يؤخذ له ، وتأمر برعاية مال اليتيم والوفاء بالعهد ؛ وكآيات النحل ٩٠ - ٩٢ التى تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن نقض العهود، وكآية الأنعام ٥٢ التى تأمر بالعدل بالقول دون أى محاباة وبالوفاء بالعهد ، وكالمحاورة المحكية فى سورة النحل عن ملكة سبأ وما يحتمل أن يكون قد انطوى فيها من تلقين القدوة ، وكآيات ص عن داود عليه السلام وخطاب الله له فى بيان ما يجب على الخليفة مراعاته وما يحتمل أن يكون انطوى فيها من تعليم وتلقين كذلك .

وننبه إلى نقطة مهمة فمع قولنا إن التشريع السياسى مدنى فإن القرآن المدنى لم يحتو هو أيضا إلا القليل من التفصيل والتحديد ، وأكثر ما جاء فى صدد هذا الموضوع قد جاء مطلقاً وعاما كخطوط ومبادئ ؛ مما يمكن أن يكون قصد به ترك التفاصيل والجزئيات للنبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه فى المسلمين ، يسيرون منه على حسب

الظروف والإمكانيات فى نطاق تلك الخطوط والمبادئ ، وهذا من معجزات الشريعة الإسلامية التى رشحتها للخلود .

والتشريع القرآنى السياسى يتناول عدا الأمور المتصلة بالجهاد ، وصلات المسلمين بغير المسلمين فى مختلف حالاتهم - مما ألممنا به فى فصوله الخاصة ولا نرى العودة إليه هنا - الأمور الآتية :

١ - ماله صلة بتوطيد مركز أولى الأمر وما يجب لهم وعليهم ،

٢ - ماله صلة بتوطيد العدل .

٣ - ماله صلة بالعقوبات والحدود .

٤ - ماله صلة بتأسيس بيت المال .

— ٢ —

ففى الأمر الأول نزلت آيات عدة نورد منها مايلى :

١ — فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ... آل عمران ١٥٩

٢ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ... النساء ٥٩

٣ — وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ... النساء ٨٣

٤ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَٱتَّقُوا فِتْنَةً

لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ...
الأنفال ٢٤ - ٢٥

٥ — يَـٰأَيُّهـا الَّذِينَ ءامَنُوا لاتَخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ وتَخُونُوا أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وأَنتُمْ تعلَمُونَ ... الأنفال ٢٧

٦ — وأَطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ ولا تَنَـٰزَعُوا فتَفْشَلوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ واصْبِرُوا إنَّ اللهَ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ ... الأنفال ٤٦

٧ — لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ... التوبة ١٢٨

٨ — يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِينَ ولا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ ولا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وأَرْجُلِهِنَّ ولا يَعْصِينَكَ فى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ واسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ ... الممتحنة ١٢

فهذه الآيات رمت كما هو المتبادر :

١ - إلى توطيد السلطان الإسلامى فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم أولا وإلى توطيد إطاعة أولى الأمر ثانيا .

٢ - إلى جعل القرآن والسنة النبوية هما الناموس العام الذى يجب أن يهتدى ويستلهم منه فى حل المشاكل وتصريف الأمور وخاصة عند اختلاف الآراء .

٣ - إلى تلقين جعل المصلحة العامة وحياة المجتمع للعامة ضابطاً عاما فى تأييد المسلمين للسلطان والاستجابة إلى ما يدعو إليه وإطاعته فيه .

٤ - إلى إيجاب ردّ الأمور من قبل العامة إلى أولياء الأمور وأهل الحل والعقد القادرين على تمحيصها والأخذ بما هو الأصلح منها .

٥ - إلى تقرير صفات ولى الأمر فى الإسلام من لين الجانب وخفض الجناح ،

والرأفة بالمسلمين ، والاستغراق فى مصلحتهم وخيرهم ، وعدم أمرهم بغير المعروف ، وعدم دعوتهم إلى مافيه المعصية .

٦ - إلى إيجاب إشارة أهل الحل والعقد على ولى أمر المسلمين .

٧ - إلى إيجاب الإخلاص والأمانة والطاعة على المسلمين لأولياء أمورهم فى حالة تحقق الصفات المذكورة فيهم .

٨ - إلى إيجاب التضامن والاتحاد فيما بينهم فى ذلك أيضا .

ويمكن أن يلخص هذا بأن التشريع السياسى قد رمى إلى جعل المجتمع الإسلامى من الوجهة السياسية كياناً محكما يجب فيه على أولياء الأمور والرعية أن يتضامنوا ويتبادلوا الحقوق والواجبات والتشاور ؛ ويهدفوا جميعا إلى خير هذا الكيان ، دون أن يكون لأولياء الأمر حق إلا مقابل واجب وصفات ، ودون أن يكون للرعية حق إلا مقابل واجب وصفات أيضاً .

ومن إنعام النظر فى نصوص الآيات والاطلاع على تفسيرها ومناسبات نزولها - وهو مما ألممنا به بعض الإلمام فى الفصول السابقة التى استعرضنا فيها أكثر هذه الآيات -[1] يبدو أولا أنها قد نزلت فى مختلف أدوار التنزيل ، وهذا يعنى أن التشريع السياسى القرآنى إنما جرى على مراحل على اختلاف ظروف العهد المدنى الذى نزلت فيه آياته ؛ وثانيا أن هذه الآيات قد نزلت فى مناسبات وظروف معينة ، وهذا يعنى أنها انطوت على صور ومواقف ومشاهد من صور العهد المدنى ؛ فرمت إلى معالجة الموقف على الوجه الذى اقتضته الحكمة ، ثم كانت إلى ذلك تشريعا مستمر التلقين والمدى .

## - ٣ -

وفى الأمر الثانى نزلت كذلك آيات عدة نورد منها مايلى :

١ — إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا . يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ

(١) جل هذه الآيات نقل وشرح فى فصلى الجهاد والمنافقين .

مِنكمْ فإن تَنَٰزَعْتُمْ فى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللهِ والرَّسُولِ إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تاوِيلًا . أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وماأُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أن يَتَحاكَمُوا إلى الطَّٰغُوتِ وقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ويُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا . وإذَا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إلَىٰ ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ... النساء ٥٨ - ٦١

٢ — إنَّاأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَٰكَ اللهُ ولا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا . واسْتَغْفِرِ اللهَ إنَّ اللهَ كانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . ولا تُجَٰدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إنَّ اللهَ لايُحِبُّ مَن كانَ خَوَّانا أَثِيمًا . يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ولاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لايَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وكانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ... النساء١٠٥-١٠٨

٣ — ومَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وإِثْمًا مُّبِينًا ... النساء ١١٢

٤ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ ولَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَٰلِدَيْنِ والْأَقْرَبِينَ إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فإِنَّ اللهَ كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ... النساء ١٣٥

٥ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ... المائدة ٨

٦ — سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ... المائدة ٤٢

٧ — وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وما أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ . وإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِي قلوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... النور ٤٧ - ٥١

وفى سورتى البقرة والمائدة آيات فى صدد الدين والعقود والشهادات والوصية ، وقد استهدفت فيما استهدفته حياطة الحق والعدل والأمانة ، مما يصح أن يسلك فى سلك الآيات السابقة كما ترى فيها :

١ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ولا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ولا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فإن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فإن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا الْأُخْرَىٰ ولا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ولا تَسْئَمُوا أَن

تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم . وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهن مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه ءاثم قلبه والله بما تعملون عليم ...

٢٨٢ - ٢٨٣

٢ — يأيها الذين ءامنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو ءاخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلوة فيقسمان بالله إن ارتبتم لانشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين . فإن عثر على أنهما استحقا إثما فـآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظلمين . ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمن بعد أيمنهم واتقوا الله واسمعوا والله لايهدي القوم الفسقين ...

١٠٦ - ١٠٨

وتوطيد فكرة العدل والحق بين الناس بصورة مطلقة وشاملة وعدم المحاباة والتساهل مع المبطلين ، وعدم الضعف في ذلك بسبب ظروف القربى أو البغضاء - بارزة المرمى في الآيات ، كما ترى مثل ذلك في فكرة إيجاب تضامن المسلمين في تحقيق هذه

الغاية ، ومساعدة القضاء الإسلامى على القيام بها على الوجه الأوفى ، وبجملة واحدة : قد رمت إلى جعل العدل والحق والأمانة بين الحاكم والرعية ، ثم بين الرعية فيما بينهم ، مسئلة تضامنية من جهة وفوق كل إعتبار من جهة أخرى .

والآيات كما هو واضح قد نزلت فى مختلف أدوار التنزيل كما نزلت فى مناسبات وظروف خاصة ، وانطوت على صور ومواقف ومشاهد من صور العهد المدنى فى مختلف أدواره ، مما نبهنا على أكثره فى فصول سابقة ؛ وقد رمت إلى معالجة الموقف الحاضر على الوجه الذى اقتضته الحكمة ، ثم كانت إلى ذلك تشريعا مستمر التلقين والمدى .

— ٤ —

وفى الأمر الثالث نزلت آيات عدة أيضاً نوردها فيما يلى :

١ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰأُولِى الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ... البقرة ١٧٨ - ١٧٩

٢ — وَالَّٰتِى يَأْتِينَ الْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّٰهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا . وَاللَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ... النساء ١٥ - ١٦

٣ — وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَٰتِ الْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ الْمُؤْمِنَٰتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ

بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ ولا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فإذَا أُحْصِنَّ فإنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فعلَيْهِنَّ نِصْفُ ماعَلَى الْمُحْصَنَٰتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

النساء ٢٥

٤ — وما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خطَئًا ومَنْ قَتَلَ مؤْمِنًا خطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلىٰ أَهْلِهِ إلا أَن يَصَّدَّقُوا فإن كانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وإنْ كانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إلىٰ أَهْلِهِ وتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ وكانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ...

النساء ٩٢

٥ — إنَّمَا جَزَٰٓؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ ورَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فى الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فى الدُّنيَا ولَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

المائدة ٣٣ - ٣٤

٦ — والسَّارِقُ والسَّارِقَة فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ اللهِ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وأَصْلَحَ فإنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

المائدة ٣٨ - ٣٩

٧ — الزَّانِيَة والزَّانِى فَاجْلِدُوا كلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ولا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَة فى دِينِ اللهِ إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ

عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ... النور ٢

٨ — والَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ولا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ...

النور ٤ - ٥

٩ — والَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ولَمْ يَكُن لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . والْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . ويَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . والْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ... النور ٦ - ٩

١٠ — إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا والآخِرَةِ واللهُ يَعْلَمُ وأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ...

النور ١٩

١١ — لَئِن لَمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ والَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ والْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ... الأحزاب ٦٠ - ٦١

وقد حددت الآيات - كما هو واضح - عقوبات الجرائم الرئيسية كالقتل والزنا والسرقة وقذف الأعراض، والإفساد فى الأرض، وإخلال الأمن، وإثارة الاضطراب فى المجتمع بإشاعات السوء والأذى والإرجاف مما له صلة بدماء الناس وأعراضهم وأموالهم وأمنهم وحرياتهم ؛ وهى أهم مايهم المجتمع كما لا يخفى.

والآيات مما يمت إلى مختلف أدوار التنزيل ، وهذا يعنى أن هذه

التشريعات قد تمت على مراحل ، حسبما اقتضته الظروف والأحوال ؛ ولذلك نزل جلها أو كلها فى مناسبات ووقائع معينة ، وهذا يعنى أنها انطوت على صور متنوعة من العهد المدنى وطبقات المجتمع الإسلامى فيه أيضا ، مما هو متصل بالسيرة النبوية ومشاهدها وآية البقرة (١٧٨) نصت على القصاص فى القتل ، وحددت قتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، وقد يفهم منها أن الحر لا يقتل بالعبد ولا الذكر بالأنثى ؛ غير أن هناك تعديلا ثابتا لذلك فى السنة النبوية مستلهما على ما يتبادر من المبدأ العام الذى احتوته الآية (١٧٩) وهو القصاص مطلقا . ولقد ذكرت الروايات أن الآيات نزلت فى قبيلتين كان بينهما دماء قبل الإسلام ، وكانت إحداهما أقوى من الأخرى ، فأقسمت القوية على الاقتصاص من عدوتها قصاصا مضاعفا ومهيناً ، فلما أسلمت جاءتا إلى النبى صلى الله عليه وسلم للاحتكام ، فنزلت الآيات فى حل المشكل القائم على الوجه الحكيم الذى جاءت به . وفى هذا وذاك صور واقعية للتشريع وتطوره . وآيات قتل الخطأ انطوت على صورة لما كان الأمر عليه فى العهد النبوى المدنى ، إذ كان هناك مسلمون من فريق أو قبائل غير مسلمة ، منها من كان عدوا محاربا ومنها من كان معاهداً ؛ فاحتوت أحكاماً لكل من الحالتين بالإضافه إلى حالة قتل مسلم لمسلم آخر أهله مسلمون ، فكانت علاجا للحالة القائمة وتشريعا مستمر المدى فى الوقت نفسه .

وآيات النساء ١٣ - ١٦ لا تنص على حد للزنا ، وكل ما أوجبته على المرأة الحبس فى البيوت ، وعلى الرجل أذى ، أى ضربا غير محدد ؛ ثم جاءت آيات النور ٢ - ١٠ فعينت حد الزنا ، وأضافت إلى جريمته جريمة القذف ، وعينت حداً للقاذف ، كما حلت مشكلة تهمة الزوج لزوجته إذا لم تكن مستندة إلى شهود ؛ وفى هذا من الصور التطورية ما هو ظاهر ، وقد اقتضته ظروف وتطور الحالة الاجتماعية فى العهد المدنى على ما هو المتبادر ؛ ومما لا يحتمل شكا أن الآيات قد نزلت بمناسبة وقائع وحادثات ، إذ جاءت علاجا للحالة التى نزلت بمناسبتها ووفق ظروفها ، ثم صارت تشريعا مستمر المدى .

وقد نصت آية النساء (٢٥) على أن عقوبة الزنا على الأمة المتزوجة هو نصف عقوبة الزنا على الحرة ، وهو خمسون جلدة . وهذا يمت فيما يتبادر لنا إلى ما كان فى عصر النبى وبيئته من ارتكاس الإماء فى البغاء وتعرضهن له أكثر من الحرائر ، مما تلهمه الآية نفسها على ما شرحناه فى كتابنا « عصر النبى صلى الله عليه وسلم وبيئته » .

وآيات الأحزاب ٦٠ - ٦١ والنور ١٩ تتضمن صوراً لما كان من المنافقين ومرضى القلوب من مواقف مؤذية ومثيرة للقلق والاضطراب فى المجتمع الإسلامى اقتضت الحكمة أن يشرع لها عقوبات زاجرة صارت فى الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى. وآيات المائدة ٣٣ - ٣٤ أيضا تتضمن صورة لما كان من عيث بعض الناس فى أمن الأرض ومحاربة دعوة الله ورسوله ، فاقتضت الحكمة أن يشرع لمثل هذا عقوبات زاجرة تطبق على الذين يقبض عليهم قبل التوبة والارعواء ، وصارت فى الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى ؛ وقد طبقت فى العهد النبوى على بدو أظهروا إسلامهم ثم ارتدوا ونهبوا مواشى بيت المال وقتلوا رعاتها .

وآية حد السرقة جاءت بعد هذه الآيات بقليل، مما يلهم أنها نزلت بسبب تساءل عن حد السرقة العادية ، أو حادث سرقة عادية اقتضت الحكمة تشريعا خاصا لها يعالج به الموقف ويكون تشريعا مستمر المدى أيضا .

ولقد اكتفت الآيات المكية بتقبيح الزنا والنهى عنه ، وفعلت مثل ذلك بالنسبة للقتل والفساد فى الأرض ، ولم تذكر السرقة ألبتة ، فجاءت الآيات المعينة لتشرع القصاص فى القتل ، والحد فى الزنا والسرقة والقذف ، ولتضع أحكاما فى القتل الخطأ على حسب حالة القاتل والمقتول وصلاته بالكيان الإسلامى ، وعقوبات زاجرة للمفسدين والمرجفين ، والمثيرين لقلق المجتمع وأمنه ، والمتعرضين لأعراض الناس وأموالهم ؛ وفى هذا كله صورة تطورية للعهدين مستمدة من طبيعتهما .

— ٥ —

ونريد أن نستطرد إلى الحد الإسلامى على شارب الخمر لنقول إن هذا الحد ليس قرآنيا وإنما هو سنة نبوية وراشدية على اختلاف فى الروايات عن كيفية إقامة الحد ومداه ، إذ روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بجلد الشارب أربعين جلدة مرة وثمانين مرة ، وبضربه بالنعال والأيدى مرة ، ونهى عن لعنه مرة ؛ وكل ما فى القرآن هو نهى حاسم عن الخمر فى أواخر العهد المدنى . وبعد تدرج فيه انطوى على صور من العهدين المكى والمدنى من جهة ، وعلى ما كان للخمر والسكر من شيوع ورسوخ فيهما ومنذ قبل البعثة من جهة أخرى ، فالوعد بمتعة خمر الجنة ومجالسها

ورائحتها ولونها ومزاجها وطعمها ولذتها قد تكرر ، وهذا يلهم ما قلناه من شيوعها ورسوخها فى بيئة النبى التى خوطبت بالقرآن لأول مرة . ولقد احتوى وصف خمر الجنة نفيا لوجود ما تستكرهه النفس فى خمر الدنيا وما يسبب للشارب من الصداع [1] وهذا يمكن أن يكون نواة أولى لتقرير كراهة الخمر وإعلان تحريمها ؛ وفى أوائل العهد المدنى سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الخمر والميسر فأوحى إليه بالآية التالية :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ... البقرة ٢١٩

وليس فى الجواب منع أو تحريم كما هو ظاهر ، ولكنه قوى فى تقرير إثمه يصح أن يعد خطوة مهمة إلى النهاية المحتومة ، ثم كان أن صلى بعض المسلمين وهم سكارى فخلطوا فى الركعات وفى قراءة القرآن ، وراجع عمر بن الخطاب رضى الله عنه - على ما روى - النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعا إلى الله أن ينزل حكما فى الخمر ، فنزلت الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ... النساء ٤٣

ثم نزلت آيات المائدة التالية بعد مدة ما :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ...

٩٠ - ٩٢

وقد احتوت نهيا حاسما وقويا عن الخمر ، ووصفتها بالرجس ، وسلكتها فى سلك

(١) اقرأ آيات الصافات ٤٧ والواقعة ١٩

الشرك ؛ والآية الثانية تلهم أن الآيات نزلت بمناسبة وقوع شقاق ونزاع بين بعض المسلمين بسبب الخمر والميسر ، مما هو مألوف الحدوث فى حالة السكر وتعاطى الخمر والميسر ، وأن الحادث كان خطير الأثر والنتيجة استثار حنق الناس وأسفهم ، فكانت مناسبة ملائمة للخطوة النهائية إلى حظر الخمر لتعالج الحالة القائمة ولتكون تشريعا مستمر المدى أيضا . وذكر الأنصاب والأزلام فى الآية الأولى قد يلهم أن هذه الآيات قد نزلت قبل الفتح المكى ، إذ كانت الأنصاب قائمة والعادات الجاهلية الوثنية فى اللهو والاستخارة جارية .

ولقد جاء بعد هذه الآيات آية تنطوى على ما هو المتبادر منها على صورة لأثر النهى الحاسم فى بعض المسلمين . وهى هذه :

« لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّءامَنُوا وعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّءامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وأَحْسَنُوا واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ... ٩٣

فالظاهر أن الذين كانوا يتعاطون الخمرة من المسلمين هلعوا من أسلوب الآيات وسلكها الخمر فى سلك عبادة الأنصاب ووصفها بالرجس ، فنزلت الآية لتسكن من هلعهم بالنسبة لما كان منهم قبل نزولها إذا اتقوا بعدها غضب الله وعذابه ، وصدقوا بما نزل ، وأحسنوا الأعمال .

— ٦ —

أما الأمر الرابع فمن متناوله الزكاة أولا ؛ ومعلوم أن هذا الركن الإسلامى ليس مدنى التشريع فى أصله ؛ إذ كان هو والصلاة من مواضيع الدعوة الإسلامية منذ فجر العهد المدنى ، صراحة حينا وكناية حينا كما ترى فى الأمثلة التالية :

١ — إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وفى أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ والْمَحْرُومِ ...

الذاريات ١٦ - ١٩

٢ — إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ... فاطر ٢٩

٣ — وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَٱبْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ...

الإسراء ٢٦

٤ — قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ... المؤمنون ١ - ٤

٥ — وَالَّذِينَ فِى أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ...

المعارج ٢٤ - ٢٥

٦ — وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِى أَمْوَٰلِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ...

الروم ٣٩

ومما يلفت النظر خاصة تعابير « حقه » و « حق للسائل والمحروم » و « حق معلوم » فى الآيات ، إذ يمكن أن تلهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حدد مقادير معينة على أموال القادرين من المسلمين فى العهد المكى زكاة عن أموالهم المتنوعة ؛ ومما يتبادر أنه بالإضافة إلى أن الزكاة ومقاصدها هدف أساسى من أهداف الدعوة الإسلامية ، فإن التبكير فى الدعوة إليها ، والتنويه الذى احتواه القرآن بالمؤمنين الذين كانوا ينفقون أموالهم سرا وعلانية ، ويؤدون الزكاة ، ويعرفون أن فى أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم - يدل على أن ظروف الدعوة كانت تدعو إلى فرض شىء من المال على الغنى المسلم للفقير المسلم فى ذلك الحين الذى كان الفقراء فيه أكثر عدداً من جهة ، ومعرضين للأذى والمطاردة أكثر من غيرهم من جهة أخرى ؛ ولعل مشروع الدعوة الإسلامية نفسه كان فى حاجة إلى نفقات لابد منها كان النبى صلى الله عليه وسلم يتقاضاها من أغنياء المسلمين كزكاة واجبة الأداء عن أموالهم ؛ مما اقتضت الحكمة أن يبكر فى فرض الزكاة والحث على أدائها والتنويه بمؤديها .

كذلك مما يلفت النظر ما فى الآيات المكية من قوة التعبير التى تدل على أن إعطاء الغنى زكاة ماله فى الإسلام لم تكن الدعوة إليه حتى فى أوائل العهد المكى على أنه صدقة تطوعية ، بل على أنه حق محتوم واجب الأداء للطبقات المحتاجة والمصلحة الإسلامية العامة ؛ هذا فضلا عما احتواه من حث على الإنفاق ومساعدة المحتاجين مما يمكن أن يكون قصد به التبرع التطوعى بالإضافة إلى الحق الواجب .

ومن السائغ أن يقال إن تشريع الزكاة فى العهد المكى هو الوحيد بين التشريعات غير التعبدية ؛ إذ أن جل هذه التشريعات إنما كان فى العهد المدنى على ما أشرنا إلى ذلك فى مناسبة سابقة . والتعليل الذى يتبادر لهذا أن الزكاة إنما فرضت على المسلمين ليؤدوها بطيب أنفسهم وبدافع إيمانهم كالصلاة ؛ فلم تكن قلة المسلمين وضعفهم فى العهد المكى مانعين لهذا التشريع منذ البدء ؛ فضلا عن مساس الحاجة إلى ذلك منذ ذلك الوقت .

ومع هذا كله فلعل من الحق أن يقال إن الأمر بالزكاة والإنفاق وإيتاء حق ذوى الحق فى أموال الأغنياء ظل فى العهد المكى دعوة وتشويقاً وترغيباً وترهيباً كما يدل على ذلك أسلوب الآيات التى نقلنا أمثلة عنها ، فى حين أن الآيات المدنية قد جاءت أو جاء كثير منها بأسلوب الأمر والإيجاب كما ترى فى الأمثلة التالية :

١ — وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ ...

البقرة ١١٠

٢ — وَأَقِمْنَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ الزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ ...

الأحزاب ٣٣

٣ — ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ...

المجادلة ١٣

٤ — وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ... المزمل[1] ٢٠

٥ — وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ... البينة ٥

وفى حين أنها دخلت فى العهد المدنى فى طور رسمى ، وأصبحت فى جملة ما يدخل جبايته فى صلاحية السلطان الإسلامى الذى كان يتمثل فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم وجعلت من حق بيت المال الرسمى ، ومورداً من موارده ، وأوجب عليه صرفها فى مصارف معينة ، وعبر عن الزكاة ومصارفها بتعبير « فريضة من الله » كما يستفاد من الآية التالية :

« إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... »[2] التوبة ٦٠

وتعبير « الصدقات » فى الآية هو كناية عن الزكاة كما هو المجمع عليه ؛ ويلفت النظر خاصة إلى جملة « والعاملين عليها » إذ تعنى الموظفين الرسميين الذين كان يعينهم النبى صلى الله عليه وسلم لجباية الزكاة ، مما يدل دلالة حاسمة على رسمية هذا المورد المالى .

وآية التوبة هذه قد تكون متأخرة فى النزول ، غير أن أسلوبها من جهة وسياق ورودها التنديدى بالمنافقين الذين كانوا يطمعون بحصة من الزكاة على غير استحقاق من جهة أخرى[3] يدلان على أن الأمر كان جارياً قبل نزولها على ماذكرته بتشريع نبوى جاءت مويدة له .

والصورة التطورية فى أمر الزكاة ورسمية جبايتها وصرفها واضحة بالنسبة للعهدين :

---

(١) هذه الآية مدنية وكان موضعها فى السور المكية المناسبة (٢) الرقاب كناية عن تحرير الرقاب ، والغارمون هم الذين يحملون الغرامات ، أى الدية ولا يطيقون أداءها وحدهم ، والمدينون المعسرون

(٣) أو آيات التوبة ٥٨ - ٥٩

ولا ريب فى أنها مستمدة من طبيعة العهدين نفسيهما . وليس فى القرآن تعيين لمقادير الزكاة ، وقد تكفلت بذلك السنة النبوية ، شأن كثير من الحدود والقواعد على ما نبهنا إليه فى المناسبات السابقة .

وهناك نقطة جديرة بالبحث فى صدد صلة الزكاة ببيت المال ؛ إذ جرى التعامل على أن تكون زكاة الزروع والأشجار والمواشى فقط هى التى يجبيها بيت المال الرسمى ، وإذ تواترت الروايات بأن النبى صلى الله عليه وسلم إنما كان يرسل عمال الصدقة ليأخذوا حصة بيت المال من هذه الأعيان ويوزعوها على الفقراء بتفويض منه أو يرسلوها إلى خازن المال ؛ ونقول إن الآية لا تحتوى تخصيصا ، كما أن شمول الزكاة للأموال جميعها لا يحتمل شكا ؛ ولقد ذكرت روايات معتبره [1] أن النبى صلى الله عليه وسلم قبض أكثر من مرة زكاة مال عمه العباس الذى كان تاجراً ولم يكن ماله زرعاً وماشية ، كما أن الخليفتين عمر وعثمان رضى الله عنهما كانا يحاسبان أصحاب المرتبات من المسلمين على زكاة أموالهم حين تأدية هذه المرتبات السنوية ، ويحجزان المستحق عليهم لبيت المال منها ؛ هذا إلى ما هناك من أقوال منسوبة إلى كبار الصحابة بوجوب تأدية زكاة جميع أنواع الأموال إلى بيت المال ، الأمر الذى نرجح أنه كان جاريا بصورة عامة ؛ ويستفاد من الروايات المعتبرة أنه كان لما قام من فتن سياسية أدت إلى نشوء الدولة الأموية أثر فى إهمال استيفاء بيت المال زكاة النقد والعروض الأخرى ، أو فى حمل بعض المسلمين على عدم تأديتها إليه ، ثم سرى هذا إلى الجمهور ، وتساهلت الدولة فى الأمر ؛ لتفادى الفتنة من جهة ، ولأن النقد والعروض الأخرى ليس مما يمكن الاطلاع عليه وأمرهما موكول إلى أصحابهما من جهة أخرى .

— ٧ —

ومن متناول الأمر الرابع غنائم الحرب ثانياً . وهذه الغنائم نوعان : نوع يشترك فى اغتنامه المسلمون فى حرب فعلية ، وآخر لا تقع فى سبيله حرب فعلية ؛ والنوع الثانى

---

(١) فى كتاب الأموال للامام القاسم بن سلام ، وهو من أقدم الكتب وأهمها ، أقوال وأحاديث وروايات عدة فى هذا الموضوع .

يسمى « فيئاً » إذ تتضمن الكلمة معنى الهبة .

وقد قررت آية الأنفال (٤١) الخمس من النوع الأول كنصيب لبيت المال الرسمي كما ترى :

« وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ... »

ونصت الآية على مستحقي هذا الخمس ، وتواترت الروايات حتى صار يقينا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبض الخمس ويتولى إنفاقه في مصارفه ، ومن أجل هذا قلنا إنه نصيب بيت المال الرسمي .

وقررت آية الحشر (٧) جميع النوع الثاني كنصيب لبيت المال كما ترى :

« ما أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . »

ومستحقو الفيء هم مستحقو خمس الغنائم أنفسهم ؛ وقد تواترت الروايات كذلك حتى صار يقينا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبض الفيء ويتولى إنفاقه على مصارفه ؛ ومن أجل هذا قلنا إنه نصيب بيت المال أيضا .

وبين مستحق الزكاة ومستحق الفيء والغنائم بعض الفرق ؛ إذ دخل في عداد الأولين المؤلفة قلوبهم ، والعاملون عليها ، وتحرير الرقاب ، والغارمون ؛ وفي هذا الفرق صور واقعية للعهد المدني على ما يتبادر لنا ؛ إذ يمكن أن يلهم أنه كان من المسلمين فئة تمس الحاجة إلى تأليف قلوبها بالمال ، وفئة أخرى تمس الحاجة إلى مساعدتها على حمل مغارمها الناشئة عن طبيعة المجتمع ؛ كما كان هناك أرقاء مسلمون يجب شراؤهم وتحريرهم ، فاقتضت الحكمة النص على مساعدتهم ؛ ويلفت النظر خاصة إلى النص على مساعدتهم من مال الزكاة الذي هو دائم المورد دون الغنائم الحربية ،

وفى هـذا ما يلهم خطورة مساعدة هذه الفئات فى العهد النبوى ، وما علمه الله من خطورة مساعدتها دائما أيضا ، إذ أن فى الآية معالجة للموقف الحاضر ، وتشريعا مستمر المدى بطبيعة الحال .

أما الفقراء والمحتاجون فقد نص على مساعدتهم من النوعين، مما يبدو حكيما وطبيعيا ، لأنهم جزء من كل مجتمع فى كل وقت ، ولا بد من مساعدتهم ومن تولى السلطان الإسلامى أمر هذه المساعدة حتى لايكونوا تحت رحمة الصدقات التطوعية والمتصدقين وأذاهم . ومما لاريب فيه أن هذا كان هو الواقع ؛ وقد أشارت آيات البقرة (٢٦٢-٢٦٤) التى نقلناها فى فصل الجهاد إلى ذلك . أما ذوو القربى الذين نص عليهم فى خمس الغنائم وفى الفىء ، فالأكثر على أنهم أقارب النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وإذا لاحظنا أن أكثر أقارب النبى صلى الله عليه وسلم حينما نزلت آية الأنفال كانوا كفارا وفى مكة ومنهم من خرج محاربا مع قريش ، ومنهم من أسر كالعباس عم النبى وعقيل ابن عمه وأمثال هؤلاء ممن جعل لهم حق فى نصيب ذوى القربى ، ثم إذا لاحظنا أن أقارب النبى فى عهد الخلفاء الراشدين إنما كانوا يتقاضون مايتقاضون كمخصصات عامة أسوة بسائر المسلمين ولم يؤد لهم هذا النصيب إلا فى ظرف خاص فى عهد الدولة العباسية كما ذكرته الروايات - جاز لنا أن نتوقف فى أن التعبير كان يعنى أقارب النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن النبى كان يؤدى إليهم نصيبا خاصا من الفىء والغنائم ؛ وإنه لمما يرد بالبال أن يكون هذا التعبير إنما عنى من كان يتقرب إلى النبى بخدمة عامة ، أو يقوم بعمل عام يكون فيه قربى إلى الله ورسوله ؛ وفى إحدى آيات سورة التوبة استعمل هذا المعنى كما ترى فيها « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا أنها قربة لهم ... ٩٩ » مما يمكن أن يكون قرينة قرآنية ما على التوجيه الذى وجهناه .

هذا ؛ ولقد نبهنا فى فصل الجهاد على أن آيات الخمس والفىء قد نزلت بالأمر الحاسم الذى تضمنته فى صدد نصيب بيت المال بمناسبة ما بدا من بعض المسلمين من اعتراض على ذلك أو تذمر منه ؛ وفى هذا صورة واقعية حدثت فى سياق توطيد بيت المال الرسمى كما هو واضح تتمثل فى عدم رضاء بعض المسلمين عن احتجاز قسم من مال أو تخصيص مال ظنوه من حقهم ليقبضه النبى صلى الله عليه وسلم ويتولى إنفاقه ،

ومما لا ريب فيه أن هذا الموقف إنما كان من طبقة المسلمين الثانية ، كما أنه مما يمت إلى طبيعة البشر بوجه عام .

ولقد نبهنا إلى صورة مماثلة فى فصل شخصية النبى صلى الله عليه وسلم إذ أراد فرض رسم على الاستفتاءات الشخصية على ما استلهمناه من آيات المجادلة ١٢ - ١٣ فاقتضت الحكمة العدول عنه ؛ وهذا مما يمت إلى توطيد بيت المال الرسمى بسبب ما ، فنكتفى بالإشارة إليه منبهين فقط إلى ما يلهم هذا من رغبة النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك التوطيد ، وفى تنميته موارد ذلك البيت حتى يمكن أن يسد الحاجة ، وإلى ما فى هذا من مشهد متصل بالسيرة النبوية فضلا عن ما فيه من تلقين مستمر المدى ، متصل بحياة البشر الاجتماعية أيضا .

وواضح من الآيات أن توطيد بيت المال قد تم على مراحل ، واقتضى أن يكون الأسلوب القرآنى فى توطيده شديداً حازما إلى حد ما لما فى ذلك من أثر عظيم فى تدعيم بنيان الدولة التى أخذت تنشأ فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكفالة مصالح المسلمين العامة التى أخذت تتسع وتزداد تشعباً .

# المبحث الثالث

# فى التشريع الاجتماعى

متناول هذا التشريع - الفرق الأسلوبى بين الآيات المكية والمدنية فيه - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وملهمات الآيات فيه - توطيد الأخوة الاسلامية والكيان الاسلامى بالنسبة للخارج وملهمات الآيات فيه - توطيد الأمن والصلح فى داخل الكيان الاسلامى وملهمات الآيات فيه - وقاية المجتمع الاسلامى من أسباب الفتنة والأحقاد وملهمات الآيات فيها - بحث فى الرق والتشريع فيه - الآيات القرآنية فى صدد ذلك وملهماتها .

## - ١ -

نقصد بهذا التشريع ماله علاقة بما يجب على المسلمين فى كل ما يتصل بالمصالح العامة المشتركة بين الجماعات الإسلامية من تضامن وتعاون على البر والخير ، ودفع الشر والضرر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبناء مجتمع إسلامى يقوم على تولى المسلمين بعضهم بعضا ، لاخصام بين أفراده وهيئاته مهما اختلفوا أجناسا وأرومات ، ولا نزاع ولا انتقاص ، ولا تمايز ولا تنابز ولا سخرية ، تربط بعضهم ببعض رابطة الأخوة الإسلامية الشاملة التى تحل محل العصبية العائلية والقبلية والعنصرية الضيقة .

ومن الحق أن نقول إنه يوجد فى القرآن المكى آيات كثيرة احتوت مبادئ وسننا اجتماعية جليلة جاء أكثرها فى مساق الأمثال والتذكير ، والحملة على البغى والظلم والفساد والزعماء الماكرين وتبعاتهم الاجتماعية وتقرير ما أحله الله وماحرمه من أعمال الناس الاجتماعية ، والحض على التضامن فى الدعوة إلى الرحمة والصبر والحق كما ترى فى الآيات التالية :

١ - ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ...

الأنعام ١٣١

٢ - وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا

وما يَمكرُونَ إلا بِأنفسِهِمْ وما يَشعُرُونَ ... الأنعام ١٢٣

٣ — وأنَّ هَـٰذَا صِرَاطِى مُستَقِيمًا فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فتفرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ... الأنعام ١٥٣

٤ — قُلْ إنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الفَوَٰحِشَ ماظَهَرَ مِنْهَا وما بَطَنَ والإِثْمَ والْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... الأعراف ٣٣

٥ — فاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ ومَن تابَ مَعَكَ ولا تَطْغَوْا إنَّهُ بِمَا تعمَلُونَ بصِيرٌ . ولا تَرْكَنُوا إلى الَّذِينَ ظَلَمُوا فتَمَسَّكُمُ النَّارُ وما لكُم مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ... هود ١١٢ - ١١٣

٦ — فلَوْلاَ كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فى الأَرْضِ إلَّا قَلِيلا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ واتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ماأُتْرِفُوا فِيهِ وكانُوا مُجْرِمِينَ . وما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ... هود ١١٦ - ١١٧

٧ — إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنفُسِهِمْ ... الرعد ١١

٨ — أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رابِيا ومِما يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ والْبَٰطِلَ فأَمَّا الزَّبَدُ فيَذْهَبُ جُفَاءً وأَمَّا ما يَنفَعُ النَّاسَ فيَمْكُثُ فى الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ... الرعد ١٧

٩ — إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَٰنِ وإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ ويَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ والْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ولاَ تَنقُضُوا الأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ

كَفِيلًا إنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تفْعَلُونَ . ولاَ تَكُونُوا كالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيَـٰمَةِ ما كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ... النحل ٩٠ - ٩٣

١٠ — وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنعُمِ اللهِ فَأَذَٰقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ والْخَوْفِ بِمَا كانُوا يَصْنَعُونَ ... النحل ١١٢

١١ — وإذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ... الإسراء ١٦

١٢ — ظَهَرَ الفَسَادُ فى البَرِّ والبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ... الروم ٤١

١٣ — ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءامَنُوا وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ ... البلد ١٧

١٤ — والْعَصْرِ . إنَّ الإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ . إلَّا الَّذِينَ ءامَنُوا وعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ وتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ... العصر

غير أن الآيات المدنية قد اتجهت للقصد مباشرة فى صدد الكيان الإسلامى الاجتماعى ، وواجبات الجماعة الإسلامية ، وتوثيق الأخوة بين المسلمين ؛ وهى أكثر وضوحا وأشد لصوقا بالموضوع ، وأحمل لطابع التشريع الاجتماعى من الآيات المكية .

## - ٢ -

ونستعرض فيما يلى الآيات المدنية مصنفة على حسب مرماها الاجتماعى .

فأولا ما يتصل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتضامن فى البر والخير والتقوى :

١ ـ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... آل عمران ١٠٤

٢ ـ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... آل عمران ١١٠

٣ ـ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ... النساء ١١٤

٤ ـ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... المائدة ٢

٥ ـ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... التوبة ٧١

٦ ـ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ... التوبة ١١٢

٧ ـ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ... الحج ٤١

٨ ـ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ... المجادلة ٩

وأسلوب آية آل عمران ١٠٤ قوى حاسم فى إيجاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الخير على الجماعات الإسلامية ، وفى إيجاب أخذ طائفة منهم ذلك على عاتقها بصورة دائمة بحيث يصح أن يعتبر تشريعاً ؛ ويدعم هذا ما قاله بعض العلماء من أن هذه الآية قد فرضت على المسلمين واجباً إذا لم تقم به طائفة منهم أثموا جميعهم ؛ ومثل هذا يصح أن يقال فى آية المائدة (٢) فى أمرها ونهيها . على أن الآيات الأخرى قوية التلقين أيضاً فى إيجاب هذا على المسلمين لما فيه من تمكين لهم فى الأرض ، وفى تعليل اصطفاء الله لهم وجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

والآيات من سور نزلت فى مختلف أدوار التنزيل المدنى ؛ وهذا يعنى أن هذا الواجب العظيم قد وطد بالتكرار لخطورة شأنه ؛ ولقد نزلت كل آية أو مجموعة منها فى مناسبة كما يلهم سياقها ومضمونها وأسلوب الخطاب فيها ؛ ويدل هذا على أنها قد انطوت على صور واقعية كانت وسيلة لتوطيد هذا الواجب ، مما نبهنا إلى أكثره فى الفصول السابقة التى أوردنا فيها كثيراً منها ؛ بحيث عولجت بها الحالات التى اقتضت الحكمة نزول الآيات بمناسباتها ، ثم كانت تشريعاً وتلقيناً وإيجاباً مستمر المدى ؛ وصلة هذا بالسيرة النبوية وأحداثها واضحة ، ويمت إلى التشريع القرآنى وتطوره وظروفه على ما نبهنا إليه فى تمهيد الفصل .

- ٢ -

وثانيا : ـ مايتصل بالحث على الأخوة الإسلامية وتبادل الولاء بين المسلمين دون غيرهم :

١ ـ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ... آل عمران ١١٨

٢ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ... النساء ١٤٤

٣ — إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ . يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... المائدة ٥٥ - ٥٧

٤ — إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...

الأنفال ٧٢

٥ — وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ... الأنفال ٧٣

٦ — يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ...

التوبة ٢٣

٧ — وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... التوبة ٧١

٨ — لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ

حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... المجادلة ٢٢

٩ - يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ ومَا أَعْلَنتُمْ ومَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ... الممتحنة ١

١٠ - لاَ يَنْهَـٰكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ ولَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَـٰكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وظَـٰهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ومَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ ...

الممتحنة ٨ - ٩

والآيات قوية حاسمة فى الصدد الذى نزلت فيه ، وهو توثيق الأخوة والولاء بين المسلمين ، وبناء المجتمع الإسلامى على هذا الأساس بدلا من أساس العصبية الضيقة الذى كان يقوم عليه المجتمع العربى ، وعدم الإخلال بالتضامن الإسلامى بتولى أعداء الإسلام والمسلمين بأى شكل .

والآيات من سور عدة نزلت فى مختلف أدوار التنزيل ، وبمناسبة أحداث واقعية ؛ وهذا يعنى أن هذا الأمر الخطير قد توطد أو استهدف توطيده بالتكرار ، وفى كل مناسبة سانحة ، كما يعنى أن الآيات انطوت على صور ومشاهد من صور ومشاهد السيرة فى العهد المدنى مما نبهنا إليه وشرحناه فى الفصول السابقة ، وخاصة فصول اليهود والمنافقين والجهاد التى أوردنا فيها جل الآيات إن لم يكن كلها . وقوة الآيات وحسمها وتكرارها مع وحدة الموضوع والهدف ، أدلة على ما كان من رسوخ للعصبية الضيقة فى المجتمع العربى أولا ، وعلى ما كان من تغلغل اليهود - لأن كثيراً من الآيات فى شأنهم - فى حياة هذا المجتمع ثانيا ، وعلى ما كان يعتلج فى نفوس المسلمين

من أزمات إزاء ذوى أرحامهم وبنى قومهم من الكفار الذين انقلبت الصلات بينهم من عصبية الولاء القوية الراسخة إلى العداء والقطيعة ثالثا ؛ وفى هذا بوجه عام صورة للعهد النبوى كما هو واضح ؛ وقد جاءت الآيات لتعالج الموقف وتحسمه بهذا الاسلوب الشديد ، دفعا للخطر عن الكيان الإسلامى الناشئ ، وتوطيداً للأخوة الجديدة التى تقوم على أساس جديد ؛ ولتكون فى الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى أيضا .

- ٣ -

وثالثا مايتصل بالحث على الاتحاد والصلح بين المسلمين وعدم التنازع والتفرقة :

١ — يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ...

آل عمران ١٠٢ - ١٠٣

٢ — وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَـٰتُ وَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... آل عمران ١٠٥

٣ — وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَـٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ ... الأنفال ٤٦

٤ — وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... الحجرات ٩ - ١٠

والآيات - وإن كانت مما يمت إلى هدف آيات الموضوع السابق شيئا ما - بينها

شىء من الفرق من حيث استهدفت هذه توثيق الإخاء والتضامن والوحدة بين المسلمين من الداخل ، فى حين استهدفت تلك تكوين جبهة إسلامية تجاه الخارج .

وهذه الآيات كذلك نزلت فى مختلف أدوار التنزيل ، وفى مناسبات معينة انطوت فيها صور ومشاهد للعهد النبوى ، وقد ألممنا بها فى الفصول السابقة التى أوردنا فيها هذه الآيات ؛ وقد جاءت لتعالج الموقف بأسلوبها القوى الحكيم ، ولتوطد بنيان الكيان الإسلامى الجديد وتوثق الإخاء والوحدة بين أفراده ، ولتكون فى الوقت نفسه تشريعاً وتلقيناً مستمرى المدى أيضاً .

ورابعاً ما يتصل بتنقية المجتمع الإسلامى من عوامل الأحقاد والضغائن وأسباب الفتنة .

١ — وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ... النساء ١١٢

٢ — وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... الأنفال ٢٥

٣ — إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَـٰحِشَةُ فِى الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ... النور ١٩

٤ — وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ... الأحزاب ٥٨

٥ — لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ... الأحزاب ٦٠ - ٦١

٦ — يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ . وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ

لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ... الحجرات ٦ - ٨

٧ — يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ...
الحجرات ١١ - ١٣

والآيات مما نزل فى مختلف أدوار التنزيل ، ومضامينها وسياقها يلهمان أنها نزلت فى مناسبات معينة ، لمعالجة مشاكل وأحداث متصلة بمشاهد السيرة وأحوال المجتمع الإسلامى فيها .

فآية النساء نزلت فى مناسبة حادث سرقة الدرع واتهام السارق غيره بالسرقة وتآمر أهل السارق لتبرئة قريبهم وتضليل النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وآية الأنفال نزلت فى ظروف وقعة بدر وما كان فيها من نزاع كاد يؤدى إلى فتنة ، وآية النور نزلت فى مناسبة حديث الإفك ، وآيات الأحزاب نزلت بسبب مواقف المنافقين الخبيثة على ما شرحناه فى أمكنة سابقة ، وروح آيات الحجرات ٦ - ٨ تلهم أنها نزلت فى مناسبة هياج أحدثته بعض الأنباء الكاذبة ، وأن من المسلمين من كان يهيج لأقل شيء ويطلب من النبي صلى الله عليه وسلم تصرفا غير حكيم ؛ وآيات الحجرات ١١ - ١٣ أيضا نزلت على ما شرحناه في مكان سابق بسبب تصرفات بعض المسلمين إزاء

بعضهم بما فيه إثارة غيظهم وأذى نفوسهم . وهكذا تكون الآيات قد نزلت لمعالجة هذه المشاكل والأحداث بما فيه توطيد حسن الإلفة والانسجام بين المسلمين ، والقضاء على عوامل الفتنة والحقد والضغينة بينهم ، ولتكون تشريعا وتلقينا مستمري المدى فى الوقت ذاته .

— ٤ —

والرق من مظاهر المجتمع ؛ وهذا يجعل المناسبة تتحمل البحث فى التشريع القرآنى فى صدده .

ونبادر إلى القول بأنه لم يرد فى الآيات المكية شىء يحتمل معنى التشريع فى هذا الصدد ، وكل ما ورد فيها هو إشارات إلى الرق باعتباره نظاما قائما ومألوفا أولا ، ودعوة إلى عتق الأرقاء واعتبار ذلك من أحسن القربات إلى الله ثانيا ؛ كما ترى فى الآيات التالية :

١ — ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ... النحل ٧٥

٢ — ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ... الروم ٢٨

٣ — وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ... المعارج ٢٩ - ٣٠

٤ — فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَٰكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ... البلد ١١ - ١٤

أما الآيات المدنية فقد ورد فيها تشريعات عديدة فى صدده من معاملة وعتق وتحرير . والقرآن لا يذكر بصراحة جواز استرقاق الأسرى ؛ والأسرى هم

مادة الرقيق فى العصور الأولى عند العرب وغيرهم فى الدرجة الأولى ؛ وكل ما جاء فيهم آيات سورة محمد (٤) والأنفال ( ٦٧ - ٦٨ ) التى نقلناها وشرحنا مداها فى فصل الجهاد مما لا حاجة إلى إعادته هنا ؛ وننبه فقط إلى ما فى التطور الملموح بين آيات الأنفال وآية محمد ؛ والأولى نزلت قبل الأخرى ، وقد عاتبت على الأسر ، وقررت قاعدة حربية هى أن توطيد الهيبة فى نفوس الأعداء يقتضى الشدة فى بدء الأمر ، لأن اللين مما يحمل على الضعف والوهن ؛ أما الأخرى فيبدو أنها نزلت حين كان السلطان الإسلامى موطداً ، فقررت القاعدة الدائمة وهى إباحة الأسر بعد أن يكون الرعب قد وقع فى قلوب الأعداء بالإثخان ، ثم معاملة الأسرى بالمنّ أو الفداء بعد أن تضع الحرب أوزارها . ومهما يكن من أمر التواتر الذى يحكى أن بعض سبي الحرب فى العهد النبوى قد استرق ، وأن هذا قد وقع أيضا لسبى الحروب فى عهد الخلفاء الراشدين ، ومع أن سكوت آية محمد عن الذين لا يرى النبى صلى الله عليه وسلم المنّ عليهم ولا يستطيعون افتداء أنفسهم قد ألهم جواز استرقاقهم - فإن الآية قد احتوت قاعدة واسعة المدى فى صدد إلغاء رقّ أسرى الحرب ولو كانوا كفاراً كما هو واضح منها .

ومن فحوى الآيات القرآنية يصح أن يقرر أن المسلم لا يمكن أن يسترق ، فإذا اقتتلت طائفتان من المسلمين وأسرت إحداهما أسرى من الأخرى فلا استرقاق ، لأنهم إخوتهم فى الدين وأندادهم على ما جاء فى آية الحجرات ٦ - ٨ التى نقلناها فى مكان سابق .

والمروى أن الأسرى المسترقين كانوا يوزعون على المسلمين أسوة بالغنائم ، ويقبض بيت المال خمسه منهم ، ومن الممكن أن يفهم من آية التوبة (١١) التى نقلناها فى فصل الجهاد أن أسرى الكفار إذا أسلموا قبل أن تضع الحرب أوزارها وقبل أن يقرر مصيرهم بالمن أو الفداء أو الاسترقاق والتوزيع ، فإنهم لا يجرى عليهم استرقاق لأنهم أصبحوا إخوانا للمسلمين ؛ أما إذا أسلموا بعد ذلك فيبقون أرقاء لأنهم أصبحوا حقوقاً مكتسبة للغير إن صح هذا التعبير .

وإليك الآن الآيات المدنية التى احتوت تشريعات عدة فى معاملة الرقيق وعتقه وتحريره .

١ — وءاتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ... البقرة ١٧٧

٢ — واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ...

النساء ٣٦

٣ — وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطئا ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ...

النساء ٩٢

٤ — لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ... المائدة ٨٩

٥ — إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب ... التوبة ٦٠

٦ — وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وءاتوهم من مال الله

الذِى ءاتَىٰكُمْ ولا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... النور ٣٢ - ٣٣

٧ - والَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ... المجادله ٣

والآيات استهدفت كما هو واضح تلقين إحسان معاملة الرقيق ، والاهتمام بتحريره بمختلف الوسائل ، ومن جملة ذلك تحمل بيت المال هذه المهمة .

ومما لاريب فيه أنها نزلت فى مناسبات ، وأنها انطوت على صور مما كان جاريا فى العهد النبوى ، من مثل كثرة الأرقاء المسلمين ، ومن عدم معاملتهم معاملة حسنة ، وحرمانهم حقوقهم ومتعهم الطبيعية ؛ فنزلت الآيات لمعالجة الموقف الذى اقتضاه نزولها ، ولتكون فى الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى أيضاً .

# المبحث الرابع
# فى التشريع الاقتصادى

متناول هذا المبحث ـ أسلوب ومدى الآيات المكية والمدنية فى موضوعه ـ الوصية وملهمات الآيات الواردة فيها ـ الارث وملهمات آياته عناية القرآن باليتامى وأموالهم ومدى الآيات الواردة فى ذلك ـ تشريع سن الرشد وما تلهمه الآية الواردة فيه ـ التشريع بشأن تصرف السفهاء ـ النهى عن الربا وما فى الآيات الوارده فى ذلك من ملهمات ـ تنظيم العقود والديون وصيانة الحقوق وما فى الآيات الواردة فى ذلك من ملهمات :

ـ ١ ـ

يتناول الكلام فى هذا المبحث مسائل الوصايا والإرث والبيع والشراء والربا والديون والعقود والرهن والشهادات والشهود ... أما ماله صلة بموارد الدولة والزكاة ومصارفها وتوطيد التعامل الاقتصادى الحقوقى بين الناس فقد تكلمنا عنه فى التشريع السياسى فلا نعود إليه هنا بطبيعة الحال .

وننبه إلى أن القرآن المكى احتوى آيات عدة فيها مبادئ متصلة بهذه الأمور من قريب أو بعيد جاءت بأسلوبه الخاص من الوعظ والحض والتنويه والتنديد كما تراه فى الآيات التالية :

١ ـ وءاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ والْمِسْكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ ولا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ... الإسراء ٢٦

٢ ـ ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلولةً إلىٰ عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كلَّ الْبَسْطِ فتَقْعُدَ مَلومًا مَّحْسُورًا ... الإسراء ٢٩

٣ ـ وأَوْفوا الْكَيْلَ إذَا كِلْتُمْ وزِنُوا بالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ... الإسراء ٣٥

٤ ـ ولاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وأَوْفُوا

الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ...

الأنعام ١٥٢

هذا فى حين أن القرآن المدنى احتوى آيات أكثر عدد أو تنوعا وسعة من جهة ، وطابع التشريع عليها أشد بروزاً من جهة أخرى، مما هو متصل كذلك بطبيعة العهدين . وسنستعرض الآيات ونشرح مداها على حسب المواضيع كما فعلنا فى المباحث السابقة :

— ٢ —

فأولا : الوصية .

(١) جاء فى سورة البقرة الآيات التالية :

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ . فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

١٨٠ - ١٨٢

والآيات مما نزل مبكرا كما يستلهم من مضمونها ، إذ تأمر بالوصية للوالدين مع أن آيات المواريث خصصت لهم أنصبة فى ميراث أبنائهم . ويستلهم من الآيات أن الأنصبة فى الميراث للوالدين والأقربين لم تكن صريحة ومحددة ؛ ولما كانت آيات المواريث قد احتوت كما قلنا تحديدا للأنصبة فقد ساغ أن يقال والحالة هذه إن هذه الآيات جاءت كخطوة أولى فى سبيل تقرير أمر التركات ؛ كذلك يمكن أن يستلهم من الآيات أن الوصية كانت من الأمور المألوفة ، ولكنها كانت عرضة للتحريف والتبديل ، وكانت تنطوى أحيانا على قصد الإضرار والحيف بأناس دون آخرين ، إذ أنذرت المحرفين ، وحضت على إصلاح البين حتى لا يكون العداء أو الجفاء

سببا من أسباب الحيف والإجحاف فى الوصية .

(٢) وجاء فى سورة المائدة الآيات (١٠٦ - ١٠٨) التى نقلناها فى المبحث الثانى من هذا الفصل ، وهى وإن جاءت فى صدد الذين يتوفون غرباء فإنها من حيث المبدأ فى صدد تشريع تنظيم ظرف من ظروف الوصية والتركات كما هو واضح ، وقد نزلت بمناسبة تلاعب بعض الناس بتركة مسلم مات غريبا ، لإحقاق الحق لأهله ولتكون تلقينا وتشريعا مستمرى المدى فى الوقت نفسه .

(٣) وقد تكرر فى آيات المواريث ذكر الوصية كما ترى فيها :

| | | |
|---|---|---|
| ١ — ... مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... | النساء | ١١ |
| ٢ — ... « « « يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... | « | ١٢ |
| ٣ — ... « « « تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... | « | « |
| ٤ — ... « « « يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ... | « | « |

وهذا يدل على أن الوصية مما كان مألوفاً ، وظل الأمر كذلك بعد تعيين أنصبة الوارثين فى التركات أيضاً ، كما أن تكرار التأكيد بوجوب تنفيذ الوصية يلهم أن الوارثين كانوا يجنحون أحياناً إلى إهمال تنفيذ الوصية على وجهها ، فاقتضت الحكمة هذا التكرار لمعالجة الموقف وإحقاق الحق لأهله ، وليكون الأمر تشريعاً مستمر المدى أيضا . والآيات لاتحدد الوصية بحد بحيث أنها توجب تنفيذ الوصية قبل توزيع الميراث مع سداد الدين ؛ ومما هو ثابت أن الشرع الإسلامى قد حدد الوصية بثلث الإرث بعد الدين على الأكثر ؛ وهو تشريع نبوى .

- ٣ -

وثانيا : الإرث .

جاء فى سورة النساء فى صدد الإرث الآيات التالية :

١ — لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا

تركَ الْوَٰلِدَانِ والاقْرَبُونَ مِمَّا قلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . وإذَا حضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ والْيَتَٰمَىٰ والْمَسَٰكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ... ٧ - ٨

٢ — يُوصِيكُمُ اللهُ فى أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فإن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا ماتَرَكَ وإن كانَتْ وَٰحِدَةً فلَهَا النِّصْفُ ولِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إن كانَ لَهُ وَلَدٌ فإن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وورِثَهُ أَبَوَاهُ فلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فإن كان لَهُ إِخْوَةٌ فلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ لاتَدْرُونَ أَيُّهُمْ أقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّن اللهِ إنَّ اللهَ كانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . ولَكُمْ نِصْفُ ماتَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فإن كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ولَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فإن كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وإن كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ امْرَأَةٌ ولَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ[1] فلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فإن كانُوا أَكْثَرَ من ذَٰلِكَ فهُمْ شُرَكَاءُ فى الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ... النساء ١١ - ١٢

٣ — ولا تَتَمَنَّوْا مافَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بعضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ولِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْئَلُوا اللهَ مِن فَضْلِهِ إنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا . ولِكُلٍّ جعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَٰلِدَانِ والْأَقْرَبُونَ

---

(١) من أمهات متعددة وأب واحد

وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ... النساء ٣٢ - ٣٣

٤ — وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ... ١٢٧

٥ — يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً[1] فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ... ١٧٦

والآيات ١١ - ١٢ و ١٢٧ و ١٧٦ تشريع واف فى الصدد الذى نزلت فيه يتمم بعضه بعضا ، كما أن السنة النبوية قد أكملت مايبدو من فراغ فيه كأنصبة الأجداد والعصبات الأخرى .

والآيات ٧ - ٨ و ١٢٧ تلهم مع الاستئناس بالروايات أن نصيب المرأة فى الميراث لم يكن مسلما به ، سواء من حيث الأصل أو المقدار ؛ كما أن الآية ١٢٧ تلهم أن إرث اليتامى كان عرضة للأكل ؛ والآيات جميعها تلهم أن أنصبة الإرث كانت تتموج على حسب الوارثين قوة وضعفا وذكورة وأنوثة وكبرا وصغرا ودرجة قرابة[2]؛ فاقتضت الحكمة نزولها لمعالجة الموقف بتعيين حق كل مستحق وتأكيد إيجاب السير على ذلك ، وإنهاء عهد فوضى الإرث والتحكم فيه وفقا لتقاليد العصبية الجاهلية

(١) المقصود هنا الأخوة الأشقاء.

(٢) مما روى أن امرأة شكت للنبي أن زوجها توفى عنها وعن ثلاثة أيتام ، وأن عمهم أبى عليهم إرثهم قائلا إنه هو الذى يتحمل المغارم وحده ، وإن التركة من نصيبه وحده والحالة هذه

الأولى ، ولتكون فى الوقت نفسه أساسا قويما تشريعيا مستمر المدى ؛ وفقرة إرث الكلالة فى الآية ١٢ وآية الكلالة الثانية (١٧٦) تلهمان أن هذا الإرث كان كذلك من المشاكل التى تحتاج إلى حل وتركيز ؛ وقد جاءت فقرة الآية (١٢) بسبيل حل مشكلة الإخوة لأمهات متعددة ، ثم جاءت الآية ١٧٦ بسبيل حل مشكلة الأخوة الأشقاء ؛ والظاهر أن المشكلة الأولى كانت هى الأكثر غموضا وتعقيدا ، أو هى التى عرضت مناسبتها أولا ، ثم كان بعد ذلك بمدة ما سؤال واستفتاء بشأن المشكلة الثانية لمناسبة عرضت أيضا . وفى هذا صورة من صور التشريع والعهد وظروفهما .

ولقد اختلفت الأقوال فى مدى فقرة « والذين عقدت أيمانكم » فى الآية (٣٣) فقيل إنها عنت الزوجات ، وقيل إنها عنت الأبناء بالتبنى الذين كان لهم حق الإرث ، لأن التبنى كان بمثابة عقد ؛ وقيل إنها عنت الحلفاء أو العتقاء ، كما قيل إنها عنت المهاجرين والأنصار الذين آخى النبى بينهم ، وكان من مفهوم المؤاخاة أن يرث بعضهم بعضا ؛ وروح الآية مع الآية التى قبلها تلهم أنهما نزلتا أبكر من آيات المواريث ، واحتوتا تمهيدا لإيجاب احترام كل مستحق فى الإرث لحق كل مستحق آخر ، وعدم بغى بعضهم على بعض ؛ ثم نزلت آيات المواريث محددة معينة وحاكمة . ولا يمنع هذا أن يكون قبل نزولها تعامل متعارف عليه أو أمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم باتباعه فى شأن أو أكثر من تلك الشؤون المذكورة فى الآية (٣٣) ؛ وهكذا تكون آيات المواريث قد نسخت كل ماخالفها ، كما نسخت الوصية للوالدين ؛ وبعض ماقلناه يصح أن يقال بالنسبة للآيات ٧ - ٨ من حيث أنها تمهيد لتوطيد حقوق كل مستحق فى الإرث ، وفى هذا وذاك صور تطورية للتشريع القرآنى كما هو واضح .

- ٤ -

وثالثا : أموال اليتامى

وهذا الموضوع من المواضيع التى نالت عناية قرآنية كبيرة ؛ فى القرآن المكى آيات عدة فيه ، وقد نقلنا جملة منها سابقا ، وأسلوبها أسلوب وعظ وتحذير ؛ وقد احتوى القرآن المدنى آيات عدة فيه كذلك ، غير أن طابع التشريع عليها أكثر بروزاً ؛ وهذه العناية تدل - فوق اعتبار حماية الضعيف أساساً من أسس الدعوة

الإسلامية - على أن اليتامى كانوا عرضة للاضطهاد والبغى ، وأن أموالهم كانت عرضة للنهب والتلاعب ؛ ولعل من أول الآيات المدنية فى هذا الأمر آية سورة البقرة هذه :

« ... ويَسْئَلونَكَ عَنِ الْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وإن تُخَالِطُوهُمْ فإِخْوَٰنُكُمْ واللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ولَوْ شاءَ اللهُ لأَعْنَتَكُمْ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٢٢٠

إذ تلهم أن بعض المسلمين فى العهد المدنى تحرجوا من خلط أموال اليتامى بأموالهم بسبب ما كان من تشديد فى القرآن المكى ، فنزلت الآية تبيح هذا على أساس الإصلاح ونية الخير الذى هو مقصود الأوامر القرآنية ، ولتكون تلقينا مستمر المدى فى الوقت نفسه .

ثم نزلت آيات عدة فى سورة النساء فى صدد توكيد حق اليتيم وصيانة ماله كما ترى فيها :

١ — وءاتُوا الْيَتَـٰمَىٰ أَمْوَٰلَهُمْ ولا تَتَبَدَّلوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ولا تأْكلوا أَمْوَٰلَهُمْ إلىٰ أَمْوَٰلِكُمْ إنَّهُ كانَ حُوبًا كَبِيرًا . وإنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فى الْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا مَاطَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وثُلَـٰثَ ورُبَـٰعَ ...
٢ - ٣

٢ — وابْتَلوا الْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰ إذَا بَلَغوا النِّكاحَ فإنْ ءانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدفعُوا إليْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ولا تأْكلوهَا إِسْرَافًا وبِدَارًا أَن يَكْبَروا ومَن كانَ غَنِيًّا فلْيَسْتَعْفِفْ ومَن كانَ فقيرًا فلْيَأْكلْ بِالْمَعْرُوفِ فإذَا دَفَعْتُمْ إليْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا ... ٦

٣ — إنَّ الَّذِينَ يأْكلونَ أَمْوَٰلَ الْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إنَّمَا يأْكلونَ فى بُطُونِهِمْ نَارًا وسَيَصْلوْنَ سَعِيرًا ... ١٠

٤ — الآية ١٣٧ التى نقلناها فى الفقرة السابقة .

وتحريج الآيات وتحذيرها قويان استهدفا دون ريب حماية اليتامى وحقوقهم وأموالهم مما كان تتعرض له من تلاعب وبغى على ماذكرناه من قبل . ولقد روى أن أوصياء اليتيمات الغنيات كانوا يمنعون تزويجهن بالغريب خشية مطالبته بمالهن ، وكانوا يتزوجونهن ولولم يكن جميلات للاستيلاء على مالهن ، فيتعرضن بذلك للأذى فى أنفسهن وفى أموالهن ، وأن الأوصياء كانوا يسرعون فى تبديد أموال اليتيم قبل أن يبلغ ، أو يبدلونها بأموالهم الرديئة ؛ فنزلت الآيات ٢ و ٦ و ١٢٧ لتعالج الموقف بما فيه الحق والصيانة ، ولتكون تلقينا مستمر المدى ؛ وهكذا تكون الآيات قد انطوت على صور لما كان عليه الأمر ، كما أنها نزلت لمناسبته أيضا .

ويلفت النظر خاصة إلى مافى الآية (٦) من أسلوب تشريعى فى تعيين سن الرشد ، إذ لم تكتف ببلوغ اليتيم سن النكاح بل شرطت التثبت من رشده العقلى والتصرفى أيضا ؛ ولعل الأمر كان جاريا على الاكتفاء بالبلوغ لسن النكاح والقدرة الجنسية ، ولعل مشكلة ما قد قامت واستفتى النبى صلى الله عليه وسلم فيها فنزلت الآية تحتوى تعديلا أوعلاجا شافيا ، وتكون فى الوقت نفسه تشريعا مستمر المدى .

— ٥ —

ورابعا : وقاية المال من تبديد السفهاء :

جاء فى سورة النساء الآية التالية :

« وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا ... ٥

وكلمة « السفهاء » تعنى ضعفاء العقل ، وهذا يحتمل أن يكون بالنسبة لكبار السن وصغارهم ، وقدجاءت آية تعيين سن الرشد للأيتام عقب هذه الآية ، مما قد يلهم أن يكون النهى فيها منصبا على تسليم الأموال للأولاد بعد بلوغهم سن الرشد ؛ ومهما يكن من أمر فالآية قد احتوت حكما مستقلا بالنسبة للسفهاء ، إذ تحظر تسليمهم أموالا أو أموالهم تفاديا من تبذيرها بسبب ضعف عقولهم أو عدم رشدهم ، وإذ توجب فى الوقت نفسه الإنفاق عليهم وتطييب نفوسهم . والمرجح أن الآية نزلت لمناسبة

معينة فكانت معالجة حكيمة للموقف وتشريعا مستمر المدى أيضاً .

- ٦ -

وخامسا : النهى عن الربا :

يصح أن يقال إن إحدى الآيات المكية قد احتوت مايلهم أن يكون نواة لكراهة الربا كما ترى فيها :

«وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوا فِى أَمْوَٰلِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ...

الروم ٣٩

أما الآيات المدنية فقد احتوت نهيا صريحا عنه وحملة شديدة على المتعاملين به كما ترى فيما يلى :

١ — الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَـٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ . يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِى الصَّدَقَـٰتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ...

البقرة ٢٧٥ - ٢٧٦

٢ — يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ . وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ...

البقرة ٢٧٨ - ٢٨٠

٣ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَوٰٓا أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ . وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... آل عمران ١٣٠ - ١٣٢

والآيات صريحة الدلالة على أن بعض المسلمين كانوا يتعاطون الربا ويأكلونه أضعافاً مضاعفة ، وأنه كان عندالعرب عملا تجاريا حلالا كالبيع ، فظل هذا المفهوم مستقراً بعد الإسلام فى أذهان المسلمين الذين تعودوه . وقد تلهم آية البقرة (٢٨٠) خاصة أن المرابين كانوا يستغلون إعسار المدينين فيضاعفون رباهم ، وأنه كان لذلك عواقب شديدة الضرر فى هؤلاء ؛ ولايبعد أن يكون بعضهم قد شكا أمره للنبى صلى الله عليه وسلم فكان هذا سببا لنزول الآيات لمعالجةالموقف بهذا الاسلوب القوى المتناسب مع شدة ضرره ، ولتكون فى الوقت نفسه تشريعاً قوياً مستمر المدى فى المجتمع الإسلامى يحول دون هذا الضرر وتلك العواقب .

ولقداحتوت آية البقرة ٢٧٩ حلا للمشكلةالتى وقعت نتيجة للحملة على الربا وشدة النهى عنه ، إذ أمرت أصحاب الأموال المرابين بأسلوب قوى شديد بإسقاط الربا عن مدينيهم ، واستيفاء رؤس أموالهم فحسب ، وحثتهم على إمهال المعسرين والتصدق عليهم بإسقاط ديونهم جملة . وفى هذا مشهد من مشاهد السيرة النبوية ، وتلقين جليل مستمر المدى .

ومما يروى أن آيات البقرة فى الربا من أواخر ما نزل من القرآن ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم أعلن بعدها إسقاط ربا عمه العباس رضى الله عنه فى حجة الوداع ، مما يستأنس به على صحة تأخر الآيات ؛ والذى نرجحه أن الربا كان جارياً فى مكة وفى المدينة على السواء بسبب ما كان فى مكة من حركة تجارية ، وبسبب وجود اليهود الذين كان الربا من أعمالهم الرئيسية فى المدينة ، وأن الزراعة فيها هى العمل الرئيسى للأوس والخزرج ، والزراع يحتاجون دائماً إلى الاستسلاف . وقد كان اليهود يتعاطون الربا كما جاء ذلك فى معرض التنديد بهم فى آية النساء ١٦٠ على ما شرحناه فى فصلهم الخاص .

- ٧ -

وسادساً تنظيم العقود والديون والحقوق المتصلة بها .

إن أهم ماورد فى هذا الباب آيتان فى سورة البقرة أوردناهما فى مبحث التشريع السياسى ، وهما الآيتان ٢٨٢ - ٢٨٣ . ولقداحتوتا قواعد وأحكاما وتلقينات قويمة ورائعة فى صدد حياطة حقوق المسلمين بين بعضهم وبعض، وتنظيم العقود والديون وتسجيلها وتسجيل أعمال التجارة عامة بقدر مايتسع له الإمكان ، تفاديا من الخطأ والنزاع ، وكذلك فى صدد إيجاب الشهادة على الشهود وعدم كتمانهم شهادتهم ، وإيجاب الأمانة على الكتاب ، وفى صدد حماية هؤلاء وأولئك من الأذى والضرر بسبب عملهم .

وقد يمكن أن تلهم الآيات أن هذه الأمور لم تكن تراعى رعاية وافية ، وأنه كان يحدث بسبب ذلك خلاف ونزاع ، وأن مناسبة شديدة الأثر كانت سببا لنزول الآيات لمعالجة الموقف معالجة حكيمة قويمة ، ولتكون تلقينا مستمر المدى فى الوقت نفسه .

ونذكر بهذه المناسبة ما احتوته آيات المواريث فى سورة النساء من توكيد متوال لضرورة تسديد ديون المورثين قبل توزيع التركات على الورثة ، مما يمكن أن يكون له صلة بالحالة التى كانت حين نزولها ؛ إذ أرادت تلقين المسلمين وجوب احترام بعضهم حقوق بعض ، ووفاء ديون الميت من ماله ، لأن هذا المال مما قد يكون تكوّن من هذه الديون أو بعضها ، وهى من حق صاحبها وليست حق الميت وورثته ، وفى هذا تلقين جليل الشأن مستمر المدى فى هذا الصدد ، ومعالجة لما كان عليه الأمر من شذوذ لايتفق مع الحق .

ونذكر كذلك ما احتوته آية البقرة ١٨٨ التى نقلناها فى مبحث التشريع السياسى لأن لها صلة بهذا المبحث أيضا ، إذ تنهى المسلمين عن أكل أموال بعضهم بالباطل والتحايل لدى الحكام لتحقيق أطماعهم فيها . ومن هذا القبيل آية سورة النساء هذه :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِالْبَـٰطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ... ٢٩

فالمرجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة وقائع بدا فيها من بعض المسلمين بعض تصرفات مغايرة للحق بالنسبة لأموال غيرهم وحقوقهم ، واستهدفت التنديد بذلك وحظره بهذا الأسلوب لمعالجة الموقف الحاضر ؛ وصارت فى الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى .

# المبحث الخامس

# فى التشريع العائلى

متناول هذا المبحث - مدى الآيات المكية فى موضوعه - الزواج وآيات النساء وملهماتها - التشريع فى صدد التزاوج بين المسلمين وغيرهم ومداه وما فى آياته من ملهمات - زواج الزناة - الحث على التزاوج وما فى آياته من ملهمات - تشريعات وتلقينات فى الحياة الزوجية من سورة البقرة والنساء والمجادلة وما فى الآيات من ملهمات - تشريعات وتلقينات فى الطلاق من سور البقرة والأحزاب والطلاق وما فى الآيات من ملهمات - التشريع فى الترمل وما فى آياته من ملهمات - تشريعات وتلقينات فى الآداب البيتية ومافى الآيات من ملهمات .

## - ١ -

يتناول هذا المبحث مسائل الزواج والطلاق ومركز المرأة من الرجل فى العائلة والمجتمع والتصرف الشخصى ، وواجباتهما وآدابهما المتقابلة ، كما يتناول قواعد السلوك فى دخول الناس بعضهم لبعض وزيارة بعضهم لبعض أيضاً .

وآيات هذا الموضوع مدنية فى الأعم الأغلب ؛ وكل ما ورد فى القرآن المكى مما يمت إليه ، آيات وعد فيها الذكر والأنثى على السواء بالأجر وحسن الجزاء ، أو ذكر فيها ما كان من نعمة الله فى جعله المودة والرحمة بين الزوجين ، أو ذكر فيها واجب الولد نحو والديه ، كما ترى فيما يلى :

١ — وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ... النحل ٧٢

٢ — مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... النحل ٩٧

٣ — وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا

قولًا كريمًا . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرًا ... الإسراء ٢٣ - ٢٤

٤ — ومن ءايته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيت لقوم يتفكرون ... الروم ٢١

فى حين أن الآيات المدنية قد تناولت الشؤون التى تناولها هذا المبحث بعناية وسعة وبأسلوب مطبوع بطابع التشريع ؛ والفرق فى الأسلوبين متصل بطبيعة العهدين بالنسبة للمسلمين وظروفهم على ما نبهنا إليه فى تمهيد هذا الفصل .

والكلام فى متناول هذا المبحث سيكون مصنفاً على حسب المواضيع كما فعلنا فى المباحث السابقة :

- ٢ -

فأولا : الزواج

(١) جاء فى سورة البقرة الآية التالية :

« ولا تنكحوا المشركت حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين ءايته للناس لعلهم يتذكرون ... ١٢١

وقد حظرت على المسلمين التزوج بالمشركات وعلى المسلمات التزوج بالمشركين ؛ مما يلهم أن هذا مما كان جاريا قبل نزولها فنزلت لتمنع استمرار الجارى ولتكون تشريعا مستمر المدى أيضا ، ويستلهم من فقرة فى سورة الممتحنة وهى « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » - إذ تنهى المسلمين عن الاحتفاظ بزوجاتهم الكافرات فى عصمتهم - أن النهى فى آية البقرة انصب على إنشاء المصاهرة بين المسلمين والمشركين ، وأنها

نزلت مبكرة ، أو قبل نزول آية الممتحنة على الأقل ، وهى التى نزلت بعد صلح الحديبية على ماشرحناه فى مناسبة سابقة ، بدليل أن المسلمين المتزوجين بزوجات كافرات من قبل ظلوا محتفظين بعصمهن إلى أن نهت آية المجادلة عن ذلك . وآية البقرة جاءت بعد قليل من آيات فرض القتال ٢١٦ - ٢١٨ التى نقلناها سابقا ؛ وإنه لمن السائغ أن يقال إن العداء الذى تحول إلى حالة حرب بين المهاجرين ومشركى مكة حين وقع الاشتباك الحربى الأول ، قد اقتضى النهى عن صلات المصاهرة بين أولئك وهؤلاء ، وإن هذا النهى قد كان بمناسبة جنوح من بعض المسلمين المهاجرين إلى الاستمرار فيها ، إذ كانت وشائج القربى تربطهم بالمشركين فى مكة ، وفى هذا ما هو واضح من صور مما كان جاريا ومن المناسبات التشريعية فى هذا الصدد ؛ ولعل آية البقرة بناء على هذا أولى الآيات المدنية التى نزلت فى صدد النكاح .

(٢) وجاء فى سورة النساء الآيات التالية :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى الْيَتَـٰمَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا [1] . وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُم عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ... ٣ — ٤

والفقرة الأولى من الآية الأولى بسبيل ماذكرنا روايته من قبل ، مما كان الأوصياء يفعلونه من ممانعة تزويج اليتيمات الغنيات للغريب والتزوج بهن ، وما كن يتعرضن له بسبب ذلك من أذى ، إذ نبهت على وجوب العدول عن ذلك فى حالة غلبة احتمال العدل ؛ ثم استطردت فأشارت إلى مافى النساء من بديلات يستطيع الرجل أن ينكح ماطاب له منهن واحدة واثنتين وثلاثا وأربعا . وقد تلهم روح الآيتين أن مااحتوتاه من التنبيه إلى أن هذا العدد هو فى حالة إمكان العدل بحيث يكتفى بواحدة أو بما يملك الرجل من إماء إذا غلب ظن الجور ، وإلى وجوب أداء المهر للزوجات كاملا وعدم التصرف بشىء منه إلا إذا طابت الزوجة به نفسا - قد جاء هذا التنبيه استطرادا . وعلى

(١) ذلك أضمن لعدم الجور

كل حال فقد اعتبر ذلك من لدن عهد النبي صلى الله عليه وسلم تشريعا أساسيا .

ولقد روى أن الرجال كانوا يجمعون فى عصمهم زوجات بدون تحديد ؛ ومن الثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جمع فى عصمته فى وقت واحد تسعا ؛ فلما نزلت الآيتان طلق الذين زاد عدد زوجاتهم على الأربع الزوائد ، ونزل فى أمر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم تشريع خاص فى آيات فى سورة الأحزاب يتفق روحا مع التحديد على ما شرحناه فى مبحث حياة النبي الزوجية ؛ وهكذا يكون هذا التشريع قد عدّل حالة جارية من قبل البعثة إلى مابعد الهجرة بمدة غير قصيرة - أى إلى السنة الهجرية السابعة أو بعدها إذ نزل تشريع زوجات النبي فى ظرف نزول هذا التشريع - تعديلا حكيما استهدف توطيد الحق والعدل والهناء العائلى بالنسبة للحاضر والمستقبل . وفى هذا صورة من صور السير التشريعى كما هو واضح ؛ والذى نرجحه أن الآيتين قد نزلتا بمناسبة وقعة أو مشكلة ما رفع أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى صدد اليتيمات أو فى صدد تعدد الزوجات أو مهورهن أو فى كل ذلك .

ولم تحدد الآية الإماء كما لم تشترط لهن مهرا ، لأنهن ملك يمين صاحبهن ؛ وهذا ما كان جاريا من قبل كما تلهمه آيات المعارج المكية ٢٩ - ٣٠ التى نقلناها فى مبحث سابق وغيرها من آيات مكية ومدنية أخرى ، فأقر الأمر على ما كان .

(٢) وفى سورة النساء أيضا الآيات التالية :

« وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا . حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ الَّـٰتِى أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَـٰئِبُكُمُ الَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ الَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَالْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ كِتَـٰبَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن

تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما . ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ...

٢٢ - ٢٥

وقد احتوت الآيات تشريعاً وافياً فى محرمات النكاح ، ومتمما لما احتوته الآيات من تشريعات فى الزواج ؛ ومن أهم ما احتوته شرطها نية إنشاء كيان عائلى فى الزواج والإحصان فيه لا السفاح به .

وقد أباحت التزوج بالإماء لمن لا يقدر على الحرائر ماليا ولا يطيق الصبر ، على شرط أن يكون ذلك بإذن مالكيهن وبمقابل مهر وبموجب عقد ، وأن يكون فى التزوج بهن قصد الإحصان العائلى لا السفاح ولا المخادنة وحسب ، وواضح أن هذا هو غير ما أبيح لمالك الإماء من التسرى بهن من دون مهر وعقد على ماشرحناه من قبل . ولعل هذا كان تشريعاً جديداً ، إذ يستلهم من الآية أن التزوج بالإماء لم يكن سائغاً لغلبة احتمال ارتكاسهن فى البغاء والسفاح ؛ ولعل حكمة جعل حد الزنا عليهن نصف ما على الحرائر هى هذه ، ويستلهم من محتويات الآيات أنه كان هناك بعض الشذوذ فى الأنكحة كنكاح الرجل زوجة أبيه المتوفى ، وجمعه فى عصمته أختين ، وتحريمه على نفسه أرملة أو مطلقة ابنه بالتبنى ، ونية المسافحة والمخادنة فى الزواج بالحرائر والإماء أكثر من نية الإحصان والكيان العائلى الخ ... كما لا يستبعد أن يكون هناك شذوذ آخر ، أو أن لا يكون هناك تقيد وثيق فى أمر الأنكحة المحرمة الأخرى ، فنزلت الآيات لمعالجة الأمر

وإقراره فى النطاق الحكيم الذى يجب أن يكون فيه بالنسبة للحالة الحاضرة والأجيال المقبلة معاً . ونرجح أن تكون الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلة من مثل هذه المشاكل نقلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستفتى فى شأنها .

وليس من الممكن الجزم بالوقت الذى نزلت فيه الآيات ؛ ولكن النص على تحريم حلائل الأبناء من الأصلاب فقط ، قد يدل على أن ماكان جاريا من تحريم حلائل الأبناء بالتبنى قد ألغى قبل نزولها ؛ ولما كان هذا الإلغاء قد تم بتزوج النبى صلى الله عليه وسلم بمطلقة متبنيه فى أواسط العهد المدنى على ماشرحناه فى مبحث حياة النبى صلى الله عليه وسلم الزوجية ، فمن السائغ أن يقال إن ماأشرنا إليه من شذوذ فى الانكحة ومحرماتها قد ظل جاريا إلى أواسط هذا العهد ، إذ اقتضت حكمة التنزيل تنزيل الآيات فى تنظيم وتحديد الأمر فى هذا الظرف .

- ٣ -

(٤) وجاء فى سورة المائدة الآية التالية :

« الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَٰتُ وطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُم وطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ والْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الْمُؤْمِنَٰتِ والْمُحْصَنَٰتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُم إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ولاَ مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ ومَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وهُوَ فى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ... ٥

وقد أباحت للمسلمين التزوج بالكتابيات . وقد فسر بعضهم « المحصنات » بالحرائر ، وبعضهم بالعفيفات ؛ ولعل الفقرة الثانية من الآية تدعم القول الثانى ، إذ شرط فى التزوج بالكتابيات نية الإحصان لا السفاح والتخادن ؛ ولقد يدل هذا أيضا على ماكان من غلبة ارتكاس الكتابيات فى هذا العهد فى البغاء ، وقد كن من حيث الواقع يهوديات كما لا يخفى ، فكأنما نبهت الآية - وهى تبيح التزوج بهن - إلى وجوب حسن الاختيار ، وعدم التزوج بمن لا تكون مشهورة الصيانة والعفاف ؛ وهكذا تكون

الآية قد عالجت حالة قائمة ، واحتوت تلقيناً مستمر المدى فى الوقت نفسه .

وقد أوضحت الآية أو قيدت آية البقرة ( ٢٢١ ) التى نقلناها قبل قليل ، إذ كان حكمها مقصوراً على المشركين أو غير الكتابيين ، ومن المحتمل أن يكون المسلمون بعدها كفوا عن المصاهرة مع غير المسلمين عموماً إلى أن نزلت آية المائدة التى احتوت تعديلا لهذا المفهوم ؛ والمرجح أن الآية نزلت فى سلسلتها بعد صلح الحديبية ، لأن مطالع السورة قد احتوى إشارة ما إلى هذا الصلح على ما نبهنا إليه فى مبحث الوقائع الجهادية ؛ ولعلها نزلت بعد خضد شوكة اليهود فى خيبر والقرى الأخرى الذى وقع بعد قليل من هذا الصلح على ما ذكرناه سابقا أيضا ؛ وإذا صح هذا كانت الإباحة بعد خضد تلك الشوكة ، وعدم بقاء حظر التزوج بالكتابيات ، ولتدعيم ما ظل القرآن يشير إليه من وحدة المصدر والأسس بين المسلمين والكتابيين فى المصاهرة والمؤاكلة ؛ وفى هذا صورة من صور السير التشريعى والحكمة السياسية التشريعية لمعالجة الموقف الحاضر ، ولتوطيد خطة مستمرة تقوم على المدى والأسس والظروف التى تلهم الآية وظرف نزولها .

وواضح أن الآية إنما أباحت التزوج بالكتابيات دون تزويج الكتابيين ، وهكذا تظل المسلمة محظورة على غير المسلم ؛ وحكمة ذلك غير خفية ، فالرجل قوام وإليه ينسب النسل ، فليس فى تزوجه بكتابية محظور من وجهة النظر الإسلامية ، بل إنه مفيد من وجهة نظر الدعوة الإسلامية ، وعكس هذا وذاك تزويج المسلمات بغير المسلمين .

ومن الثابت أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تزوج بصفية الخيبرية عقب فتح خيبر ، ومع أن الروايات ذكرت أنها أسلمت فليس يستطاع الجزم بأن إسلامها كان قبل الزواج أو بعده ، وبالتالى لا يستطاع الجزم بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد تزوجها ممارسة لإباحة آية المائدة أو لا ، ومما يقف فى سبيل الجزم أن الروايات ذكرت أن النبى دخل بها فى طريق عودته من خيبر ، فى حين يرجح أن تكون الآية مع سلسلتها السابقة قد نزلت بعد مدة ما من فتح خيبر .

ولم نطلع على خبر يشير إلى أن المسلمين قد مارسوا هذه الإباحة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وإن كنا نرجح ذلك ، لاسيما أن المعروف أنه بقى بعض اليهود فى المدينة وخيبر والقرى اليهودية الأخرى دون ما حول ولا طول .

- ٤ -

(٥) وجاء فى سورة النور الآية التالية :

«الزَّانِى لاَ يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً والزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى المُؤْمِنِينَ ... ٣

وقد تعددت الأقوال فى مدى الآية ، إذ قيل إنها للتنديد والتشنيع ، وإن التحريم منصب على الزنا نفسه ؛ كما قيل إنها بسبيل تحريم الزانية ؛ وقد روى أن بعض المسلمين استأذن النبي صلى الله عليه وسلم فى نكاح بغى يشتهيها أو يحبها فنزلت الآية جواباً . ومهما يكن من أمر فالآية تنطوى على كل حال على كراهية التزوج بالزانية وتزويج الزانى ، وخاصة إذا ما ثبتت عليهما جريمة الزنا وأقيم عليهما الحد ؛ لأن الآية جاءت بعد تعيين الحد وإيجاب إقامته ، والاتصال فى المفهوم بينها وبين ماسبقها واضح الوثاقة ؛ وسواء أصحت الرواية أو لم تصح - لأن هذا الاتصال يدعم كون الآية تتمة لما قبلها - فمن المحتمل أن يكون التزوج بالزانية أو تزويج الزانى مما لم يكن عليه غبار فى نظر البعض فى ذلك العهد ، وكان مما يمارس ، فنزلت الآية بالتحريم ، أو على الأقل بالتشنيع ، ليكون فيها زجر للزناة وتهديد لمقاطعتهم ؛ وهكذا تكون الآية قد تضمنت علاجاً حكيما للحالة الحاضرة مستمراً مداه الحكيم بعدها .

(٦) وجاء فى السورة نفسها الآيات التالية :

«وأَنكِحُوا الأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ والصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُم وإِمَائِكُم إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللهُ من فَضْلِهِ والَّذِين يَبْتَغُونَ الْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم فكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِى ءَاتَـٰكُم ولاَ تُكْرِهُوا فَتَيَـٰتِكُم عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ومَن يُكْرِههنَّ فإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٣٢ - ٣٣

والآية الأولى تحث المسلمين على تزويج الذين لاأزواج ولازوجات لهم ، وعلى تزويج رقيقهم رجالا ونساء ؛ وهذا الحث يتسق مع قواعد العمران وطبيعة الإنسان ، وينطوى فيه مقصد جليل من هذه الوجهة ، كما فيه تدعيم لما استهدفه القرآن فى آيات النساء من توطيد الحياة العائلية فى الإسلام . ويبدو أن الفقر كان كثيراً مايمنع التزاوج ، فنبهت الآية إلى وجوب التساهل فى الأمر حتى لايتعطل ذلك المقصد الجليل ، وفى هذا معالجة لحالة قائمة ، وتلقين مستمر المدى لقاعدة اجتماعية جليلة فى الوقت نفسه .

أما الآية الثانية فإنها تحث الذين لايقدرون ماليا على النكاح من ناحية على العفة ؛ وهى من أسس المكارم الأخلاقية الإسلامية ؛ ومن ناحية على عدم إكراه الفتيات على البغاء فى سبيل أعراض الدنيا ؛ ولقد روى فى صدد النقطة الأخيرة أن زعيم المنافقين كان يجبر بعض إمائه على البغاء والتكسب به لحسابه ، وأن هذه العادة مما كان جاريا قبل البعثة . ولسنا مطمئنين إلى هذا لما فيه من مسبة إجتماعية كبرى لايعقل أن يقدم عليها زعيم ، ولأن فى الآية وفيما قبلها مايجعل هذا القول غير وارد ، فالآية الأولى تحث على تزويج غير المتزوجين أحرارا وأرقاء ، رجالا ونساء ؛ فالمعقول أن تكون الفقرة الأخيرة من الآية الثانية بمعنى نهى المسلمين عن عدم تزويج فتياتهم إذا ما تيسر لهن الزواج تفادياً من الإنفاق أو تغاليا فى المهور ؛ لأنه قد يكون فى ذلك دفع لهن إلى البغاء .

ولقد روى أن عبداً طلب من مالكه المسلم أن يسمح له بشراء نفسه بثمن يدفعه مقسطا - وهذا معنى الكتاب أو المكاتبة - فأبى ، فاشتكى للنبى صلى الله عليه وسلم ، فأمرت الآية بذلك . وورود الأمر بالمكاتبة فى آيتين تشريعيتين فى الزواج ، مما يلهم أن يكون العبد قد رغب فى التزوج أيضا فرغب بالمكاتبة ليتحرر وليتزوج كما يشاء ، فلما أبى مالكه عليه ذلك رفع أمره لله والنبى .

وظاهر من هذا كله أن الآيتين قد احتوتا صوراً واقعية ، ونزلتا فى مناسبات لتحل ماكان من مشاكل حلا قويما متسقا مع الحق والعدل وطبيعة الإنسان واجتماعه ، ولتكون فى الوقت نفسه تشريعا مستمر الحكم والتلقين .

- ٥ -

وثانيا : فى الحياة الزوجية :

(١) جاء فى سورة البقرة الآيات التالية :

« ويَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فى المَحِيضِ ولاَ تقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فإذَا تَطهَّرْنَ فأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ . نِسَاؤُكُم حَرْثٌ لَكم فأْتوا حَرْثَكم أَنَّى شِئْتُمْ وقَدِّمُوا لِأنفسِكم واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أَنكم مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ . ولاَ تجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكم أَن تَبَرُّوا وتَتَّقُوا وتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فى أَيْمَانِكم ولَكِن يُؤَاخِذُكم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكم واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فإن فَاءُو فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وإنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فإنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ... ٢٢٢ - ٢٢٧

وهى توجب اعتزال النساء فى المحيض ، وتأمر بتقوى الله فيهن ، وتحل مشكلة الإيلاء بالمعاشرة أو الطلاق . وقد روى أنّ أهل المدينة كانوا ينحون نحو اليهود فى عزل نسائهم وعدم الاكتفاء بعدم قربهنّ جنسيا ، فسأل بعض المسلمين عن ذلك فنزلت الآيتان الأوليان .

وكان من عادة الأزواج فى الجاهلية إذا كرهوا زوجاتهم أو غضبوا منهن لأمر ما أن يحلفوا بعدم قربهنّ فتصبح الزوجة معلقة لا هى زوجة ولا مطلقة ، مما عرف بالإيلاء وهو الحلف ، فشكا بعض النساء أمرهنّ للنبى صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآيات الأربع الأخيرة ؛ وليس فى الروايات ما لا يتسق مع الآيات ؛ وكل ما يمكن أن يكون هو أن السلسلة قد نزلت وحدة بناء على شكاوى واستفتاءات سابقة . وعلى كل حال فالآيات قد انطوت على صور واقعية لما كان عليه الأمر فى الجاهلية ثم استمر إلى ما بعد الهجرة النبوية بمدة ما ، ونزلت لمناسباتها جواباً على استفتاءات

وشكاوى لحل المشاكل ومعالجة الحالة حلا وعلاجا قويمين حكيمين مستهدفين لتوطيد الحق والبر والإصلاح ومنع الأذى ، ولتكون تشريعاً وتلقيناً مستمرّى المدى أيضاً .

ويظهر من بعض الآيات أن بعض الازواج قد احتجوا باليمين وتقيدهم بها ، فأجابت على هذا الاحتجاج بما فيه الحكمة الجليلة ، وهو أن المهم هو المقصد المبيت فى النفس وليس الكلام الذى يمكن أن يكون قد صدر بسائق الغضب والتسرع أو الهوى ؛ فإذا كان القصد الفراق وجب أن يكون الفراق ، وإلا فلا يجوز أن تكون اليمين وسيلة للأذى والضرر ومانعة عن البر والتقوى والإصلاح ، وفى هذا صورة من السير التشريعى والمساجلة فيه للإقناع ووضع الحجة .

- ٦ -

(٢) وجاء فى سورة النساء الآيات التالية :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا . وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا . وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ...

١٩ - ٢١

والآيات قوية التلقين فى صدد حسن معاشرة الزوجات وعدم إزعاجهن لابتزاز أموالهن بدون حق ، والتنويه برابطة الزوجية ووجوب رعايتها رعاية تامة من جانب الرجل . ومضمونها وأسلوبها يلهمان أن بعض الزوجات كن يلقين عنتا من أزواجهن فى الحياة الزوجية ، لابتزاز أموالهن : كما أن الآية الثانية تلهم أن بعض الازواج بعد أن قيدتهم الآية بأربع نساء كانوا حينما يريدون أن يتزوجوا بزوجة جديدة يعمدون إلى تطليق إحدى القديمات ، وأنهم كانوا بسبيل ذلك يعمدون إلى مساومة زوجاتهم

لاسترداد بعض ما دفعوه من المهور لهن ، وفى هذا وذاك صور لما كان عليه الحال إلى وقت متأخر من العهد المدنى ؛ وقد استهدفت الآيات توطيد الحق والعدل والهناء العائلى ، وتلقين الصبر وسعة الصدر نحو الزوجات ، فكانت علاجا قويا وحكيما للحالات والتصرفات الشاذة ، وتشريعا جليلا مستمر المدى والتلقين أيضا .

(٣) وقد جاء فى السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

الرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَالصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا . وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ... ٣٤ - ٣٥

وقد استهدفت الآيات توطيد الانسجام فى الحياة العائلية ، وبيان مركز كل من الرجل والمرأة فيها ، وقررت قوامة الرجل معللة إياها بما وهبه الله للرجال من مزايا وبما أخذوه على عاتقهم من مسئولية النفقة ، كما قررت على المرأة وجوب الطاعة للرجل والأمانة والصيانة ، وحثت على توسيط وسطاء الخير فى الحالات التى يخشى فيها تفاقم الشقاق توطيداً للهناء والانسجام العائلى . والراجح أن التأديب والتوسيط هما من أجل تلافى النشوز والشقاق والطلاق ، إبقاء على الرابطة الزوجية . ومن الراجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلة زوجية رفع أمرها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فكانت حلا حكيما للمشكلة ، وتلقينا مستمر المدى أيضا . كذلك من الراجح أن قوامة الرجل على المرأة وحق تأديبه لها مما كان جاريا ومعترفا به قبل نزولها ، كما يستلهم من أسلوب أول الآيات التقريرى ، فأقرت الآيات للرجل بعض ما كان جاريا وعللته وجعلت حق تأديبه لزوجته مقيدا بقيود وحدود ؛ وهكذا ينطوى فى الآيات كما هو المتبادر صور مما كان عليه الحال ، ومشاهد من مشاهد الحياة الزوجية فى العهد المدنى .

(٤) وجاء فى السورة نفسها كذلك الآيات التالية :

«وإنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا والصُّلْحُ خَيْرٌ وأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وإن تُحْسِنُوا وتَتَّقُوا فإِنَّ اللهَ كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . ولَن تَسْتَطِيعُوا أن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ ولوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوهَا كالْمُعَلَّقَةِ وإن تُصْلِحُوا وتَتَّقُوا فإِنَّ اللهَ كانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وإن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِن سَعَتِهِ وكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ... ١٢٧ - ١٣٠

وقد استهدفت الآيات أيضا توطيد الحياة الزوجية ووجوب رعايتها إلى أبعد حد ممكن ، بحيث لا يكون الفراق إلا فى الحالة التى لا مندوحة عنها .

وقد يلهم مضمونها أنها فى صدد مشكلة متصلة بالمعاشرة الزوجية وتعدد الزوجات ، ومن الراجح أنها نزلت بمناسبة معينة رفع أمرها إلى النبى ، وتكررت أمثالها مما هو طبيعى الوقوع فى الحياة الزوجية ، وخاصة فى حالات التعدد ، فكانت حلا حكيما وقويما للمشاكل القائمة ، وتلقينا مستمر المدى فى الوقت نفسه أيضا . وإذا لوحظ أن آية النساء (٣) قد نبهت على وجوب الاقتصار على واحدة فى حالة غلبة عدم العدل ، وأن هذه الآيات قررت تعذر هذا العدل ، وأن تعدد الزوجات مما كان مألوفا فى ذلك العهد والبيئة ـ أمكن أن يلمح فى هذه الآيات وفى الآية المشار إليها معا تلقين بالكف عن التعدد أو الاقتصاد فيه ، وبالتالى قصد لتعديل ما أبيح للرجال من عدد محدد كانت إباحته نفسها تعديلا لما كان مألوفا من عدم التحديد . وفى خلال ذلك تنطوى صورة من صور السير التشريعى كما هو المتبادر .

— ٧ —

(٥) وجاء فى سورة المجادلة الآيات التالية :

«قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وتَشْتَكِي إِلَى اللهِ واللهُ

يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . الَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا الَّٰئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ١ - ٤

وقد احتوت الآيات كما هو واضح منها حكاية موقف جدال بين النبي صلى الله عليه وسلم وإحدى زوجات المسلمين فى صدد شكواها من زوج ظاهرها ، وفى هذا صورة لما كان الأمر جاريا عليه فى ظروف الحياة الزوجية ومشاكلها ، وما كان يرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم منها فتنزل الآيات بمناسباته . والمظاهرة تعنى قول الرجل لزوجته أنت علىّ كظهر أمى ! فيحرم عليه قربها ، وتصبح معلقة لا زوجة ولا مطلقة ، وقد كان الأزواج يعمدون إلى هذا إذا ما أرادوا أن يضاروا زوجاتهم أو يبتزوا أموالهن، أو فى حالة غضب وغيظ منهن لأمر ما . ومضمون الآيات يلهم أن المرأة لم تجد فى النبي صلى الله عليه وسلم فى بادئ الأمر أذناً سامعة ومسارعة إلى إقرار حقها فى الشكوى ، ولعله اكتفى بالنصح والوعظ لها ولزوجها ، ولم يكن فى ذلك تشريع واف وإلزامى ، فهتفت شاكية إلى الله ، فنزلت الآيات تقر حقها فى الشكوى ، وتندد بالمظاهرة والمظاهرين وتسفههم ، وتحل المشكلة حلا إلزاميا .

ولقد جاء فى سورة الأحزاب فقرة فيها تسفيه للظهار والمظاهرة دون أن تحتوى حلا ، وهى هذه :

« وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ الَّٰئِي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ... ٤

فلم تكن حاسمة ، فلما كانت مشكلة الزوجة المجادلة المشتكية إلى الله جاءت آيات المجادلة حاسمة ؛ والكفارة تدل على أن الظهار كان أشد أثرا فى التحريم من الإيلاء

العادى فى المجتمع ، فاقتضت الحكمة التشديد فيها لتسويغ إبطاله على ما هو المتبادر .
وفى كل ما تقدم صور لسير التشريع القرآنى كما هو واضح :

هذا ؛ وموقف الزوجة المجادلة عن حقها المشتكية إلى الله موقف قوى رائع ؛ قد يدل على أن الإسلام والسيرة النبوية قد أوجدا فى المرأة شيئا من الطمأنينة بالإنصاف ، وجرأة على الدفاع عن حقها ، وحافزاً إلى المطالبة بإبطال ما كن يتعرضن له من الأذى والحيف بسبب من عادات وتقاليد جاهلية . وفى هذا ما فيه من مشهد تطورى فى المجتمع الإسلامى الناشئ كما هو واضح .

- ٨ -

وثالثاً : فى الطلاق وعواقبه .

(١) فى سورة البقرة الآيات التالية :

« لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَٰقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَالْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . الطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوف أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ . فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا

حُدُودَ اللهِ وتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وإذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْسَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ولاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ومَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ولاَ تَتَّخِذُوا ءَايَٰتِ اللهِ هُزُوًا واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكم ومَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَٰبِ والْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وإذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إذَا تَرَٰضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكم يُؤْمِنُ بِاللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكم أَزْكَىٰ لَكم وأَطْهَرُ واللهُ يَعْلَمُ وأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ . والْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلَّا وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَٰلِدَةٌ بِوَلَدِهَا ولاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فإنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وإنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَٰدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إذَا سَلَّمْتُم مَّا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... ٢٢٦ - ٢٣٣

ويبرز فى الآيات قصد حماية الزوجة وحقها فى مختلف الحالات ، كما يبرز قصد حماية الكيان الزوجى أو العائلى من الهدم بسبب الحقد والتعنت ، أو الرعونة والطيش ، بروزاً قويا جليل المدى .

ومن المرجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلات حدثت وتكررت وشكاوى رفعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم طلبا للحل والإنصاف ؛ ويلهم مضمونها ومقاصدها البارزة أن المرأة كانت إلى حين نزولها عرضة للضرر والإزعاج والأذى والابتزاز فى ظروف الطلاق والمعاشرة الزوجية ، من زوجها أحياناً ومن أهلها أحياناً وبسبب عادات جاهلية أحياناً ، وأن الشكاوى المرفوعة كانت من جانب الزوجات على الأغلب ،

وإن كان هذا لايمنع أنها كانت أحياناً من جانب الأزواج ، وهكذا تكون الآيات قد انطوت على صور لما كان الأمر جاريا عليه من قبل البعثة إلى حين نزولها ومعالجة حكيمة للحالة الحاضرة استهدفت توطيد الحق وحماية الكيان العائلي ، وإنصاف المرأة ، وتشريعا مستمرا فى هذه الشؤون الخطيرة .

(٢) وفى السورة نفسها الآيات التالية :

١ — لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ . وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... ٢٣٦ - ٢٣٧

٢ — وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ . كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ... ٢٤١ - ٢٤٢

وقد احتوت تشريعات أخرى فى صدد الطلاق متممة لما سبقها ، ويبرز فيها كذلك قصد حماية الزوجة ورعاية حقها . والآيات متصلة السياق بالسلسلة السابقة ؛ وقد تخللتها آيات تتعلق بحالة الترمل سنوردها بعد . وروح الآيات ومضمونها يلهمان أن ما احتوته من أحكام هو جديد لم يكن مألوفاً أو جارياً من قبل ، بحيث يسوغ أن يقال إن حق المرأة فى الحالات المذكورة فيها لم يكن معترفا به ، أو كان رهناً بالظروف ، مع أن هذه الحالات مما يتكرر وقوعه فى الحياة الزوجية ؛ فاقتضت الحكمة إكمال التشريع بهذه الأحكام؛ ولا يبعد إن لم نقل نرجح أن مشكلات حدثت وشكاوى رفعت إلى النبي حول هذه الشؤون ، فجاءت السلسلة محتوية لحل ما كان من مشكلات والإجابة على ما رفع من شكاوى فيها أيضا ، عليها فى الوقت نفسه طابع التشريع المستمر المدى .

- ٩ -

(٣) وجاء فى سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ المُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ من قبلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ... ٤٩

وقد احتوت حكما متمما لما جاء فى سلسلة آيات البقرة السابقة . ويبدو أن بعض المسلمين ظنوا أن العدة لابد منها فى كل حال ، أو أن بعضهم استفتى النبي صلى الله عليه وسلم فى الحالة التى ذكرتها الآية، أو حصلت مشكلة ما فى صددها ، أو أن هذا هو ما كان جارياً قبل نزولها ؛ فنزلت مشرعة للأمر بما هو متسق مع المنطق ، إذ أن العدة إنما شرعت لاستبراء الرحم ، ومتصل بقصد حماية المرأة ؛ إذ أن اعتدادها بسبب هذه الحالة مما يضر بمصلحتها . وفى الآية من بعد صورة لسير التشريع القرآنى كما هو ظاهر .

(٤) وجاء فى سورة الطلاق الآيات التالية :

« يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وأَحْصُوا العِدَّةَ واتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ولاَ يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ومَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا . فإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُمْ وأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ومَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجًا ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ومَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . والْلائِي يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِن نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ والْلائِي لَمْ يَحِضْنَ وأُولَاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ومَن يَتَّقِ اللهَ

يجعل له من أمره يسرا . ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا . أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى . لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا ... ١ - ٧

وقد احتوت الآيات تشريعات متممة للطلاق وظروفه ، يبرز فيها كتلك قصد حماية المرأة وصيانة حقوقها بروزاً قويا كذلك ، بل إن هذا القصد بارز هنا بروزاً أكثر ، بدليل ماتكرر خلال الآيات من الأمر بتقوى الله والإنذار به، وما فى الآيات من تكرار لبعض الأحكام السابقة ؛ وهذا يلهم أن بعض المسلمين اقترفوا بعض المخالفات لروح أو نصوص الآيات السابقة متأثرين بعوامل متنوعة ، فحدثت بسبب ذلك مشكلات ، ورفعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم شكاوى، فنزلت الآيات لإيضاح ماقد ظل غامضا من أحكام بعض الحالات ؛ وللتنبيه إلى وجوب التزام أوامر الله وتقواه فى هذه الشؤون الخطيرة ؛ وقد جاء الأمر مطبوعاً بطابع التشريع العام ليكون تشريعا حكيما مستمر المدى . والآيات كما هو واضح تحتوى مشهدا من مشاهد المجتمع الإسلامى فى العهد المدنى ، وصورة من صور التشريع القرآنى أيضا .

— ١٠ —

ورابعا : فى الترمل :

(١) جاء فى سورة البقرة الآيات التالية :

١ — والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن

بِالْمَعْرُوفِ واللهُ بِمَا تعملونَ خبيرٌ . ولا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِن خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فى أنفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تقولوا قولًا مَّعْرُوفًا ولا تعزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجلَهُ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مافِى أنفسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غفورٌ حَلِيمٌ ... ٢٣٤ - ٢٣٥

٢ — والَّذِينَ يُتوَفَّوْنَ مِنكُمْ ويَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فى مَا فَعَلْنَ فِي أنفسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٢٤٠

والآيات كما قلنا جاءت فى سلسلة آيات البقرة ، وقد قال المفسرون والرواة إن عدة المترملة الحدادية كانت قبل نزولها حولا كاملا ، لاتخرج فيه من بيتها ولا تتزين ولاتتطيب ولا تتعرض لنكاح أو خطبة نكاح ، وإن الآية ( ٢٤٠ ) نزلت قبل الآيتين (٢٣٤ - ٢٣٥) تقر هذه العادة مع إعطاء المرأة حرية الخروج قبل تمام الحول والتصرف بنفسها بما ليس فيه منكر ، وإلزام ورثة الزوج بنفقتها ، ثم نزلت الآيتان لتقرير القاعدة الدائمة ، وقالوا بناء على ذلك إن الآيتين قد نسختا الآية (٢٤٠) وإن كان فى ترتيبها تقديم للناسخ وتأخير للمنسوخ .

والآية (٢٤٠) تلهم فعلا أن عدة حداد الأرملة كانت حولا كاملا ، وأنها قد أقرتها بشكل ما ، وأن الآية (٢٣٤) قد حددت هذه العدة بأربعة أشهر وعشر ليال ، وأن فى هذا شيئا من النسخ التشريعى ، غير أن فى الآية (٢٤٠) شيئا من الموضوع المستقل أيضا بحيث لا يقال إنها نسخت جملة ؛ لأنها تقرر حق الأرملة فى السكنى والنفقة طيلة مدة الحداد ، وتمنحها حق الخروج من بيت الزوجية قبل انتهاء هذه المدة . وعلى كل حال ففى الآيات صور لما كان عليه الأمر فى العهد النبوى إلى حين نزولها ، كما فيها صورة لسير التشريع القرآنى أيضا . وقصد الرعاية لحق المرأة وحمايتها فى الآيات الثلاث بارز شأن الآيات التى نقلناها جميعا ، مما يدعم ما استدللنا عليه من هذا

الأسلوب من سوء حالة المرأة ومعاملتها . والمرجح إنه حدثت مشاكل فى هذا الصدد ورفعت شكاوى للنبى ، وربما تضمنت هذه الشكاوى التماس التخفيف من وطأة العادات الجاهلية وقد كرم الله المسلمين بالإسلام ، فنزلت الآيات لتحل المشكلة وتعالج الموقف بما يقتضيه الحق والرحمة بالمرأة ، ولتكون تشريعا مستمر المدى فى الوقت نفسه .

ولقد نصت آيات سورتى البقرة والطلاق التى نقلناها فى موضوع الطلاق على أن عدة براءة الرحم للحائضات ثلاث حيضات، ولغير الحائضات ثلاثة أشهر؛ فتكون عدة الأرملة المذكورة فى الآية (٢٣٤) والحالة هذه ليست عدة براءة رحم، وإنما هى عدة حداد تدخل فيها عدة براءة الرحم ، ويكون القرآن والحالة هذه قد أقر فكرة حداد المرأة على زوجها التى كانت قبل نزول التشريع ، بعد أن أدخل عليها التخفيف والتنظيم ، كما أقر أشياء كثيرة بعد تخفيفها أو تهذيبها أو تنظيمها مما مرت بنا صور عدة منه .

وآية سورة الطلاق (٤) قد جعلت عدة المطلقة الحامل وضع حملها دون نظر إلى عدد الحيضات وعدد الأشهر ؛ لأن الأصل فى العدة كما قلنا براءة الرحم ؛ ولقد رويت سنة نبوية بأن هذا أيضا هو عدة الأرملة ، بحيث لو وضعت الأرملة الحامل عقب وفاة زوجها وقبل مرور الأشهر الأربعة والليالى العشر اعتبرت عدتها منقضية ؛ فإذا صحت السنة المذكورة كان فيها تعديل استهدف التخفيف عن المرأة وصورة من صور التشريع النبوى فى شكل تخفيف أو توضيح للتشريع القرآنى .

## - ١١ -

وخامساً : فى الآداب البيتية .

(١) جاء فى سورة النور الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا

بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ واللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وما تَكْتُمُونَ . قل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ماظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ التَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ النِّسَآءِ ولا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ... ٢٧ - ٣١

وقد احتوت تشريعات تأديبية للمسلمين فى إيجاب الاستئذان والإذن قبل دخولهم بيوت غيرهم ، وغض الرجال والنساء أبصارهم عن بعضهم بعضا تفاديا من الفتنة ، واحتشام المرأة فى اللباس بحيث لا تظهر من زينتها على غير محارمها إلا ما لا إمكان لإخفائه ، تفاديا من الفتنة أيضا . وروح الآيتين الأخيرتين ، ثم وحدة الآيات والسياق ، تلهم أن التأديب فى الآيتين هو فى صدد دخول غير المحارم إلى البيوت بعد الاستئذان والإذن ، وإن كان محتمل الشمول لداخل البيوت وخارجها ، والأمر الوارد بالتوبة فى الفقرة الأخيرة من الآية الأخيرة قد يلهم أنه وقع شذوذ أو تصرف غير مستحب فى سياق دخول بعض الناس على بعض رفع أمره إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أن المقصد التأديبي والتنظيمى فى الآيات يلهم أن الأمر لم يكن جاريا على ما احتوته ، وأن حكمة التنزيل اقتضت تحقيق هذا المقصد بعد ما تم نشوء المجتمع الإسلامى ، فنزلت الآيات تنظم ذلك هذا التنظيم القويم الحكيم ، وتؤدب المسلمين بهذا الأدب الرفيع ؛ لمعالجة الحالة الحاضرة ، وليكون تلقينا مستمر المدى أيضا ؛ والآيات ٣٢ - ٣٣ التي نقلناها قبل قليل والتي تأمر بتزويج الأيامى والصالحين من

الأحرار والعبيد رجالا ونساء، وتحث على العفة - قد تكون قرينة قوية للمناسبة التى ذكرناها لنزول الآيات .

(٢) وجاء فى السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ والَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ الْفَجْرِ وحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ ومِنْ بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَاءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ ولا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَٰتِ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُم ءايَٰتِهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . والقَوَٰعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّٰتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ[1] ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ وأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ . لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ولاَ عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ولاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ولاَ عَلَىٰ أَنفُسِكُم أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُم أَوْ بُيُوتِ ءابَائِكُم أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَامَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ...

٥٨ - ٦١

والآيات كسابقاتها بسبيل التعليم والتأديب ، كما تناولت أمورا أخرى ؛ وقد

---

(١) يعني يخلعن ثيابهن، أي يتخففن ولا يتشددن بالخمر .

تلهم أن النساء اللاتى لا يرجون نكاحا قد اشتكين من التشديد فى التخمر الذى أوصت به الآيات السابقة ، وأن بعض المسلمين سألوا النبى صلى الله عليه وسلم بمناسبتها عما هو جار من دخول الخدم المماليك والأطفال على مخادع الزوج والزوجة فى كل وقت دون استئذان وإذن ، أو تمنوا أن ينزل الله تعليما بذلك ، وأن بعضهم تحرج من الاجتماع على الطعام مع العمى والعرج والمرضى، أو بصورة مختلطة، أو تمنى كذلك أن ينزل الله تعليما بالأمر ، كما أن المقصد التأديبى والتنظيمى فى الآيات كما فى تلك، يلهم أن الأمر لم يكن جاريا على ما احتوته ، وأن حكمة التنزيل اقتضت تحقيق هذا المقصد ، فنزلت الآيات تتمة لما نزل سابقا وبعده بمدة ما .

وفى هذا تنطوى صورة لسير التشريع القرآنى كما هو واضح .

(٣) وجاء فى سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ...

٥٩

وقد ذكر المفسرون والرواة أن النساء الحرائر والإماء كن يتزيين بزى واحد ، فيتعرض الحرائر لأذى الفساق كالإماء ، فنزلت الآية بجعل زى خاص للمسلمات الحرائر حتى يميز الناس بينهن وبين الإماء وينجون من الأذى . وعلى كل حال فنى الآية حل لتفادى تعرض نساء المسلمين للأذى ، مما فيه صورة لما كان يحدث فى العهد المدنى اتخذت وسيلة لمعالجة الحالة الحاضرة ، وليكون تشريعا وتلقينا مستمرى المدى فى الوقت نفسه أيضا .

(٤) ونشير بهذه المناسبة إلى آيات الأحزاب ٣٢ - ٣٤ و ٥٣ - ٥٥ والتحريم ١ - ٥ التى نقلناها فى مبحث حياة النبى صلى الله عليه وسلم الزوجية . فإن ما فى هذه الآيات من تعليم وتشريع وصور هو خاص بهذه الحياة ، وقد ذكر ذلك فى الآيات بصراحة ؛ ومع ذلك فإن ما احتوته يصح أن يكون فيه تلقين الاقتداء والأسوة ، وأن تسلك من أجل ذلك فى سلك آيات الآداب البيتية ؛ كما أن فيها صورة لسير التشريع القرآنى وخصوصياته وعمومياته أيضا .

## استدراك

وقع غلط فى الصفحتين ١٩٣ و ١٩٤ من هذا الجزء؛ فإن الفقرة: «وفى الآيات إنذار لمرضى القلوب ... الخ» إلى «أفراد بارزون» فى الصفحة ١٩٤ يجب أن تقرأ بعد آيات سورة محمد ٢٩ و ٣٠ فى الصفحة ١٩٣ فلزم التنبيه .

# فهرس

الجزء الثانى

صفحة


٣ عهد السيرة النبوية المدنى

٤ ١ — تمهيد

١١ ٢ — فصل فى أدوار وسير انتشار الدعوة، وفيه مباحث :

١٢ المبحث الأول . سير انتشار الدعوة فى منطقة مكة وما وراءها

١٦ المبحث الثانى : انتشار الدعوة فى منطقة المدينة

٢٢ صور متنوعة للمسلمين فى العهد المدنى

٤٩ ٣ — فصل فى اليهود فى العهد المدنى ، وفيه مباحث

٥٧ المبحث الأول : مواقف اليهود إزاء الدعوة

٦٥ المبحث الثانى : مواقف اليهود الحجاجية

٩٢ المبحث الثالث : دسائسهم بين المسلمين وتآمرهم مع المنافقين والمشركين

١١١ المبحث الرابع : وقائع التنكيل بهم وبواعثها ونتائجها

١٢٧ المبحث الخامس : الاستثناءات القرآنية بشأن المؤمنين المعتدلين منهم

١٣١ ٤ — فصل فى النصارى فى العهد المدنى، وفيه مباحث

١٣٣ المبحث الأول : مدى ماورد فى القرآن عن حالتهم والتنديد بهم

١٤٠ المبحث الثانى : مواقفهم من الدعوة النبوية

١٤٧ المبحث الثالث : مواقفهم الحجاجية

١٦٣ المبحث الرابع : الصدام بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين

١٧٦ ٥ — فصل فى المنافقين فى العهد المدنى ، وفيه مباحث

١٨٥ المبحث الأول : ماجاء فى صفاتهم وأحوالهم

١٩٦ المبحث الثانى : فى مواقفهم الكيدية والساخرة والتآمرية

٢٠٧ المبحث الثالث : مواقفهم من الجهاد ووقائعه

٢١٧ ٦ — فصل فى الجهاد ووقائعه ، وفيه مباحث

٢٢٧ المبحث الأول : الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس ومواقف المسلمين منها

٢٦٢ المبحث الثانى : فى الوقائع الجهادية وسيرها ونتائجها

٣٠٦ ٧ — فصل فى التشريع القرآنى وصلته بالسيرة النبوية ، وفيه مباحث

٣٠٩ المبحث الأول : التشريع التعبدى

٣٢٧ المبحث الثانى : التشريع السياسى

٣٤٨ المبحث الثالث : التشريع الاجتماعى

٣٦٢ المبحث الرابع : التشريع الاقتصادى

٣٧٣ المبحث الخامس : التشريع العائلى والآداب البيتية